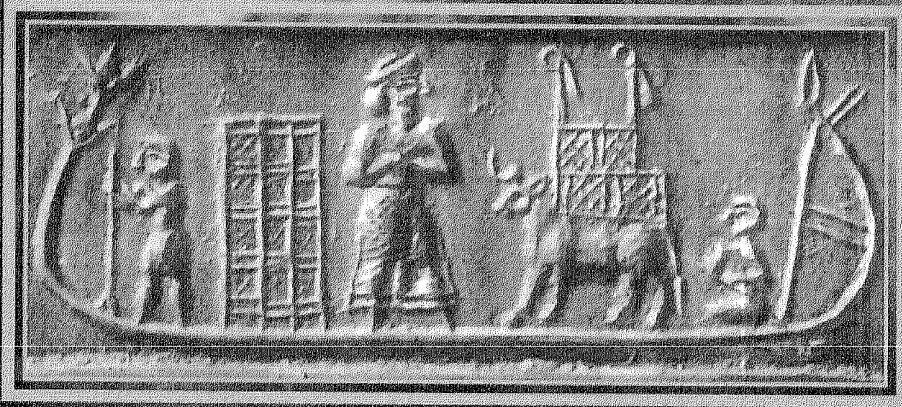


إشراف : ف. دياكوف / س. كوفاليف

الحضارات القديمة

(الجزء الثاني)



ترجمة: نسيم واكيم اليازجي

دار علاء الدين
مشتورات دار علاء الدين



V2

الحضارات القديمة

الجزء الثاني

■

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

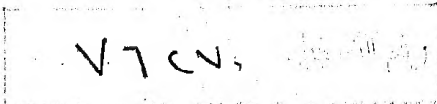
1

إشراف: ف. دياكوف س. كوفاليف

الحضارات القديمة

الجزء الثاني

ترجمة نسيم واكيم اليازجي



منشورات دار علم الدين



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

حقوق النشر محفوظة
لدار علاء الدين

دمشق - الطبعة الأولى ٢٠٠٠ - ١٠٠٠ نسخة

التنضيد الضوئي والإخراج الفني: سلام أبوكرم.
التدقيق اللغوي الأستاذ: صالح جاد الله شقير.

يطلب الكتاب على العنوان التالي : دمشق ص.ب : ٣٠٥٩٨
هاتف:- ٥٦١٧٠٧١ فاكس : ٥٦١٣٢٤١ -

- جميع الأفكار والآراء الواردة في الكتاب تُعبر عن وجهة نظر المؤلف.
- في حال أخذ أية مادة من الكتاب يرجى التنويه إلى المصدر.

تقديم

في الجزء الثاني من تاريخ الحضارات القديمة نستمر بإطلائنا على الرابع
البكر لحضارات الأقوام والشعوب القديمة والتي كان لها الدور البارز في تشكيل
الخارطة الحضارية.. حيث تناول الجزء الأول من هذا الكتاب الموضوعات التالية:
المجتمع البدائي، القطيع البدائي، النظام المشاعي البدائي وتفككه وتشكل الطبقات
والدولة، حضارات الشرق: سومر، أكاد، بابل، الحضارة المصرية، الإمبراطورية
الحثية، فينيقية، فلسطين، آشور، إيران، الهند، الصين، الاقتصاد العبودي
والحركات الديمقراطية، الحروب والتحالفات.. إلخ.

وبأني هذا الجزء ليكمل البحث في معارج هذه الحضارات مروراً بالحضارة
اليونانية، والهيلينية، والرومانية، والصراع بين روما وقرطاجة وأبحاث أخرى تتعلق
بنفس الموضوع وتغنيه.

وقد راعينا الاستمرار بترقيم الصفحات متسلسلة ومرتبطة بالجزء الأول،
لإيماننا بوحدة الموضوعات ووحدة الكتاب.

الفصل الثالث والثلاثون

الحضارة اليونانية في القرنين

الخامس والرابع ق.م

مدرسة، مسرح، فنون تشكيلية

"...نحن ملزمون، في الفلسفة وفي كل المجالات الأخرى، أن نرجع باستمرار إلى منتوج هذا الشعب الصغير، الذي أمنت عبقريته ونشاطه الشامل في تاريخ ارتقاء البشرية مكانا ليس لأي شعب آخر أن يدعيه"^٨، يكتب أنجلز. وفي الحق، وحتى الآن، لم نستطع الانقطاع، في بعض النواحي، عن الإفادة من الانجازات الهلينية: إن نقاشينا ومعمارينا يقبسون نماذج أعمالهم من اليونان الأقدمين. ومؤسسو الماركسية اللينينية، الذين أولوا عنايتهم بعمق لأعمال الفلاسفة، الديالكتيين والماديين اليونان، عارضوا غالبا "جبابرة الفكو" الأسبقين بالفلاسفة البورجوازيين.

إن الديمقراطية العبودية كانت التربة التي بعثت كنوز الحضارة الهلينية، التي قبست أمداءها المتميزة. فحياة أثينا الثقافية والسياسية، الأبعد عن أن تكون قمة خلقة مغلفة للصفوة، كانت تهتم إلى مدى بعيد بالشرائح الشعبية. على هذا، كان أغلب الناس الأحرار يعيشون من تعب الرقيق. وطبقات العبيد، خالقي القاعدة المادية للتطور الثقافي، كانت بذاتها محرومة من كل خيراتها. والقوى المبدعة للديموقراطية العبودية لم تكن متجهة نحو المكتشفات العلمية وابتكار أدوات ووسائل إنتاج جديدة؛ بل كان همها الوحيد تقدم الفنون والفكر المجرد.

إن تربية وتعليم النشء كانا يلعبان دورا هاما في حياة اليونان الثقافية. وفي أثينا والحاضرات الديمقراطية الأخرى، كان الأولاد يربون في البيت حتى الربيع السابع؛

^٨ - ف. أنجلز. ديالكتيك الطبيعة، ص ٥٢.

وحتى الربع الرابع عشر، كان ثمة مدارس خاصة، ينلقون فيها المعرفة الأولية المتوسطة بأجر متواضع: حيث يتعلمون القراءة، الكتابة والحساب، ويتلون عن ظهر قلب مقاطع أدبية، أكثرها من هوميروس. ويبدؤون بالموسيقى. كان العلم الابتدائي واسع الانتشار. وماتزال موجودة الوسائل اليدوية لذلك العصر، لوحات مقاطع لتمرين القراءة. وفي القرون الخامس ق.م. كان سكان أثينا كلهم يعرفون القراءة والكتابة.

يتم المراهقون من ١٥-١٨ عاماً، في كليات يمولها أفراد الدولة. ويمارسون الرياضة وألعاب القوى. وفي المعاهد الرياضية، يمارس الفتيان تدريباً عسكرياً، لكي يتيسر لأغلبهم مكان بين المواطنين المجندين. لكن ليس الإعداد العسكري هو المهيمن في تربيتهم، خاصة في أيام بيركلس. وفضلاً عن ملاعب الرياضة وألعاب القوى، كانوا يهتمون بالتطور الروحي، الأدبي والفني لدى طلابهم، وكانت كل حياة المواطنين الأثينيين تخضع لتأثير النشاطات التربوية المنظمة. وليس سكان أثينا فقط، بل كل الناس الأحرار تقريباً يقضون وقت راحتهم في الأمكنة العامة: تحت السرادق، في الشوارع، حيث يتحدث الفلاسفة والخطباء وتدور مناقشات حيوية، وفي الجمعية الوطنية، حيث تخطب الشخصيات. عشرات آلاف المشاهدين يلتئمون في المسارح، التي كانت أيضاً مدرسة كبرى للفن والسياسة.

فمنذ فجر تطوره الثقافي، برهن الشعب اليوناني عن موهبته بإبداع ملاحم هوميروس. وفي حوالي نهاية القرن الثامن أو بداية القرن السابع، ظهر في بيوتيا هزيود، أول شاعر وصلباً اسمه وشعره. ومع الاحتفاظ بشكل الملحمة الشعبية، عكست أعمال ويومييات ونسب الآلهة لهزيود تفرد الكاتب وأهدافه الاجتماعية والسياسية، وهي أهداف المزارعين. ودلل في الوقت ذاته أن تطلعات أخرى، غريبة عنه، غزت هيلاد: البحث عن السعادة والثروة في الرحلات البحرية الطويلة، والتماس مع البحر الصاخب.

في بداية القرن السابع، تقريباً في حياة هزيود، عرفت هيلاد وجودت القصيدة الغنائية التي تغني الأحاسيس الودية. وفي القرنين السابع والسادس، أنجبت الحواضر المتطورة: ميغار، مثلين في جزيرة لسبوس، شيو، أثينا، بل ثيبس وإسبارطة، الأكثر تخلفاً، عشرات الشعراء الموهوبين. ولقد اتسق هذا التفتح السريع للأدب والكلمة الخطوة مع حقبة الانطلاق الاجتماعية، السياسية والاقتصادية في هيلاد، حقبة تشكل الحواضر العبودية. وقد

كان عمل بعض الشعراء الغنائيين: أرشلوك، سولون ثغوني، ترباندر، تيرتي، إلخ، صدى النضال الاجتماعي والسياسي؛ وقد أغنى آخرون: شافو، أنكريون، الحنب وفرحة الحياة. كما أعاد الشعراء الغنائيون طريقة صياغة الشعر وأبدعوا تدابير عديدة، اتبعها شعراء من أكثر البلدان. وكان عمل الغنائيين اليونان يستلهم القصيدة الشعبية والأغنيات الفولكلورية.

وقد اثبتت عن حياة الشعب والفولكلور أيضا إنجاز آخر للثقافة الهلينية: المسرح والأعمال الدرامية. كان المسرح، المولود الأثيني، في القرن السادس ق.م، ينهل من الأعياد الريفية على مجد ديونيزيوس، الإله المعبود، فتعقد الرقصات والأغاني احتفاءً مجيء هذا الإله المائل في جمع من التيوس؛ إن هذا انعكاس للطوطمية التي نلقاها في احتفالات دينية يونانية أخرى.

كان المغنون المتزبون بجلود التيوس ينفذون "تراجيديات"، أي "أغاني تيوس"، تتحدث عن أهواء ومنازع ديونيزوس؛ كان الغناء يترافق مع الحركات، والإيماءات، والرقص. وشيئا فشيئا أخذت هذه الأغاني شكلا محددا، أعطاه الشاعر والمغني أريون، في القرن السابع، شكلها النهائي، وعرفت باسم "قصائد المديح". وكان ثمة المغني الأول الذي ينفذ قصيدة المدح، وترد عليه الجوقة. كان هذا الحوار الشكل الأول للتمثيل المسرحي. وفيما بعد، في العام ٥٣٠، أدخل تسبيس، أول كاتب دراماتيكي، الممثل. وهكذا ولد جنس أدبي جديد، ينفذه عدة أشخاص على مرأى لمشاهدين وورث اسم تراجيديا. فوجدت الجوقة ودخلت المسرح اليوناني بصفة شخصية.

ظهر المسرح في الأعياد الريفية؛ ثم قدمت مجموعات ملتزمة ومنظمة مسرحيات في المدينة حيث أقيم للمشاهدين منصة خشبية، كبرت لتصير أخيرا صرحا منيعا شبه السيرك المعاصر. ومنذ القرن الرابع ق.م، بنيت المسارح بالحجارة. وكانت منشآت أبدة، واسعة في الغالب، معدة لاستقبال عشرات ألوف المشاهدين. مدارج نصف دائرية، قائمة في منحدر هضبة، مقطعة بمحاشي شعاعية.

كانت الصفوف السفلى أي الأمامية، المخصصة للوجهاء، فخمة الصنع. وفي الأسفل، ترك فناء دائري، التخت، لتجول الجوقة، وخلف التخت، ثمة مشهد، منصة ذات مداخل، وديكورات، وآلية معقدة لتقديم الأعمال غير الطبيعية: انطلاق الأشخاص، حلول الآلهة، وغيرها.

كانت التمثيليات تعرض عدة مرات في العام، في أثناء الأعياد الشعبية، وتستمر لأيام عديدة، في أوقات متناوبة. تعرض كل مرة عشر مسرحيات. ويستمر العرض من الصباح حتى مبيت الشمس. كان هذا عبارة عن منافسة. لكل مجموعة من المسرحيات، يختار حكم محلف يميز المنتصر والجائزة: إكليل.

كان الشعراء الأولون التراجيديون لا يكتبون إلا مناجاة من ممثل واحد واجوبة الجوقة. ثم وجد شكل آخر: الحوار المزدوج بلعبة الممثل. كان مضمون المسرحية أدبياً واسع المدى، في أي موضوع. وقد ظهرت في القرنين الخامس والرابع آلاف التراجيديات والملاهي تعالج بتوسع قضايا الحرية ومآل الحياة البشرية؛ والدولة والواجبات الحضارية؛ الحب، الواجب الأسري، حق السعادة الشخصية وسوى ذلك.

لانعرف سوى عدداً صغيراً من أعمال ثلاثة تراجيدين كبار في القرن الخامس: أخيل، سوفوكل وأوريبيد؛ وأعمال أخرى كثيرة لم تصلنا سوى مجزأة مبعثرة. كتب أخيل (والي ٥٢٥-٤٥٦) قرابة ٩٠ تراجيديا لم تحفظ منها سوى تسع. إحداهما، الفرس، وهي أسطورة بروميتي، الجبار الجسور الذي سلب النار من زيوس ليعطيها للناس والذي ربط من أجل هذا إلى صخرة في القفقاس. وقد أحييت ثلاثية أورستيا شخص ملهمة هوميروس؛ عبر الصراع الدامي الذي يخوضونه، يدل أخيل إلى الشؤم الذي يهيمن على الناس وأمامه الآلهة بالذات عاجزون؛ يجسد التشاؤم الفكرة الغامضة حول قسوة الصعود الاجتماعي الذي لامه رب منه ولا مفر منه ولا مقاوم له.

في أعمال أخيل ولأول مرة، يتدخل ممثلان يأخذان أدوار الذكور والإناث. وفي أيام أخيل كان تمثيل الممثلين وفاقيا. وبعدئذ، ادخل سوفوكل وأوريبيد ممثلاً ثالثاً جعلت تمثيل المشاهد أكثر واقعية. كانا يعيشان في "قرن بيركلس"، الذي كان يتميز بازدهار كل فروع الحضارة الأثينية وبانطلاقة الحياة الاجتماعية والسياسية. وأبدع سوفوكل (حوالي ٤٩٦-٤٠٦) أكثر من ١٠٠ تراجيديا حفظت منها سبع بشكل جيد أشهرها أوديب ملكا وأنتيغون). الموضوع المهيمن في هذه التراجيديات هو الصراع بين الفرد والمجتمع. الخسارة الحتمية لمن يخرق القانون الاجتماعي. استبعد الآلهة، وصار الناس، بطباعهم ومنازعتهم هم الذين يهيمنون سوفوكل: "ثمة قوى كثيرة عاتية في العالم، لكن ليس في الطبيعة أقوى من الإنسان"، من أناشيد الجوقة في أنتيغون. وشخصها، المقدمون بشراً من لحم ودم، يشدون التعاطف الحار من عشرات آلاف المشاهدين.

وأوربيد (حوالي ٤٨٠-٤٠٦)، من أتراب سوفوكل، ينهل موضوعه من الحياة الحقيقية، شديدة التنوع، باللغة الحساسة والفعل والتعبير. ومثل سوفوكل، يقيس موضوعاته من الخرافات الهلينية القديمة. لكن أبطالها، معالجون بحيوية كاملة، يعيشون هموم حياة أثينا في زمن بيركلس. هكذا، في "المبتهلون"، يلقي الملك الخرافي تيزي، خطاباً في أفضليات الديمقراطية ومكاسبها؛ وفي "ميدي"، يثير الشاعر مسألة الحقوق الإنسانية للمرأة. وفي ١٨ تراجيديا لأوربيد وصلتنا سالمة، نعيش مع الواقع الحي مجسداً بفن مسرحي.

وجنس مسرحي آخر، الملهاة، هو أيضاً أصيل في أثينا. ومثل التراجيديا، ولد في ديونزي؛ كوميديا (من كلمة *comos*) تعني تقريباً "أغنية فلاح جذل أو ثمل". كانت جوقات فرحة تغني مقاطع هجائية وفاحشة ضد أشخاص رفيعي المقام إلى هذا الحد أو ذاك. كان كتاب الملهاة يستخدمون نفس شكل الحوار الذي ورد في التراجيديا الأولى، لكن المضمون الضاحك والهجائي-الساخر تطلب نموذجاً جديداً من المشاهد والأعمال الأدبية. وفي القرنين الخامس والرابع، وجد في أتيكيا عشرات الشعراء "الهازلين"، كان العديد منهم شعراء عباقرة. لم تصلنا أعمالهم إلا قطعاً مبددة، بعض هذه الأجزاء طويل؛ لغة واحدة (١١ على ٤٤) مسرحيات رائعة لأرستوفان، الذي عاش في نهاية القرن الخامس وبداية الرابع، سليمة كلها. عكست هذه المسرحيات بأسلوب واقعي هازل الحياة الاجتماعية والسياسية لأثينا لمدة تقارب الأربعين عاماً. وقد سخرت بعناد من رجالات سياسية وقادة عسكريين كبار، مثل كليون في "الفرسان"، وشعراء (أوربيد في "الضفادع")، وفلاسفة (سقراط في "الخيوم")، وأحزاب وبرامج سياسية؛ حتى الشعب، سيد أثينا، يبدو هنا في شكل عجوز ممسوس ومضحك. وتحفظ كوميديات أرستوفان الرقة مع الفلكلور الذي بعثها، وتعكس، فيما تعكس، أسلوب الحياة وهموم الفلاحين ومصالحهم التي أهملتها الحرب بفضاظة. وأعمال أخرى ("الأشارنيون"^١ "الصلح"، "الفرسان") هي احتجاج على الولع والافتتان بالحرب الذي يعبر عنه المدينون؛ كتبت بلغة الشعب العذبة ولا ينقصها السفه والسخرية الماجنة. وملحمة هومييرية تلهب المسرح أثناء التمثيل، لكن العوام لم يروا في هذا الهزل سوى متعة قدمت بعمل فني فقط: فوزاء صيغة هازئة قارصة، تطرح الكوميديات قضايا كبيرة ثقافية، اجتماعية وسياسية.

^١ - كوميديا لأرستوفان يحول فيها الشاعر بسخرية أنصار الحرب ضد اسبارطة.

ولقد بلغت فنون ملاد التشكيلية في هذه الفترة "الكلاسيكية" (القرنين الخامس والرابع) مستوى مدهشا. فثمة منحوتات صارت نماذج للأجيال القادمة. وحوالي نهاية القرن السادس أبدعت في أثينا مجموعة *Tyrannicides*؛ في أثناء اجتياح خرخس أخذت إلى فارس وانتجها مرة أخرى في بداية القرن الخامس كرتياس ونزيوتس. إنها المنحوتة، التي صورت مأثرة هرموديس وأرستوجتون^١، تجسد فكرة الحرية المدنية. ويعكس عمل ميرون العبقرى الحياة في كل تنوعها: تمثل تماثيله بواقعية تامة مشاهد ريفية (مثلا، بقرة تخور)، والأحاسيس الأنفذ (أثينا ومرسياس)؛ ويمثل نصب *son Discobale* مصارعا شابا منتعشا بانطلاقة متينة، بحيث تبرز كل عضلاته، حية ومرنة. بعكس تماثيل البلوبونيزي بولكليت، مثل *le Diadumene* (الذي يتشج بعصابة، علامة الظفر) أو *Amazon*، وهما منحوتتان ساكنتان، بلا حياة، وفيدياس، صديق بيركلس، أبدع أعمالا فذة: التمثال العملاق زوس في أولمبي، وتماثيل أثينا بروماشوس وأثينا برثوس في أثينا. كان فيجياس مدرسة، وصار تلامذته من بعده فنانيين موهوبين، نحتوا بإشرافه إفريزات الباريتيون، بطول ٢٧٦م. إن هيلاد وبخاصة أتيكيا تمتاز أيضا بإتقان فن العمارة، حيث أبدعت صروح واسعة عمومية. فالمعابد، التي بنيت لغايات سياسية فضلا عن أهداف دينية كانت المؤسسات الأضخم في اليونان. وأبده الأكروبول، التي أبدعت في أيام بيركلس بإزامل فريق من الفنانين العباقرة، هي الأثر المعماري الهليني الأبرز. والمعبد المشيد في جزيرة إجين تمجيذا وتخليدا للنصر على الفرس، ومعبد زيوس ومعبد بوزدونا تشهد حتى أيامنا على عظمة فن العمارة الإغريقي. إن لليونان أساليبها الخاصة التي صارت فيما بعد الجزء المتمم لهذا الفن. أهم هذه الأساليب وأقدمها هو مايسمى الأسلوب الدوري، المتميز ببساطة وكثافة وقور، تلمس في أبعاد وديكور الأعمدة وفي نسب الصرح العامة. وبعد هذا، ظهر في القرنين السادس والخامس، في مدن إيونيا التجارية الأسلوب الأيوني ذو الأعمدة الأرشق والمتوجة بتيجان أنيقة محلزنة، والباريتون مزيج من الأسلوبين الدوري والأيوني. وفي القرن الرابع، هل الأسلوب الكورنثسي، الأكثر تصنعاً، المتميز بكثرة وغنى المقرنصات. إن شواطئ الأبيض المتوسط والأسود تغص بمخلفات المعابد المرمرية، المبنية وفق هذه الأساليب الثلاثة.

^١ - تأمر ضد الطاغية هيباس.

الفلسفة والعلم

لا يقل دور اليونان الأسبقين في تطور الفلسفة والعلم. الفلسفة (باليونانية، حب الحكمة)، وفي المعنى الذي ننسبه نحن الآن للكلمة، هو من مواليد هيلاد. فمواطنو الحاضرات المتطورة في أيونيا استوعبوا مبكرا التراث الثقافي للشرق. كان هذا التراث يشمل الفكرة العلمية التي تجهد في تعليل ظاهرات الطبيعة؛ ففي الشرق، خلق الصراع الطبقي شروط موقف ناقد تجاه المعتقدات التي تغرسها الشريحة الحاكمة في المجتمع؛ الكهنة والنبلاء. كانت بابل ومصر تمتازان بتقدم واضح في الرياضيات، والفلك والعلوم الطبيعية. وعندما حل في أيونيا محل نبلاء الدم تجار جيسورون مغامرون، رسخوا علاقاتهم التجارية بفعل الاستعمار، وتعززت وثبة فكرية جريئة. وكانت ميلين، حاضرة أيونيا الرئيسية، الوطن الأول لفيلسوف إغريقي هو تالس *THALES* (حوالي العام 600)، أبو المفهوم المادي العفوي. وكواحد من أبناء أسرة من التجار الفطنين، أدرك كل تنوع الطبيعة والحياة كموضوعة واحدة تسير ذاتها؛ ورأى، كل ما هو موجود ليس أبدا من عمل الإله، بل يصدر عفويا عن عنصر أولي هو الماء. وانشغل أيضا بالأرصاء الجوية والفلك، واشتهر بحدسه في كسوف الشمس في 28 أيار 585. إن تالس هذا هو مؤسس الفلسفة المادية.

تلاميذه ومتموه، المنتسبون إلى مدرسة ميليت، يطورون ويعمقون نظريته الفلسفية والعلمية. ويؤكد أنكسمين *Anoximen* أن الطبيعة الحية والميتة أيضا، تطورت انطلاقا من الهواء، الذي ولد تكاثفه الأجسام الصلبة والسائلة، بينما ظهرت النار بعد تخلخل الهواء. ويعلمنا أنكسماندر *Anoximandre* أن المادة، التي يشير إليها بتعبير "لانهائي"، أساس العالم؛ ويفترض أنها أعطت الحياة للكائنات الحية. وكون "الإنسان نتيجة أولية للحيوانات الأخرى"، استبد، على مستوى ما، النظرية التطورية لدارون.

لكن التطور الباهر للمبادئ المادية في مدرسة ميليت، الناجم عن الصياغة الثورية للحاضرة العبودية، اصطدم بمقاومة النبالة المنحدرة. وترجمت هذه المقاومة بظهور الفلسفة المثالية، سلبية المجتمع المستر للنبالة الرجعية التي كانت تصارع حركة الشعب والنظام الديموقراطي المتنامي.

كان فيثاغورث (النصف الثاني من القرن السادس ق.م) أب الفلسفة المثالية. هرب من جزيرة ساموس بعد انتصار الشعب الذي جلب إلى السلطة المستبد بولكرات، فوجد ملاذا

له في كنف النبلاء حكام كروتون، الجزيرة الواقعة في جنوب إيطاليا. وفي كروتون، حينما استبدل الشعب التأثير النظام الأرستقراطي النظام الديمقراطي، شكل فيثاغورث مع تلامذته ومتابعيه جمعية سرية انتشرت في كل هيلاد ووضعت هدفاً لها النضال بدون رحمة ضد الديمقراطية.

لم تحفظ أعمال فيثاغورث. ومن الجدير بالذكر أن مواهبه في تطوير الرياضيات أمر لا يقبل الجدل. إنما هو نفسه وأتباعه بخاصة، وضعوا للعالم مفهوماً مثالياً. انطلاقاً من أن كل شيء يمكن أن يقاس ويعبر عنه بالأرقام، اعتبروا العدد الجوهر المقدس للكون. واحد، اثنان، ثلاثة، سبع، عشر صارت، عندهم، القوى الغامضة والغيبية التي تمسك العالم، وهي وراء انسجامه واتساقه.

كان الفيثاغورثيون يظنون أن نظريتهم للأرستقراطية فقط، فهي وحدها من يفهمها ويعالجها وهي التي تعينهم على حكم جماهير الناس.

لقد انعكس هذا الصراع بين المفهومين المادي والمثالي في النهج الفلسفي لعبقرية هراكليت ابن إفيز^{١١} (نهاية القرن السادس وبداية الخامس ق.م). يضع هراكليت أسس المفهوم الجدلي للعالم. لم يصلنا شيء من أعماله أبداً، عدا مقاطع قصيرة معدودة وأحكام مبشرة. على ذلك، وحسب هراكليت، كل ما في الوجود في حركة وتشكل. ومن مقولاته: "الكل يسيل"؛ "لأحد يستحم مرتين في ذات النهر"؛ "من الضروري أن نعرف أن الصراع هو الصبح والحكمة، وأن الكل يولد في الصراع حسب قانون الحتمية غير القابل للتقادم". ولقد قوم كلاسيكيو الماركسية نظريته عالياً. يعلق لينين على مقولته "العالم، وحدة الكل، لم يخلقه إله ولا بشر، بل كان، وسيكون ناراً لاهية أبداً تتقد وتنطفئ حسب قوانين..". فيقول: "استهلال رائع للمبادئ الجدلية"^{١٢}.

إنما بلغ الفكر العلمي والفلسفي اليوناني ذروته مع ازدهار الديمقراطية العبودية، في أعمال ديموقريط العديدة، التي لا نملك منها هي الأخرى سوى أجزاء متناثرة. لقد ساهم

^{١١} - مدينة قديمة من أبونيا، على شط بحر إيجة. كانت مركزاً كبيراً مالياً وتجارياً منذ القرن السادس ق.م. كان فيها معبد لأرتمس معتبراً واحدة من أعاجيب الدنيا السبع، حرقه أروسترات؛ بنى القديس بولص كنيسة هذه المدينة في العام ٥٤م، وقد أداها المجمع الليني في العام ٤٣١م. نستوريس-المترجم.

^{١٢} - لينين، "الدفاتر الفلسفية"، المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٥، ص ٢٧١.

ديموقريط (حوالي ٤٦٠-٣٧٠) بتقدم كل فروع المعرفة لزمانه: كتب مقالات في الفلك (أسباب الظواهر السماوية)، في الفيزياء (أسباب الظواهر الجوية) أسباب الظواهر الأرضية، وغيرها)، في البيولوجيا، في الرياضيات (حول تماس الدائرة والكرة، حول الخطوط والأجسام غير المعقولة، إلخ)، في الجغرافيا، والفن (الإيقاعات والهرموني، والقصيدة، وسواها)؛ ونحن مدينون له بأعمال في التاريخ، في الزراعة، والفن العسكري، وبناء على معارفه الموسوعية وضع نظريته الفلسفية: كل الموجودات تتألف من جزيئات صلبة وغير قابلة للقسمة ("الذرات" باليونانية). وتنوع شكل الذرات وتوضعها يشترط تنوع الكون وتباينه؛ والكائنات الحية، ومنها الإنسان و"روحه" تتألف من ذرات، هي الأخرى. لكن إلى جانب عدد لاينتهي من الذرات، ثمة فراغ بدون حدود، العدم، الذي يمكن الذرات من الحركة المستمرة، مبدأ كل حركات وتبدلات الكون. والطبيعة كلها، والمشاعر، والحواس، وأفكار الإنسان تتجم أيضاً من حركات الذرات. وأيضاً طور ديموقريط النظرية المادية المطابقة لفكره، لكنه صب جهده في تحليل مجمل الظواهر بأفعال آلية، فكان ماديّاً آلياً.

فضلاً عن هذا، اهتم ديموقريط بفاعلية بقضايا الحياة الاجتماعية والسياسية، كما تثبت عناوين مؤلفاته. ففي أعماله التاريخية، كشف أصل المجتمع المتحضر في زمانه. نبذ بصرامة دعوى "العصر الذهبي". في الماضي البعيد، كان الناس يعيشون شظف الحياة الحيوانية؛ علمهم البؤس أن يعيشوا جماعة، وبالتدريج، خلقوا شروطاً جيدة؛ كان أساتذهم الآخر هو الطبيعة التي يحاول الناس نسخ ظاهرتها، وتقليدها في حياتهم اليومية. وطرح ديموقريط أيضاً قضايا تتعلق بحياة الدولة وبنيتها.

ولقد ضمه هذا الوجه الفاعل الحي إلى تيار واسع علمي وفلسفي لهيلاذ في النصف الثاني من القرن الخامس، كان يدرس قبل كل شيء الحياة الاجتماعية والسياسية. سمي ممثلو هذا التيار *Sophistes* (الحكماء) الذي حوله خصومهم السياسيون والعلميون إلى لقب ساخر: "*le sophisti queurs* أي السفسطائيون-المتحذلقون". وبينما كان الفلاسفة الماديون منكبين على إجلاء حياة الطبيعة ورد فعلها ورد فعل الإنسان، طرح الحكماء أسس العلوم الاجتماعية. كانت أثينا النصف الثاني من القرن الخامس، التي كانت تتوافد إليها مختلف حضرات هيلاذ، حقل نشاطهم الأول. كتب بروتاغوروس ابن أبيدير *d'Abdere* مؤلفات

"أصل النظام السياسي"، "بنية الحياة (الاجتماعية) في العهد القديم" و *ses lois thouroi* هي النموذج الأولي للنظام الاجتماعي والسياسي المثالي من وجهة نظر الديمقراطية العبودية، وحسب بروتاغورس، النظام الاجتماعي مبني على قانون هو نفسه للجميع، لأن كل الناس متساوون من حيث طبيعتهم. فمن البديهي أن تثير لديه مشروعية العبودية ووجود الآلهة الشكوك "أنا لست جديرا أن أقول إن كان (الآلهة) موجودين أم لا"، يقول بحذر.

وقد طور وتابع سوفيست عديدون أفكار بروتاغورس. فدرسوا بخاصة قضية الدولة. واعتبر بعضهم (برودكوس، مثلا) الدولة قوة عظيمة إيجابية بينما أعلنها آخرون (أنتيفون) مصدر كل الآلام ومصيبة الحياة البشرية. وهكذا، نادى أنتيفون أن الحياة الاجتماعية يجب أن لا تكون مشروطة باستبدادية الدولة، بل بوحدة الوضع الأخلاقي والسياسي للقلب والعقل. وهكذا وضع بعض السوفيست نظرية ظهور الدولة على قاعدة اتفاق بين مؤسسي أول دولة. وفيما بعد، بخاصة في القرن الثامن عشر (روسو)، أخذت هذه النظرية مداها الأوسع.

بالتأكيد ليس صدفة أبدا أن يتزامن نشاط السوفيست مع ذروة الديمقراطية العبودية في أثينا. لم يكتف السوفيست بكتابة أعمالهم في هدوء غرفة العمل، إن صح التعبير؛ بل تدخلوا كخطباء فاعلين ودعاة حيويين لمبادئهم. ولقد اندمجت هذه النظرية الجديدة في كل مجالات الحياة الثقافية لهيلاد. كما عكس مؤرخا العصر الكبيران، هيرودوت وثوسيديد عكسا رائعا في أعمالهم نظريات السوفيست؛ إن تراجيديات أوريبيد (ارجع إلى ماورد أعلاه) تزخر بأفكار هؤلاء الحكماء التي، بواسطة المسرح، تغلغت في أوساط الشعب. والاستحقاق الأوسع يخص السوفيست في خلق فن الخطابة وإعداد طرق المناقشة والجدال، التي تمكن من إثبات الطروحات ودحض ما لدى الخصوم. هكذا طرحت أسس المنطق، العلم الذي تعلمنا التفكير الصحيح انطلاقا من الأطروحات المحددة التي تواجهنا.

يصل بعض السوفيست، في تقديم اللاذع لكل ما قبله الزمن بعامة، إلى نشر مذهب تشاؤمي كامل، إلى إنكار الضوابط الأخلاقية وتبرير المذهب الفردي بمغالة عدائية، الأمر الذي شد إليهم كره الأوساط المعادية للديموقراطية، الأولغارشية. استخدم منظروهم طرق وأساليب السوفيست لمصارعتها بسلحتها. كان سقراط واحدا من ألد أعداء السوفيست، الذي لم يترك كتابا مكتوبا وكان متحمسا لمبدأ أفلاطون، تلميذه.

اتهم سقراط السوفيست بالشككية الجوفاء، بالافتقار للقناعات السياسية والعلمية، وعدم السعي سوى إلى هدف واحد هو المماحكة والنصر الشفهي على نقيضهم. هؤلاء ليسوا حكماء يقول سقراط: إنهم يتاجرون بالحكمة، وليس لهم إلا إفساد تلامذتهم بالارتياب. وهو الآخر، شكك بإمكانية معرفة العالم الخارجي ("أنا أعرف أنني لأعرف شيئاً")، وطالب بمعرفة الذات ("أعرف نفسك"). ويؤكد سقراط أن المناقب السامية للمواطن، الضرورية لحكم الدولة، تؤخذ بالتربية والتعليم: فليس إذن كل مواطن يقدر أن يشترك بإدارة الدولة، بل فقط ذاك الذي تلقى إعداداً وافياً بالعرض. إن هذه العينة الأخيرة من المواطنين، كانت بالفعل مهمة لدى الديمقراطية الأثينية، الـ"صفوة" - الأرستقراطية - يجب، بكل حمية ونشاط، أن يصلحوا أنفسهم، أن يتحدثوا ويرسخوا مواقفهم السياسية في المجتمع. وفي العام ٣٩٩، في أثناء حملة متطرفة من الصراع السياسي والاجتماعي، ادين سقراط بالموت كعدو لدود للديموقراطية: واتهم حتى، وليس بدون أساس، بتخريب الشباب سياسياً.

تشهد فلسفته على أزمة الديمقراطية العبودية في أثينا. تفاقمت هذه الأزمة بعد خسائر قتالية وتدهور القدرة العسكرية البحرية لأثينا في نهاية حرب البلوونيز. يومئذ انفصلت شريحة الأغنياء مالكي العبيد، التي كانت تمارس نفوذاً ملحوظاً على الحياة الاجتماعية، السياسية والثقافية في البلاد، انفصلت عن الجماهرة الشعبية. وفي تلك الحقبة ازدهرت الفلسفة المثالية، تاركة وزناً ثقيلًا على الفلسفة والعلم الماديين. ودخل الصراع بين المادية والمثالية مرحلة جديدة. وابتكر غني نبيل أثيني، أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧)، نهجاً ناجحاً للفلسفة المثالية، التي تعتبر حتى اليوم أساساً ونموذجاً للفلاسفة المثاليين الرجعيين. أدخل أفلاطون إلى الفلسفة مفهوماً بل "فكراً". ادعى أن العالم الأرضي غير واقعي، وهو ليس، سوى منعكس شاحب، ظل عالم واقعي، عالم الـ"أفكار"، لا يعرفه الإنسان إلا معرفة تقريبية. عالم الأفكار ليس مادياً: ليس ثمة بيوت، موائد، ولأجسام بشرية، ولا جبال، ولابحار، ولا أي شيء ملموس، بل فقط "أفكار"، جوهر غير مادي لكل الموجود المادي. يشبه أفلاطون الإنسانية بسجين في كهف، وجهه إلى الجدار، فلا يرى سوى ظلال العالم الخارجي الذي أنارته الشمس.

وحسب أفلاطون، فقط الناس الكاملون من يقدر أن يدنو من الحقيقة. فيجب إذن

خلق مجتمع يحمي النخبة، إذن، ضرورة تربية وعلم الأخيار، الذين هم الحكماء. وهم الذين يجب أن يكونوا حكماء" وأن يوجهوا كل الحياة الاجتماعية الخاصة للمواطنين بواسطة منفذين خاضعين لإرادتهم، يسميهم أفلاطون "محاربين". إن المحاربين، الذين يربون تربية عسكرية جادة، خليقون أن يعيشوا في نظام جماعي مثالي. يستثنى الحكماء والمحاربون من أي عوز مادي. والجمهرة الكادحة التي تخلق كل المناهل المادية في الدولة؛ وهي، الراححة تحب وزر الهموم والاهتمامات الحياتية، يجب أن تكون بعيدة عن الحكم والحكومة.

إن دولة أفلاطون "المثالية" هذه المعارضة كلياً لكل الانجازات الديمقراطية الهلينية؛ المرتكزة على سيطرة أقلية أرستقراطية مقاتلة، تذكر بالطبقة الحاكمة في إسبارطة. فمن الطبيعي، أن يحذب أفلاطون، العدو السياسي لديموقراطية أثينا، على السبارطيين ويؤيدهم. ولقد ارتبطت الفلسفة المثالية منذ ظهورها، بالإيدولوجيا الرجعية، المعادية للشعب والعلم.

وأرسطو (٣٨٤-٣٢٢)، تلميذ أفلاطون، استوعب، مثل ديموكريت، كل مجالات المعرفة. لكنه، بعكس هذا الأخير، كان ميالاً إلى المثالية، وهكذا، يعكس أزمة حضارة العبودية، المشار إليها أعلاه. تتجلى جدارة أرسطو في أنه منهج المعارف العلمية. وبتبحر نابغي وازن المعطيات المحققة في مختلف المجالات وأسس عدة فروع علمية. وسمى "physique" العلم الذي حافظ على هذا الاسم حتى اليوم؛ وهو أيضاً الذي كتب أول "botanique"، علم النباتات (عشب: botane)؛ ووضع أول المقولات في قوانين الفكر التحليلي، الكلي، (الخ) وأرسى العلم الهام الذي هو المنطق، مستفيداً من خبرة الحكماء: sophistes ونحن مدينون له بـ "la politique" - السياسة - التي تدرس طبيعة الدول ومختلف أشكالها، والأخلاق، وعلم البيان، وعلم الشعر، وأعمال أخرى كثيرة. وهكذا أبدعت أو، بالحري، نظمت أعمال أرسطو عدداً من فروع العلم التي استمرت تطورها إلى اليوم.

ففي الـ "سياسة"، يقدم بالتفصيل نظريته في الدولة، ملخصاً أبحاث أسلافه الكثر الذين هم السوفيسست، بالتأكيد. إن أرسطو هو لسان حال إيدولوجيا العبودية المحددة جيداً. وقد رأى أن الدولة تتألف من ضيع، وتقسّم الضيع إلى أسر وتضم الأسرة الزوج، المرأة، الأبناء وبعض العبيد.

لا يعيش المجتمع المتحضر بدون عبيد. "العبد هو خير أشكال الملكية وأجود الأدوات"،

يقول أرسطو. على ذلك، اضطرر للوقوف إلى جانب الأجوبة المسندة التي يقدمها خصوم العبودية، وأخذ الجدل معهم حيزا هاما في مؤلفاته. ورأى، في كل حال، أن الإنسان حر بطبيعته. وقال، كل البرابرة عبيد بالولادة.

ويمحص أرسطو كل أشكال نظام الدولة التي يراها ممكنة؛ يميز منها ثلاثة "مشروعة": الملكية، الأرستقراطية والجمهورية، وثلاثة "منحطة": الدكتاتورية، الألغارشية والديموقراطية. ويولي نظرية انقلاب الدولة اهتماما خاصا ويدرس بدقة أساليب الحذر منها. أخيرا، يصمم دولة مثالية يجب أن تكون حاضرة مغلقة، أساسا زراعية. شريحة عمالها محرومة من حق المدينة. ولمكا كان أرسطو عدوا واضحا لديموقراطية العبودية الأثيني، لذا مال إلى إسبارطة التي رأى نظامها قريبا من المثال.

إجمالا، كان أرسطو متأثرا جدا بأزمة ديموقراطية عبودية أثينا؛ وكان خصما لمؤسسات الدولة الواسعة، وللتجارة والحرف المتطورة، وللمدن الكبرى ذات السكان الحريين والنشطين سياسيا.

إن تأثير أرسطو على تطوير الحضارة العالمية ضخما. فحتى نهاية القرن الخامس عشر، تمتعت مبادئه العلمية بمدى واسع لايجادل. أما الطرح الأساسي لـ "سياسته"، التي تقول إن الأسرة هي خلية الدولة، كانت مؤيدة دائما من المنظرين البورجوازيين.

كنا ميزنا، في الفصل الذي يدرس المناهل، المستوى الرفيع للعلم تاريخيا في اليونان. ويميز ف. أنجلز، ويثمن عاليا الدور الرئيس للعلم والفلسفة اليونانيين، وبخاصة ممثليها مثل هيراكليت وديموكريت، ويقول: "هنا نحن إذن نعود لنوافق مؤسسي الفلسفة اليونانية الكبار، التي رأت أن الطبيعة كلها، من الأصغر حتى الأكبر، من حبة الرمل إلى الشمس، من وحيدة الخلية إلى الإنسان، تكمن في ولادة وموت أبديين، بغدق لاينقطع، في حركة وتبدل دونما توقف. مع فارق أساسي أن ماكان عند اليونان استبصارا عاما، هو عندنا خلاصة بحوث علمية وتجريبية بح وبالتالي، يظهر أيضا بشكل أو صيغة باللغة الدقيقة والوضوح".^{١٢}

١٢ - ف. أنجلز. دياكتيك الطبيعة.

■

الفصل الرابع والثلاثون

اليونان في النصف الأول

من القرن الرابع ق.م

الأزمة في اليونان. سيطرة إسبارطة

لقد أنزلت حرب البلوبونيز ضررا بالغا باليونان. يكتب ثوسيديد (١، ٢٣)، "دامت الحرب مدة طويلة، وخلقت مصائب لم تعانيها اليونان في حقبة من الزمن أبدا. أباد لم تحتل المدن وتدمر هكذا أبدا؛ ولا هذا العدد من المبعدين، أو القتلى في المعارك أو في وسط التمردات... هزة أرضية زعزعت دفعة واحدة هذه المساحة الشاسعة من الكرة الأرضية، في بعض البلدان جذب قاحط، بعده الجوع؛ وآفة أفسى أيضا، خربت ونكبت جزءا من اليونان، الطاعون؛ مصائب مريعة انضمت إلى آلام هذه الحرب."

استهدفت أثينا وحاضرات أخرى متطورة تشكل جزءا من امبراطوريتها البحرية، بشكل فريد. حتى إسبارطة المنتصرة خرجت من الحرب متعنتة، بسبب انحطاط نظامها السياسي والاجتماعي الروتيني-النمطي الذي لم يعد يتلاءم مع متطلبات الحياة. فالطبقة الحاكمة من السبارطيين راحت تتراجع وتنقلص، بسبب خسائر الحرب وخراب الأسر، التي فقدت أرضها. والسبارطي المدمر، الذي انتقل إلى صفوف الطبقة الدنيا، فقد صفته كمقاتل. تشكلت جماعات معادية للتآمر على النظام القائم، بمشاركة نشطة من الجماهير المدمرة. وفي العام ٣٩٩، أخذت مؤامرة بقيادة سنادون -أحد المدمرين- مدى خطيرا. أملوا تمرد كل الشرائح المدمرة، ووزعوا عليهم كل الأسلحة المتوفرة، حتى البلطات، السفايفد والمناجل، بغية ذبح الملاكين العقاريين وتبديل النظام السبارطي. لكن المؤامرة قمعت بوحشية (انظر خلوفون، "الهليون"، ٣، ٣، ٤-١١).

على ذلك، بقيت إسبارطة، يومئذ، القوة الكبرى، الوحيدة في الحلبة الدولية؛ ماتبقى من ميلاد سوى عدة حواضر، دول صغيرة مستقلة بلغ الصراع الاجتماعي فيها ذروته. فبعد

حرب البلوينيز، اشتد سعار الاستثمار العبودي. واستأثرت واحتكرت التجارة والصناعة فئة من العبيد المعتقين. واستبعد الاستخدام الواسع للعبيد الفلاحين الأحرار.

أفضى تدعيم الاستغلال إلى تباين واضح في الثروة بين السكان؛ وفي أثينا وأراغوس وحاضرات أخرى، ظهر بين مموني الجيش وتجار القمح والمرابين، الأغنياء مالكو العبيد الذين يشترون الأرض، وبينون قصورا منيفة بأسلوب العمارة الكورنثي. تطلع هؤلاء الوافدون إلى إدارة الدولة. ومن جهة أخرى، ازداد عدد الفقراء، كان أغلبهم ملاكاً عقاريين صغاراً مدمرين. "سابقاً لم يكن ثمة مدينيون يحتاجون الضروري ويطلبون الحسنة في الشوارع، يشوهون المدينة، كما يكتب إزوكرات، أحد أعيان السياسة؛ والآن، البائسون أكثر من المالكين. يبحثون فقط عن تأمين قوت يومهم."

ألهمت هذه التناقضات العميقة أوار الصراع السياسي والاجتماعي في داخل الحاضرات. وتصدت الفئات الفقيرة في وجه الأغنياء وتعد الثورة؛ وأطلق الشعار المهدد التالي: "إعادة توزيع الأرض وشطب الديون". وفي العام ٣٩٢، اغتال فقراء كورنثيا عدداً كبيراً من "صفوة" أرستقراطية المدينة. وفي العام ٣٧٠، نشبت انتفاضة مماثلة في أراغوس: قتل الفقراء بالعصي قرابة ١٥٠٠ غني ووزعوا أرزاقهم. وتدفق "حملة العصي" إلى مدن بلوبونيز الأخرى؛ وحسب قول أزوكرات، "ماكان الفقراء يفكرون إلا بنهب الفقراء".

في الوقت ذاته، يبرز الميل الطوباوي لتبديل جذري في العلاقات الاجتماعية، بوضع الحياة المادية تحت رقابة الدولة. هذا ما نادى به خنوفون في مقولته "الثروة". وطرح الأمر ذاته بإلحاح ووضوح في كوميديا أرسطوفان "جمعية النساء"، وقدمت على مسرح أثينا في العام ٣٩٢. الشخصية الرئيسة براكساغورا، قائدة النسوة، على فرض أنهم استلمن السلطة في أثينا، حيث تعرض برنامج نشاط هذه الحكومة النسوية: "الأرض أولاً وخيراتها ستكون ملك الجميع كذلك الأرزاق الفردية الأخرى. ثم من هذه الثروة المشتركة، نحن النساء سنغذيكم، سنوجه الاقتصاد ونفكر بكل شيء... سنقدم لكل كل شيء وبوفرة: الخبز، النقود، العنب، الأسماك، الحلوى، الأحصنة الخشبية، الحراب، الكستناء..." ومن الجدير بالذكر أن براكساغورا تبني هذه الحياة الرغدة من عمل العبيد، الذي، كما ترى، يجب أن يكون عاماً أيضاً.

هذا كله تعبير عن تناقضات في أحشاء الطبقة الحاكمة. في هذه الحالة، قد يفضي النضال الاجتماعي، على الأغلب، إلى إعادة توزيع الأرزاق المنقولة وغير المنقولة والعبيد. ويجد العوام مخرجاً آخر: مهنة الجندي التي تعدهم بالاغتناء عن طريق أسلاب الحرب. فتلقى كل مواطن هاليني تدريباً عسكرياً؛ وكان فن الحرب الأكثر إتقاناً في هيلاد. وانخرط فقراء اليونان في جحافل الدولة التي تحتاجهم. وصارت اليونان المصدر الرئيس للمتطوعين إلى بلاد البحر المتوسط. وكان السوق الأكبر لهؤلاء رأس تينار، في جنوب لاكونيا.

لقد أقامت اليونان اتصالات وثيقة مع الفرس وبعض حكامهم. هكذا، حاول سيروس، حاكم آسيا الصغرى وأخ الملك ارتاخرخس، في العام ٤٠١ ق.م. تسنم السلطة على رأس جيش جرار يضم ١٠ آلاف متطوع يوناني. وحقق الجيش اليوناني النصر على القوات الفارسية في كوناسا، قرب بابل، لكن سيروس، مدعي العرش، قضى في المعركة. وقام اليونان بانسحاب قاس عبر شرق قفقاسيا حتى ترابزونت، على البحر الأسود وخنوفون الذي كان يقود المتطوعين ترك مذكرات مؤثرة حول هذه المسيرة الماجدة وحول البلاد التي اجتازها.

عبرت الحياة السياسية في اليونان حقبة من الاضطهاد والحروب الداخلية. فقد أثار متطوعو سيروس اليونان نزاعاً بين إسبارطة وفارس. ولتوطيد وضع مهيم في اليونان، جندت كل قوات هيلاد، بذريعة الدفاع عن حاضرات آسيا الصغرى. لكن هذه الحملة اليونانية، التي بدأت في العام ٣٩٧ بإمرة ملك إسبارطة أجلاس، كانت عبثاً. وقد أفاد منها كل اليونان خصوم إسبارطة. وصار خصمها الرئيسي طيبة، المدعومة من أثينا، ثم أراغوس وكورنثيا. وأقام الفرس حلفاً مع أعداء إسبارطة، وقبلت دول اليونان العون من عدو الأمس. فتمكنت أثينا من إقامة تحصينات بالنقود الفارسية، سميت الـ"أسوار الطويلة"، التي وصلتها بيبيريا. ووضع قائد الأسطول اليوناني كانون بإمرة ملك فارس، الذي عهد له بسفنه.

كشفت "حرب كورنثيا" (٣٩٥-٣٨٧) عن ضعف إسبارطة. إذ استسلمت القوات البلوبونيزينية، بإمرة ليزاندر وبوزانياس، في بيوتيا. لكن الشقاق بين القادة العسكريين أفضى إلى هزيمة هاليارت في العام ٣٩٥. وسقط ليزاندر، وأعدم بوزانياس فيما بعد (تقد

اتهم بجريمة التواني، فبالهزيمة فموت ليزاندر). وأمام الخطر المحقق، بعث الحكام إلى أجزلاس، في آسيا الصغرى- أمرا بالعودة العاجلة إلى هيلاد.

بينما كان أجزلاس يعود إلى البر، سحق كانون في العام ٣٩٤، على رأس ألوية أتكية-فارسية، قوات إسبارطة وحلفائها في سنيد. وأتم حلف أثينا، طيبة، أرغوس وكورنثيا دفع السبارطيين إلى مضيق كورنثيا وبيوتيا، حيث ولجت قوات أجزلاس. وفي القطاعين، ميني وكوروني (ربيع وخريف ٣٩٤)، انتصر السبارطيون. لكنهم لم يعرفوا كيف يستغلون هذا الظفر: وبقي برزخ كورنثيا بيد الديموقراطيين المتحالفين: أثينا، أرغوس وكورنثيا.

أرسل الجنرال الأثيني إفكرات، الماهر في الدفاع، أمر قتال جديد، متمما القوات ثقيلة السلاح بقوات مشاة خفيفة لتزج في المناورات السريعة. لقد فرض هذا الإصلاح القتالي فقر المواطنين، الذين لا يستطيعون تأمين السلاح الثقيل. وهكذا وجدت سبارطة نفسها منعزلة في جزيرة بلوبونيز.

فسارع الفرس بجرأة وتدخلوا في شؤون اليونان. وأرسلت إسبارطة المحرجة قائد أسطولها الحربي أنتلسدس إلى الفرس طلبا للعون (٣٩٢). وفيما بعد (٣٨٧)، التقى مبعوثو سبارطة بمبعوثي أثينا في سوز، بقيادة كانون Canon. رضي السبارطيون الاعتراف بسيادة ملك الفرس على بلادهم وكل هيلاد. وقبلوا بخاصة ضم وإلحاق كل الحاضرات اليونانية في آسيا الصغرى إلى الامبراطورية الفارسية. ولما ألح كانون على استقلال هيلاد، بما فيها حاضرات آسيا الصغرى، زجه الحاكم الذي يرأس المفاوضات في السجن كخائن للملك، ومات فيه.

أخيرا نقل الحاكم تربازو إلى ممثلي هيلاد إرادة مليكه: "يرى الملك أترخس العدل في أن تلحق به مدن آسيا، وكذلك جزر كلاميذ وقبرص، وان تبقى مدن اليونان، صغيرة وكبيرة، مستقلة، ماعدا ليمنوي، أمبروس وسيروس التي ستكون، كما في الماضي تابعة لأثينا. وإن رفضت بعض الدول هذا الصلح، سأشن عليها الحرب، بالإتفاق مع من يرضى، في البر والبحر، بمراكبي وكنوزي". بمسعى سبارطة، طرحت فارس كسيده الوضع وفرضت قانونها على اليونان. فلا أثينا ولا طيبة ولا أي حاضرة يونانية تستطيع، في هذه الشروط، أن تصادم فارس المتحالفة مع إسبارطة وما بقي من هيلاد. وقد وضع صلح أنتالسداس، أو صلح الملك، الذي تم في العام ٣٨٧ اليونان عمليا تحت الهيمنة الفارسية،

الأمر الذي لم يستطع داريوس وخرخس تحقيقه بالسلاح. "لم يكن ثمة صلح، بل خيانة وشتيمة لليونان" كتب بلوتارك (أجزل، ٢٣).

لقد جنت اسبارطة ثمن هذه الخيانة بحق اليونان كلها حق ممارسة بنود "صلح الملك". وبديء بإخضاع حواضر بلوبنيز المعادية لإسبارطة؛ كانت مالتيني، أهم هذه الحاضرات، قد أبيدت. وأولت سبارطة اهتماماً فريداً لخصومها، أثينا وطيبة، وأولينيث التي تطورت حديثاً في شبه جزيرة شالسديك وجمعت حولها عدة حواضر مجاورة. وفي العام ٣٨٢ نظمت اسبارطة غزوة ضد أولينيث و، في الطريق، احتلت غدراً كادمي، قلعة طيبة، ووضعت فيها حامية دائمة، وأقسام السبارطيون في طيبة نظاماً إرهابياً، وسقط اسمنيالك، أشهر ممثلي الديموقراطية في طيبة، ضحية هذا الإرهاب. وهاجر العديد من الديموقراطيين الطيبين إلى أثينا للإعداد لتحريض بلادهم من العبودية. وفي كانون أول ٣٧٩، ولجت جماعة من هؤلاء المواطنين، بقيادة بلوبداس ولباس راقصات، في أثناء إحدى الاحتفالات إلى مسكن ضباط سبارطيون وأصدقائهم وذبحوهم. كما طرد متمردو طيبة الحامية السبارطية وعقدوا حلفاً مع أثينا. حاولت سبارطة عبثاً قمع التمرد لأنها أرثت الحقد العام باستبداديتها العسكرية المنفلتة.

الاتحاد الأثيني البحري الثاني. ازدهار واتحطاط طيبة

في هذا الوقت، بدأت الديموقراطية الأثينية من جديد تجمع حولها الحواضر البحرية وتحالفهم. وفي العام ٣٧٨، مهر الاتحاد الثاني البحري الأثينين بمعاهدة حفرت نصوصها على شريحة ضخمة من الرخام، مازال سليمة. بنيت هذه الجامعة على مبادئ المساواة. "يستطيع اليونان والبرابرة القاطنين في البر وأبناء الجزر غير الخاضعين لملك الفرس الانضمام إلى الاتحاد. يبقى كل المتحالفين مستقلين ويحكمهم مجلس دائم من المندوبين، مقره أثينا ولا يرتبط بمنظمات الدولة الأثينية الديموقراطية. وكان هذا المجلس أيضاً مؤسسة قضائية عليا. تضمن الجمعية الوطنية قراراته. يشترك المتحالفون بخزينة يحدد مبلغها المجلس، عوض الضريبة التي فرضتها امبراطورية أثينا البحرية والتي كانت تبعث غضب الأحلاف.

تضم هذه الجامعة الثانية أقل من الحواضر (حوالي ٧٠) من امبراطورية أثينا للقرن الخامس التي كانت تعد أكثر من ٢٠٠ حاضرة. وتخالفها بوضوح من حيث استقلال

ومساواة أعضائها. على ذلك، كانت أثينا تمارس أحياناً على حلفائها تدابير جبرية نشير اضطرابات سياسية عنيفة وتعرض صلابة الاتحاد للخلخلة.

لكن إسبارطة التي لم تشأ التسليم بفقدان هيمنتها، شرعت في البر والبحر حرباً ضد الحلف الأثيني. الذي كان مظفراً حيثما كان؛ وقد أكره قادته العسكريون الموهوبون، تيموثي وشابرياس، سبارطة أن تبدأ مفاوضات (في العام ٣٧٤)، كانت حصيلتها الاعتراف بالحلف الأثيني وتفوق سبارطة في جزيرة بلوبونيز. لكن سبارطة قطعت المفاوضات وحاولت مرة أخرى أن تسحق الاتحاد الأثيني. وألحقت كورسير، الجزيرة بالغة الأهمية من حيث الاستراتيجية والتجارة. وقد أفضى هذا الصراع الشاق إلى هزيمة سبارطة. وفي العام ٣٧١ أرسل ملك الفرس إلى هيلاد وفداً عرض "وساطته" لعقد الصلح. وقد أدت مفاوضات سبارطة إلى ترسيخ هيمنة أثينا في الاتحاد وحقوقها في الساحل الشمالي لبحر إيجه. ورضيت سبارطة بسحب حامياتها التي كانت قد أرسلتها إلى خلف حدودها. وهكذا تقلصت إلى العدم دعاوى سبارطة في التفوق على هيلاد.

في هذه الحقبة تدخل في المعركة بعد انقلاب ديموقراطي قوة جديدة هي طيبة، تطلب الاعتراف بهيمنتها في بيوتيا. ردت سبارطة هذه المطامع. وغادر المندوب الطيبي، الديموقراطي البارز والمواطن المتحمس، المؤتمر علانية. وعلقت المفاوضات. فسارع السبارطيون، الذين يتطلعون أبداً إلى السيطرة، إلى إرسال حجاج من قواتهم إلى بيوتيا. لكن طيبة أبقت الكثير من مواطنيها في الأرياف، فتمكن إيامنونداس من إعادة تشكيل جيش بيوتي. وخلق قوات صدام ("لواء مقدس") وأبدع أسلوباً جديداً بالمعارك: هجوم الجنود بالرنل المائل. وفي معركة لوكتز (٣٧١)، خرق الجيش الطيبي، بعد أن وضع جوجو السفينة إلى أمام، كما المركب ثلاثي المجاذيف، صفوف العدو. وتلقت القوات السبارطية، المعتبرة لاتقهر، الفشل ويقتل قائدها، الملك كلونبروت. بدل هذا الحدث علاقات القوى في هيلاد. فإلى جانب أثينا، يعود المكان المهيمن إلى طيبة التي جمعت حولها بيوتيا والعديد من الحواضر. وفضلاً عن هذا، وفي جزيرة بلوبونيز، تصدى أركادي لسبارطة. وخشية من بيوتيا، تقربت أثينا من السبارطيين.

وقد أنزل إيامنونداس بأسبارطة ضربة قاسية: اجتاحت لاكونيا حتى الخليج؛ ولم يعد الأرقاء والأجراء يخشون سادتهم، خاصة بعد أن اجتاز إيامنونداس مسينا وأعلن حريتهم.

وأعانهم على تنظيم دولة، لعبت منذذ دوراً هاماً. وفقدت سبارطة أغلب حاضراتها ورعاياها المستقلين. وتفككت الجامعة البلوونيزية، وصارت أركاديا دولة مستقلة عاصمتها مغالوبوس (الـ"مدينة العظمى")، التي بنيت لتكون عاصمة.

وهكذا، في ستينات القرن الرابع، تشكلت أربع مجموعات سياسية في هيلاد: باسم مجموعة طيبة وأثينا. وخسرت سبارطة تفوقها. لكن هذه المجموعات لم تدم طويلاً، بسبب التنارع بين طيبة وأثينا على الهيمنة. ضمت طيبة جزءاً من الحاضرات الهلينية، والباقي تحالف مع أثينا وسبارطة. واتقد الصراع الداخلي الذي نشب في أركاديا. ودارت معركة بين الجامعتين في العام ٣٦٢ في مانتيني. ظفرت طيبة وسقط إيامونوداس. وقف حلفاء أثينا السابقون ضد طيبة وانكفأت جامعة طيبة عن لعب دور هام. في هذا الظرف، أفضت تناحرات مستعرة إلى تفكك الحلف الثاني البحري الأثيني. فاضطرت أثينا إلى بذل النشاط السياسي في البحر، الذي كان يتطلب مناهل ضخمة وسلطة وطيدة. لذا اكتسبت هيمنتها في الحلف طبيعة الاستبداد واليد الحديدية. فعبرت حاضرات شيو، رودس، كوس، إرثري، وغيرها عن ميولها المعادية لأثينا وتركوا الاتحاد. ولم تثمر معارك أثينا الدامية ضد حلفائها السابقين ("حرب بين الحلفاء") وفي العام ٣٥٥ لم يكن حلف أثينا الثاني يضم سوى ٣٠ حاضرة.

وفي العام نفسه، رغم عدة محاولات للصمود والتكاتف، وجدت هيلاد نفسها مفككة مقطعة الأوصال: في الشمال، كانت مقدونيا تشد الخناق أكثر فأكثر على ترساليا؛ وكان العديد من أمصار اليونان المركزية تمارس سياسة مستقلة؛ وكان يتتابع صراع في بلوونيز بين الأقاليم التي تستقل؛ وكانت الأقاليم-الجزر الشاطئية منعزلة سياسياً. وكسانت رغبة القوى الديمقراطية بتوحيد هيلاد تصطدم بمقاومة مراكز ضخمة معادية (أثينا. طيبة وأولينيث) من جهة، ومن جهة أخرى بقوى أوليفارشية أنشط مما كانت في القرن الخامس، كانت سبارطة موطنها الدائم.

وأيضاً، حوالي منتصف القرن الرابع، اجتاحت اليونان كلها أزمة سياسية حادة، بدت خانقة. إذ كانت اليونان المجزأة مطرح تدخلات واسعة بشؤونها من قبل الفرس.

الفصل الخامس والثلاثون

الطاقة المتنامية لمقدونيا وحملات الاسكندر الكبير

بدايات السيطرة المقدونية في اليونان

حوالي نهاية حرب البلبونيز، تبدأ مناطق جديدة، كانت متخلفة، مثل مقدونيا، أيبيريا، أركاديا، تلعب دورا هاما.

كانت مقدونيا بلدا جبليا واسعا. يقع في شمال غرب جزيرة البلقان؛ يحدها من الجنوب والجنوب الغربي أيبيريا، ترساليا وشبه جزيرة شالسدك؛ ومن الشرق، تجاورها بلاد الثراس، واتحدتا في القرن الرابع؛ ومن الشرق قبائل هليان العدوانية. كان المقدونيون يتكلمون لهجة يونانية، لا يفهمها الهلينيون.

كانت الجبال الغابية والسهل الخصب محرومة من الثغور على البحر، الأمر الذي أخر تطورها التاريخي. استمر المجتمع القبلي فيها حتى القرن السادس. كان اهتمام الناس الرئيس التدجين (بخاصة الأحصنة) وزراعة الأرض؛ وكان الصيد في الغابات التي تغطي الجبال مدرسة رائعة للحرب عند المقدونين. ترتبط التجارة والحرف كليا بالمدن اليونانية لسالسدك. كانت العبودية بعامة ذات طبيعة أبوية. ولكل منطقة قبلية نبلاء بالولادة، يلعبون الدور المهيمن ويمتلكون أراض مترامية الأطراف.

حافظ النظام السياسي طويلا على السمات الديموقراطية الحريية. وكان الملوك المقدونيون يحكمون حسب مبدأ الاستبداد؛ مع أن سلطتهم كانت محدودة وغير مستقرة؛ يضطلع المجلس "الوراثي" (أسرة الملك) بالدور الرئيس، المجلس الذي يضم ممثلي الأرستقراطية العسكرية والعقارية. وكان ثمة أيضا جمعية وطنية شعبية من النموذج القديم، الذي يجمع كل المحاربين.

وحوالي الربع الأخير من القرن الخامس، بالاستناد إلى حرب البلوبونيز بخاصة، تبدأ مقدونيا بالخروج من عزلتها الاقتصادية، بتبادل البضائع مع اليونان، الذي أخضعها للتأثير المتنامي للاقتصاد والزراعة الهلينية. وقد أرسل ملك مقدونيا أرشلايس (٤١٣-٣٩٩) المدعي أنه حفيد هراقل، عرباته إلى الألعاب الأولمبية ودعا أوربيد إلى قصره. وقد بنى له مهندسون يونان ثكنات لكي يصد هجوم الثراس؛ وكان القادة اليونان يديرون جيشه. تطورت الوحدة العسكرية والسياسية المقدونية بخاصة في أواسط القرن الرابع، فسي عهد فيليب الثاني (٣٥٩-٣٣٦ ق.م) المعتبر مؤسس الدولة المقدونية.

تلقى فيليب الثاني تربية جدية في اليونان (كان مدة طويلة رهينة في طيبة، في بيت أبامونوداس). كان رجل سياسة محنكا يعرف كيف يستخدم، لخدمة مصالحه، القوة العسكرية، الدبلوماسية والإفساد. في عهده، دخلت مقدونيا في الحلبة الدولية، وسعت كثيرا حدودها وأضحت الدولة الأقوى في شبه جزيرة البلقان.

بداية شكل فيليب جيشا موحدا، بينما كان قبله لكل منطقة متطوعة شعبية؛ وتوصل إلى مركزة هذه الوحدات في عاصمة المملكة (بيلا)، تحت قيادة الملك العليا. اقتبس الصيغة اليونانية، وخلق الكتائب المقدونة الشهيرة، المتضمنة ١٦ صفا من الجنود المتراسين. كانت العناصر مسلحة بسيف ورمح بطول ٥٠ تقريبا. وبوضعها على أكتاف جنود المقدمة، تشكل هذه الرماح قننفة فعلية من الحديد. ويجعل تنفيذ المناورات الدقيق والأريث من الكتبية جسدا مقدودا من كتلة واحدة. وجند فيليب بين الحرس خفيف السلاح سلاح خيالة ثقيلًا رائعًا. فكانت الكتبية، وقد حمى الخيالة مجنبتها، قوة قوية على أرض واحدة.

وكان التنظيم المالي تدبيرا آخر هاما لفيليب في بناء الدولة المقدونية. استخدم احتياطيته من المعادن الثمينة، التي كبرت عن طريق فتح المناطق الذهبية ومدن ثراسيا الغنية؛ وصك النقود؛ فتداول الناس نقد فيليب الذهبي إلى جانب النقد الهليني الفضي. خلقت إصلاحات فيليب القتالية والمالية أساس جهاز الدولة البدائية، الأقل اعتمادا على اضطهاد واستثمار الجماهير الكادحة والأكثر اهتماما بالسياسة الامبريالية اللصة.

كما أفاد فيليب من الأزمة الحادة السياسية والاجتماعية التي أضعفت دول اليونان، واكتسب هنا العديد من الأنصار الذين لم يروا مخرجا سوى السيطرة المقدونية على هيللاذ. أساسا، كان الأغنياء هم الذين يعانون من الاضطرابات الاجتماعية، من المتطلبات الباهظة

(الشعائر)، ومن المصادرات فراحوا يحملون بدولة قوية تقمع الجماهير. وكان ثمة من يرغب في وحدة اليونان بقيادة مقدونية لدحر الفرس. كان فيليب يهتم كثيرا بأنصاره، فيكسبهم. لكن أغلب الشعب في أثينا والمدن الأخرى، دلل على موقف متصالب من فيليب ودعم القادة الديموقراطيين (ديموستين، هيبيريد وغيرهما) الذين كانوا يقاتلون بدون هوادة ضد فيليب ويطرحون برنامج وحدة سياسية لهيلاد على قاعدة ديموقراطية.

تفاقم هذا الصراع بين الأحزاب المقدونية واللا-مقدونية بخاصة في أثينا.

كان قادة الحزب المقدوني: الخطيب إشين، الكاتب إزوقراط، الخطيب ورجل السياسة أوبول. وكانت أهدافهم متباينة. إزوقراط، وقد صار أستاذ الفصاحة، كان يبغى اتحاد اليونان بزعامة أثينا، لشن الحرب على الفرس. وعلى هذا الموضوع أوقف خطابه الشهير، حيث ناصر أثينا. لكن يأس إزوقراط من وحدة اليونان بدون عون خارجي، جعله يرى في فيليب موحد ومنقذ اليونان الأكفأ. وفي رسالة إلى فيليب ينصحه بقيادة اليونان متحدتين، لمصارعة الـ"بربر". وهكذا، لم يكن فيليب في عينيه سوى أداة نضال ضد الفرس. وعندما وعى أن الملك المقدوني صار مضطهد الهلنبيين، انضم إلى صفوف الذائدين عن الحرية وانتحر بعد هزيمة شيروني. أما أوبول وإشين فقد تعكر موقفها فقط من فيليب وأثروا على سياسة أثينا لصالحه.

لكن الحزب اللا-مقدوني، كان بزعامة ديموستين. وكونه ابن صانع سلاح، وقائد الحزب الديموقراطي في أثينا، جعله يوقف حياته على النضال ضد الـ"بربري المقدوني وأغراضه غير المشروعة". وقد سميت خطاباته الشهيرة، العامرة بالغضب والغل ضد فيليب، "الفيليبيات".

لكن الصراع السياسي في أولنيث، وفي المدن التابعة لثالسديك وشواطئ ثراسيا، أعطى فيليب فرصة إخضاعها لسلطته. ولقد استدعى هذا العمل الذي ضرب تجارة أثينا مع البحر الأسود، تدخل أثينا. قدمت الحرب المقدسة (356-346) للمقدونيين ذريعة التدخل في شؤون اليونان. فاحتل الفوسيديون الأراضي¹ الموقوفة لأبولون دالفيا. وبذريعة الدفاع عن مصالح المقام، تصدت تساليا وبيونيا للفوسيديين. بداية، هزم التساليون، فطلبوا

¹ - سكان الإقليم اليوناني الواقع بين تساليا وبيونيا، شمال خليج كورنثيا - المترجم -.

مؤازرة فيليب. واستمر القتال لكنه لم يحمل النصر لأحد. وفي العام ٣٤٦، عقد صلح، بتأثير إشين، أوبول وفيلوقراط، أنصار في أثينا، ضمن فتوح مقدونية في اليونان وثراسيا. أثارت هذه الأحداث نشاط الحزب اللا-مقدوني في أثينا. وبمبادرة ديموستين، تشكل حلف للدفاع عن الاستقلال دول اليونان الوسطى، بقيادة أثينا وطيبة. وكسب الأثينيون حق الإبحار بقواتهم إلى شواطئ ثراسيا. واستمر صراع فيليب ضد هذا الهجوم عدة سنوات بدون نتيجة. الأمر الذي دعاه فيليب، مستندا إلى أنصار مقدونيا، أن يقذف قواته محاربة اليونان الوسطى. جرت المعركة الحاسمة في العام ٣٣٨، بشيرون في بيوتيا. كان الأثينيون على رأس الجيش اليوناني. رتب المقدونيون قواتهم الرئيسية في الأجنحة، وقاد المجنية اليسرى ابن فيليب، ألكسندر، ١٨ عاما. "كانت الموقعة طويلة وصعبة، يكتب ديودور، لأن المواطنين اليونانيين كانوا يقاتلون يائسين". وأقيم فيما بعد، في أرض القتال نصب كبير لأسد. يقول بوزانياس، كاتب ورحالة من القرن الثاني، إن هذا الأسد الحامي وضعه أهل طيبة فوق قبر مشترك، رمزا ليقظة وجرأة أولئك الذين سقطوا دفاعا عن الحرية الهلينية.

وسم هذا النصر والمؤتمر الهليني لكورنثيا، بداية حقبة طويلة للسيطرة المقدونية في اليونان. ولقد التزم مندوبو كل الدول اليونانية (عدا إسبارطة التي لم تشارك بالمؤتمر أبدا) الاعتراف بسيطرة مقدونيا وقبول تنظيم اتحاد بقيادتها. ومن جهته، ضمن فيليب حق الدفاع عن مصالح الأغنياء ملاك العبيد: وأعلنت الملكية الخاصة حقا مقدسا: ومنع تقسيم الأرض مجددا، وإلغاء الديون، ولاتحرير العبيد بقصد قلب الدولة. وأخيرا قرر المؤتمر، باقتراح من فيليب، إعلان الحرب على الفرس "تأرا من تدنيس المقابر الهلينية". كاد فيليب أن يكون لسان حال اليونان كلها، لكنه بالفعل شرذم الدول الديموقراطية خدمة للأولغارشية.

لم يستطع فيليب أن يحقق حملة ضد الفرس. فقد اغتيل في العام ٣٣٦، في أثناء قمة الإعداد للمعركة، خلال الاحتفال بزفاف ابنته. دبر هذا الاغتيال ممثلو النبالة الغنية في مقدونيا-العليا، الغاضبون من سياسته المركزية التي تضر حقوقهم. كما تم هذا بالتآمر مع الفرس. وربما كان ثمة خيط من خيوط الاغتيال يشده أهله، زوجته أولمبياس، وابنه ألكسندر، وريثا العرش.

امبراطورية اسكندر المقدوني

الاسكندر المقدوني (٣٣٦-٣٢٣) واحد من ألمع شخصيات العهود القديمة. ولقد تركت عظمة إمبراطوريته الممتدة من بحر إيجه حتى حوض الهندوس ومن صحراء ليبيا إلى بحر كسبيان، بين أوروبا وآسيا، وقصر مدة حكمه التي خلالها حقق كل فتوحاته، تركت أثرا لايمحي من ذاكرة معاصريه وجعلته بطل أساطير عديدة.

من المصادر الرئيسة لتاريخ الاسكندر، يجب ذكر أعمال كاتبي اليونان بلوتارك وأريان وأعمال المؤلف اللاتيني كانت كور (القرن الأول ب.م). نثر في التاريخ القديم، إلى جانب أمثلة شخص الإسكندر، تقويمات شديدة العدوانية. هكذا، يستند أريان في مؤلفه على ذكريات مرافقي جيوش الاسكندر المعجبين به، بينما ينهض كانت كور ضد تعظيم شخصية الفاتح أو الغازي المقدوني. كما نثر على أحكام مناقضة جدا لدى المؤرخين المعاصرين: دروزان، مثلا، يضعه في موضع المثال بينما يقدح به بيلوش.

تسبم الاسكندر العرش وهو في العشرين من عمره. وقد جعلت منه التربية اليونانية التي تلقاها على يد فيليب رجلا متقفا. وأرسطو، الذي كان مربيه في العام ٣٤٣ حتى ٣٤٠، لم يكتف بإعطائه معارف واسعة، بل رباه على حب الحضارة الهلينية وهيمنتها على اليونان كلها وكانت المطاعم الإمبريالية تزكم أنوف محيط فيليب. الأمر الذي أفضى إلى استعمار مطاعم ومطامح الاسكندر.

كانت بدايات ملكه بالغة الصعوبة وتطلبت من الملك الشاب الجراءة والصلابة. بدأ بتصفية الحساب مع متآمري النبيل المقدوني وكل ذويهم القابليين للادعاء باستلام السلطة. ثم خنق متمردي ثراسيا وإيليريا. وكانت إشاعة موته الكاذبة أمارة عصيان الدول اليونانية. وفي طيبة، أخذت صفة الجدية التامة. وبسرعة البرق، ظهر الاسكندر في بيوتيا، احتل طيبة، دمرها، وباع أهلها عبيدا.

بعد أن انتهى من خصومه في اليونان، أعد الاسكندر حملة الفرس التي داعب مشروعاها أباه. لم يكد جيش الكسندر إلى آسيا (٣٣٤) كبيرا (٢٠ ألف عنصر مشاة. ٥ آلاف فارس و ١٦٠ سفينة). لكن فارس في عهود سلاطين تلك الأيام كانت تشبه بالفعل تمثالا عملاقا ذا أرجل من آجر. الشعوب مرهقة بالضرائب، ومختلف الالتزامات (بما فيها الخدمة العسكرية)، يطغى عليها الحكام، فتتمرد ضد النير الفارسي. كانت حركة التحرر

واسعة وقوية جدا في مصر. والجيش الفارسي، مهما كان قادرا وضاربا، فهو يفتقر للروح القتالية. كان مؤلفا أساسا من قوات جندها الولاة تقاتل مكرهة. وكان المرتزقة اليونان، الذين يبلغ عددهم عشرين ألفا، كانوا قوة فعلية فاعلة. لكن لا يمكن الركون إليهم كليا في حرب ضد مواطنيهم. أخيرا حاول الولاة الفرس أنفسهم التمرد وخلع الأسرة المالكة. والأسرة المالكة نفسها عاجزة، عاطلة. وكانت الملكات وحاشيتهن يلعبن دورا هاما في القصر. واشتهر أحد عناصر الحاشية، المحظي الخصي باغراس، بتسليم العروش بالنتالي لملوك يقتلهم بعد التتويج؛ لكنه قتل خيرا بطمعة من صنيعته الرابع، داريوس الثالث كودومان.

وفي العام ٣٣٤، بعد أن حشد قواته في أمفوليس (على شاطئ ثراسيا)، مشى الكسندر إلى هلسبون. كان الجيش المقدوني يعد عدة قرعات هليلينية (قرابة ٧ آلاف عسكري). وبعد اجتياز هلسبون، انقضت القوات المقدونية على طلائع الفرس قرب غرانيت (نهر يصب في يرونند). ويحتل الكسندر بسهولة مدناً يونانية في آسيا الصغرى، استسلم أكثرها بدون قتال، على اعتبار هؤلاء الفاتحين محررين. لكن ميليت وهلكارناس قاومتا ولم تسقطا إلا بعد معارك ضارية. عالج الكسندر المدن المحتلة بطرق متباينة: فسي بعضها يفتح بقضيته شرائح الشعب الديموقراطية، وفي مدن أخرى، يستند إلى الكهنوت، (في إفيز، مثلاً، حيث كان يوجد معبد أرتميس الشهير). وفي حالات، يعقد صلات قربي مع بعض الشيوخ الأعيان. هكذا، في كارياء، اختارته الأميرة آدا.

وفي العام التالي، مشى جيش الاسكندر لفتح جنوب البحر الأبيض المتوسط. وعندما ولج ثغور طوروس، "أبواب سوريا"، هاجمه الجيش الفارسي اللجب، بقيادة داريوس الثالث من الخلف. وقرب ضيعة إسوس، نجح الاسكندر، بهجوم مفاجيء من كتيبته وخيالته الثقيلة، بنشر الفوضى في صفوف الخصم المتراسة وأنزل به هزيمة ساحقة. هرب داريوس، تاركاً وراءه عسكريه وعتاده، بما فيها درعه وعربته. وسجنت الأسرة المالكة التي ترافقه. أكرهت هذه النكبة داريوس على التفاوض من أجل الصلح. ويجيب الاسكندر برسالة غطرسة، يطلب فيها استسلاماً بدون شرط ولا قيد ويعلن نفسه "سيد آسيا".

ثم، غزا الجيش المقدوني جبيل، صيدا وصور، كانت جبيل جيدة التحصين ولم تحتل إلا بعد ستة أشهر من الحصار. وبهذه الحملة ضم الاسكندر إلى سلطانه فينيقيا كلها. وبعد

أن وُطد سلطته في شاطئ البحر المتوسط، دخل مصر، حيث استقبله الشعب محرراً. إن تأليه الفرعون في مصر العليا والسفلى، جعل الاسكندر يسعى أولاً إلى كسب تأييد الكهنة. ويقدم العبادة الورعة للآلهة المصريين ويسافر ليحج عبر صحراء ليبيا، أمام معبد أمون، ليحصل على بركة الإله العظيم. حياه الكهنة كابن لأمون (أي فرعون مصري) وسيدوه على إمبراطورية العالم.

سعى الاسكندر إلى ترسيخ المفاهيم الإغريقية في البلدان الملحقة ليرسي فيها فتوحاته. ففي ممفيس، مثلاً، نظم مباريات رياضية وموسيقية بمشاركة اليونان المدعويين لهذه الغاية. وأسس مدينة الاسكندرية، في غرب الدلتا، لنفس الهدف. واختار الاسكندر المكان بنفسه. ووزع إدارة مصر على عدة أشخاص. لئلا يعطي السلطة لحاكم واحد.

هكذا حقق الاسكندر، في بحر ثلاث سنوات تطلع النبالة الإغريقية-المقدونية في احتلال ساحل البحر المتوسط. كان الاتحاد الأثيني يحلم بهذا منذ عهد بركليس؛ وتحدث ديموستين في خطباته عن سيرة هيلاد الموحدة في العالم.

على ذلك، كان عليه أن يوطد سلطته في البلدان الواسعة الملحقة، الأمر الذي تطلب وقتاً طويلاً. يقول برمنيون، المرافق السابق لجيوش فيليب لالاسكندر، لدى اطلاعه على شروط الصلح التي اقترحتها داريوس بعد موقعة إسوس: "أقبل، لو كنت الاسكندر". وماذا أجاب الاسكندر: "وأنا أيضاً، لو كنت برمنيون".

باستخدام الثروات المصرية والمواصلات البحرية الحرة مع هيلاد ومقدونيا، مشى الاسكندر، في العام ٣٣١، إلى ميزوبوتاميا عبر سوريا. هنا قرب الضيعة الآشورية غوغملا، على دجلة، دارت معركة أهم من كل معارك الحملة. كان الفرس قد جهزوا جيشاً لجبا، بدت القوات الأغريكو-قدونية أمامه ضئيلة. لكن افتقار القوات الفارسية للوحدة، وكذلك فوضى وجبن داريوس الذي ترك جنوده في أوج المعارك، أمنت نصر الاسكندر. خسر الفرس الكثير من عناصرهم، وسحقت قدرة امبراطوريتهم. دخل الاسكندر بابل، حيث استقبله الشعب محرراً. إن الاحتلال المتلاحق لعواصم الامبراطورية الفارسية: سوز، برسبولس، اسباتلن، وضع بين يديه الثروات الخيالية من الكنز الامبراطوري (١٥٠ ألف تالنت). وحسب بعض المراجع، أحرق القصر الملكي في برسبولس، العاصمة السابقة. لقد وضع موت داريوس^١ نهاية السلاطين الأشمنيد ومكن الاسكندر من إعلان نفسه

^١ - كان قد لجأ إلى ضفة نهر كاسبين وقتله غيلة ببسوس، والي باكتريان، في بارثيا.

خليفة الملك العظيم. آنذ غير سياسته تجاه الفرس: دعم الأرستقراطية، قبل البزة الشرقية، اتبع الاحتفاء الأسوي وأراد تقليده.

لكن مقاومة أبناء البلد، المقدمة خاصة في باكتريان وسوجديان، كبحت تقدمه نحو الشرق. على ذلك استولى الاسكندر على هذه المناطق في العام ٣٢٩، بحجة الانتقام لاغتيال داريوس. فهاجم البكتريون والساجديون، بقيادة سيثامين، رفيق جيوش بيسوس، ماراً بكندا (سمرقند) وذبخوا فيها الحامية المقدونية (٢٠٠٠ جندي). انضمت قبائل الماساجيت والساس المجاورة إلى المتمردين. أنهى الاسكندر التمرد بالترهيب والترغيب (القوة والدبلوماسية: هكذا، تزوج روكسان، ابنة أحد الأعيان البكتريين وحول العرس إلى مظاهرة سياسية فعلية. وشيد في أمكنة استراتيجية هامة، ميادين حصينة سميت كلها الاسكندرية، تطورت سريعاً. تقع أحدها، اسكندرية إيشاتيه (لينيباد)، في الطرف الشمالي من إمبراطوريته.

بعد إخضاع سوجدان وبكتريان، انطلق الاسكندر إلى الهند. وعلى رأس جيش جرار (مؤلف من مقدونيين، يونان وأسويين) اجتاز المضائق ونزل في البنجاب (وادي الهندوس). كلفت عوائق هذه الحملة حياة آلاف الجنود ودواب الركوب. وفي طريقه تابع الاسكندر بناء الحصون والبيادين المنيعه. وقد جعل الصراع المستمر بين الحكام الهندوس الذي استغله جيداً، جعل الغزوة أسهل. وبعد أن اجتاز الهندوس والبيداسب، قاتل ملك الهند الغربية، بوروس (آنذ رأى المقدونيون لأول مرة فيلة المعركة). وهنا أسس الاسكندر مستعمرتيه الأخيرتين، نيكايا وبوكفاليا (سميت هكذا كذكرى بوسفال، حسان الاسكندر المفضل، الذي قتل في إحدى المعارك)، وذهب أبعد، حتى هيغار، هادفاً احتلال وادي الغانج. لكن هذه الحملة الطويلة والقاسية قد أنهكت الجيش. فتنامى الغضب حتى لدى الضباط الكبار، فأكره على العدول عن سياسته الشرقية ومشروعه 'في جعل حدود اليااسة تخوماً لامبراطوريته' (أريان). فتفجرت المؤامرات بدءاً من العام ٣٣٠ بين الجنود (الشباب المقدونيين). تصدى الاسكندر لهذا الوضع بتدابير حازمة، دون تردد بقمع مقريه؛ وهكذا سقط بارمنيون، ملازمه ومعاونه، وفيلوتاس، ابن هذا الأخير، قائد الخيالة. وقتل كليتوس، صديق الاسكندر الذي تجرأ على الاحتجاج على سياسته الشرقية ودعم الفرس، قتل بضربة رمح من يد الملك في أثناء إحدى الاحتفالات.

وفي معسكر هيفاز، رفضت كل القوات، بما فيهم الضباط، متابعة الحملة. وبعد قضاء ثلاث ليالي تحت الخيمة، في عزلة مطلقة، أمر الاسكندر بتشكيل أسطول صغير على ضفة هيداسب، من أجل اجتياز الهندوس حتى المحيط الهندي. بدأ الانسحاب في العام ٣٢٦، وكان صعبا جدا. وعند الوصول إلى دلتا الهندوس، كلف الاسكندر نيارك بمتابعة الطريق البحري (غير المسبور آنئذ) حتى الخليج العربي، بينما عاد هو نفسه عن طريق البر مع ما بقي من جيشه، مجتازا صحارى جندروزيا اللاهبة. وانتهت الحملة في بابل (٣٢٥).

في أثناء الحرب، وكذلك بعد وقف القتال، حاول الاسكندر بطريقة بدائية أحيانا صهر اليونان والفرس في بوتقة واحدة. كان يشجع الزواج المختلط: ففي يوم واحد، تزوج ١٠٠٠٠ جندي يوناني من بنات فارسيات. واتخذ الاسكندر زوجتين له، حسب عادات الملوك العظام، أميرتين فارسيتين. فراح نفوذ النبل الشرقي ينمو في الإدارة، في القصر وفي الجيش. ومن الجدير بالذكر ان الاسكندر كان في الوقت ذاته ينشر الهيلينية لدى الفرس؛ وتعلم ٣٠٠٠٠ ألف شاب فارسي من المقدونيين فن الحرب والعادات واللغة.

لكن سياسة الاسكندر هذه كانت تصطدم بمعارضة أقوى فأقوى. وفي العام ٣٢٤، في أوبيس، على دجلة، نشب تمرد الجند فعلا. قمعه الاسكندر بدون رحمة وأعدم ١٣ قاصرا، وشرع بتشكيل جيش جديد يسود فيه العنصر الفارسي. ومع ذلك التزم بإعطاء المقدونيين الامتيازات، بوعدهم بوضع أميز من وضع الفرس. وفي بابل، عاصمة امبراطوريته الواسعة، بدأ تنظيم هذه الامبراطورية وأعد حملة جديدة باتجاه الغرب، وأنذ مات بالبرداء في العام ٣٢٣.

لقد كان لفتح الامبراطورية الفارسية أهمية كبرى، لأنها أفضت إلى تقارب اقتصادي وثقافي بين الغرب والشرق. ولعب تأسيس عشرات المدن الجديدة ("الاسكندرية") دورا واسعا وعميقا في هذا التقارب، لأنها صارت مراكز تصهر الغريكو-مقدونيين بأبناء البلد الأصليين وتبادل المنجزات الثقافية. يقول ك.ماركس إن "انطلاقه اليونان الخارجية الواسعة تتزامن مع عهد الاسكندر".

على ذلك، يجب أن لا ننسى أن غزو الشرق أفضى إلى تدمير الامبراطورية الفارسية، وإلى إقامة هيمنة جديدة، مؤسسة استعباد شرس للسكان الأصليين على يد الغريكو-مقدونيين؛ لكن هدم فارس لم يصحح شروط الجماهير الشعبية. فقد تلى نير

الامبراطورية الفارسية المهترية استغلال أمكر وأقسي، مارسه المحتلون. وفي الوقت ذاته، كانت إمبراطورية الاسكندر الشاسعة وإمبراطورية الفرس تتشابها في صدور الاثنان من فتح عدة دول تقع على مختلف المستويات الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية. على ذلك، لم تحل الطبيعة غير المستقرة والوقتية لإمبراطورية الاسكندر المقدوني دون ظهور علاقات جديدة اجتماعية وسياسية، تمثل محطة جديدة في تطور المجتمع العبودي. وهنا شيد عالم هليليني جديد على أنقاض هذه الإمبراطورية.

الفصل السادس والثلاثون

الدول الهلنينية

تفكك امبراطورية الاسكندر

لقد وُشمت حملة الاسكندر الشرقية بداية مرحلة سُميت هلنيزية دامت حتى فتح آسيا الصغرى ومصر من قبل الرومان. تمثل الهلنيزية أشكالا أكثر تطورا في مجتمع الرقيق الإغريقي، الذي يشمل أقاليم عديدة من الشرق، بينما ساهمت البلدان الشرقية، المرتبطة بدائرة الاقتصاد والثقافة الأوسطيين، في تقدمها. وفوق أرض امبراطورية الاسكندر نهضت دول مستقلة عظيمة، توفر خليطا عجيبا من المبادئ الشرقية والإغريقية. أي سلطنات مركزية من نموذج شرقي، شريحتها الحاكمة مؤلفة من اليونان، المقدونيين ومن الأرستقراطية المحلية الهلنيزية؛ كانت هذه، بوضعها المتميز، تعارض جمهرة السكان الأصليين المضطهدين من قبل الفلاح الأجنبي أيضا. فاستغلال الشعوب وحروب النهب تسمح للحكام الهلنيزيين بخلق قاعدة مادية لمهام ضخمة يمارسونها في الحياة الاقتصادية والثقافية. فآسيا الصغرى، آسيا الوسطى، المنطقة العربية، الهند، الصين كانت كلها تتاجر مع بلدان أوسطية. وفي بعض الدول الإغريقية حيث أخذت الحياة المادية مدى واسعا جدا، تطور العلم اليوناني كثيرا ومارس نفوذا واسعا على المستوى التقني.

لقد ساهمت العلاقات الاقتصادية بين بلدان الشرق واليونان في تفاعل ثقافاتها. فالمراجع الرئيسة لتاريخ البلدان الإغريقية هي المعطيات الثرة لعلم الآثار، المتطور بفعل الحفريات المحققة في الزمنين الحاضر والمعاصر، والنقود حاملة رسوم الحكام الإغريق وكل أنواع النصوص. في مصر، اكتشف كم من ورق البردي، تشكل دراستها فرعا خاصا لعلم: *papyrologie* أي دراسة البردي. قد عثرنا على معلومات حول الحقبة الهلنيزية عند مؤلفين قدماء مثل بوليبي (التاريخ

العام)، ديودور سيسيليا (مكتبة التاريخ)، سترابون (جغرافيا)، بلوتارك (حياة فوسيون، أومين، دمترىوس بوليورست)، آبيان (الشؤون السورية).

بعد موت الاسكندر، اختصم قواده بضراوة بشأن السلطة. فالافتقار لوريث شرعي حرم الاسكندر من خليفة مباشر. لعب الجيش الدور الأهم في تعيين الحاكم. وبعد جدال عنيف كان يهدد بنشوب نزاع مسلح، سمي فيليب الثالث أريدييه، أخ الاسكندر، المعتوه، ملكا. لكن السلطة انتقلت عمليا إلى بيردكاس، أحد رفاق الاسكندر ومقربيه، الذي سمي وليا. وبعد هذا، عندما وضعت أرملة الاسكندر روكسانا وليدا، سمي هذا أيضا عاهلا. وسمي قادة الاسكندر الآخرون ولاية في مختلف الولايات: بتولميه، ابن لاغوس، استلم مصر؛ أنتغونوس، فريجيا الكبرى في آسيا الصغرى؛ لزماك، ثراسيا. لكنهم لم يرغبوا في الاعتراف بوحدة الدولة ولا بسلطة الولي الأعلى. ولقد كانت الحقبة التي تلت الاسكندر دموية بالحروب بين الحكام، بداية بين 'ديادوك'، ورثة الاسكندر، ثم بين 'أبيغون'. خلفاتهم. كان أول نزاع بين بيردكاس وبتولميه. وليبرز دوره، استولى بتولميه على جثة الاسكندر التي أراد البعض أن يدفنها في مدينة الأموات الملكية في مقدونيا. هاجم في سوريا قافلة الجثمان وأعاد حدث العاهل إلى مصر، ليدفنه في عاصمته، الاسكندرية. أكره هذا العمل ومكائد بتولميه ضد بيردكاس أن يشرح هذا الأخير بتجريد حملة على مصر. لكن هذه القوات تاهت بين فروع النيل المستتعية، حيث نفق الكثير من المقاتلين؛ فأعد ضباطه الذين يكرهونه لغطرسته وفضاظته، مؤامرة وقتلوه.

بعد وفاة بيردكاس، انتقلت الولاية إلى أنتباتروس. كانت الولاية تفترض وجود امبراطورية متكاثفة متحدة، لكن هذه الدولة العظمى كانت بالفعل تزداد تفككا. سلوكوس، وقد صار والي بابل، دخل في كوكبة الديادوك واشترك بنزاعهم المستمر. وبعد هذا، دعم وأكد أنتغونوس وولده دمترىوس بوليورست سيطرتهما في آسيا الصغرى، في سوريا، في فينيقيا وفي اليونان. خلق دمترىوس، القائد المحنك والمهندس العسكري، أسطولا رائعا واشتهر بآلات حصاره، البروج المتحركة ذات الطوابق التي بلغ ارتفاعها ٥٠م والتي تستدعي الإعجاب التام. لقب دمترىوس بوليورست (فاتح المدن).

أخيرا، وبعد ٢٠ عاما من موت الاسكندر، أفل نجم امبراطوريته نهائيا. تحالف بتولميه، سلوكوس، لزماك، كاساندرس ضد أنتغونوس دعي السطة العليا. استعرت الموقعة

الحاسمة في العام ٣٠١ قرب إيسوس، في فريجيا العظمى. كان سلوكوس المساهم الأكبر في نصر الحلفاء، باستخدام قرابة ٤٠٠ فيل، تلقاها من ملك الهند تشاندراغوبتا عرفاناً بالجميل لأنه تخطى له عن ممتلكاته في الهند. سقط أنتيغونوس في هذه المعركة، هرب ابنه إلى إفيز، حيث كان أسطوله. نجم عن معركة إيسوس، المعتمدة معلماً في التاريخ الهليني، تشكيل ثلاث دول "هلينية" عظمى: مصر، سوريا، مقدونيا، يحكمها آل بتولمية، آل سلوسيد وآل أنتغونيد. لكن هؤلاء الأخيرين لم يوطدوا وضعهم في مقدونيا واليونان إلا بعد صراع ضار جديد. ومنذئذ، قدم تاريخ الدول الهلينية، التي ولدت على أرض امبراطورية الاسكندر المقدوني، خصائص ناجمة عن تركيبها وبنيتها.

مملكة آل بتولمية

لقد حافظ أحفاد بتولمية، أبناء لاغوس، على حكم مصر حتى الغزو الروماني (في العام ٣٠ ق.م). فمن جهة، كانت حكومة مصر الهلينية مؤسسة على المبادئ الموروثة من الأزمنة السابقة: سلطة ملكية مستبدة، مركزية محكمة في كل مجالات الحياة، جهاز بيروقراطي متطور. بقي التقسيم الإداري على حاله السابق: استمرت مصر العليا والسفلى بنوماتها-قبائلها وتنظيمها المشاعي أو المشترك. ومن جهة أخرى، رأينا ظهور خصائص جديدة. هكذا، كان جهاز الدولة مكون من اليونان والمقدونيين حصراً، الأمر الذي أحال ابن البلد إلى مرتبة أدنى. وجعل النهج الإداري من السكان الأصليين شريحة مضطهدة، مستغلة.

كان آل بتولمية يعتبرون مصر ملكية خاصة لهم. كان الملك مالك سيادة الأرض، التي قسمها الأكبر مجاله: الـ"أراضي الملكية" يحرصها مزارعون صغار بالوراثة، الـ"المزارعون الملكييون". وما كان يميز وضع هؤلاء المزارعين في مصر الهلينية، هو أنهم ماكانوا أحراراً في نشاطهم الاقتصادي. كان هذا النشاط يسوى بدقة، بتحديد طبيعة وكمية المزروعات المسموح بزراعتها. لم يكن الفلاح قادراً على تغيير الضوابط المكتوبة وكان يلتزم بأداء غرامة ضخمة في حال العكس.

لم تكن أدوات الإنتاج ملك المزارعين؛ فالسلطات المحلية تزودهم بالمواد، كالقمح والدواب. يدفعون كل شيء عينا، وفضلاً عن هذا يقدمون جزءاً من المحصول باسم ضريبة الدخل ومتطلبات متفرقة. وأحياناً يؤدي الحارث أكثر من نصف ما ينتج. واقتصاد

هؤلاء "الفلاحين" موضوع دوما تحت رقابة الموظفين. وتقوم بدقة حقول القمح والحصاد. ولم يكن المزارعون الملكيون مخولين مغادرة الأرض.

فضلا عن الأراضي "الملكية"، كان ثمة أراض "ممنوحة" يمكن استعادتها لكنها متقلبة بالضرائب والمراقبة. جزء منها يهبه الملك للمعابد والسادة. مثلا، عثر على أرشيف ضخ من ورق البردي لزينون، مسجل ملكية كبير موظفي أبولونيوس. تشير الوثائق أن هذا الأخير تلقى هذه الإقطاعة من ٣٠٠٠ هكتار هدية من بتولمييه الثاني فيلادلفا. يضم قسم كبير من الإقطاعة ملكيات "المزارعين الملكيين"، الذين يهبون أبولونيوس، كمزارعة، حصاة كبيرة من الموسم. وكانت مساحة أخرى من الإقطاعة يحرقها عبيد ومأجورون. هنا كان يشيد قصر السيد، مع الكثير من الخدمات التي تؤمن له الحياة الرغدة الهنية.

كان قسم آخر كبير من الأراضي الموهوبة للجنود، للبحارة الرواد وللضباط. بداية تعتبر كممنحة مؤقتة، لكنها شيئا فشيئا تصبح وراثية.

كل الثروات الطبيعية: مناجم وفحم، معادن وملح، ومقالع وسواها، تخص الملك أيضا. ونفس المركزية تميز الصناعة، التي كانت فروعها الأهم، مثل إنتاج الزيت والنسيج، حكرا ملكيا. ويكلف المزارعون العاملون بشراء المواد الأولية بالسعر الذي حددته الدولة. أي بيع آخر معاقب بصرامة. والمواد الأولية المخزنة في مخازن الدولة ترحل فيما بعد إلى المشاريع الملكية. وكان الزيت أيضا ينتج في مشروعات تخص المعابد. لكن ورشات عصر الزيتون تعمل شهرين فقط، وهي برقابة الموظفين. وماتبقى من العام، كان مختوما بالشمع الأحمر. وكانت كل معاصر الزيت مسجلة. وكانت المناسج والمنسوجات منظمة أيضا، مع أقل من التقييدات. قسم كبير منها يخص مشروعات المعابد، الشهيرة بإنتاج منسوجات فخمة. وفروع الصناعة الهامة الأخرى: إنتاج الملح، الجعة، الزجاج، البردي، كانت أيضا حكرا جزئيا. وكانت كمية العمل والأجر مسواة بدقة. كان أغلب العمال أناسا أحرارا، لكنهم يعيشون أسوأ الشروط: مرتبطون بقبيلتهم، وليس لهم الانتقال إلى قبيلة أخرى إلا بإذن، ومن يخالف يعاد بالقوة. ويؤدي غرامة باهظة.

كانت التجارة محتكرة هي الأخرى. تذهب المنتوجات إلى المزارعين العاملين وإلى الموظفين، منظمي التجارة الملكية. والحوول دون المزاحمة الأجنبية، أقاموا حواجز جمركية لعرقلة استيراد البضائع.

كانت التجارة الخارجية تحتل مكانا هاما في اقتصاد مصر الهلينية. كانت البلاد تصدر، إلى الدول الأوسطية، المنسوجات، البردي، الزجاج وبخاصة القمح. ومنذ بداية القرن الثالث، فيما يخص تصدير القمح، أقصت مصر مزاحمتها: ثراسيا وأقاليم آسيا الصغرى. وكان المستورد يتضمن بخاصة مواد الترف للشرائح الحاكمة. ومن المنطقة العربية، تستورد العطور، الذهب، الحجارة الثمينة؛ ومن الهند، العاج، المركبات الملونة، العطارة والرز؛ ومن الصين، الحرير.

كان الدرب التجاري البري يعبر الجزيرة العربية وجنوب سوريا؛ والطريق البحري، عبر البحر الأحمر. لذا أوصل آل بتولمية قناة النيل إلى البحر الأحمر التي حفرت بأمر الفرعون نيشايو. كانت مراكب النقل تتسع حتى ٣٠٠ طن. وكان آل بتولمية يمتلكون أنثى أقوى أسطول تجاري. وكانت دروب القوافل نشطة بشكل ملحوظ. وكانت كسل التجارة الضخمة حكرا على الملك، وكانت كل وسائل النقل (السفن، المطايا) مسجلة ومستخدمة في التجارة الملكية.

فتطور العديد من المدن بشكل كبير. صارت الاسكندرية مدينة ذات أهمية عالمية، واحتلت المقام الأول. وصفها سترابون في كتابه "الجغرافيا". كانت مدينة ضخمة، بنيت حسب تخطيط معماريين يونان؛ دنوكرات دي رودس وسوسترات دي كنيد. يقطعها شريانان، وفيها شوارع عريضة ومستقيمة (طول الشارع الرئيسي ٦ كم). البلاط، النقش وإضاءة الشوارع، والحدائق، الأروقة، المسارح، ميادين الخيل والملاعب، تشكل كلها خواص مدينة هلينية غنية وجيدة الإدارة. وكان حي القصور الملكية يتميز برونق فريد. كان هذا الحي يشغل ثلث المدينة. وكان كل ملك يبني قصرا، يباري روعة سابقه. رياض، حدائق آهلة بالحيوانات النادرة، مساح فخمة، مساكن لزرافة من الخدم قرب مقام العاهل. وهنا تشاد المقابر الملكية، حيث ترقد جثة الاسكندر. وفي الحي ذاته، أقيم المتحف والمكتبة الرائعة الشهيرة. كان متحف الاسكندر ميدانا شاسعا للعلم والفنون. والعلماء، المقيمون والمتغذون على حساب الملك، يعلمون، كما في أثينا، تحت الأروقة والمماشي الظليلة. كانت المكاتب عامرة بعشرات آلاف المخطوطات. جهاز ضخ ينسخها ويدرسها. كان آل بتولمية يتباهون بتقافتهم ورعاية الفنون والعلم. وفي هذا المجال، تشهد ذات المركزية والرقابة التي عرفناها في الحياة الاقتصادية. شبه باحث قديم المتحف بقفص يعيش فيه

العلماء كما الطيور. (أثيني ٤٠١ *Athe'ne'e*).

كانت عظمة وأهمية الاسكندرية الاقتصادية تتبدى في مرفأها، رائعى الترتيب والإدارة. كانت المنارة، المبنية فوق صخرة في جزيرة فاروس، واحدة من معجزات العهد القديم. كانت برجاً ضخماً علوه أكثر من ١٠٠م، مكسو بالرخام الأبيض. في قمته، توارث في الليل نار خشبية ينتشر ألحها في الأفق العبيد، بفعل مرايا معدنية. يشهد هذا الصرح، الذي كلف ثروة ضخمة - ٨٠٠ تالانت - على غنى آل بتولميه الأسطوري ومدى قدرتهم البحرية.

كان سكان الإسكندرية رعاياها الأصليين. خلاف الغريكو-مقدونيين والمصريين، كنا تلقى الفرس، السوريين، العرب، اليهود وسواهم، وهذا ما يثبت مرة أخرى الأهمية العالمية لهذه المدينة. كانت منقسمة، حسب المبدأ العرقي، إلى عدة أحياء مستقلة.

ومن حيث المجتمع والسياسة، كان التمييز بين أبناء البلد الأصليين وبين الآتين الجدد غريكو-مقدونيين هو السمة الأبرز. فالبلد (شورا)، الآلهة بآبن البلد، تقابل المدينة (بوليس) حيث يضطلع بالدور الأول اليونان والمقدونيون والمعمرون الآخرون. كان الملك سيد البلد المطلق، يملك هذا بحق الفتح. وكان السلاطين مؤلهين كما في مصر القديمة، تصاهر أشكال سلطتهم الاستبداد الشرقي. كانوا يحكمون بعون موظفين، أكثرهم مقدونيون ويونان. على رأس الإدارات المركزية يقبع رجال المال، الذين بين أيديهم كل فروع إدارة خزينة الدولة. كان الموظفون يوهبون الأراضي ويتمتعون بكل أنواع الامتيازات.

والجيش، المكون من مرتزقة غريكو-مقدونيين، كان دعامة الملك وسنده. وآل بتولميه، شعوراً منهم بعلاقتهم بالتشكيلات المقاتلة، راحوا يغدقون عليهم الهبات. وقد حموا أيضاً الاكليروس المصري لأهميته الاقتصادية. كانت المعابد تملك أراض شاسعة، ومشاريع صناعية وعبيداً. وكان الكهنة وكذلك العناصر العسكرية والبيروقراطية معفيين من الضرائب. والشرائح المرتاحة من أبناء البلد الأصليين، الذين استخدمتهم الحكومة فيما بعد كسلطات محلية (مثلاً، أمراء قبائل)، والمزارعون العامون المتمتعون أيضاً بالامتيازات، كانوا جميعاً قد اغتوا بسرعة واندمجوا بإرادتهم بالحضارة الهلينية.

كان "المزارعون الملكيون" يشكلون جمهرة الرعية. ولما كانوا مرفقين بالضرائب والالتزامات، مشلولين بتقييد دقيق لنشاطهم، كانوا مرتبطين كلياً بالمزارعين العامين،

بالمراقبين وبالموظفين من كل نمط وصنف. وكانوا يستغلون عمل العبيد في الزراعة والصناعة. وكانت معاملة العبيد متطورة جدا: كانوا مستوردين بخاصة من النوبة.

كان جهاز الدولة المصرية الهليني يبهظ كاهل جماهير الناس. كان منظمة تنهال على استنزاف الشرائح السفلى من الرعية الأصلية، لدعم سلطة الفاتحين الغربيين-مقدونيين، والأكليروس والنبلاء، ولتأمين حياة الرغد والترف لبلاط آل بتولمية وحاشيتهم الضخمة. ولم يستفد من تطور التقنية والتجارة، ومن كل إنجازات الثقافة سوى شرائح المجتمع العليا. كانت سياسة آل بتولمية الخارجية تهدف إلى تحصين حدود امبراطوريتهم في شرق البحر الأبيض المتوسط، أولا في حوض بحر إيجه ثم بسط سلطتهم على فينيقيا وسوريا، وأقاليم الشرق التي توحيدها التجارة البحرية والبرية. في الفترة الأولى من حكم آل بتولمية، كانت مصر تملك سيرين وعدة جزر في بحر إيجه (كريست، جزر السيكلاد، قبرص، لسبوس، ساموس، ساموثراس) وأيضا فينيقيا، فلسطين، وجنوب سوريا. كان بتولمية الثالث إيفرجيت (٢٤٦-٢٢١) يتفرد بسياسة الغزو. فمشى إلى فتح آسيا الصغرى، واحتل ساردس وبابل.

تصدى لطمع آل بتولمية في بحر إيجه وسوريا الأنتيغونيد وسلوسيد. دافعوا بنجاح عن مصالحهم في آسيا الصغرى حتى نهاية القرن الثالث. وفي العام ٢١٧، صرعت قوات بتولمية الرابع في فلسطين، قرب رافيا، الملك السوري أنتيوشوس الثالث الأب.

لكن مصر تراجعت منذ القرن الثاني وفقدت هيمنتها في العالم الهليني. ومن أجل الحروب المستمرة التي كانت تخوضها، كان عدد المرتزقة الأجانب غير كاف بوضوح. وباستثناء اضطرار الملوك لمواجهة المقاومة الدائمة التي تضطلع بها الشرائح المضطهدة، أضعفت البلد النتائج الشؤم لسياسة آل بتولمية الداخلية، المبنية على استعباد الشعب الضعيف. ولقد تبدى النضال الطبقي العارم بالتمردات المستمرة، وبخاصة، بهجرة الفلاحين الجماعية؛ وهكذا تبللت حياة مصر واضطربت. فضلا عن هذا، زعزعت أسس الإمبراطورية الفتن والخلافات في قلب العائلة المالكة، التي كانت تفضي إلى انقلابات دموية على جهاز الدولة. فقد استعار النضال الاجتماعي والسياسي إلى انحطاط البلد.

انتهى تاريخ مصر الهلينية في ثلاثينيات القرن الأخير قبل الميلاد، عندما انتحرت كليوباترا، آخر ملوك بتولمية، بعد هزيمة أكتيوم واحتلال الإسكندرية من قبل الرومان، الذين ضموا مصر إلى إمبراطوريتهم.

دولة السيلوسيدس *Seleucides*

كانت إمبراطورية السيلوسيدس مجمع شعوب عديدة وبلدا متنافرا، تشكل الجزء الآسيوي من سلطنة الاسكندر. وكانت جغرافيا هذه المناطق في غاية التنوع: وديان خصبة وأنهار غنية، جبال، صحارى وسواحل. كانت الشعوب التي تسكنها من مستويات متباينة اقتصاديا وثقافيا، منذ الوجود الرعوي البدائي حتى الحياة الحضارية في المدن الشهيرة. وكان السيلوسيدس يطمحون بمهمة صعبة الإنجاز: خلق من هذه البلدان والشعوب كلا منسجما. هذا ما كان يميز مملكتهم عن مملكة بتولميه، المتحدة من وجهة النظر العرقية والجغرافية.

يجب أن نشير أن دروب التجارة إلى الشرق (نحو الهند، آسيا الوسطى، والجزيرة العربية) تعبر مملكة السيلوسيدس وإلى الغرب (نحو البحر المتوسط)، كانت دروبا نهريّة وبحرية، كالفرات والخليج العربي، وشبه ممرات قوافل. كان السيلوسيدس قد ورثوا المدن التجارية القديمة (بابل، دمشق وغيرهما) ومسالك التجارة التي شققتها فارس؛ وكان التطور السابق قد خلق إذن شروط التبادل النشط بين الشعوب. وقد حدد هذا منذ البدء القاعدة الاقتصادية لإمبراطورية السيلوسيدس، بحيث منح تطور الصناعة والتداول المدن دورا كبيرا. واستمرارا لسياسة الاسكندر، تغلب السيلوسيدس على قرابة ٤٠٠ مدينة أخرى. رغبة في جعلها سدا منيعا لحماية الدولة، صار بعضها مراكز تجارية وصناعية ذات أهمية عالمية، مثل سيلوسيا على دجلة، وبخاصة انطاكية على العاصي، عاصمة الإمبراطورية. فضلا عن هذه المدن، كان ثمة العديد من التجمعات العسكرية سميت *Katoikia*، كانت أحيانا تتحول إلى مدن، مثل ثكنة دورا-أوروبوس على الفرات. وكانت المراكز الحضارية اليونانية هذه تدعم النفوذ السياسي للأولغارشية الغريكو-مقدونية وتشكل جزرا هيلينية في محيط أبناء البلد الأصليين.

واستنادا إلى تنوع أشكال الاقتصاد، التي تميز دولة السيلوسيدس، والعدد الكبير من المدن حيث تمارس الحواضر الإغريقية إلى جانب سلطة الملك العليا، كان صعبا على القيادات مركزة الحكومة كما فعل آل بتولميه. وهنا أيضا، كان الغريكو-مقونيون يتمتعون بوضع متميز ويسيطرون على أبناء البلد عوض الفرس. كانت السلطة الملكية مؤهلة، وكانت عبادة الملك رسمية. وكان الملك نفسه هو الذي يسمى الكهنة للممارسة

عبادته. كان السيلوسيدس يقولون إنهم سلالة الإله اليوناني أبولون، لكنهم في الوقت ذاته كانوا يدعون أخذهم السلطة من الإله البابلي بل-مردوك. ومن هنا أتى ازدواج سلطة السيلوسيدس. كان الملك يملك جهازا ضخما من الموظفين لجباية الضرائب، بإشراف أحد المختصين؛ أي ممارسة نهج معقد وذكي، بهدف استنزاف الرعية.

غير أن المركزية كانت أضعف مما في مصر. يملك الملك أكثر الأرض، لكن مساحات شاسعة ترك للمعابد، للمدن وللأفراد. وفي حقل الصناعة والتجارة، إلى جانب احتكار الملك لهما، كانت تتطور مشروعات خاصة.

كانت المدينتان الرئيستان أنطاكية وسليسيا، صلة وصل بين الشرق والغرب. أهم مدينتين بعد الاسكندرية. وكانت أغلب مدن اليونان تتمتع بالاستقلال. لها مجالسها وجمعياتها الوطنية، وموظفوها المنتخبون، ومعاهد للمراقبين، ودور رياضة وحلبات لألعاب القوى.

كان السيلوسيدس يولون المعابد أهمية أولى، جاهدين في كسب الدين لدعم نفوذهم بين الرعية. عدا أنهم كانوا يخططون لتوطيد أركان امبراطوريتهم بخلق منظمة عسكرية ونهج إداري واحد. فقسموا الدولة إلى ٧٢ ولاية، يحكمها رجل استراتيجي-محك بالشؤون الحربية؛ وأدخلوا إليها نهجا نقديا وتقويما وحيدا، ومنذ العام ٣١٢ بدأ الس-عهد السيلوسيدس". ورغم كل هذا، لم تكن دولتهم قوية ولا مستقرة. كانت الشعوب هنا تتطلع إلى الحرية. وكان النير الضريبي وعسف الموظفين يفضي إلى تعميق وتوسيع التيارات الانفصالية. بلغت امبراطورية السيلوسيدس أوج امتدادها في عهد سيلوكوس الأول نكاتور (المنتصر، ٣١٢-٢٨٠) الذي بسط حدوده من آسيا الصغرى حتى الهند وملك على سوريا وفينيقيا. لكن التفكك بدأ في عهود أحفاده المباشرين. خسر أنطوشوس الثاني (٢٦١-٢٤٧) باكتريان وبارثيا. وبجهد مضن جمع أنطوشوس الثالث العظيم دولة كانت عند حد التبدد.

قاد هذا العاهل صراعا مستمرا ضد مصر. نجح مؤقتا في احتلال فلسطين وفينيقيا. لكن تدخل روما وضع حدا لدولة السيلوسيدس. فبعد هزيمة أنطوشوس (١٩٠ ق.م) أمام الرومان في مانيزيا، صارت سوريا عمليا محمية لروما؛ وأخيرا، في العام ٦٤، تحول ما بقي من الإمبراطورية إلى أقاليم رومانية.

إن الصراع الطويل من أجل استقلال فلسطين في عهد أنطوشوس إيفان (١٧٥-١٦٤)، مثال على مقاومة الشعوب المضطهدة.

كان سبب هذه الحركة هو منع العبادة العبرية والأغارقة المفروضة من قبل أنطوشوس إيفان؛ ويهوذا، ابن ماثثياس، الملقب ماكابي (طبعاً من الكلمة اليهودية ملكييت، المطرقة)، ترأس الحركة الشعبية، التي استعرت بنضال حاد ضد العناصر الارستقراطية التي كانت قد ألحقت بالمضطهدين الأجانب. كانت القدس مركز الصراع. بداية، هزم المتمردون، وأعمل الملك مذبحاً هائلة: قتل الرجال، وبيعت النساء والأطفال عبيداً، ودمرت جدران القدس. لكن مقاومة اليهود لم تسحق، اتسعت الحركة وبلغت شرائح يهودا الناجرة والحرفية. وفي العام ١٤٢، استرجع سيمون ماكابي (أخ يهوذا) القدس وأرسى الاستقلال. استمر الصراع، لأن السيلوسيدس لا يمكن أن يعترفوا بخسارة القدس. لكنهم لم يستطيعوا احتلالها مجدداً.

امبراطورية الأنتغونيد *Antigonides*

بعد موت أنتباتروس (٣١٩)، احتل مقدونيا كساندروس الذي وضع أنصباره على رأس كل الدول اليونانية. وهكذا، عادت سلطة أثينا إلى دمتريوس دي فالير الذي حكم معتمداً على الحامية المقدونية. مارس مبادئ أرسطو، ففضى على ديموقراطية أثينا، وفرض الضرائب واحتل ثروة الفئات الغنية. واعتبره الأثينيون طاغية.

كان دمتريوس بوليورست، ابن أنتيغونوس، "محرر" الأثينيين وباقي اليونان. ظهر في العام ٣٠٧ في البيري مع أسطوله وأعلن بواسطة البشير أن أباه كلفه بتحرير الأثينيين وإعادة أعمال القوانين السابقة. طرد من أثينا دمتريوس دي فالير وأعاد الديموقراطية. مجده الأثينيون بل عظموه. وهبوا لقب الملك لأنتيغونوس ودمتريوس، رفعوا لهما الأنصاب، خلقوا قبيلتين جديدتين باسمهما، إلخ. لكن دمتريوس لم يستطع في هذه الحقبة أن يستولي على اليونان كلها. فدعاه أبوه إلى آسيا الصغرى ليقاتل ورثة الاسكندر المتحالفين. وبعد هزيمة أنتيغونوس ودمتريوس استطاع قرب إيسوس فقط، أن يستعيد موقعه بفتح مؤزر لليونان، وعاد في العام ٢٩٧. احتل دولا يونانية وصار ملك مقدونيا (٢٩٣).

كانت حكومة دمتريوس في هيلاد (٢٩٣-٢٨٨) استبدادية جامحة جرجت كليته اليونان. هكذا، عندما كان العاهل يعيش في أثينا، كان يسكن البارتيون؛ وأعاد لمحظيه المال المنهوب من الناس تحت اسم ضرائب، إلخ. وقد أثارت إقامة دمتريوس في شبه

جزيرة البلقان مقاومة الملوك الهلنيين الآخرين. ونشبت نزاعات مع فيروس، ملك إبيريا؛ أما بتولميه، سلوكوس ولزمالك، فقد تحالفوا من جديد ضد دميتريوس. وفي العام ٢٨٨، اقتحم لزمالك وبيروس مقدونيا من الجهتين المتقابلتين واحتل بتولميه أثينا. ترك دميتريوس في اليونان ابنه أنتيغونوس غوناتاس، وعاد بأسطوله إلى آسيا الصغرى، حيث هزم في صراعه ضد سلوغوس، واضطر أن يستسلم في العام ٢٨٦. واضطر أنتيغونوس غوناتاس، الذي تسلم العرش بعد موت أبيه (٢٨٣)، أن يخوض معركة ضارية ضد آل غالاتس (٢٧٩) الذين دخلوا البلاد ووصلوا دافيا. أسس أنتيغونوس غوناتاس (٢٨٣-٢٣٩) أسرة الأنتيغونيد المقدونية. ووطد سيطرة مقدونيا في شمال ووسط اليونان، ووضع حاميات مقدونية في نقاط استراتيجية رئيسة: بيريا، منيشيا، كورنثيا، دمترباد، إلخ. كان أنتيغونوس غوناتاس، الذي تربى بروح الفلسفة الإغريقية، تلميذ الرواقيين؛ أحاط نفسه بالعلماء والشعراء اليونان. واستنادا إلى قوة النفوذ الإغريقي وغياب الاستبداد، لم تكن سلطة الإنتيغونيد ملكية؛ فقد حافظت على طبيعة السيطرة. وفي صراعهم من أجل الهيمنة على حوض بحر إيجه، اصطدم الأنتيغونيد بآل بتولميه وآل سيلوسيدس. فضلا عن هذا، توجب على ملوك مقدونيا أن يرأسوا قبائل الشمال والشرق الذين كانوا يهاجمون ممالكهم. ومنذ نهاية القرن الثالث، يبدأ تغلغل روما في البلقان، وبعد صراع طويل، صارت مقدونيا في العام ١٤٨ ولاية رومانية.

مملكة برغام Pergame

ولدت هذه الدولة في منطقة برغام، بناها أحد خلفاء الاسكندر (لزمالك)، وبفعل وضع سياسي ملائم، نالت استقلالها في العام ٢٨٣. أوقف الملك أثال (٢٤١-١٩٧) المنتصر على الغالات، وسعه في آسيا الصغرى وعزز تحصين مملكة برغام. استغل ملوك أسرة الأتاليد بمهارة الصراع الدائم بين آل بتولميه وآل سيلوسيدس ومارسوا سياسة ذكية مع روما. بلغت مملكة برغام ذروتها في النصف الأول من القرن الثاني. كان هذا يوم تحولت روما إلى دولة متوسطة وصارعت مقدونيا وأنتوشسيوس في سوريا. كانت روما بحاجة لمن يؤازرها في الشرق، لذلك كافأت بسخاء ملك برغام أومين الثاني لقاء المساعدة التي قدمها، بإعطائه قسما كبيرا من آسيا الصغرى. أراض خصبة، مراعي غنية، غابات، معادن، مرافئ عديدة مزدهرة، كانت كلها بمثابة عناصر مناسبة ليزدهر اقتصاد برغام. حازت

بعض فروع الصناعة فيها شهرة عالمية. كان ديباجها وأصوافها ذائعي الصيت في الحوض المتوسط؛ وسميت مواد الكتابة المصنوعة من جلد العجول أو الخراف *"parchemin"*، نسبة إلى مكان إنتاجها الذي كان برغام. وكان أسطول ضارب يؤمن علاقاتها مع رودس، أثينا وديلوس.

كانت مملكة برغام التي تتضمن العديد من المدن، تشبه كثيرا الدول الإغريقية الأخرى. إذ كان ملوكها يحاولون أيضا احتكار فروع الاقتصاد الرئيسية. لكن تباين البلاد (سكان أصليون ومدن يونانية متطورة) منعت تحقيق مشروعاتهم. وفيما يخص الملكية العقارية، والصناعة والتجارة، كان فيها، إلى جانب ملكية الملك، ملكية المعابد والأفراد. ولقد أرث الاستغلال الوحشي للعبيد، للفلاحين والناس الأحرار المستخدمين في الورشات الملكية والخاصة، النضال الطبقي وألهب، في العام ١٣٣-١٣٠، عصيانا في أرسنوكوس. من وجهة النظر الحضارية، لعبت برغام، أحد أصغر الممالك الإغريقية، دورا هاما جدا. فقد أراد ملوكها أن يشتهروا بحماية الفنون والعلوم. وكمعجبين بالثقافة الإغريقية، كانوا يدعون إلى قصورهم العلماء، الفنانين، وبنوا المكتبة الرائعة التي فاقت من بعض الزوايا، مكتبة الإسكندرية. وكان الملوك أنفسهم يرعون معهد ألعاب القوى في برغام، حيث يربى الناشئة، بعد أن وضعوه تحت مراقبتهم المباشرة. وكان الملوك يدعمون الدين الإغريقي. ولقد تفرد ملوك الإغريق بتسمية كبار الكهنة واستخدموا الدين لتعزيز سلطتهم، بربطه بعبادة الملك.

كانت برغام شهيرة، بين المدن الهلينية، بجمالها وانتظامها. وكان معبدها الضخم الرائع، الذي شيد لتمجيد زيوس، أبهى آثارها وأجملها.

في منتصف القرن الثاني سقط الأتاليد في ربة الرومان، "حماتهم"، الذين صاروا سادة البلاد الفعليين. ترك أتال الثالث، الذي رأى عدم جدوى المقاومة، والذي خاف من تقاعص الصراع الطبقي، ترك مملكته للرومان. وفي العام ١٣٣، تحولت برغام إلى محمية رومانية باسم "الإقليم الآسيوي".

رودس

في العالم الهليني احتلت جزيرة رودس مقاما متفردا. بموقعها بين آسيا الصغرى، سوريا، مصر والدول اليونانية البحرية والبرية، كانت وسيطا في غاية الأهمية بين المراكز

الهلينية. انتقال الدروب التجارية نحو جنوب بحر إيجة، وانتصار الاسكندر الكبير على صور، والمركز التجاري السابق للساحل الفينيقي، جعل رودس، في القرن الثالث، مرفأً بحرياً هاماً ونقطة انتقالية في غاية الأهمية. كانت البضائع الرئيسية القمح، الخمر، والعبيد تعبر مرقأها. وكان عبورها يتجاوز عبور أهم المرافئ اليونانية، يوم كانت في أوجها. وكانت رودس شهيرة أيضاً بأعمال المراقبة. وبين مدينتيها، بعض الملوك الأجانب.

ونظراً لضيق مساحتها وعدم كفاية مياهاها الطبيعية لتغذية رعيته، كانت رودس تعيش من التجارة. لذا خاضت نصالاً ضارياً ضد القراصنة لتأمين البحر، وكان صراعها كبير الأهمية في تمتين الروابط البحرية بين الدول الهلينية. وكان تعمير السفن الحربية يقع على كاهل المواطنين الأغنياء الكبار. وكان بحارة رودس معروفين بحنكتهم.

واهتماماً منهم بتوطيد وحدة الدول الهلينية، الضرورية لتطوير علاقاتهم الدولية، قبل سكان رودس سلسلة من القوانين الناظمة لتجارة البحار. ومن حيث المظهر الخارجي، كانت المدينة تثبت ازدهار الدولة. يكتب سترابون: "إن مدينة الروديسيين تتجاوز بمرفأها، شوارعها، أسوارها وصروحها العامة الأخرى باقي المدن". لكن مجدهم، كان يتبدى في تجهيز أحواض سفنهم؛ فلم يسمحوا للأجانب بدخولها، لكي يصونوا سر أطقمها.

من حيث السياسة، كانت رودس جمهورية تجارية، فسلطتها في يد ثلة مغلقة من الأرستقراطية المتاجرة. فكانت ولاية أغارشية متفردة. الجمعية الوطنية، المجلس والولاية هم عناصر السلطة. الدور الرئيس بيد ستة حكام منتخبين لستة أشهر من أعضاء المجلس. والسلطة الحربية تخص قائد الأسطول. وكبار الموظفين جميعاً من محتد أرسقراطي.

بدأ انحطاط رودس في منتصف القرن الثاني ق.م، يوم دعم الرومان، بعد أن صاروا سادة البحر المتوسط، تفوق جزيرة ديلوس، بمنحها حق التجارة الحرة، المعفاة من الجمارك.

بكتريان، سوجدیان، خوارزم

كما تدل أعمال علماء الآثار السوفيات، بخاصة أعمال س.تولستوف، كانت آسيا الوسطى، لاسيما خوارزم، واحدة من المناطق الأقدم في الحضارة الإنسانية. فعند غزو آسيا الوسطى، اصطدم الاسكندر المقدوني بالعديد من القبائل الزراعية والرعية. وفي امبراطورية السيلوسيدس، كان دور أراضي آسيا الوسطى وشعبها يزداد أهمية. وفي العلم

٢٥٥، أعلن الوالي ديودوت نفسه عاملاً على باكتريان وسوجديان. في تلك الحقبة، كان تطور اقتصاد وثقافة هذه البلدان الواقعة بين المجرى الأوسط لنهر إيساكرت وأوكيس (اتلسير-داريا والأموداريا) قد بلغ مستوى عالياً: إذا ما صدقنا الكاتب الروماني جوستان، "كانت تسمى بلد المائة مدينة". وحسب معطيات علم الآثار الحديث، كان هذا الإقليم يخصص بالمدن، وكان بعضها مدناً كبيرة. كانت مساحة باكترس (اليوم بلكاه) ١٦ كم^٢. ولقد ضُرب ديودوت النقود؛ وتشهد نقود هذا البلد الغريكو-باكتريين، التي وصلتنا، على تقدم تقني فذ.

في عهد ديودوت وأحفاده المباشرين، بقيت البلاد في علاقات ثقافية واقتصادية مع نواة ميزوبوتاميا-السورية من إمبراطورية السيلوسيدس. إنما بدأ الانحطاط السياسي لهذه الإمبراطورية، أيام نمو دولة آسيا الصغرى الحديثة السريع. وفي العام ٢٢٧، استلم السلطة القائد العسكري اللامع أوثديم، اليوناني الأصل، وبعون القبائل الأصلية (الساس *Saces*)، خاض صراعاً ضد السيلوسيدس أنطيوخوس الثالث. كانت دولته تشمل آسيا الوسطى، من بحر كاسبيين *Caspienne* حتى حدود الصين، تقريباً كل إيران والأراضي التي تتاخم المجرى الأوسط والأدنى من أمو-داريا وتنبسط حتى السهوب والمناطق شبه-الصحراوية. وكان الشعب المزارع يعيش في ضيع ضخمة منيعة، ذات فن معماري رفيع. اكتشفت أوابدها ودرست في خوارزم على يد س. تولستوف، الذي سمى تلك الحقبة من تاريخ آسيا الوسطى "حضارة الكانغوي *civilisation de Kangui*". كان مركز هذه المملكة العظيمة مدينة سمرقند، التي كان ريفها غاصاً بالسكان ويفيد من شبكة واسعة من الأقنية. كانت حديقة واسعة، "لؤلؤة إيران"، كما يقول الكاتب أبولودور. وكان وادي فرغانا، وهو جزء من دولة أوثديم، مزدهراً هو الآخر. وكانت الممالك مقسمة إلى مقاطعات إدارية، إيالات، وتضم أيضاً أمصاراً شبه-مستقلة. وكان في أمو-داريا بحرية حربية. وقد أقامت الدولة الغريكو-باكتري علاقات اقتصادية مع الصين والهند من جهة، ومع ميزابوتاميا وسوريا من جهة أخرى، وكانت البعثات تنطلق إلى سيبيريا الغنية بالذهب.

من المرجح أن التنقيبات الجديدة ستطلعنا على العلاقات الاجتماعية والكثير من الظواهر الهامة من الحياة السياسية التي عاشتها هذه الدولة المحطة الأهم للثقافة الإغريقية من آسيا الوسطى، اكتشفت حديثاً على يد علم الآثار السوفياتي.

عدا الدول الهلينية المذكورة، كان ثمة دول أخرى. كان أهمها البارثي والبونت التي يرتبط تاريخها بخاصة بتاريخ روما.

الفصل السابع والثلاثون

اليونان الهلينية

بعد موت الاسكندر المقدوني، اشرأبت آمال التحرر من النير المقدوني لدى كل الدول اليونانية. وترأس أثينا هذه الحركة العارمة الشاملة. وتحول التمرد إلى حرب لامية (٣٢٣-٣٢٢)، باسم مدينة لاميا، في ثساليا، حيث حوصر انتباتروس، حاكم مقدونيا، لكن النزاع، الذي كان بداية لمصلحة اليونان، انتهى بنصر مقدونيا وذبح العصاة. وتوطدت سيطرة مقدونيا من جديد، وأدين ديموستين، الذي اضطر إلى ترك أثينا بالموت غيابيا، وتجرع السم يائسا.

على ذلك، لم تسحق مقاومة أثينا الضارية. بل نشبت حرب جديدة بقيادة الأثيني كروموندس، في أواسط القرن الثالث. وانتهى النزاع بهزيمة اليونان أيضا. وخنقت الديمقراطية الأثينية. ولم تعد أثينا تلعب الدور الرئيسي في النضال من أجل استقلال وتحرير كل هيلاد. وبعد اندحارها، انتقلت السيادة في تاريخ اليونان إلى دول أخرى.

كانت أزمة الاقتصاد العبودي عميقة جدا في دولة متطورة مثل أثينا. وقد نجم تبدل الطرق التجارية نحو الجنوب الشرقي عن أهمية الشرق الأدنى المتنامية؛ وظهور المراكز الجديدة (الاسكندرية، رودس، وغيرها) التي احتلت طرقا دولية؛ وتفاقم الصراع الاجتماعي بين الجماهير البروليتارية والفئات الغنية، وأفضى كل هذا إلى تأخير دول اليونان البقارية، المزدهرة سابقا. وبالمقابل، كانت الدول الأكثر تخلفا، حيث التناحرات الداخلية أقل بروزا، كانت أكثر استمرارا وأكثر تصميمًا على النضال الدائر.

اضطلع بالدور الأهم في حياة اليونان للقرن الثالث ق.م. اتحادات المدن، بخاصة اثنتان: الجامعة الإيتولية والجامعة الآسية. استطاعت الأولى (حوالي العام ٣١٤)، التي عززها التطور الحرفي والتجاري، أن تطرد احتلال الغالات في العام ٢٧٩. وضممت أيوليا، بعض مناطق اليونان الوسطى، بخاصة دالغيا، وجنوب ثساليا ومدنا أخرى.

والجامعة الآشية التي كانت تضم، عدا أشياء، مدن اليونان الأهم: سيسيون، كورنثيا، ميغار، احتلت أخيرا القسم الأعظم من بلوبونيز.

بخلاف الاتحادات السابقة، كان المتحدون متساوين بالحقوق والاستقلال في شؤونهم الداخلية. وكان يوجد في الجامعتين، مؤسسات عامة للسلطة: (١) الجمعية العامة، تجتمع مرتين في العام، ويمكن أن يشترك فيها كل أعضاء التجمع المتحد؛ (٢) المجلس المنتخب، وهو المؤسسة الدائمة؛ (٣) الحاكم، المنتخب أيضا، رئيس السلطة العسكرية والمدنية. يصدر الخلاف بين الجامعتين من حيث تكونهما. فبينما تضم الجامعة الآشية المدن الكبرى التجارية، مثل كورنثيا أو ميغار، تضم الجامعة الإيتولية الصفة الأكثر ديمقراطية حيث تهيمن المبادئ الأولغارشية.

اكتسبت الجامعة الآشية أهمية فريدة في عهد الحاكم أراتوس (٢٤٥-٢١٣) الذي حولها، حسب بلوتارك، "إلى جسد سياسي متحد". شغل منصب الحاكم لـ ٣٣ سنة وعرف، بدعم من الأولغارشين، أو يوسع حدود الجامعة، فألحق مدنا كبرى مثل كورنثيا، ميغار وميغالوبولس. وكان لانضمام كورنثيا أهمية كبرى جدا، لأنها، عدا دورها الاقتصادي، كانت تحتل موقعا استراتيجيا من الدرجة الأولى. عقد أراتوس صلات صداقة مع مصر ومقدونيا. وبفضل نشاطه، أخذت الجامعة الآشية وزنا على المدى الدولي وبدأت تتدخل في حياة الدول البلوبونيزية. من الطبيعي أن يثير هذا التوجه الأولغارشي في الهيمنة مقاومة الدول الأخرى، بخاصة الدول الديمقراطية. فقامت علاقات عدا بين التجمعين المتحاربين من أجل السيطرة على اليونان.

كانت إسبارطة وحدها تمسك بيديها الدور الأول. ولقد بدلت العلاقات النقدية وتطور الملكية الفردية تبديلا هاما في القرن الرابع الاقتصاد المتخلف طبيعيا. ولقد سدد الحاكم السبارطي ابتادوس (في حوالي العام ٤٠٠) طلقة الرحمة إلى النظام المشاعي. حسب هذا القانون، يستطيع الإنسان أن يوصي كما يشاء (وحتى أن يبيع) نصيبه من الأرض. وتم، من جهة، تمركز الأرزاق العقارية بين يدي عدد محدود من السبارطيين (قراية ١٠٠ أسرة نبيلة)، ومن جهة أخرى، خراب وإفقار وتكبير بالديون أوسع فئات إسبارطة. وتتبدل الأخلاق فجأة: كما يذكر بلوتارك، وتتحمس النبالة اللاسدمونية لجمع الفضة والذهب. ويحل البذخ والرغد مكان الشظف والتشظف السابق. وتتحول إسبارطة إلى عدد من الأسر فاحشة

الثراء وتصير حاكمية إسبارطة السلاح الرئيسي. وقد اضعف السلطة الملكية أكثر فأكثر خوض معركة بين الشخصيات الجديدة واندحار العائلات القديمة. ويخلق استعمار التناحرات الداخلية وضعاً سياسياً متأزماً انتهى بانفجار، حثته إصلاحات الملك الشاب أجيس الرابع (٢٤٥-٢٤١).

رعى هذا المصلح ابن التاسعة عشر ربيعاً بروح الفلسفة الرواقية التي تجدد دور الأرزاق المادية في الحياة. وكان يعتبر أخلاق إسبارطة القديمة الممثل الأعلى للحياة الاجتماعية ويؤمن بإمكانية تجديد دور بلاده بإعادتها إلى النظام الذي أقامه منذ قرون الخرافي ليكورغ. ففي القرنين الرابع والثالث ق.م. ظهرت فيها أعمال سياسية وفلسفية. واستناداً إلى هذا الأدب، اقترح أجيس العودة إلى النظام السابق بتوزيع الأرض على السبارطيين الفقراء والمحرومين من كل الحقوق. وخلق الأساس الزراعي، كان يجب، حسب أجيس، مصادرة من الأولغارشية الحقول التي حازتها رغم شريعة ليكورغ، وتقسيمها بالتالي إلى ٤٥٠٠ حصة أو سهم. وعند عدم وجود إسبارطيين، يكمل العدد بمن تلقى "تربية راقية". وشرع أيضاً بخلق ١٥ ألف حصة خاصة بهم. وهكذا رفعت القدرة القتالية السبارطية، المؤسسة على المواطنين المحاربين وليس على المتطوعين. ورغب أجيس في بعث المؤسسات وعادات إسبارطة القديمة، بخاصة تربية الدولة، أي أخلاق التقشف والشظف. لكنه رغب في فرض هذا البرنامج من أعلى، دون إلغاء النظام القائم؛ وفضلاً عن هذا، سعى إلى إرساء الوضع السابق. بداية نجاح نشاطه. وألغيت سندات الديون. لكن ما أن طالب الشعب بتوزيع الأرض حتى بدأ رفلاق نضال أجيس (مثل أجزلاس المالك العقاري الغارق بالديون) مقاومته بحزم وحالوا إبعاد الملك. اقتنع أجزلاس بمؤازرة الجامعة الآشورية له كونها ضد الجامعة الإيتولية. وكان لغياب أجيس نتائج مؤسسية على الإصلاح الذي، أمام معارضة وازدواج الرؤساء، لم يفض أبداً إلى توزيع الأرض. احس الشعب بأنه غدر؛ ويئس محرضو الحركة وخاب رجاؤهم. ولما عاد الملك إلى إسبارطة، لم يستطع مصالوة خصومه. ولما هدد من كل الجهات، اضطر أن يلجأ إلى أحد المعابد، فلم يتردد بعض الحكام من القبض عليه وقتله.

: لكن هذه المشروعات انبعثت من جديد على يد كليومين، الذي صار ملكاً في العام ٢٣٥. لابل كثرت الخطط ونشطت الأساليب. وفضلاً عن التدابير الاجتماعية والاقتصادية،

كان ينوي البدء بإصلاحات سياسية: قمع الأولغارشية، دعم نفوذ إسبارطة الخارجي، وبسط هيمنتها على كل اليونان. وبعد تجهيز جيش مرتزقة ضارب، ناصر الجامعة الآشية. وبعد أن دعم وضعه، رجع إلى إسبارطة وقام بانقلاب مسنداً إلى قواته. اغتيل الحكام السبارطيون ورميت مفروشاتهم إلى الشارع، إمارة على إلغاء الحاكمية. وأبطلت *la gerousia*. ونفي أنصار الأولغارشية. وأتى ذوو التربية الصالحة والأرقاء ليضخموا صفوف المواطنين. وورعت الحقول المصادرة إلى أسهم مشتركة. ومثل أجيس، سعى كليومين إلى عودة الأخلاق السابقة وتوطيدها واتباع هو نفسه المسنن الماضية. وشكلت مملكته، وقد صارت مركزاً ثورياً، خطراً كبيراً على الفئات المالكة في الدول المجاورة، بخاصة على الجامعة الآشية. وفي أركاديا وكورنثيا، تعاطف كل الشعب مع كليومين وأرادوا أن يطلقوا طليقة الرحمة على الأغنياء.

كان أراتوس هو الذي يقود النضال الاجتماعي في إسبارطة. ولقد ضحى باستقلال هيلاد يوم دعا ملك مقدونيا، عدو اليونان المعروف، لمساعدته. يسمى بلوتارك هذه الخطوة "خطوة مدانة من يوناني". فبمساعدة انتغونوس دوزون، ملك مقدونيا، دحر كليومين في سلازيا (٢٢١) وهرب إلى مصر. وفي إسبارطة، ألغيت إصلاحاته لتعود إليها الأولغارشية.

يلعب فشل هذه الحركة بخاصة من أن عتق العبيد وإصلاح وضع الأرقاء لم يكن أبداً الهدف المباشر للمصلحين. هكذا، حرر كليومين بعض الأرقاء المشرفين على كآخر تدبير ليدعم جيشه في القتال ضد الجامعة الآشية.

تفاقت الأزمة الاجتماعية في إسبارطة وأحرق الخطر بالأغنياء ملاك العبيد، بخاصة عندما انضم العوام إلى الأرقاء. وفي العام ٢٠٧، قاد نابيس، وقد صار أحد الطغاة المستبدين، المضطهدين المتمردين. وفي عهده، بلغت الصراعات الاجتماعية ذروتها. أعطى العوام والأرقاء حق المواطنة، أبعد الأغنياء ووزع أرزاقهم على المملكين. وسعى لتعزيز القوات المسلحة، جند العديد من المرتزقة وتحالف مع كريت ليقرصن البحار مع قرصنة كريت.

إن بعض الباحثين القدماء مثل بوليب، بلوتارك أوتيت-لايف، لسان حال الطبقات السيدة، يقدمون نابيس بطريقة مغرضة جداً: كان، باعتقادهم، طاغية فظا وشرها، يحيط

نفسه، حسب بوليب 'بالقتلة وقطاع الطرق'. ونحن لانملك سوى معطيات. ضئيلة لإعطاء صورة صادقة عن عهده. والمؤكد أنه حقق إصلاحات جسورة وعرف كيف يخلق من إسبارطة دولة عزيزة الجانب، تحترمها مقدونيا وروما.

وبعد خمس عشرة سنة من الحكم، سقط نابيس في العام ١٩٢ في الصراع ضد الجامعة الآشية، الذي أثاره الرومان. قتله غيلة الإيتوليون الذين دعاهم هو نفسه لمعاونته. وبعد موته، خنفت الحركة الشعبية بوحشية في إسبارطة، التي انضمت إلى الجامعة الآشية وتخلت هكذا عن استقلالها.

في تلك الحقبة، كانت سياسة مقدونيا الخارجية، وكذلك الدول الأخرى الهامة والجامعات الإغريقية، تتعلق بروابطهم بروما. احتل الرومان شبه جزيرة البلقان في نهاية القرن الثالث ق.م. كان الوضع ملائما جدا لأساليب المحتلين. كان تفكك العالم الإغريقي، والحروب الداخلية المدمرة، وتفاقم الصراعات الاجتماعية داخل الدول تفرش البساط أمام التدخل الروماني. وكانت سياسة الرومان تقوم على إذكاء هذا العداء والإفادة منه لإرساء سيطرتهم. فضلا عن أن الرومان كانوا يؤمنون دعم الأرستقراطية اليونانية بتشجيع الأحزاب الموالية لهم.

نجم احتلال الرومان لشبه جزيرة البلقان عن ثلاث حروب مقدونية، دامت منقطعاً من العام ٢١٥ إلى ١٦٨. كانت حرب مقدونيا الثانية (٢٠٠-١٩٧) هي صاحبة السهم الأكبر في توطيد السيطرة الرومانية في البلقان. وقد حاول تيتس كونتيوس فلامينيوس، الاستراتيجي والدبلوماسي الروماني الماهر، تقديم الغزو الروماني كـ "تحرير اليونان" من النير المقدوني. انتهت حملاته الموفقة ضد فيليب الخامس، التي تمت بالاتحاد مع الجامعات الآشية والإيتولية، أثينا وإسبارطة، بنصر سنوفاليس (١٩٧). كانت مقدونيا في النزاع الأخير، فسقطت هيلاد كلها بيد الرومان. وبعد التمرد الذي أجهض في العام ١٤٦، فقدت اليونان استقلالها نهائياً. وصار استقلالها منذئذ مرتبطاً ارتباطاً متيناً بتاريخ روما، التي لم تكن أكثر من إيالة متواضعة.

الفصل الثامن والثلاثون

الساحل الشمالي للبحر الأسود

الإغريق والسيث *les Grecs et les Scythes*

لقد أغنت التنقيبات في شواطئ البحر الأسود الشمالي، التي أخذت أوسع مدى في النظام السوفياتي، كل عام العلم بكشوفات جديدة. فالعلم السوفياتي يسعى للكشف عن السمات الأصلية لحياة السكان الأصليين وتوطيد تفاعل ثقافة هذه الرعايا والمعمرين اليونان.

شرع اليونان بإبراز قيمة الساحل الشمالي للبحر الأسود في القرن السابع ق.م. كان هذا في بداية عمل تجار إيونيا الذين أتوا ليشتروا القمح، السمك والعبيد، وليبيعوا المنتجات اليونانية. ومنذئذ تبدأ أعمالهم التجارية، أو وكالاتهم ومكاتبهم، مثلاً، مكتب جزيرة بيزيران (في مصب الدنيبر). ثم، في القرن السادس يبرز الاستعمار المنظم من قبل الحواضر والذي ترجم إلى تعمير مقاطعات جديدة والإقامة فيها.

كان الاستعمار اليوناني على تماس حميمي مع سكان شمال الحوض البونتي^١، وأهمهم السيث *Scythes*، المقيمون منذ القرن الثامن على الأرض الواسعة بين نهري الدون والدانوب. تكون أغلب هذه القبائل من تفكك نظام الأفخاذ والعشير والانتقال إلى المجتمع الطبقي. وعلى سهوب شط البحر الأسود كانت تعيش قبائل الرعاة، وفي منطقة الدانوب كان يعيش الفلاحون. ولدى السيث، وجدت العبودية بشكلها الأبوي وبرزت ملامح الفوارق الاجتماعية. ولقد ساهم التطور الحرفي (مهنة الجلود، الأصواف، الفخاريات) والتجارة (أساساً القمح، الدواب، السمك والعبيد) مع مستعمرات بونت-أو كسن إلى اغتاء أعيان المجتمع السيثي، وبخاصة نبلاء الدم والمقاتلون وأمراء القبائل. فقبورهم تغص بالأسلحة

^١ - نسبة إلى مملكة البونت القديمة الواقعة في شمال شرق آسيا الصغرى.

المزدانة بأحلى النقوش وأطقم الخيل الباذخة، وأواني الذهب والفضة، والزينات المتنوعة (الجواهر المعلقة بالعنق، والأساور والخواتم، وسواها). وقد اشتهرت مدن آسيا الوسطى (نكوبول، كيرتش، وغيرها بأفخر القطع الذهبية والفضية، المكتشفة حديثا في تلك المقابر. وكان الفنانون اليونان الذين يصيغونها بناء على طلب، وحسب أذواق أرسنقراطية السيث، يزينونها بمناظر الحرب وعادات السيث.

les Kourganes أضرحة يتراوح ارتفاعها بين ١٥-٢٠م، وجد في غرفها السورادية، المتخمة بحاجات بديعة حزينة، فضلا عن زوجة الميت، ومحاريبه، عبيده وأحصنته. كان السيث سليل عليا القوم يرغب أن يأتي العالم الآخر مع حرسه الصغير الذي كان يرافقه في حياته. لكن إلى جانب هذه الصومعة الاحتفالية، ثمة قبور لبسطاء القوم. أغراضه المتواضعة -سيفه الحديدي وأوانيهِ الفخارية عادية الصنع- تشير إلى الفرق البين بالثروة وشروط مختلف الفئات الاجتماعية.

مع تطور المجتمع السيثي وانقسامه الطبقي، كان لابد من تنظيم الدولة، بشكل يتصف بالبدائية. وانطلاقا من منتصف القرن الرابع، كان التجمع السيثي تحت سلطة سلطان واحد، لكن هذا كان بالفعل تجمعا واسعا من القبائل. كان مركزه قرية كبيرة هي كمانكسا، قريبة مما يعرف الآن بنكوبول والتي اكتشفها حديثا علماء الآثار السوفيات. وفي القرن الثالث خضع السيث أكثر فأكثر لاضطهاد السارمات *Sarmates* الذين كانوا يعيشون شرق نهر الدون. أمام هذه المطاردة، تحولت عاصمة السيث إلى القرم؛ حيث ولدت دولة في القرن الثاني، يحكمها ملك سكيلور، وخلفه ابنه بالاك. كان مقامهم في حاضرة السيث (المدينة الجديدة قرب سمفروبول). ولقد كشفت حفريات الأعوام الأخيرة في هذه الأمكنة حضارة غنية. كانت نيلنوف حصنا عجيبا تتخطى تحصيناته متانة مواقع المدن الساحلية. جدرانها من كتل حجرية مملطة بالأجر الممزوج وهو ميزة البنيان السيثي. ففي أحياء السكن، اكتشف الكثير من الحفر المحتفظة ببقايا القمح، الشعير والدخن، الأمر الذي يثبت وجود زراعة متطورة؛ وتؤكد أكوام عظام الحيوانات الأليفة التدجين الراقى. ويقدم فرن شوي الفخاريات اهتماما واسعا بهذه المادة. وتبرهن السلع العديدة المستوردة من أثينا، رودس، بيرغام، سينوب، مصر ومن المدن البوننتية الأخرى على تجارة السيث الراجحة في القرن الثاني ق.م.

اكتشف ضريح في فيلنوف وكان ذا أهمية بعيدة في دراسة الحضارة السيثية للقرن الثاني. كان يتضمن أكثر من ٧٠ رفاة إنسانية والعديد من هياكل الأحصنة. يكشف غنى ووفرة الحلى الذهبية (أكثر من ١٣٠٠ حلقة) عن بذخ ملوك السيث في تلك الحقبة. ونشير هنا إلى أن فن العمارة، وجداريات الداخل والمقرنصات تقدم العديد من السمات القومية. لقد لعب التداول في مملكة السيث في القرم دورا هاما، الأمر الذي كان يحث السلاطين والنبلاء على احتلال الشطآن بمدنها البحرية. كما شكل السيث تهديدا للدول اليونانية الكائنة على البحر الأسود.

أولبيا وشرسونيز

كانت أولبيا، شرسونيز وبانتكابه أهم المستعمرات اليونانية على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود. وأولبيا، إحدى أقدم المستعمرات البونته، أسسها ميليت في القرن السادس ق.م. تقع عند مصب نهرين: هيبانيس (البوغ الآن) والبورستين (الدينير) اللذين يصلانها بمناطق السيث الداخلية، فاككتسبت أهمية تجارية متميزة في شمال غرب الشاطئ. وهرودوت الذي زارها، قال إنها "المركز الأهم في حاضرة السيث البونتيّة". وكانت، أيضا، نقطة انطلاق درب تجاري يذهب بعيدا في الشمال الشرقي، نحو الفولغا وجبال ريفي (الأورال). في أيام هرودوت (القرن الخامس ق.م)، كانت أوليبسا مدينة تجارية حصينة يتوافد إليها العديد من مهاجري هيلاد والأراضي البربرية. كان قومها خليطا، من اليونان والسيث. ففي مقبرتها العامة، كان يوجد منذ القرن السادس قبور سيثية ويونانية.

لكن اليونان، في مرحلة تطور أعلى، كانوا هم أصحاب النفوذ. كان مخطط المدينة، ومنظر بيوتها وكل الهيئة الداخلية إغريقيا. كانت أولبيا مستعمرة عبودية، بمجلس شعبي وموظفين منتخبين. كان أخطر ماتتعرض له حياة هذه المستعمرة هو أنها مطرَح تهديد دائم للعدوان من قبل القبائل، لأنها مفتوحة، بدون عائق طبيعي يحميها من جهة السهوب. ثمة وثيقة في غاية الأهمية لمعرفة تاريخها من القرن الثالث. عندما صارت المدينة في وضع حرج، هي قرار الدولة الذي يعظم بروتوجين، ابن أولبيا الغني وذائع الصيت.

تعد الوثيقة إنجازاته في المدينة: بنى، على نفقته، الأبراج وجزء من التحصينات، وإعالة أثناء الضائقات التموينية الناجمة عن سلب العدو المناطق الغنية بالمواد الغذائية. تعطي هذه الوثيقة فكرة عن حياة الرعية القلقة.

في القرن الثاني اضطرت المدينة للاعتراف بسلطة ملوك الست. تظهر أسماؤهم على نقود المدينة، المستقلة سابقاً. وفيما بعد، في منتصف القرن الأول، على أثر زعزعة المملكة السيثية، احتلها ودمرها الجيت *les Getes* القادمون من المجرى الأسفل للدانوب. عمرت جزئياً بعد هذه النكبة، لكنها لم تعد إلى ماضيها المزدهر أبداً.

أما شرسونيز مستعمرة أحدث، انبعتت في الربع الأخير من القرن الخامس، على الأرجح في العام ٤٢٢. كان مؤسسوها من أصل هيراكليه (على الشط الشمالي من آسيا الصغرى) التي كانت مستعمرة لميغار. وبعد نزاع صعب بين الأرسقراطيين والديموقراطيين في هيراكليه، أجبر هؤلاء على الإجماع والإبعاد. وبثوا شرسونيز في مكان أهل بالقبائل التورية المتخلفة، المعروفة بقرصنتها وضحاياها البشرية للإلهة العذراء. وفي أسطورة أفيجيني التي استوحتها تراجيديا "أفجيني في توريد"، يفرض على البطلة الكاهنة أن تهلك الغرباء المفاجئين في هذه البحار. كان التوريون يعيشون أيضاً نظام العشير ولم يعرفوا العبودية، بسبب ضعف تطور قواهم المنتجة.

يرى بعض علماء الآثار أن شرسونيز بنيت في مكان قصبة تورية قديمة. وفي مقبرتها الجماعية، اكتشف كمية من القبور للسكان الأصليين تتضمن أوان منزلية غير دقيقة الصنع. تقع شرسونيز في شبه جزيرة هيراكليه (كلمة شرسونيز تعني شبه جزيرة) وتذهب بعيداً في البحر وتمتلك ثغوراً رائعة، وقد استخدمت صلة وصل في تجارة الساحل الشمالي للبحر الأسود (*pont-euxin* قديماً) مع اليونان وآسيا الصغرى.

وكانت نقطة استراتيجية أيضاً: كانت الجبال التي تحدها من جهة البر والوهاد الوعرة تشكل خط دفاع طبيعي جيد. وحتى منتصف القرن الرابع، لم تكن المدينة محمية بسوى تحصينات غير كافية. لكنها، بعد توسع أراضيها ودحر العدو نمت، وبنت جدراناً بكثافة ٤م، وأبراجاً أبدة ومرافئ متينة، كشفت عنها التنقيبات حديثاً. دام ازدهار شرسونيز من القرن الرابع حتى نهاية القرن الثاني ق.م. في ريف شرسونيز كانوا يزرعون الأرض، ويمارسون التدجين؛ وكانت زراعة الدوالي في الأوج. كانت الفخاريات هي المهنة الأهم. تثبت قوارير ذات عروتين وأوان متنوعة وقناديل فخارية تحمل بصمة البلد تعدد إنتاجها. وتسمح الأسماء الممهورة على السلع المصنوعة من الطين المشوي أن معلّمي بعض الورشات كانوا من السيث، الذين كانوا يشكلون جزءاً من القوم. ولما كانت المنطقة قليلة

الخصوبة، لم تستطع شرسونيز أن تصير مركزا لتصدير القمح، كبعض مدن الجهة الشرقية من القرم، لكن تجارتها كوسيط للملح، لسمك، والخمر والزيت، كانت رائجة. من حيث النظام السياسي كانت شرسونيز ديموقراطية عبودية. وفي نص اليمين الذي يؤديه مواطنوها، يرد: "لن أحرق الديموقراطية وأحول دون خيانتها وخرقها... سأخدم الشعب وأقدم الخير والفلاح للدولة والرعية". كانت منظمات السلطة العليا مجلس وجمعية الشعب؛ ويقود الستراتيجيون المنتخبون الميلشيات الشعبية.

في تاريخ شرسونيز، يحتل النضال مكانا هاما ضد القبائل الأصلية، وبخاصة السيث. وفي القرن الثاني ق.م، كما أشرنا آنفا، انبعثت دولة سينية في القرم، كان سلاطينها ونبلاؤها يطمعون بإخضاع المدن البحرية. ولما كانوا غير أكفاء لحماية حريتهم، طلب قادة شرسونيز العون من ملك بونت مثرادات السادس. وهزم الجنرال ديوفونت، الذي أرسله، السيث واحتل فيلنوف، عاصمتهم، لكن ملك البونت قبض ثمن دخوله إلى شرسونيز بالقمح والفضة والجنود. دامت هذه العلاقة حتى موت مثرادات، في العام ٦٣، وبعدئذ خضعت المدينة لدائرة نفوذ روما. مع ذلك عاشت شرسونيز في عهد الامبراطورية الرومانية؛ وصارت مركزا هاما اقتصاديا وثقافيا في بيزنطة، التي أقامت روسيا كييف علاقات متتابعة.

مملكة البوسفور

عدا المستعمرات الإغريقية المستقلة، تكونت في القرم، مملكة واسعة غريكو-بربرية: هي مملكة البوسفور.

كانت نقطة انطلاقها مستعمرة ميليت، وبانتكابه (الآن كيرتش)، التي صارت فيما بعد العاصمة. وفي نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع، اشتملت مملكة البوسفور العديد من المستعمرات اليونانية والحاضرات الأصلية في شرق القرم، وشبه جزيرة التامان والمجرى الأسفل لنهر كوبان. كان قومها أصلاء: سيث، ساند، ميوت، إلخ. منذ أقدم الزمن احتل اليونان هذه المناطق التي شذتهم بثراتها: القمح، السمك، والحيوانات؛ لكن العلاقات مع اليونان لم تنتظم إلا في القرن السادس واتضح هذا بتأسيس عدد من المستعمرات: بانتكابه، تيودوسيا، نيمفي، فاناغوريا وسواها. يبرز مجد هذه المملكة الاقتصادي مع بداية القرن الرابع. ولوقوعها عند حدود العالم الإغريقي والسيث، خدمها البوسفور كوسيط

تجاري. وجعلت وفرة القمح، الدواب والأسماك، جعلت منها واحداً من مموني الدول الهيلينية الرئيسيين. وحوالي منتصف القرن الرابع، عقدت روابط متينة مع أثينا التي كانت تحتكر تجارة قمحها. كان نصف القمح الذي تحتاجه أثينا يأتي من البوسفور. وقد نمت دورها في هذا المجال بخاصة بعد نكبة سيسيليا (٤١٣) التي وضعت نهاية لتوريد القمح السيسيلي. وكانت البوسفور تصدر الكثير من العبيد إلى الأسواق اليونانية.

منذ القرن الخامس صارت دولة البوسفور دولة متحدة، تضم المدن اليونانية الواقعة على ضفتي مضائق كيرتش. وفي العام ٤٨٠، آلت السلطة إلى أسرة نبيلة إغريقية من *Archeanactides*، حكمت في آسيا على البوسفور السومري (ديودور). ربما كانت العاصمة آنثذ هي فاناغاريا، الواقعة على الضفة الشرقية للمضيق. دانت المملك بقوتها وجبروتها إلى أسرة السبارتوسيد (بدءاً من ٤٣٨)، التي ربما كان زعيمها سبارتاكوس الأول ممثلاً للنبل السيئو-ثراسيين المحلي. ولقد أسس السبارتوسيد، بخاصة لوكون الأول (٣٨٩-٣٤٩) وابنه بارزادس الأول (٣٤٩-٣١٠)، مستنديين إلى جيش من المرتزقة، امبارطورية شاسعة تبدأ "من تور حتى حدود بلاد القفقاس"، كما جاء في مخطوط لبارزادس (تقريباً من تيودوسيا حتى نوفوروسيسك الحالية. وفي الشمال بلغت حدودها مصب الدون، حيث تقع مدينة تانايس التجارية الضخمة. وفي القرن الرابع كانت "حاكميات البوسفور ونيودوسيا، تسمى ملوك السيند والميوث"؛ عملياً لم تكن القبائل الأصلية مستعبدة فقط، بل أيضاً أهل البوسفور اليونان. كانت السلطة فيها وراثية وكانوا يعتبرون أنفسهم سادة الدنيا. كان البوسفور قد صار دولة ضخمة غريكو-بربرية، عاصمتها بانتكاييه.

كانت الطبقة الحاكمة تضم نبلاء البلد وسلالة الملك اليونانية وحاشيته، والأغنياء مالكي العقارات، وتجار القمح، تجار الأسلحة وصانعيها، ومعلمي الورشات. كانت المدن تتمتع بالاستقلال، تنتخب هي نفسها مجالس بلديتها، لكنها تقوم بالفعل مقام العاهل. كان أعيان المجتمع والساطين أنفسهم قد تأغرقوا كلياً. كانت أسماؤهم يونانية، يحكون ويكتبون اليونانية، يبنون الهياكل والمعابد للآلهة اليونان ويحاطون بسلع صنعت في اليونان. لكن الحضارة المحلية استمرت، تسم بميسما الأصيل الهلينية البوسفورية. إن الأوابد المميزة لحضارة البوسفور المادية هي الأضرحة، وأهمها على الأرجح "المقبرة الملكية

*Kourganes** في نواحي كيرتش. هضبة من الطين والحجارة ارتفاعها ١٧م تعلو قبوا بقبة ذات مراق. يدخل إليها بممشى بطول ٣٦م وقناطر ذات صقالات تجعله يبدو طويلا. إنه لمظهر مهيب فعلا. هذا النوع من القبور يميز السيثيين، مع وجود بين السلع الجنايزية الموضوعة في الأقبية سلع بأسلوب إغريقي.

في نهاية القرن الرابع، وجدت البوسفور في سوق القمح اليوناني منافسا عنيدا: مصر. فانعكس تقلص الصادرات سلبا على مالية الدولة. فاتخذ ملوكها منذ بداية القرن الثالث (سباتاكوس الثالث، بارزادس الثاني) كثيرا من التدابير لحماية هذا المصدر الرئيسي من الدخل. كانوا يرسلون القمح هدية إلى أثينا، ويرسلون إلى مصر، لدى بتولميه فلاذلف، سفارات لتسوية قضايا تجارة الحبوب. ولقد أكره نقص المصادر السبارتوسيد على تقليل نفقات تطوع المرتزقة، الأمر الذي أضعف طبعا قدرتهم العسكرية. وفي بداية القرن الثالث، لما ظهر السيث والسارمات في القرم، تعقد موقف اليوسفور لأن السيث كانوا ينفذون باستمرار غزوات على أرضها ويفرضون ضرائب باهظة. وأمام استحالة الصمود أمام ضغوط السيث المستمرة، سلم آخر ملوك البوسفور، بارزادس الخامس، في العام ١٠٩ق.م، السلطة إلى ملك البونت متردات السادس أو ياتور. أرسل الملك جنراله ديوفانت إلى شرسونيز لتسوية الأمور.

ترتبط هذه الحقبة من تاريخ البوسفور بحركة اجتماعية ضخمة: تمرد العبيد السيث في الشطر الأوربيمن البوسفور، بقيادة العبد الملكي سوماكوس. قتل المتمردون بارزادس الخامس ورجعوا في الإطاحة أيضا برأس ديوفانت. لكن هذا الأخير هرب منهم ولجأ إلى البونت. صار سوماكوس ملك البوسفور، فحارب النقد باسمه ورسمه وحكم قرابة عام. جيش ديوفانت في البونت قوات بحرية وبرية، أتمها في الشرسونيز وعاد إلى البوسفور. احتل المدن التي كانت بأيدي المتردين، أسر سوماكوس ونفاه إلى البونت، ليقتله هناك على الأرجح. وبعد أن اقتصر بوحشية من المتمردين، أخضع البلاد لسلطة متردات أوباتور وفرض على الرعية ضريبة ٢٠٠ تالانت فضة و١٨ ألف مكيال من القمح. أدار البوسفور حكوم من متردات. للأسف، لايعطي المصدر الرئيس لتاريخ هذه الحقبة -قرار شرسونيز لتمجيد ديوفانت- سوى معلومات مختصرة جدا. لكن أهمية الانتفاضة كانت ولاشك هامة. إنها واحدة من أعظم عصيانات العبيد التي نشبت في هذه الحقبة في العديد من مراكز عالم العبودية.

100

الفصل التاسع والثلاثون

الحضارة الهلينية

يشغل العالم الهليني شطرا رحبا من الإنسانية المتحضرة في العالم القديم ويتكون من عدة شعوب كان يسكن أغلبها شرق البحر الأبيض المتوسط وهو الذي، انطلاقا من القرن الخامس ق.م، راح يضيق أكثر فأكثر علاقاته. لقد دمرت فتوحات الإسكندر المقدوني الحواجز السياسية التي تحول دون التبادل الثقافي بين الشعوب، وغرست الحضارة الإغريقية بعمق في الشرق مع مئات ألوف المعمرين الآتين من اليونان. كان هؤلاء المعمرون يقطنون مئات المدن الجديدة التي صارت مستنبتات للثقافة الهلينية. كانت المراكز الرئيسة للدول الهلينية، مدنا حديثة؛ وتراجعت إلى الصف الثاني حاضرات الشرق القديمة مثل بابل وممفيس؛ وأضحت إنطاكية واسكندرون مراكز عالمية، بكل معنى الكلمة.

كانت هذه المدن تتطبع بطابع التنظيم السياسي لجنسية السكان: كان ثمة أحياء يونانية، يهودية، وغيرها، لكل منها مجلسه ورئيسه الذي يتصل مباشرة مع السلطات العليا. وكانت الحياة اليومية الثقافية تغلي؛ وتشهد الوثائق (مخطوطات، بردي) نشاطا عارما لمختلف فعاليات المواطنين: جمعيات مهنية، ثقافية، أخلاقية، بما فيها النحل الدينية. إن هذه الأخيرة هامة من أجل دراسة حضارة جماهير المدن. ويدل المظهر الخارجي لمدن الهلينية إلى مستوى مدني رفيع. وكثيرا ما اتحدت مدن يونانية قديمة لتشكل حاضرة واسعة واحدة، ويعاد ترتيب وإدارة الساحات العامة وأحياء الصروح الرسمية، وتوزع المياه الجارية، والينابيع، والمسابح، إلخ. كانت المسارح ومعاهد الرياضة بأبعاد أوسع مما في العهود الأسبق، التي كانت تشد عشرات ألوف المشاهدين؛ إن أوابد معاهد الرياضة تدهشنا بتنسيق مخططاتها. وأخيرا، في كثير من المدن، ظهر نوع جديد من الصروح العامة: المكتبات. لقد تحدثنا أعلاه عن عظمة مكتبة الإسكندرية، وكانت مكتبة بيرغام أقل

أهمية: وباختصار انتشرت المكتبات أحدث في مراكز أخرى من العالم الإغريقي. ترافق هذا التوسع للحضارة الهلينية مع تبدلات نوعية: فقد تمثل تراث الشرق الثقافي. وأخذت الفروع التي كانت، في الحضارة اليونانية الكلاسيكية، ثانوية، أهمية رئيسة: فقد بلغت التقنيات، العلوم الدقيقة، العلوم الطبيعية، الطب، الجراحة، التشريح مستوى لاسابق له. وبالمقابل، قدمت العلوم الاجتماعية، الفلسفة، الأدب وجزئياً الفنون دلائل الانحطاط، الأمر الذي يعلل تقلص النشاط الاجتماعي والسياسي لدى الجماهير. فبناء المدن على نطاق واسع، وتطور التجارة البحرية، واتساع الحروب بين الدول الكبرى البحرية والقارية فرض إتقان التقنيات. ولقد حققت التقنية الإغريقية إنجازات مذهلة. فالسفن تقدر على نقل آلاف الناس. وتوفر ساحات السطح الأعلى للمسافرين الراحة التامة.

وفي الفن القتالي، كان المحل الأول للآلات الهجومية والتطويق: المنجنوقات ترمي إلى مسافات بعيدة سهماً وكتلاً حجرية ثقيلة؛ وكانت أسلحة القذف هذه نوعاً من المدفعية الباردة.

لا يمكن إنجاز هذه الأجهزة إلا بناء على مخططات وتصاميم يضعها مهندسون كفاء، وجودهم في تلك الفترة أكدته كتابات كتاب العهد القديم.

ينجم هذا التطور التقني عن إنجازات علمية هامة. فقد خلق أوكليد (في النصف الأول من القرن الثالث ق.م) أساس الهندسة المستوية. تتضمن مؤلفاته ومؤلفات الرياضيات والفيزيائي العبقرى أرخميدس، العديد من مبادئ الرياضيات العالية.

وضع أرخميدس مقولات عديدة: التوازن، تربيع القطع المكافئ، الأجسام العائمة، انعكاس الضوء وغيرها، وبها وضع وطور مبادئ الميكانيك الأساسية، بخاصة نظرية العتلة أو الرافعة. وإليه ينسب هذا القول الجسور: "أعطوني نقط ارتكاز، أفجر أو أرفع لكم العالم". وأعد أيضاً نظرية الأشعة الحرارية بواسطة المرايا المسطحة والكروية، ومارسها، إذا ما صدقنا التراث، في أثناء دفاع سيراكوز ضد اليونان (٢١٢ ق.م) بحق آلتهم الدفاعية ومراكبهم. ودرس معاصروه أصعب فروع الرياضيات وهو: نظرية الأعداد.

وليس أقل إعجازاً تطورات علم الفلك. فقد شرع إپرثيوس بقياس أبعاد الكرة الأرضية واستخدم لهذه الغاية الأسلوب المستخدم اليوم: المثلاثات؛ واكتشف الرقم الأقرب

إلى الصحيح. وأرستارك دي ساموس، الذي ندين له بقياس "أبعاد ومسافات القمر والشمس عن الأرض"، إذ حدد بدقة الحجم النسبي للشمس والقمر. لكن الأهم هي الأعمال التي تخولنا أن نعي أن كل حركات الكرة السماوية يمكن فهمها، إذا قبلنا أن الشمس هي مركز مجموعة جرمية والأجرام تدور حولها. ولقد نسي عمل أرستارك العظيم وبعد ١٨٠٠ عام أعاده كوبرنيك وغاليليه إلى العلم. ووضع الفلكي الشهير في ذلك العهد، هيبارك، ملاحظات لم تعرف قيمتها إلا حديثاً.

ليست أقل إعجاباً كشوفات الطب الهليني، بخاصة الجراحة. يكشف هروفييل في كتاباته معارف عميقة في التشريح، اكتسبها بعد تشريح الأحداث. وعمد الجراح هراكليدس دي تارانت، في العمليات، إلى التخدير؛ ولم يعد هذا المكتشف الهام، الذي أهمل تماماً، إلى الممارسة إلا في العام ١٨٦٠، أي بعد أكثر من ٢٠٠٠ عام من الإهمال.

وفي حقل العلوم الدقيقة، العلوم الطبيعية وبخاصة فن القتال، كان التطور سريعاً جداً. وليس خطأ أن نقول هذا في الفلسفة. فقد برز عشرات الفلاسفة شفاهاً وكتابةً في مدن العالم الإغريقي؛ لكن أغلبهم أكمل وطور نظريات الأسلاف، متعمقين بخاصة في قضايا الأخلاق الفردية. كان أشهرهم أبيقور (حوالي ٣٤١-٢٧٠)، تلميذ الفيلسوف المادي ديموقريطس، الذي تابع أفكاراً حول الذرة؛ لكنه درس بعمق حياة الإنسان وأولى عناية كبرى لجوهر السعادة البشرية وكيفية تحقيقها. تجنب الأبيقوريون الخوض بنشاط الحياة الاجتماعية وعملوا "في أن يحيوا مغمورين" لئبتعدوا عن تشويش عالمهم الداخلي (مبدأ "راحة الضمير"). تهدف نظريتهم المادية إنقاذ الناس من الخوف من الآلهة ومن الموت، الأمر الذي دعا ماركس وأنجلز إلى القول: "كان أبيقور في الزمن السابق الوحيد الذي رغب في تنوير الروح والذهن... لذا حافظ على كونه في نظر كل آباء الكنيسة، من بلوتارك حتى لوثر، الفيلسوف الملحد بكل أبعاد الكلمة *par excellence*."

ويبرز نفس التيار الفردي في مدرسة فلسفية أخرى لذلك العهد: مدرسة الرواقيين. كان زينون مؤسسها، ابن جزيرة قبرص، المولود بين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث ق.م، وأغلب تلامذته من مدن الشرق الهليني. قسم الرواقيون الفلسفة إلى ثلاثة

^١ - ك. ماركس، الأعمال الكاملة، المجلد ٧، الإيدلوجيا الألمانية، باريس ١٩٣٨، ص ٨٦-٨٧.

أبواب: الأخلاق، الفيزياء والمنطق. في الفيزياء، يؤكدون وحدة العالم المادية، وعلى أساسها كان عنصر النار الديناميكي. والحياة محكومة ومحدودة بقوانين ثابتة. وهكذا نرى أن فيزياء الرواقيين المشتقة، بداية، من نظرية هراكليت وأرسطو، كانت مادية إلى حد ما. لكن الرواقيين أولوا الأخلاق الدور الأهم: لكي يعيش حياة سليمة وسعيدة، يجب على الإنسان أن ينسجم ضميرياً مع قوانين الطبيعة إن هذا الحكم العام العاقل العالمي في حركته المنتظمة، هو الواجب الأول للإنسان. تتمم الفضيلة التي تفضي إلى الحياة السعيدة الفعلية. وبالعكس، خرق هذا الواجب لمنفعة الفرد، لإرضاء نزعاته ورغباته، هو العيب. فلا يمكنك أن تكون سعيداً حقاً إلا إذا كنت عاقلاً وفهمت الحقيقة وفهمت بالتالي سلام النفس المطلق؛ أحزان هذا العالم لا تنال منه، لأنه يراها عادية. إنه غني في فقره، حر في قيوده، سعيد في مرضه.

كانت آراء الرواقيين الاجتماعية والسياسية غالباً صدى النظريات اللا-ديموقراطية للاكوني^١ المرحلة السابقة، الذين يعظمون أولغارشية إسبارطة ويكرهون ديموقراطية أثينا. لكن نظريات الرواقيين تتضمن أيضاً عناصر من الحق الطبيعي، الأمر الذي قاد روادها إلى القول إن الإنسان قبل كل شيء مواطن عالمي ("كوسموبوليت")؛ في ظل نظام الدولة العبودي ينادي بوحدة الجنس البشري.

لقد انعكس تفكك النظام العبودي على نظرية مدرسة الكليبيين^٢، التي كان مؤسسها أنتستين، "هجيناً" كانت نظريته ونظرية تلاميذه (أشهرهم، ديوجين وتلميذه كراتس، معاصرو الاسكندر المقدوني) واسعة الانتشار بين الناس، الأحرار والعبيد. كان الكليون، الممثلين المتطرفين لنظرية الحق الطبيعي، ينادون بالبساطة، بحياة قريبة من الطبيعة؛ وكانوا يهزؤون من التعطش للبخذ والثراء، يحدون سلطة الدولة والمجتمع على الشخصية البشرية. ولإظهار احتقارهم للأعراف عاش ديوجين عارياً في برميل، وسحق عقبتة الوحيدة، عندما رأى أنه يقدر أن يخرج منها. لذا لقبه "المجتمع الطيب" بالـ"كلب". من هنا

^١ - نسبة إلى مقاطعة لاكونيا.

^٢ - نسبة إلى مذهب الكلية الذي يقول باحتقار المرف والعادة والتقاليد الشائعة والرأي العام، أي الصلف، الوقاحة، والتهكم.

أتى اسم "الكليبيين" الذي أطلق على كل مدرسة رواد أنثنيين ومطوريه. لكن العبيد والفقراء كانوا يثمنون نظريتهم، لاسيما أن الكليبيين كانوا يعرفون إعطاءها الشكل المثير للإعجاب والذي يقبل الرموز والمشاهد البسيطة المسلية. لكن هذه النظرية كانت تفتقر لجدول أعمال وتراجع لتصير بالنهاية دعاية سلمية للفوضوية والفردانية المغالية.

كانت علوم الأدب في العهد الإغريقي واسعة الانتشار، لكنها غير جيدة النوعية (عدا بعض الاستثناءات). وكانت غريبة على المصالح الاجتماعية والسياسية التي كانت تنصدر أدب الحقبة السابقة. وكوميديات مياندر (الأخوة، البطل، وسواها) التي لم يصلنا منها سوى بعض الفصول والمقاطع، وملهاته (الفظم)، المكتشفة حديثا كاملة، ترسم بأمانة أخلاق المجتمع اليوناني في نهاية القرن الرابع.

ازدهرت القصيدة الغنائية؛ بمواضيعها المفضلة: الانفعالات الشخصية، البحث عن الرغبات الخالصة والهدف إلى حنان الطبيعة، بعيدا عن أتعاب المدينة. كان مركز تجمع الشعراء الغنائيين اسكندرية مصر. وتيوكريت، أحد ألمع شعراء القرن الثالث ق.م، ابن سينيليا، قضى فيها ردها رحبا من حياته. كان يكتب غزليات، وقصائد تتحدث عن سحر الطبيعة والأحاسيس التي يستلهمها ابن المدينة التعب. وكشعراء العصر الآخرين، كان تيوكريت يولي الشكل الشعري أهمية كبرى. وقد أثرى نظم الشعر بالتذويق والتجميل.

ويسم نفس الأسلوب المتصنع الفنون التشكيلية. وقد تشكلت مراكز مستقلة للحفر والنقش في الاسكندرية، في جزيرة رودس، في بيرغام وغيرها. وقد نحت ثلاثة نقاشين رودسيين: أجزاندر، أثودور، وبولدور، مجموعة أثرية، اللاوكون ¹ *le Laocoon*، تمثل احتضار الكائنات البشرية التي خنقتها الثعابين البشرية: التعبير المتألم على الوجوه وتوتر العضلات وبروزها بشكل جعلها طبيعية وواقعية. وفي رودس صنع أيضا من البرنز نصب لإله الشمس، بارتفاع ٣٠م. وقد أدرج "جبار رودس" بين عجائب الدنيا السبع. تمتاز مدرسة بيرغام للنقش بأستاذيتها. ففي نهاية القرن التاسع عشر، انتشل من ميدان هذه المدينة هيكلًا رائعًا من المرمر لإله زويس، منقوش على ١٢٠م بنقوش مذهلة تمثل "حرب

^١ - أسطورة إغريقية، ابن بريام وهيوكوب، كاهن أبولون في طروادة، خنقته مع ابنه حيتان خرافيتان. هذه الواقعة هي موضوع مجموعة شهيرة من النقوش القديمة. القرن الأول ق.م (في الغاتيكان)، المترجم.

العمالقة" (ضد الأرباب). إن هيكل بيرغام واحد من أروع الأمثلة على عظمة الفن الإغريقي، الذي كان له أن ينجو من عاديات الزمن. لقد كان نقش العهد الإغريقي عظيمًا بالتأكيد، لكنه بالقياس إلى العهد الإغريقي الذي تقدمه، قدم شواهد على الانحطاط: مبالغة بالحركات، ذوق فظ، مذهب طبيعي.

ضمت الحضارة الإغريقية الشطر الأعظم من الإنسانية المتقدمة في حوض البحر المتوسط في القرنين الثالث والثاني ق.م. وقد استمرت حتى القرن التالي، عند انتقال مركز الحياة السياسية باتجاه الغرب، إلى روما. لكنه وهو يتحول شيئًا فشيئًا ثابر على الوجود في الشرق الأدنى حتى المرحلة اللاحقة من تاريخ البشرية: العصر الوسيط. ولقد أفادت شعوب الشرق منه، العرب خاصة، الأمر الذي منح هؤلاء إمكانية الاحتفاظ لمدة طويلة بالسودد الثقافي للعالم الآسيوي-الأوربي.

روما

الفصل الأربعون

مصادر وتدوين التاريخ الروماني

مصدر وتاريخ إيطاليا وروما القديم (حتى القرن الثالث ق.م)

إن دراسة التنظيم الاجتماعي والسياسي لإيطاليا وروما عبر الأزمنة صعبة للغاية بسبب قلة بل ندرة المصادر. بداية يجب أن نلاحظ أن أثراً واحداً من الموروث الشعبي الشفهي عن الإيطاليين القدماء لم يصلنا، مثل أشعار هومروس، الغنية بالمواد لإعادة تركيب المجتمع اليوناني من أصوله وبداياته.

والحوليات القديمة الرومانية، التي رتبها علمياً (نيبوه، أولاً، في بداية القرن ١٩)، قد ضاعت أيضاً. لكننا نعرف أن خططهم ظهرت مبكراً (القرن الخامس-الرابع)، بشكل "تقاويم"، نوع من الجداول الحولية، تدون مع الأيام حيث قامت الجمعيات والحكام، وأحداث وأفعال مجلس الشيوخ. كانت التقاويم تحمل اسم القناصل، المنتخبين سنوياً (إذا سميت لوائح القناصل تقاويم). حرر هذه المدونات عادة الأحرار، بهدف عملي بحت، لتذكر وقت حدوث هذه الصفقة أو تلك، ومتى بيع أو اشترى هذا البيت، أو ذلك العقار من الأرض، إلخ.

وفي العام ٣٢٠ ق.م. كلف مجلس الشيوخ الكاهن الأكبر، أن يدون تقاويم رسمية، لتعرض على البيت الملكي، ويطلع عليها من يشاء. ومنذ بدأت تصدر "جداول الأحرار" سنوياً. وعند امتلاء هذه الجداول، توضع في الأرشيف. ولقد شكلت هذه الحوليات والتقاويم، التي لم تصلنا، مع الخرافات وسنن الأسرة، المصادر الأساسية للمؤرخين الأوائل الرومان، ولهذا السبب استمرينا بتسميتهم: الحوليون. لكن المؤلفات هي الأخرى ضاعت.

يجب أن نذكر بخاصة أسفنا على ضياع أعمال "كبار الحوليين"، كما سمي مؤرخو الرومان من نهاية القرن الثالث حتى بداية القرن الثاني ق.م، الذين كانوا على اطلاع مباشر

على تقاويم وحوليات الزمن الغابر، وبخاصة، ضياع التاريخ الروماني الأول المتوالي، الذي كتبه باللغة اليونانية السناتور فابيوس بكتور، معاصر الحرب القرطاجية الثانية. ومؤسف أيضاً ضياع (عدا بعض الصحف) العمل التاريخي الأول الذي كتبه باللاتينية ماركوس بوسيوس كاتون المراقب (٢٣٤-١٤٩) حوالي العام ١٦٠ ق.م. بعنوان الأصول. عالج كاتون في هذا العمل، كما يشير العنوان، أصول وأول مراحل تاريخ الشعوب والمدن الإيطالية، مستنداً إلى دراسة الحوليات والوثائق المحلية، والمخطوطات القديمة، وأعمال اليونان في تاريخ إيطاليا، وهي الأخرى لم تصلنا. كتب هذا العمل بلغة واضحة ودقيقة، عملية، مجردة من الزخارف البلاغية التي شوهت أعمال المؤرخين الرومان اللاحقين.

عدا بعض الصحف أو المقاطع لم يبق لنا شيء من "الحوليات الصغر"، أي كتاب نهاية القرن الثاني والنصف الأول من القرن الأول: فالريوس أنتياس، لسينوس ماسر، كوانتوس إيلبيوس توبرو وغيرهم. ورغم تخميناتهم الجريئة وأحياناً حكاياهم، كمن يحاول نقل علاقات وأفكار الأزمنة الغابرة، التي وصلتهم منذ أيام الرومان، تحظى معرفة أعمالهم بأهمية بالغة. فقد أفادوا بسعة من "الحوليات الكبرى"، ويؤكد لسينوس ماسر أنه "اكتشف" من العهود القديمة "كتباً عن الكتان" (من وثائق الأرشيف طبعاً)، التي لم يستفد منها أحد. ولنا نملك "الكتب الأربعين عن العهود القديمة لروما"، العمل الجاد للموسوعي ماركوس ترنتيوس فارون (Varron) (١١٦-٢٧).

لكننا نسمع صدى هذه الكتب المفقودة في أعمال أوغست، مؤرخ تلك الحقبة، والتي كتبها باحثون مستقلون ومصنفو أعمال سابقهم. سنتحدث هنا عن ثلاثة مؤلفين من القرن الأول ق.م، حفظت أعمالهم خيراً من غيرها، ومنها نطلع على الأزمنة الغابرة اليونانية والإيطالية: ديودور دي سيسيل ودينيس من هالكارناس، الباحثان اليونانيان اللذان عاشا في روما، وتيت-ليف، أحد أبناء مدينة بادو.

كتب ديودور، معاصر قيصر وأوغوست، باليونانية حوالي العام ٣٠ ق.م. تاريخاً ضخماً بعنوان "مكتبة تاريخية". ومن الـ ٤٠ كتاباً التي يتضمنها لم يبق سوى الخمسة الأولى، ومن ١١ حتى الـ ٢٠، وأجزاء من باقي الكتب. عرض فيها تاريخ مصر، البحر الأبيض المتوسط، الهند، اليونان القديمة ثم روما منذ أقدم العصور. من الطبيعي أن سفراً

بهذا الحجم، لا يمكن أن يكون نتيجة بحث إنسان واحد. لم يقدم ديودور سوى تصنيفات مختارة، وملخصات، قريبة جداً من مصدرها الرئيسي، لأعمال تاريخية نوعية. وكما يبدو لنا، فقد كتب النص الذي يستوحيه، وهذا يخولنا أن نقول إنه استعار، بشكل مقنع بعض الشيء، مواد كبيرة الأهمية من هذه الحولية الرومانية القديمة.

ودينيس دالكرناس البليغ، معاصر ديودور، أقام في روما في العام ٢٩ ق.م. وألف فيها باللغة اليونانية "عهود روما القديمة" (التاريخ القديم لروما حتى منتصف القرن الثالث) بعشرين كتاباً، بقي لنا منها كاملاً تقريباً الإحدى عشر الأولى، وملخصات من غيرها. تاريخ عمله بالخطابات المفومة، ونماذج من الفن الخطابي الذي كان يعلمه. لكن دينيس دالكرناس، فضلاً عن فابيوس بيكتور، استقى من مصادر أخرى، بخاصة أعمال الحوليين الصغار، والأهم، أعمال ترنتيوس فارون. وقد صان ديونيس المصادر الأخرى من تاريخ الأدب الروماني الضائع.

أخيراً، العمل الشهير لتيت-لايف (العام ٥٩ ق.م) تاريخ روما "منذ تأسيسها حتى أيام أوغوست (العام ٩ ق.م) الذي يشكل وثيقتنا الأتم لمعرفة الموروث التاريخي الروماني. ومن ١٤٢ كتاباً من هذا العمل الضخم، العشرة الأولى، التي وصلت إلينا غير تامة، موقوفة على أصول روما. ومما بقي لانملك سوى ٢١-٤٥ ضمناً، وبعض الأجزاء والملخصات من الكتب الأخرى.

إن تيت-لايف، كمنافسه دينيس، ليس مؤرخاً حقيقياً، بل عالم بلاغة وبيان، الذي نشر فصاحته في روما. فتاريخه مزدان بخطب طويلة، مصاغة بفن، يضعها على لسان شخصه. ولقد أخذ على عاتقه أن "يخلد في ذاكرة الناس مجد أول شعوب الأرض"، وفي الوقت ذاته، الإشارة إلى خطر الانحطاط الأخلاقي البادي في زمنه، أي متابعة التطور الهام في انحطاط الانضباط... الذي جلب أخيراً هذه الأزمات، حيث صار الدواء غير محتمل كالمرض" (تيت-لايف، المقدمة، ٣-٩). إن تيت-لايف إذن في الأغلب مؤرخ أخلاقي ومواطن. وهو يمسك أيضاً عن الرجوع إلى المراجع الأولى. يعمل فقط على قص بأسلوب أدبي وأخاذ أحداث الماضي استناداً إلى معلومات تحدث عنها مؤرخون، أسلافه، وهو نفسه يعترف أنه عادة "من رأي الغالبية". رجع بخاصة إلى أعمال "الحوليين الصغار"، فلريوس انتيامس، لسيوس ماسر وتوبرون.

فلا بد إذن من امتلاك العلم، استناداً إلى النصوص الموثقة، من أجل دراسة العهد

الأقدم من تاريخ إيطاليا وروما. لذا يرى البعض، إخضاع كل هذا الموروث الآثاري "لنقد لاذع" جارف، وعدم إمكانية كتابة تاريخ صحيح لروما إلا انطلاقاً من القرن الثالث ق.م. لكن مكتشفات أيامنا في مجال الآثار، واللغة، الأثنية والتاريخ المقارن تمكن علمنا أن يجد الضوابط التي تسمح بمراقبة التقليد القديم الروماني وتفتح أمامنا معرفة الماضي الأبعد لروما.

في كتابه "مدخل إلى التاريخ الروماني"، في مجلدين، (١٩٠٢-١٩٠٤)، كان ف. مودستوف، الممثل الشهير للمدرسة الروسية للتاريخ القديم، واحداً من أوائل من أشار إلى هذه الإمكانية. وقد صار رأيه القائل إن علم الآثار، الأثنية واللغات يفتح أمامنا حقلاً شاسعاً وغنياً لدراسة أقدم عهود تاريخ إيطاليا وروما، صار في هذه الأيام الرأي المهيمن في العلم. مع ذلك، لا يستند مودستوف إلا إلى أعمال علماء الآثار الإيطاليين للنصف الثاني من القرن ١٩ (أورسي، رغورني، إلخ). فمنذ إذن، اتسع ونما عدد وثائق علم الآثار لقبل التاريخ والتاريخ القديم لإيطاليا نمواً ملحوظاً. ولقد حملت الحفريات العديدة، التي تجلو المعالم القديمة لأقدم المستعمرات اليونانية في إيطاليا، الجديد والوافر، وبخاصة دراسة حضارة الإتروسك، الشعب الذي لعب دوراً بارزاً في الأزمنة الأولى من تاريخ إيطاليا.

مصادر تاريخ الجمهورية الرومانية من القرن الثالث حتى القرون الأولى ق.م.

والامبراطورية

يعيش المؤرخ شروطاً طيبة لدراسة العهود الأحدث، عهود عظمة وإنهيار الجمهورية وازدهار الامبراطورية الرومانية. طيلة هذه الحقبة، كانت روما في علاقات متينة مع اليونان، التي كانت تمتلك تدويناً تاريخياً عالي التطور، وبتأثيرهما يتشكل ويزدهر الأدب التاريخي الروماني. وقد حفظ من تلك العهود توثيق غزير نقشي؛ ونحن نعرف من الكشوفات الآثارية، الكثير من الأوابد، الحاجات المتداولة وسواها.

بدأ اليونان الاهتمام بالرومان بخاصة بدءاً بحروبهم معهم، التي أنتجت وضع اليونان في علاقة عميقة تجاه روما. كلفت هذه الأخيرة بوليبي (٢٠١-٢٠٠ تقريباً) الذي، بعد أن لعب دوراً هاماً في الجامعة الآشية، التي خربها الرومان، عاش ١٧ عاماً في عاصمتهم كرهينة، بكتابة "تاريخ روما" الشهير بـ ٤٠ كتاباً. حسب كلامه بالذات، لقد هدف هذا العمل هدفاً أساسياً هو "الإطلاع على الوسائل، ومهارة السلوك، أي كيف أخضعت روما العلم كله

لقوانينها ، خلال ثلاثئة عام" (بوليب الأول، ١). ناهلا من المراجع اليونانية والرومانية الهامة (بخاصة من فاييوس بيكتور، ومستوحيا حذر وروح توسديد الناقدة ليضعها في العمل وتحرير الأسباب الأساسية للأحداث، كون بوليب لوحة واسعة تاريخية لكل حوض البحر الأبيض المتوسط، خلال حقبة تمتد من العام ٢٦٤ و١٤٦ ق.م. أولى المؤلف خلالها عناية واسعة للفتوحات الرومانية خلال القرنين الثاني والثالث ق.م. ورسم دربا مشكلا التنظيم السياسي لروما، وجيشها، وذاكرا عددا من الوثائق الدولية ذات أهمية بالغة (مثل المعاهدة المعقودة بين الرومان والقرطاجيين. ورغم أن حكمه على الأحداث هو، بعامرة، حكم ساسة زمنه الرومان، يبقى عمله في هذا المجال رفيع القيمة، ومن المؤلفم جدا أن الكتب الخمسة الأولى فقط هي التي وصلتنا، بينما لم يبق من ٣٥ كتابا سوى مقاطع وصحاف مبددة.

بتأثير التدوين التاريخي الإغريقي، بدأت أعمال الحوليين الرومان تبلغ درجة عالية من العناية. كان المؤرخ الروماني الأول الذي انكب على تقليد توسديد وبوليب هو كليوس سالتوس كريسبس (٨٦-٣٥ ق.م). وسالوست، هذا الظهير المتحمس للقيصر، ووالسي نوميدي، الذي تمكن بالسلب والفرصنة تكديس ثروة طائلة، عاش حياة عاصفة. في كهولته انسحب من الحياة السياسية بعد موت القيصر، انصرف كما قال، إلى تدوين تاريخ الشعب الروماني الذي يبدو جديرا بالذكرى". بدأ يربط بعض الفصول، الأبرز والأقرب منه زمانيا، مثل "مؤامرة كاتلينا" و"حرب جوغورتا" التي (كتبت حوالي ٤٣-٤١). تحدث فيها بخطوط رئيسة عن تدمير الأرستقراطية الحاكمة، ولـ "مؤامرة" كاتلينا، النابعة منه، سعى إلى معارضة قائد الشعب الحقيقي، ماريوس. وفي "تاريخه"، الأوسع، في خمسة كتب، اقترح كتابة العهد الأبرز في الحركة الديموقراطية، في أثناء السنوات التي تلت موت سيللا (بدءا من العام ٧٨). للأسف، لم يصلنا سوى فصول مبددة من هذا العمل، وهو اهم ماكتب.

إن الخط الأبرز في أعمال سالوست هو أسلوبه في وضع الأسباب السايكولوجية في المقام الأول. ولقد أخذ الرومان يومئذ من اليونان موضوعة المذكرات وادب التراسل، وتراجع الشخصيات والتكاتب الحي بين الأصدقاء حول الشؤون العامة. من هذه الثروة القلمية نملك مراسلة شيشرون إلى أصدقائه (أتيكوس وبروتس بخاصة) ومعارف (بومبي

وقيصر الهامين)، تشكل أحد المصادر عالية القيمة لتحكم على أحداث الفترة الواقعة بين ٦٠-٤٠ ق.م، التي احتل شيشرون فيها نصيبا مباشرا. كانت خطاباتة العديدة، هي الأخرى، تتسم بالراهنية. وبين المذكرات، يجب ذكر "المذكرات التاريخية" حول حرب الغول ليوليوس قيصر وتلك التي كتبت بعنوان "الحرب الأهلية"، التي أكملها هرتيوس وغيره من مرافقيه. والسير الذاتية لبعض شخصيات التاريخ الروماني (أتكوس، كاتون الشاب)، التي كتبها معاصر قيصر كورنيليوس نيبوس (مات حوالي العام ٣٢)، هي، بعامة، سطحية جدا. وبفضل النشاط الذهني المتقدم الذي ميز الأيام الأخيرة للجمهورية، استطعنا أن نعرف الكثير من التاريخ الروماني، علما أن الزمن لم يحفظ لنا من هذه الروائع الأدبية سوى القليل. ويحق لنا أن نأسف بشكل فريد ضياع حوليات تيت-لايف العشر، معاصر وشاهد الأحداث التي يدونها في هذا الجزء من السفر.

إن العهود الأولى الإمبراطورية خلقت شروطا قاسية في وجه تطور العلم التاريخي لدى الرومان. فالرجل المعروف، أرينوس بولليون، اضطر أن يترك مؤلفه غير كامل. وأعمال لاينيوس أحرقت بأمر من مجلس الشيوخ، وكذلك عمل كرموتيس كوردس الذي كتب في أيام تيبير، بروح معادية لأصول النظام الملكي في روما. فضلا عن الأعمال الرسمية لتيت-لايف ودينيس دالكرناس التي كتبت في عهد أوغست، لم يبق لنا، فيما يخص الحقبة الممتدة من جوليان حتى أسرة آل كلود، سوى العمل التاريخي الصغير لفيوليوس باتركولوس، بعنوان "التاريخ الروماني" بمجلدين: دون الثاني، حتى العام ٣٠م، الأحداث التي شارك بها المؤلف كضابط في جيش تيبير، حيث يمجّد المآثر الحربية ويمدح الفضائل الخاصة معاكسا الرأي العام.

فقط في عهود آل فلوفيان وأنطونين، ومع رسوخ الاهتمام بالرأي العام، ازدهر التاريخ مجددا. فالباحث اليهودي جوزيف (مواليد العام ٣٧، ومات على الأرجح في عهد دومتيان)، الذي انضم إلى طرف الرومان، وسمي، بموافقة ورغبة الإمبراطور، فلافيوس، كتب باليونانية مؤلفات هامة: "تاريخ حرب اليهود ضد الرومان" (٧ كتب)، "العهود اليهودية القديمة" (٢٠ كتابا)، "سيرة ذاتية"، إلخ.، نقرأ فيها أيضا وثائق في التاريخ اليوناني والروماني، تعود بخاصة إلى أيام نيرون، فاسباسيان وتيتوس. لكن كورنيلوس تاستوس (تاسيت) (حوالي العام ٥٥-١٢٠) هو أكبر مؤرخ روماني.

و"حولياته" و"تواريخه"، في ١٦ كتاباً، الأعمال الأساسية لمعرفة التاريخ الروماني في القرن الأول الميلادي، كتبت في عهد تراجان، بين ١٠٥ و ١٠٧. وبحثاه الصغيران، "حياة أغركولا، فاتح بريتان *Bretagne* و"جرمانيا" (بالأصح "أخلاق الجرمان" تقدما ماكتب (حوالي العام ٩٨). يتضمنان كثيراً من المعلومات في الحياة والنظام الاجتماعي عند البريتون، الجرمن، الفنلنديين وغيرهم من شعوب أوروبا.

إن تاسيت، من أسرة فروسية، كلف مع ذلك بمهام رفيعة في الدولة: فنصل في العام ٩٧ وحاكم في آسيا في العام ١١٣. كان المعلق على معارضة مجلس الشيوخ في أيامه، رفع الجمهورية الرومانية القديمة إلى درجة المثال. ومن أجل هذا سماه أنجلز "آخر ممثلي" الذهن الأبوي العجوز^١. نل في حولياته أن كل الأباطرة الأوائل غيلان متوحشة، متعطشة للدماء، ولا يكف عن رثاء الجو المحيط المشبع بالحقارة والتعلق، الناجم عن الإرهاب السائد في كل مكان، ففسد الترتيب المشيخي، الذي كان مستقلاً وموثوقاً. ولهذا أيضاً، رغم طرحه رواية الماضي بدون غضب ولا تحيز، امتازت أحكامه بالذاتية، الدرامية المغالية والهجأة الأخلاقية.

لكنه يعرف في الوقت ذاته كيف يعطينا سقراً من اللوحات في الأخلاق الرومانية، وحياة الترف والفسق في القصر، ونفوذ الساسة ورجال الأعمال الدجالين، والوضع السيء المرهق للجنود، المرميين على الحدود البعيدة، وعن تمردهم، وعن الدهماء الرومانية الرثة الثياب، والشوارع، والمسرح والسيرك، وعن حريق روما الرهيب في العام ٦٤، إلخ. وهكذا يثبت تاسيت أنه رسام أخلاق ماهر، لا مثيل له بين مؤرخي العهد القديم. لكن أعماله، هي الأخرى، لم تصلنا إلا مجزأة ومبعثرة. فأكثر من ثلثي العمل ضاع.

تقريباً، مع تاسيت، كتب مؤرخان وكاتب سيرة، اليوناني بلوتارك والروماني سوتيون، كانت كتابتهما، بخاصة كتابات الثاني، بشكل ما تنقيحاً وإتماماً لأعمال تاسيت. فالعلامة بلوتارك (٤٦-١٢٥)، في شيرونيه (في بيوتيا)، المربي والأخلاقي الشهير، كان واضحاً جداً في دراسة قضايا زمنه، الأخلاقية والدينية. لكنه في كتبه العديدة وفي مختلف الموضوعات وبخاصة في الأخلاق، كان يستند إلى التوثيق التاريخي الداخلي، الأمر الذي يشكل استحقاقه الرئيسي في عيون المؤرخين. وفي "الحيات الموازية" لكبار رجالات العالم اليوناني والروماني، التي خصها بالحديث عن دور العيب والفضيلة في أعمال وأقدار

^١ - اقرأ ف. أنجلز "برونو بوير والمسيحية البدائية. كارل ماركس، فريدريك أنجلز "في الدين"، ص ١٩٧، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٦٠.

هؤلاء الأشخاص، قيمة كبيرة جدا. غالبا ما يمتزج بلوتارك ويضيق في تفاصيل حياة أبطاله ويتحمس للنادرة. "نحن لانكتب تاريخا، بل سير وتراجم"، هذا مايقوله، هو نفسه. إنه بتزويدنا بمعلومات هامة مأخوذة من مؤلفات مفقودة، يشير إلى مصدرها، تقدم تراجمه لنا قيمة تاريخية عظيمة. ومن جهة الرومان يطلعنا على رجالات دولة الجمهورية (كميل، فابيوس مكسموس، فلامنيوس، آل غراك، ماريوس، سيللا، كراسوس، بومببي، قيصر، شيشرون، بروتس)؛ وفي تراجم الأباطرة، لم يصلنا إلا سيرة غالبا وأوثون.

بينما ينتسب كايوس ترانكلوس (سوتيون) (٧٠-٦٠ تقريبا)، بعكس تاسيت، إلى الناس الراضين عن عصرهم. وكواحد من رعيال الموظفين المدنيين والعسكريين (كان جده يشغل منصبا في القصر، وكان أبوه محامي الفوج)، احتل سوتيون، في عهد أدريان، سكرتير المستشارية الإمبريالية. ومكنته مهامه من دخول الأرشيف السري للقصر، فحدثنا حسب هذه المعطيات عن "حيوات ٢ أقيصرا، من جوليان قيصر إلى دومتيان. وفضلا عن استخدامه الكثير من المذكرات، وقصص حاشية البلاط السابقين، دون إثارة ضجيج المدينة؛ يزودنا كتابه هذا بتوثيق وفير حول تاريخ القصر الإمبريالي في القرن الأول الميلادي. ويميز عمل سوتيون على اللامبالاة بالمادة السياسية، حس النكتة وتفصيل الأخلاق المأخوذة من حياة الأباطرة الخاصة. وهو يؤيد النظام الإمبريالي وينتظر منه "قدوم عصر سعادة وهناءة". لكن، على سطحية مفهوم سوتيون، فهو يعكس جيدا أوضاع الفئات الأخرى من المجتمع الروماني، كتلك التي قدمها تاسيت ويصحح نقص قصص هذا الأخير عندما يتحدث عن أحداث القرن الأول الميلادي.

وأبين Appien، يوناني من الإسكندرية، عاش في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، يمثل وجهة نظر رجال الأعمال والأوساط المثقفة الريفية. كان هذا الرجل الذي امتهن مهنة إدارية هامة- محامي الخزينة الإمبريالية، ثم جابي مالية- كان يرى، هو الآخر، النظام الإمبريالي بعين التعظيم الأبدي. فكتب عملا بنفس طويل، تلبية لرغبة الأرياف: "التاريخ الروماني"، باللغة اليونانية، منذ الملوك حتى عهد تراجان بـ (٢٤ كتابا)، يكس فيه كل تاريخ تشكل الدولة الرومانية. مخططة بالغ التعقيد: بعد أن عرض في الكتب الثلاثة الأولى اصول روما وإخضاع إيطاليا، انتقل إلى وصف غزو الرومان وإلحاق مختلف الأصقاع بالامبراطورية، مخصصا لكل منها كتابا برأسه: سيسيل، إيبيريا، ليبيا،

مقدونيا، سوريا، إلخ. ومع هذا اضطر أن يوقف بعض الكتب للأحداث الخاصة بروما ذاتها، وتهم كل الإمبراطورية؛ والكتب التي تعالج الحرب مع هانيبال (الكتاب ٧)، كالكتب الخمسة المتحدثة عن الحروب الأهلية منذ آل غراك *Gracques* حتى الثلاثية الثانية، شكلت الجزء الأهم من العمل.

من البديهي أن لوحة بهذه السعة لن تكون عميقة؛ آبين لا يسعى إلى المناهل ويكتفي بتوثيق غير حذر. ينتج من هذا أن تجد عنده أخطاء كثيرة بالأسماء، بالتواريخ، وأيضاً من حيث خط تتابع الأحداث، إلخ. على هذا، يبقى سفره، بخاصة مايتعلق بالحروب الأهلية، هاماً جداً بالنسبة لنا. أولاً، لأن آبين أخذ الكثير من المؤلفات التي لم تصلنا، مثلاً، "تاريخ الحروب الأهلية" لأزينوس بولليون، مذكرات سيللا، وأوغست، وغيرها. والأهم، كما أشار انجلز "من كل المراجع القديمة الخاصة بالصراع في أحشاء الجمهورية الرومانية، آبين هو الوحيد الذي يقول لنا بوضوح سبب الصراع ومضمونه، أي الملكية العقارية^١، الأمر الذي أكدته ماركس ملاحظاً أن آبين "...يسعى إلى إيجاد السبب المادي العميق للحروب الأهلية". ومن هذه الزاوية، يخلو عمل آبين من التوجهات الأخلاقية والبلاغية، فهو سفر رفيع القيمة. ونذكر أيضاً سفرًا عظيمًا بـ ٨٠ كتاباً هو "التاريخ الروماني"، الذي كتبه بلغته الأم ديون كاسيوس (حوالي ١٥٥-٢٣٥، اليوناني الأصل، مستشار في مجلس الشيوخ، والي في إفريقيا، سفير في دلماتيا في عهد آل سيفير *Severe*. بدأ بايني *Enee* الأمير الطروادي، وتابع، طبعاً، قصته حتى عصره. وصلتنا الكتب ٣٦-٣٩، التي تتحدث عن الأحداث الجارية منذ العام ٦٨ ق.م. حتى أيام كلود (٤٥ م) تامة. ومما تبقى لم يصلنا سوى أجزاء ومختصرات لاحقة. كان ديون كاسيوس يحاول الاقتداء بتوسيديد وبوليبي، لكنه يبقى بعيداً عن واقعية مؤرخي الحقبة الكلاسيكية. كان مشبعاً بإيمان عميق بما فوق الطبيعي، لذا تحدث بالتفصيل عن كل النبوءات وكل المعجزات، ودون أن يسعى إلى إقامة علاقة سببية بين الوقائع، يهتم بالإرادة السامية وقرارات القدر. حروب وأحداث القصر تحتل مكاناً رئيساً في سفره؛ ولا يبدو تدخل الجماهير الشعبية إلا بمناسبة التمردات، كقوة غامضة وفظة يجب قمعها. ورغم انتمائه إلى نبلاء المشايخ، تتحى عن ذنبات معارضة الإمبراطورية واكتفى بالحلم بمجلس شيوخ يوسع مجالاً للشورى، في ملك أمراء مسالمين

^١ - ف. انجلز، لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ص ٤٢-٤٤.

وطيبي القلب. على ذلك، وحتى في الحالة المشتتة التي وصلنا بها، ورغم كل الأخطاء، يبقى هذا العمل مرجعا هاما لتاريخ نهاية الجمهورية والإمبراطورية في القرنين الأوليين للميلاد.

وأميان مرسلان (حوالي ٣٣٠-٤٠٠) كان آخر عظيم من كتبة تاريخ روما، يوم كانت الثقافة بالغة الانحطاط. يوناني الأصل (ولد في انطاكية)، عسكري ممتن، شارك بعدة حملات مع الامبراطور جوليان وشاهد الكثير في أثناء رحلاته العديدة. وحوالي العام ٣٩٠ ألف سفرا محترما، "التاريخ" في ١٣ كتابا، تعهد بإتمام تاريخ تاسيت. كتب باللاتينية، وبدا كمن يترجم أفكاره من اليونانية إلى هذه اللغة الغريبة، الأمر الذي عثم أسلوبه وشوشه، فهو مليء بالاستطرادات البلاغية. لكنه كان نافذ البصيرة يمتلك موهبة وصف المشاهد الحربية، التي خاضها مرارا وتكرارا، ومراقبة حياة وأخلاق العديد من الشعوب التي اتصل بها. وكان يتقن الإفادة من المراجع التاريخية ويركب مشاهداته بلوحات بالغة الحيوية أو بشخص معروفة بالانضباط والحكمة. يسعى إلى البقاء محايدا وصادقا ويرى أن إسقاط الوقائع وإفسادها خطآن متساويان. "المؤرخ الذي يهمل الأحداث مخادع وكذلك الذي يختار عما لم يقع أبدا" (٥،١،٢٩). لاتحدد مهمة التاريخ، في رأيه، بتعداد الوقائع، بل تكمن في جمعها حول الأحداث الضخمة. ولقد قدم بشكل فريد تفاصيل العهد الأقرب إليه والـ ١٨ كتابا (من ١٤-٣١) من سفره التي وصلتنا، تطال فقط ٢٥ عاما، ٣٥٣-٣٧٨.

إن الأعمال الأخرى في تاريخ عهود الإمبراطورية لاتقدم قيمة كبرى، لكن لايجوز المرور من فوقها لعدم وجود مصادر أخرى أهم. نذكر بخاصة "تاريخ أباطرة الرومان" (حتى ٢٣٨) لليوناني الاسكندراني هيروديان، الذي عاش في روما (حوالي ١٧٠-٢٤١). إنه واحد من أندر المراجع التي بحوزتنا حول عهد آل سيفير.

وفي القرن الرابع، كتب أوتروب "ملخص التاريخ الروماني"، في عشرة كتب، يعتبر وسطا بين التاريخ الشعبي والوجيز الكلاسيكي. إن هذا المؤلف، المكتوب بلغة واضحة ودقيقة، يفتقر جدا لأي مضمون. ومجموعة سير الأباطرة للقرنين الثاني والثالث، بقلم ستة باحثين، اقتداء بـ "حيوات" سوتيون، ليست عديمة الفائدة. ونحن لانعرفه إلا بنسخة نهائية القرن الرابع، وقد اتخم بالنصوص المدسوسة، والأحداث المخترعة والوثائق المزورة، فهو "إذن مصدر متهم، لايركن إليه، لكنه المصدر الوحيد الذي بين يدينا، لعدة احقاب من القون

الثالث المظلم. هو مجموعة لسير قصيرة للأباطرة حتى قسطنطين، كتب حوالي العام ٣٦٠، بعنوان عام "القياصرة"، منسوبة لأورليوس فكتور، الموظف الكبير في النصف الثاني من القرن الرابع.

أخيراً، أعمال الباحثين المسيحيين مفيدة كمرشد في دراسة روما الامبريالية. فعالم الكنيسة الكبير أوسيب ابن القيصرية (٢٦٣-٣٤٠) كتب "اول تاريخ إكليريكي" شامل، مستخدماً ليس فقط مختلف التقاليد المسيحية وأعمال كتاب الكنيسة، بل أيضاً أرشيف الدولة، الذي دخله بفضل علاقات الصداقة مع الامبراطور قسطنطين، الذي كتب سيرته الذاتية. يتضمن تاريخه الاكليريكي إذن كثيراً من المعارف القيمة حول التاريخ المدني، وبخاصة، حول أحداث القرن الثالث (حتى العام ٣٢٤). وفي القرن الخامس (٤١٧)، كتب الأب بولص أورو، إسباني الأصل، بالروح المسيحية: تاريخه الشامل "منذ آدم حتى العلم ٤١٠م" تاريخ في سبعة مجلدات ضد الوثنيين)، حيث يبذل جهداً لإثبات أن الوثنية كانت حقبة من الحروب الدامية والاضطرابات المستمرة. بينما تسم المسيحية بدء السلام "مملكة الله". و"مدينة الله" للأسقف أوغستين (كتب أيضاً في بداية القرن الخامس) هو أيضاً بالروح عليها. كلما افتقرت مدونات لتاريخ الروماني، مع انحطاط الحضارة الرومانية، اتسعت الأهمية التي تمثلها لدراسة تاريخ روما الوثائق التي تزودنا بها علوم التاريخ المساعدة: علم الآثار، النقش، البرديغرافيا^١ والمسكوكات.

إن مجموعة من الأوابد الأثرية من عهد الإمبراطورية الرومانية تعيش على سطح الأرض، وأكثر منها تلك التي تكشفها لنا التنقيبات المتسعة كل يوم. مثلاً، نقوش أعمدة تراجان الرائعة ومارك-أوريل، تمثل بطريقة تامة وبواقعية مدهشة حملات هؤلاء الأباطرة، وأقواس نصر تيتوس وقسطنطين، "الباب الأسود" لتريفوس، وخرائب مجاري المياه، المدرجات، المعابد الرومانية القديمة، التي تحولت إلى كنائس مسيحية (مثل البونيون)، سراديب أموات رومان مع قبورها الكثيرة وجدارياتها ونقوشها الجدارية، تشكل شواهد تاريخية من النمط الأول. ونستقي توثيق بالغ الأهمية لتاريخ الحضارة، الاقتصاد، الأخلاق الرومانية من الحفريات؛ مثل مكتشفات قصر الإمبراطورة ليفيا في روما، دارة أدريان في تيبور، ومدن رومانية: بمبيي، مرسى أوستيا، ولامبيسا وتيمغاد في إفريقيا،

^١ - دراسة لغوية لمخطوطات البردي.

دورا-أوروبس على الفرات، وعدد ضخم جدا من ميادين الحدود الرومانية، والأبراج، والطرق الاستراتيجية، إلخ. إذا أهملنا كدسا لا يحصى من الأسلحة، من السلع المتداولة، والتزيينات، وشواهد القبور، وسواها.

ليست أقل أهمية، إن لم تكن أكثر، الكتابات النافرة أو المنقوشة. يعود أقدمها إلى زمن الملوك: الكتابة المنقوشة على "الحجر الأسود" الذي وجد في فورم البدائي، وعلى إنشاء دينوس، وعلى مشبك برونست، إلخ. لكنها نادرة جدا. بدءا من القرن الثالث ق.م، تظهر شواهد القبور الأولى كتلك المحفورة على قبور آل سيبون، وبدءا من القرن الثاني تظهر القرارات والشرعة ("شريعة توريا"، ١١١ ق.م). ولا ينفك عددها يتزايد بدءا من القرن الأول للميلاد، وهي تشكل أرشيفا غنيا، عارضة زرافة من واقعات الحياة العامة، الاجتماعية والاقتصادية والحياة الخاصة. يكون بعضها وثائق بالغة الأهمية، كنقش أنسير ("أعمال أوغست المقدسة")، خطاب كلود إلى ليون، مائدة فيلايا، من أيام تراجان، خطبة أدريان إلى الجند في لامبيسا، نقش أعمدة الميدان الامبريالي لسالتوس بورنتانوس، في إفريقيا، قرار ديوكلتيان حول الأوسمة، إلخ. و"مجموعة النقوش اللاتينية"، التي بدأت تظهر في العام ١٨٩٣، تتضمن ١٦ مجلدا ضخما، متصلة بالعديد من الإضافات حيث تظهر النقوش المكتشفة حديثا. وقد نشر ف. لانتشيف الكتابات المكتشفة على الساحل الشمالي للبحر الأسود، مع ترجمتها.

وفي أثناء العقود الأخيرة، قدمت دراسة البردي، وأولها المكتشفة في مصر، معلومات قيمة حول تاريخ روما. واكتشفت النص المسمى كركلا ٢١٢، المانح حق المدينة للزيغيين، ووثائق عديدة تخص إدارة الأموال في مصر في عهد الرومان، وكومة من وثائق الترتيب المنزلي وسمّة الحياة اليومية: حسابات، رسائل أعمال وعقود، وحتى واجبات الطلاب المدرسية. مما أفسح الأمل في اكتشاف بعض المؤلفات التاريخية الضائعة: فقد وجد، مثلا، عرض جديد لمضمون بعض كتب تيت-لايف.

وتمثل النقود أيضا أهمية كبرى كمصادر تاريخية؛ يمكن أن نجد عليها ليس فقط صورة الأباطرة، بل تمثيلا لصروح وأعمال فنية شهيرة. وتضرب النقود أيضا احتفاء بذكرى أحداث هامة، تمجيда لفصيل أبلى في هذه المعركة أو تلك، إلخ. وخرافاتهم هي أحيانا إعلان برنامج: مثلا، بعد انتحار نيرون، ضرب الامبراطور غالبا نقودا تحمل هذه

الحكم: "حرية الشعب الروماني"، "بعث روما"، وغيرها. إن وزنها، عنوانها ومفردات أخرى، تخولنا الحكم على حدوث تبدلات في حالة البلد الاقتصادية.

نتاج المؤرخين

بدأت دراسة التاريخ الروماني منذ عصر النهضة. فقد انكب الإنسانيون، شارحو المجتمع البورجوازي الذي يتشكل، بحثاً عن سمات طبقتهم، بحمية على دراسة تنظيم الدولة وحق الرومان في العهود القديمة. وفي القرنين السابع والثامن، مع قدوم الاستبدادية المطلقة إلى أوروبا، انصب اهتمام الباحثين بخاصة على التاريخ السياسي للامبراطورية الرومانية. وعن هذه الحقبة يتحدث المؤلفان الكبيران الأولان: مؤلفات الأب تلمونت، الفرنسي (تاريخ الأباطرة والمبادئ الأخرى الذين ملكوا خلال القرون الستة الأولى لظهور الكنيسة، ١٦٩٠-١٧٣٩، بستة مجلدات)، والانكليزي جيبون (انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية. ١٧٧٦-١٧٨٨، سبعة مجلدات). رغم أصالة مفهومها، ليست هذه الأعمال بالفعل سوى تجميع لقصص الأقدمين، التي اهتم بها تلمونت وجيبون بثقة ساذجة، وصدقها، بدون أي أثر لروح النقد.

لكن منذ القرن الثامن عشر، بدأت تتكون بفعل ضراوة الصراع الذي تخوضه البورجوازية التي تتشكل ضد "النظام القديم"، وجهة نظر جديدة، حادة، تجاه التقاليد القديمة. وقد دلى الإيطالي فيكو في كتابه "مبادئ علم جديد"، المرتبط بالطبيعة المشتركة للأمم (١٧٢٤)، أن الرومان، في بداية تاريخهم، كان لهم، كباقي الشعوب، ماضٍ "ديني" طوراً و"بطولي" طوراً آخر، وبالتالي، لم يكن موروثةم الثقافي، حتى القرن الثالث سوى أساطير وأوهاماً شاعرية. وكتب الفرنسي بوفور في العام ١٧٣٨ مقالة حول تقلب القرون الخمسة الأولى من تاريخ روما يقول فيها إن تاريخ روما القديم ليس إلا ابتكاراً لأطماع النبلاء الرومان وخطباء متصنعون يسعون لإرضائهم. أفضى هذا التيار الجديد إلى وهب التاريخ أسلوباً نقدياً علمياً.

إن أول من مارس ممارسة مثمرة، ليس فقط لتدمير المفهومات القديمة والساخنة المتكونة حول الماضي الروماني، بل لإعادة كتابة ماضي الشعب الروماني كتابة صحيحة، هو جورج نيبوهر (١٧٧٦-١٨٣١)، رجل الدولة الشهير في زمن الإصلاحات في بروسيا، ثم أستاذ في جامعتي برلين وبون. وقد طرحت دراسته "التاريخ الروماني" (في

ثلاثة مجلدات) الأسس الجديدة لدراسة تاريخ روما القديم. حاول نيبوهر أن يرجع مصادر الموروث الروماني الغابر في مخلفات العصر الحجري لدى الرومان وفي حولياتهم الأولى. فأعطى قدوة بالدراسة الحصيفة للتقاليد الرومانية ودلل على إمكانية تحرير بعض عناصر الشرعية. وكان أول من أشار، لدى الرومان، منذ فجر تاريخهم، وجود منظمة العشير، الأمر الذي يعتبره انجلز إنجازاً الأهم: "كان نيبوهر أول مؤرخ ذا فكرة على الأقل تقريبية...".^١

وبين عامي ١٨٥٤-١٨٥٦ ظهر "التاريخ الروماني" الشهير لتيودور مومس وهو من ثلاثة مجلدات. ترجم إلى كل اللغات باعتباره علامة بارزة في الدراسات الرومانية، لم يكن مومس فقط عالماً كبيراً (ينسب له ١٥٠٠ عمل علمي، أبرزها وأهمها عمله الخالد في "الحق العام الروماني"). كما يجب أن نذكر، "دراسات رومانية" وكتابه "النقش اللاتيني"؛ بل كان أيضاً رجلاً سياسياً نشطاً جداً. يقتصر تاريخ روما، الذي يعرضه بالطريقة الأوضح والأكثر تفصيلاً، قبل كل شيء، على الـ"وحدة المفيدة" لإيطاليا التي قسمتها روما، وعلى النصر العظيم لروما على كل الشعوب المتوسطية المتعرضة للانحطاط أو اعتبرت غير جديرة بالتطور، وعلى تأسيس "السلطنة القتالية" على يدي العبقري قيصر. "كان قيصر منذ يفاعته، رجل دولة وكان هدفه أسمى ما يؤمل من أي إنسان". ويمتاز عمل مومس الكبير كله بالذاتية البورجوازية المتطرفة، بتوجهاته الأخلاقية ومناصرتة للحدثة، فنقل أشكال وأفكار المجتمع البورجوازي في زمانه إلى الماضي. نادراً ما شدد اهتمامه الشؤون الاقتصادية، ودور العبيد مهملاً تماماً في تاريخه. وقدم انتفاضاتهم كتمردات لاقيمة لها: حتي سبارتاكس "ليس أكثر من قاطع طريق". لهذه الأسباب، لم يحافظ كتاب "التاريخ الروماني" لمومس على أهميته حتى هذه الأيام إلا لسعة وثاقفته، بينما الصرح كله، الذي شيده الباحث، لإيصمد أمام النقد.

لكن العلماء الروس في النصف الأول من القرن التاسع عشر أوقفوا أعمالهم على موضوعات معينة من تاريخ روما، لكننا نعتز هنا أيضاً على منعكسات عصرهم، عصر النضال من أجل تحرير الفلاحين في روسيا، وهذا ما يعلل الاهتمام الذي يبذونه بالشرائح

^١ - ف. انجلز، "أصل الأسرة، والملكية الفردية والدولة"، ص ١٥٥، الطبعة الأولى.

المضطهدة من شعب الدولة الرومانية. فاستاذ الجامعة في موسكو، د. كربوكوف (مات فيالعام ١٨٤٥)، درس المسائل الخاصة بعوام روما القديمة؛ وب. كودريافنسكي مؤلف العمل الشعبي حتى يومنا: "النساء الرومان" لوحات مستقاة من تاسيت (١٨٥٦)؛ وس. اشفسكي أول من أوقف عمله على تاريخ الأرياف الرومانية المستغلة بوحشية وعلاقتها مع مركز الدولة الرومانية، ونحن مدينون له أيضاً بعمل جاد جداً، بعنوان 'سيدوان أبولنير'، "فصل من التاريخ الأدبي والسياسي *de la Gaule* في القرن الخامس (١٨٥٥). ورغم أن العهد الذي سبق الإصلاح في روسيا كان عقبة كأداء في وجه تقدم العلم، كانت المدرسة التاريخية الروسية تحلق بجناحين قويين.

إن ظهور أعمال ك. ماركس وف. أنجلز (بخاصة رأس المال لماركس وأصل الأسرة الملكية الخاصة والدولة لأنجلز) مارس نفوذاً حاسماً في كتابة تاريخ علمي فعلاً لروما، وكذلك للمصور الأخرى. ولقد قوّم أنجلز عالياً أعمال ماركس في علم التاريخ: "كما اكتشف داون قانون التطور في العالم العضوي، اكتشف ماركس قانون تطور التاريخ البشري، يقول ماركس ثمة واقعة بسيطة، مخبأة حتى اليوم تحت الطمي الأيدلوجي. إن الناس يجب أولاً أن يأكلوا، يشربوا، يسكنوا ويلبسوا، قبل أن يستطيعوا الاهتمام بالسياسة، بالعلم، بالفن، بالدين، وغيرها... وأن إنتاج مواد الوجود الأولية، تشكل درجة فسي سلم الارتقاء الاقتصادي لشعب أو لعصر ما، وانطلاقاً من هذا تتطور مؤسسات الدولة والمفاهيم الحقوقية، الفن، وحتى الأفكار الدينية لهؤلاء القوم، هنا تكمن العلة، وليس العكس كما فعلوا حتى الآن". لقد أدخل ماركس إلى علم التاريخ مفهوم التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية "كمجموعة من علاقات إنتاج معينة ووطد فيه مقولة أن تطور هذه التشكيلات هو استئطالة أو تطوير التاريخ الطبيعي"^١. ودرس أنجلز دراسة معمقة العشير الروماني وكشف تطور تشكيلة الدولة في روما (أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، الفصل السادس "العشير والدولة في روما")؛ وحدد أيضاً الشروط والأسباب الاجتماعية لولادة وانتشار المسيحية (برونو بويز والمسيحية الأولى، تاريخ المسيحية الأولى).

^١ - شاعر لاتيني، أسقف كليمنت-فيران. ولد في ليون، بفرنسا.

^٢ - ف. لينين، الأعمال، المجلد الأول، المنشورات الاجتماعية، باريس.

لقد جهد "علم" التاريخ البورجوازي بداية، في إخفاء، ثم تشويه و"دحض" النظرية التي وضعها ماركس وانجلز (المادية التاريخية)، لكن تفاقم الأزمة الرأسمالية المستمر أجبره، هو الآخر على الاهتمام المتواصل بالظواهر الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية في تاريخ روما القديم، وفي عهود التاريخ الأخرى. فصدرت سلسلة بحوث في تاريخ روما الاقتصادي (التاريخ الزراعي لروما لماركس وبيير، ١٨٩١، مثلاً). ونشر مومسن في العام ١٨٨٥ المجلد الخامس من كتاب بعنوان "تاريخ روما"، تنمة لهذا العمل الذي كتب بمستوى مغاير تماماً في المجلدات الأولى الثلاثة: يتضمن بالفعل وصفاً في غاية التفصيل، ومؤسساً على النقوش، والحياة الاقتصادية والتنظيم الإداري للكريات الرومانية في أيام الامبراطورية. وكتب ج. سالفولي كتاباً بعنوان "الرأسمالية في العالم القديم" (١٩٠٦). وفي سفره الضخم "عظمة وانحطاط روما" (١٩٠١-١٩٠٧)، اهتم عالم إيطالي آخر هو غيغيلمو فريرو بالظواهر الاقتصادية والاجتماعية في التاريخ الروماني في القرنين الثاني والأول ق.م. لكن أحداً من هؤلاء الباحثين، الذين تابعوا، مثل مومسن، تحديث التاريخ القديم، نحى ولو قليلاً نحو الاعتراف بالطبيعة العبودية للمجتمع الروماني. بالعكس، فقد وقفوا إلى جانب إد. ماير (العبودية في العهود القديمة، والتطور الاقتصادي في العالم القديم)، ورأوا أن عدد العبيد، في القديم، كان مبالغاً به، وبشكل عام ليس ثمة أي فرق بارز بين العمل الرقي والعمل المأجور، رافضين هكذا مفهوم ماركس. وتمسك إد. ماير نفسه، وروبولمان وج. بيلوش، بالنظرية التي ترى أن الرأسمالية هي أوج مرحلة التطور الاجتماعي المتنامي من اتساع الحركة الثورية البروليتارية.

كان علم التاريخ الروسي يتابع طريقه الخاص. فقد نشر إ. غريفس، أستاذ في جامعة بطرسبورغ، الذي أقيّل في العام ١٨٩٩ كـ "متهم"، لكنه عاد بعد ثلاثة أعوام إلى عمله بناءً على طلب الرأي العام، نشر أبحاثه "في تاريخ الملكية العقارية في روما" (١٨٩٩)، العمل رفيع القيمة حيث يصف المجالات النموذجية في أيام أوغست، هوراس وبومبوس أتيكوس. وأستاذ آخر في نفس الجامعة، عانى أكثر من زميله من العنف الحكومي، وهو ف. مودستوف، مؤلف العمل الهام "مدخل إلى تاريخ روما" (صدر منه الجزء الأول والثاني، في العام ١٩٠٢-١٩٠٤)، وهو لم يفقد أهميته حتى يومنا هذا. كان مودستوف واحداً من أوائل مؤرخي العالم الذي أشار إلى ضرورة استخدام التوثيق الأثري الذي يتجمع عندنا الآن، من أجل دراسة العهود الأولى من تاريخ إيطاليا وروما. ووضع أسس مدرسة جديّة للتاريخ الروماني، مرتباً تمحيص المراجع مع تمحيص معطيات مختلف

العلوم المساعدة للتاريخ (علم الآثار، النقش، وعلم المسكوكات، وسواها). وكتب مودستوف أيضا "تاريخ الأدب الروماني، قدم فيه الوقائع الأدبية برباط متين مع التاريخ العام، الاجتماعي والسياسي لروما. وفي ذات الحقبة صدر "أبحاث في تاريخ السلطة الامبريالية في روما (مجلدان، ١٩٠٠ و ١٩٠٢) للأستاذ ي. إيريم، و"مختصر التاريخ الروماني" و"بحث في العهود القديمة للدولة الرومانية" (ملازم ١-٣، ١٨٩٤-١٩٠٢) للأستاذ ي. نيوتشيل. وقد رفد أساتذة جامعة موسكو ر. فيبير و د. بتروشفسكي دراسة روما القياصرة بأبحاث هامة، مثل "مقالات في تاريخ الإمبراطورية الرومانية" بقلم ر. فيبير (١٩٠٨، الطبعة الثانية، ١٩٢٣) ظهر بعيد ثورة ١٩٠٥، ليقدّم لوحة التحولات الاقتصادية والصراع الاجتماعي الضاري، التي أفضت إلى سقوط الجمهورية وأمارة أوغست. الطروحات هنا قريبة جدا من طروحات المادية التاريخية، لكنها تحدث، هي الأخرى، تعصرون الماضي رغم أن الهدف معاد قطعا لهدف المؤرخين الرجعيين، بل لمهاجمة الرأسمالية وليس لإعادة الاعتبار لها. وفي "أبحاث حول تاريخ المجتمع والدولة في العصر الوسيط" ١٩٠٧، الطبعة الخامسة ١٩٢٢)، يطرح د. بتروشفسكي التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للإمبراطورية الرومانية، خاصة في عهد الانحطاط، متأملا مفصلا التطور الاقتصادي، وظهور الاستعمار ومختلف أنواع القنانة، إلخ. إن كل هؤلاء العلماء الروس لنهاية القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠ غير ماركسيين، في الأغلب، ولم يتبنوا النظرية الماركسية في التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية. فكانت أعمالهم في المستوى العلمي أرقى من أعمال أولئك المؤرخين البورجوازيين الغربيين، الذين ينطلقون من وجهات نظر مثالية.

إن أعمال ف. لينين الكلاسيكية (المادية ونقدية العلم، في الدولة، وغيرها) أعطت المؤرخين السوفيات توجها واضحا ودقيقا ليصلوا إلى مفهوم ماركسي في الطبيعة العبودية للمجتمع القديم، في دور وأهمية تمردات العبيد وانتفاضاتهم، وفي وظائف الدولة، إلخ. وابتاع هذه الخطوط التوجيهية، انكب المؤرخون السوفيات على تحقيق وصية أنجلز: "القيام بدراسة جديدة للتاريخ كله"، وبهذا الصدد، قدموا الكثير في مجال التاريخ الروماني. وفي الربع الأول من القرن العشرين صدر "روما القديمة" (الجزء الأول ١٩٢٢؛ الجزء الثاني، ١٩٢٣، للأكاديمي س. جيبيليف)؛ إن هذا العمل، رغم أنه لا يمثل سوى عرضا موجزا، تضمن الكثير من الطروحات الهامة حول آخر *parisades* وانتفاضة سيث

^١ - نيميك، الأكاديمية الوطنية لتاريخ الثقافة المادية.

ألبوسفور (حوليات غيميك، ١٩٣٣)، بادنا سلسلة من الأبحاث حول تاريخ انتفاضات العبيد في العهود القديمة، التي لن يولها العلم البورجوازي أي اهتمام تقريبا. وفي العام ١٩٣٦، ظهر العمل الهام للأستاذ آ. مشولين، بعنوان "انتفاضة سبارتاكوس" الذي درس حركة العبيد في العهود الغابرة لأول مرة دراسة مستفيضة. وفي العام ١٩٣٧ صدرت مجلة "حوليات التاريخ القديم"، تضمنت عددا كبيرا من المقالات لعلماء سوفيات، موقوفة لمسائل التاريخ الروماني، وترجمات لأعمال باحثة في العهود القديمة، خاصة بتاريخ روما الغابر (القسم الأول للجمهورية، والقسم الثاني للإمبراطورية)، كانت هذه المجلة أول عمل باللغة الروسية يتضمن عرضا تفصيليا من حيث المنهج، كتب بطريقة حية ومفهومة من أوسع الجماهير، لكل التاريخ الروماني حتى سقوط إمبراطورية الغرب. وعلى أبواب خمسينيات القرن العشرين، ظهرت أعمال أخرى هامة في تاريخ روما. نشر ن. ماشكين، أستاذ في جامعة موسكو، مثلا، "تاريخ روما القديم" (الطبعة الأولى ١٩٤٧، الطبعة الثانية، المتضمنة معلومات جديدة هامة، في ١٩٤٩، والطبعة الثالثة في ١٩٥٦)، الذي صار وسيلة تدريس أساسية. وأصدر س. كوفاليف، أستاذ من جامعة لينينغراد، في ذات الحقبة: "تاريخ روما" (١٩٤٨)، عملا ليس أقل أهمية أو شمولاً. العمالان معتبران فهرست مرجعا مفصلا. وفي ١٩٤٩، ظهرت الدراسة الوافية لـ ن. ماشكين، "أمارة أوغست"، التي درست الجذور الاقتصادية والاجتماعية والأسباب الرئيسة لولادة الإمبراطورية الرومانية؛ وثبت المؤلف هنا أهمية الدور الذي لعبته في هذا التطور حركة العبيد المنتامية.

والمؤلف الذي صدر في العام ١٩٥٤، بقلم أو. كودريا فتسيف "الإيلات الإغريقية في شبه جزيرة البلقان في القرن الثاني الميلاد، مساهمة قيمة لدراسة معمقة لتاريخ الشعوب التي كانت تشكل جزءا من الامبراطورية اليونانية. وأوقف عدد من البحوث لعلماء سوفيات على تاريخ الأفكار في المجتمع الروماني. سنذكر أهمها، في منشورات كلية التاريخ من أكاديمية العلوم، كتب س. أوتشانكو، "صراع الأفكار والأحزاب في روما عشية انهيار الجمهورية" (موسكو ١٩٥٢)، و ر. فيبير، "روما والمسيحية البدائية" (موسكو ١٩٥٤)، وأيضا: تاريخ الأدب الورماني، من منشورات جامعة موسكو، بإشراف الأستاذ ن. دراتاني.

ثمة واقعة مميزة، إذ يلاحظ في أثناء الثلاثين السنة الأخيرة ركود واضح في الإنتاج التاريخي الغربي. وفي عمله الضخم "التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للإمبراطورية الرومانية" (ظهر بالانجليزية في ١٩٦٢، ثم ترجم إلى الإيطالية والألمانية)، يقول الأستاذ

البطرسبورجي م. روستوفتسيف: في العهود الفاشية، أرتدت أبحاث التاريخ الروماني لباس الدعاية الأشرية للعرقية والعدوان، وفي مثاليه "المسالمون" و"موطدي النظام" يقدم الدكتاتور الدموي سيللا مثلاً. يلمس تأثير هذه الأفكار أيضاً في أعمال العلماء الفرنسيين، الانكليز والأمريكان. هكذا، عاب كبير مؤرخي فرنسا ج. كركوبينو (وزير في حكومة بيتان)، عاب سيللا، في الكتاب الذي خصه به، لأنه اعتزل الدكتاتورية طائعا، وأفسح في المجال لقيام الملكية في روما؛ وفي عمل آخر، حول قيصر، أطرى كثيرا هذا الأخير. يذكر كركوبينو والفاشي الإيطالي بيس Pais بين من ساهم في كتابة العمل الضخم "التاريخ العام" الذي نشر بإشراف غوستاف غلوتز، وقد ورد فيه تقريبا كل ما ينسب لتاريخ الجمهورية الرومانية (١٩٢٦-١٩٣٦). وفي الحقبة ذاتها صدر في انكلترا: تاريخ كامبريدج القديم، عمل واسع أيضا، خصصت روما بستة كتب منه، (٧-١٢، ١٩٢٨-١٩٣٩). إن مجموعة المقالات هذه بسن قلم مؤلفين عديدين، متبايني المناهج العلمية، خالية من أي وحدة فكرية. تعتبر هذه المؤلفات مستندات مرجعية، بفضل ضخامة جهاز التوثيق الذي وضع تحت تصرفها. والطبعة الأخيرة من "الموسوعة العلمية لعلم العهود الكلاسيكية الذي نشر في ألمانيا منذ ١٨٩٤، تحت إشراف بولي-وروا وكرول، يمكن الرجوع إليه بهذه الصفة.

وقد برز تراجع العلم الرجعي البورجوازي أيضا بعد الحرب العالمية الثانية. لابل اختفى تقريبا بحث المسائل الاقتصادية والاجتماعية من صفحات العديد من المجالات التاريخية الصادرة في أوروبا الغربية وأمريكا. وفي الوقت ذاته يحاول تاريخ السياسة الخارجية وبخاصة التاريخ القتالي احتلال المقام الأول. وهكذا يعلن فرانز ألتييم، الأخصائي الشهير بالتاريخ الروماني من ألمانيا الغربية، في مؤلفه "نهاية العهود القديمة" في مجلدين، والمنشور في Francfort-sur-leMain، أن العنصر الرئيس في انهيار الامبراطورية هو تسليح الشعوب "البرابرة" بالخيالة المعززة بالأسلحة الثقيلة، الأمر الذي أعجز بل حكم سلاح المشاة الشهير. لكن الأزمة الخارجية فقط تستثير أزمة داخلية، ويقول ألتييم "الهيمنة أبدا للسياسة الخارجية" ويتبنى واحد من أبرز ممثلي المدرسة التاريخية الإنكليزية، الأستاذ في جامعة لندن سكوللار، يتبنى مقولة إرجاع كل التاريخ الروماني إلى أحداث السياسة الخارجية. وفي كتابه "تاريخ العالم الروماني" (لندن، ١٩٥١)، يسعى جاهدا لتبرير سياسة روما العدوانية، في القرنين الثالث والثاني ق.م، ويصفها "إمبريالية دفاعية"؛ بهذا المعنى- اتبع الرومان هذه السياسة لخير البلدان المحتلة، المتخلفة أو فريسة "الاضطرابات

الاجتماعية" (مثل، اليونان في القرنين الثالث والثاني ق.م^١). وينصب اهتمام مؤرخي العهود القديمة بخاصة في السنوات الأخيرة على قضايا تاريخ الأديان، ومختلف النظريات والتيارات الأسطورية، وأعمال الإمبراطور الفيلسوف مارك-أوريل، أو *de "l'isopostole"* قسطنطين (الذي خصه المرخون البورجوازيون المعاصرون بسلسلة من الدراسات الوافية، تمجده لأنه ناصر الحزب المسيحي^٢). إجمالاً، يقدم العلم البورجوازي الراهن كثيراً من البحوث القيمة حول مختلف النقاط المتعلقة بتاريخ روما القديمة، ففي الفروع اللغوية، الفلسفية، السياسية والفنية، وسواها، لكنه يتخلف بالآراء العامة، المسهية والصادقة في آن معاً.

على ذلك ليس بميسور المؤرخ السوفييتي أن لايعترف في أي حال بأهمية بحث ودراسة تفصيلية للوثائق التاريخية التي يحققها العلم البورجوازي، بخاصة خلال العقود الأخيرة. ولابد من مواكبة المجالات العديدة، المخصصة لتاريخ الزمن الغابر، الصادرة في الغرب، التي تطلعنا بعامة وبطريقة تفصيلية على آخر الكشوفات في حقل التاريخ الروماني وتنتشر تقارير نقدية عن المنشورات الحديثة؛ وهي تصدر أخيراً مقالات واسعة الأهمية حول بعض القضايا الخاصة بالتاريخ الروماني. وثمة فائدة كبرى في الرجوع بهذا الصدد إلى "جريدة الدراسات الرومانية" (لندن)، و"مجلة علم الآثار" (باريس)، ومجلة الدراسات اللاتينية، وجريدة الدراسات القديمة (بورديو)، العهود القديمة الكلاسيكية (بروكسل). أخيراً يظهر ببطء في البلدان البورجوازية، وبذور فكر علمي ماركسي، أو قريب من الماركسية، وعلم جديد تقدمي. من مثليه نذكر الانكليزي غوردن شيلد (مصادر الحضارة الأوربية)، والعالم الإيطالي جوليو لوزاتو في (التاريخ الاقتصادي لإيطاليا) والعديد من مؤرخي الجمهوريات الشعبية، مثل كازارو، دانوف، وديكوفسيوس.

^١ - نجد دراسة تفصيلية لهذه المؤلفات في "حوليات التاريخ القديم" العدد ٢، ١٩٥٤، ص ١١١-١١٤ و ١٩٥٥، العدد ٢ ص ١٣٢-١٤٠.

^٢ - انظر "حوليات التاريخ القديم" عدد ١، ١٩٥٠، ص ١٦٦-١٧٦.

الفصل الواحد والأربعون

إيطاليا القديمة

شبه الجزيرة الأبنينس؛ ميزاتها الجغرافية

تقع إيطاليا في شبه جزيرة الأبنينس *Apennins*، محاطة من جهاتها الثلاثة ببحار الأدرياتيك، الإيوني والتيراني. شمالاً، سلسلة الألب الوعرة التي تفصلها عن باقي أوربا. ولقد لاحظ الجغرافي القديم سترابون بحق أن جبال الألب والبحر يشكلان "حصناً حصيناً لإيطاليا ضد الغزو. لكن البحر يشكل في الوقت ذاته مسلكاً مفتوحاً على كل الاتجاهات، سمح منذ القديم لإيطالية بإقامة علاقات مع شعوب حوض المتوسط الأخرى وتمثلت ثقافتها.

الميزة الأخرى لإيطاليا هي طيب مناخها. تتراوح الحرارة في الشتاء، بين +٦° (في كانون الثاني في روما و+١١° في سيسليا، الأمر الذي يسمح للأنعام بالبقاء في المرعى طيلة العام. ومنذ أقدم العصور، عرف الطليان غير الحبوب (شعير، حنطة رومية والذرة البيضاء، وغيرها) زراعة الكرمة، الكستناء والتوت؛ وقد أدخل اليونان والفينيقيون إلى إيطالية، الزيتون، البلح، الرمان (تفاح قرطاجة) إلخ. ومارس لطف المناخ دوره على عدة مناحي من حياة شعوب الطليان القدماء؛ على الثياب (جلباب وقميص) وعلى ابن الجنوب، مثل البيت اليوناني، المبني حول "باحة داخلية" سماوية، وبحرة في الوسط.

لكن إلى جانب التشابه الذي تمثله الشروط الطبيعية، من المناسب أن نلاحظ الفوارق في البنية الخغرافية بين إيطاليا واليونان. أولاً، مساحة الأرض الإيطالية (حوالي ٣٠٠ ألف كم^٢ هي على الأقل خمسة أمثال مساحة اليونان، وبالتالي، كان قومها أكثر بشكل ملحوظ. من هنا اتسم كل شيء في إيطاليا "بالضخامة". ثانياً، مع أن شبه الجزيرة الإيطالية هي، كما في البلقان، بلد جبلي، تبقى سلسلة جبال الأبنوس أقل وعورة، وأكثر قبولاً للتجاوز، ودعائمتها لا تجزيء إيطاليا إلى مناطق منعزلة كما تفعل جبال اليونان الوعرة. ومجاري

المياه الإيطالية تسهل الوصول: البادوس، أو الاردان (الآن البو)، قابلان للإبحار ويجريان نحو الشرق، وكذلك هي أنهار الساحل الغربي: الأرئوس، التبير والفولترنو. لكن مجاريها السفلى غاصة بالطمي الرملي الذي شكل مستنقعات توسكانيا، الشهيرة بالمalaria، ومصبات نهر أرنو ومستنقعات بونتانس، على ساحل لاتيوم، غير قابلة للسكن البشري وبناء المرافق. فالساحل الإيطالي هو، بعامة، أقل قبولا للإبحار من شواطئ اليونان، المجوفة بالخلجان والتخور.

أخيرا بعكس اليونان غير الخصبة والصخرية، شبه جزيرة الأبينس بلد زراعي. وكان كتاب الزمن الغابر يدهشون لخصب التربة الإيطالية. وحوض البو (*Goule cisalpie*) يتميز من هذه الزاوية، وكذلك السهل الغربي، المتضمن أترودي، لاتيوم وكامباني؛ تعطي هذه الأخيرة ثلاثة مواسم في العام. والمراعي الألبية والأراضي المستنقعية عند مصب مجاري المياه، المغطاة بالنباتات الوفيرة، تساهم بازدهار التدجين. حتى سمي البرتيوم *viteliu* (بلاد العجول) ومن هنا كانت على الأرجح كلمة إيطاليا. فالطبيعة الزراعية لهذا البلد أثرت في القديم على مجرى تاريخها الداخلي، الذي لم يكن أساسا إلا الصراع من أجل التربة بين شعوبها المتباينة ومختلف الشرائع الشعبية.

حضارات إيطاليا (قبل التاريخ)

تثبت بحوث علم الآثار أن شبه جزيرة الأبينس كانت مأهولة قبل جزر البلقان؛ وقد عرفت العصر القديم للحجر. ثمة (مغائر برسوم من عصر الحجر القديم في جبال ليغوري)، بينما لم يعرف هذا العصر في البلقان يومئذ. وعرف العصر الحجري الحديث في شبه الجزيرة كلها، في سيسيليا وسردينيا (بدءا من الألف الرابع قبل الميلاد). يتثبت الكثير من مقابر عظام الحيوانات المتوحشة وقواقع الزواحف في أرض محطات العصر الحجري على الأهمية العظيمة للصيد والقنص في تلك الحقبة. فانطلاقا من الألف الثالثة ق.م، يبدأ، إلى جانب الحجر، استخدام النحاس (في صناعة مختلف السلع) (كالنقش على الحجر)؛ ويلاحظ أيضا بدايات التدجين، وبخاصة الحيوانات الصغيرة (صودفت عظام ماعز، خراف، خنازير، بكثرة في الحفريات).

تمثل عصر البرونز (الألف الثانية ق.م) في شمال إيطاليا الحضارة المسماة الأراضي الخصبة: كان سكانها يعيشون في تجمعات واسعة حصينة وبينون أخصاصا وتدية فوق

الماء، تكون عادة بشكل منضدة مربعة غير متساوية القوائم. استمر السكان بصناعة أدواتهم من الحجارة، ولكن هذا لم يمنع من تداول العظام والنحاس والبرونز. وفضلاً عن الصيد والقنص، اللذين بقيا اهتمامهم الأول، كانوا يمارسون التدجين؛ ويمكن أن نقول أنهم عرفوا الزراعة. وكانوا يحرقون موتاهم ويضعون المرمدة التي تضم الرماد، بصفوف كثيفة. في مدينة الأموات، بعيداً عن السور الذي يحصن تجمعهم.

وفي إيطاليا الوسطى والجنوبية، ارتبطت حضارة عصر البرونز، خلال الألف الثانية ق.م. بالحضارة الكريتو-ميسينية. وهذا مايسمى "حضارة الأبيننس"، وهي أرقى بوضوح من حضارة الأراضي الخصبة. فهي تتميز بمنشآت لتصريف مياه منطقة لا تيوم، وبالأسوار الضخمة والخزف الملون، المشابه للخزف الميسيني. وبعكس الذي رأيناه في الشمال، العادة هنا دفن الموتى.

تسم الألف الأولى، في شبه جزيرة الأبيننس، بداية عصر الحديد الأول (حوالي ١٠٠٠ عام ق.م) حضارة فيلانوفا، نسبة إلى محلة تقع ليس بعيداً عن بولونيا Bologne، اكتشف قريباً منها، في العام ١٨٥٣، آثار مقبرة واسعة تضم أوان فريدة النموذج، تسمى "مخروطية مزدوجة *biconique*". تتميز هذه الحضارة، واسعة الانتشار، بأولى السلع الحديدية، في حقبة يهيمن فيها البرونز. وقد عاشت هنا تجمعات من نموذج حضري؛ فقد أنجز تماماً انتقال الاقتصاد إلى مرحلة الزراعة والتدجين. واختار سكان الشكل الدائري، المصنوعة من جذوع الصنوبر المقشر، وجدران من الغضار، الحياة العائلية باستثمارتها الخاصة. تثبت الكنوز الضخمة على غنى بعض الاستثمارات؛ وتشبي قطع الخزف اليونانية والسلع الفينيقية (الزجاجيات، العاج) التي عثر عليها هنا بداية التبادل التجاري مع الجوار. وتتسم حضارة فيلانوفا بانتقال إيطالية نحو مرحلة تاريخية.

مسألة الرعية في إيطاليا البدائية

يفترض أن أقدم سكان شبه جزيرة الأبيننس كانوا الليغور *les ligures* وأصهارهم من الشعوب الأخرى، التي سكنت إيطاليا الوسطى والساحلية منذ العصر الحجري الجديد، وطيلة عصر البرونز. وفي بداية الألف الثاني، تبدأ خلف الألب، حركة هجرة شعوب الأمصار الدانوبية والكارباتية، جدود الطليان في الأرجح وإلى هذه العناصر الطليعية تنسب حضارة الأرض الخصبة (انطلاقاً من الألف الثاني). تغفل أول رعي من حاكم هذا القوم

الآتي، مخترقا الأبيننس، ليحل في الجنوب الغربي من لانيوم (لانتس)، وفي الكامباني والبرتيوم (يكول) (وفي حوالي ١٢٠٠-١١٠٠ ق.م. تدفقت موجة جديدة من الشعوب المجاورة عرقيا للأولى، الـ"أومبرو-سبليان" والـ"أوسك"، من الشمال، لتقيم بخاصة في المناطق الجبلية من الأبيننس. يفترض أن الأمبريين هم مؤسسو حضارة فيلانوفيا. وشكل البسانتان، السابان، السامنيث واللوكانيان فروعهم الساحلية. وربما انصهر قسم من السكان القدماء بالغزاة، الذين رقدوا الآخرين في المناطق الأقل ازدهارا (الليغور، مثلا، استقروا في الجزء الشمالي من الأبيننس، والسيكول في سيسيليا.

وفيما بعد استقرت شعوب أيليريان والتيرانيان أو أيروسك (بدءا من القرن العاشر) في شبه الجزيرة، وف يفترة أقرب، احتل السلت أو الغولوا كل الشطر الشمالي؛ لذا سمي سهل البوغول سيزالين (من جهة الألب) قبالة غول ترانسألين، فرنسا الحالية.

على أثر هذه الهجرات وهذا الاختلاط العرقي، يمكن أن نعتثر في شبه جزيرة الأبيننس، في العصر التاريخي، على اثنتي عشرة لغة، مع إهمال لهجات عديدة لمختلف الشعوب. وهم يشكلون بدءا من الجنوب، سلسلة من الأراضي الوطنية كان أهمها البرتيوم، لوكاني، أبولي، سامنيوم، كامباني، لانيوم، بيسنوم، الأومبري، إيتروريوغول سيزالين.

لقد أدهش هذا الموزاييك العرقي القدماء. ويرى في هذا بحاثه العهود القديمة وأغلب المؤرخين المعاصرين ومعهم أشهر الأخصائيين السوفيات النتيجة الطبيعية للهجرات التي أشير إليها أعلاه. إنما في الإجمال، يبقى أصل شعوب إيطاليا البدائية وعلاقاتها بالحضارات المكتشفة على أرضها، حتى الآن، وإلى مدى بعيد، قضية يجب حلها.

الفصل الثاني والأربعون

إيطاليا في عصر العشبير

(من القرن العاشر إلى السابع ق.م)

بقايا عصر الأمومة

في أيام النقش على الحجر وبداية عصر البرونز، وبخاصة في زمن حضارة الأرض الخصبة، عبر الإيطاليون محطة المشاعة البدائية (عصر الأمومة). كان اقتصادهم البدائي (صيد، قنص، تدجين صغار الأنعام، زراعة المعزقة أو المجرفة، الذي كان ما يزال عمل المرأة) يتطلب تكاتف الجهود في قلب المشاعات التعاونية الضخمة. ويمكن أن ندرك نموذج عصر الأمومة لهذه المشاعات البدائية، ببقايا هذه المنظمة التي نلاحظها لدى الإيطاليين بشكل جماعات اجتماعية موجودة منذ أقدم العصور، باسم "أفخاذ" (البطون - أو الأخويات - اليونانية). وهكذا، في الأزمنة التاريخية، كان الشعب الروماني كله مقسما إلى ٣٠ أفخاذ. يحمل كل فخذ اسم جده (تيتيا، فوتيا، رامنا، إلخ). وكان أعضاؤه يجتمعون من حين إلى آخر إلى ولائم، بقية الشراكة القديمة في الأرزاق والوجبات. وكان شيوخ الأفخاذ، المكلفون بالسلطة الكهنوتية، يسهرون على إبعاد الأجانب عن حيضهم. ثانيا، ثمة عدد من التقاليد (مثل خرافة اختطاف رفاق روملس للسابيات) وهي ذكرى غامضة بعيدة للزواج الجماعي، في زمن مجتمع الأمومة. وثمة أخيرا آثار الطوطمية التي تميز عهد الأمومة في أسماء بعض الشعوب الإيطالية وفي عبادة بعض الحيوانات المعتبرة مقدسة: الأفعى، الإوز والذئب، في روما.

الانتقال إلى العشبير الأبوي. الليتيوم وأصول روما

لقد أفضى التطور الاقتصادي إلى الانتقال التدريجي من الصيد، القنص وزراعة المعزقة ومركز المرأة، إلى تدجين الحيوانات الضخمة وزراعة المحراث، التي يمارسها

الرجال. مما ساهم بتشكيل وحدات اقتصادية أمتن، تتطلب تكاتف جهود أقل امتدادا من المشاعات القديمة للصيادين والقناصيين. من هنا استبدل عهد المرأة وذروته عصر البرونز بمنظمة الأبوة. وبسبب الشروط الملائمة مبكرا استمر متينا خلال حقبة طويلة. إننا على اطلاع واف حول منظمة المجتمع الأبوي في لاتيوم وبخاصة في روما.

اللاتيوم، سهل مستنقي وعر (حوالي ٢٠٠٠ كم^٢)، يشغل وسط شاطيء إيطاليا الغربي. أجداد اللاتين، الذين أقاموا فيه، كانوا على سلم الحضارة بمستوى أدنى من مستوى أسلافهم، ممثلي حضارة الأبيننس. كانت منشآت تصريف المياه كثيرة، والمستنقعات عديدة هنا؛ كان اللاتين منذ الزمن السحيق يعيشون في أكواخ بائسة على التلال، منكبين بشكل رئيسي على التدجين والزراعة في الوديان الأكثر جفافا. لم يكن عندهم مدن، لكنهم كانوا يبنون على ارتفاعات عسيرة مواقع لجوء (استنادا إلى الرواية، كان ثمة منها ثلاثون، مع المناطق الملحقة بها). كان أهمها ألب-لا-لونج، باعتبارها مركزا دينيا، حيث يلتقم سكان المناطق الثلاثين يوم العيد المشترك لجوبتير اللاتين.

والضبعة اللاتينية الواقعة على الحدود الشمالية لبلاد الأتروسك والسابان، التي بنيت حوالي العام ١٠٠٠ ق.م. كانت هي القرية التي سميت فيما بعد روما. كانت سبعة قرى رعوية، مبعثرة في قلب غابة كثيفة والمستنقعات الموحطة، في قمم سلسلة التلال، التي تمتد على طول التيبر. وعلى بعد ٢٠ كم من مصبه. وقد شكلوا منذ القديم حلفا "بين التلال السبع"، وقلعة مشتركة، مربعة الشكل، فوق بالاتان. على التلة الأقرب، المسماة فيلليا، بنيت مقبرة مشتركة لأسلاف ("أرباب المساكن") والموقد العام، هو معبد تيستا الدائري، حيث تنقد نار دائمة. بهذه الصور المتواضعة قدم لنا علم الآثار واللغة بدايات روما. وعلى ضوء النقد العلمي الحديث، تنشر الخرافات العديدة والعجيبة حول أصول روما و"بنائها" على يد رومولس وريموس، وكأنها ابتكارات كهنة وثمره الفرضيات الساذجة للعلم القديم، وبخاصة المؤرخون اليونان للقرنين الثالث والثاني ق.م، إن حسابات الباحثة الروماني فارون، معاصر قيصر، الذي يدعي بثقة أن تاريخ "بناء روما" كان بين ٧٥٤-٧٥٣، تمتعت طويلا بثقة لاتستحقها من المؤرخين السابقين.

تقع القرى التي شكلت روما على التيبر، النهر الكبير والوحيد في لاتيوم الذي يسمح لمراكب البحر أن تصعد حتى أفانطان *Aventin*. فضلا عن هذا النهر، يمر في أسفل بالاتان

"فياسالاريا" القديم الذي يصل إلى مستنقعات الشاطئ المالحة، ومنذ أبعد الأزمنة، بني في هذا المكان، على التبرير، الجسر الخشبي، الذي خصص لحماية جماعة الأحبار المدعوة لأن تصير في المستقبل الهيئة الكهنوتية الرئيسة لروما، وعلى الكرينال، الهضبة المجاورة، اختار تجار السابان مقاما لهم، وبنوا قلعتهم، في قمة صخرة الكابتول، المشرفة على الشاطئ. وبفضل هذا الوضع المعزز، صارت "الهضبات السبع" منذ القرنين الثامن والسابع أقوى نقطة في المنطقة ومركز الاتحاد العسكري والديني لرعايا اللاتين، ووسعت جنباؤها؛ واندمج تجمع الكرينال بمدينة "الروابي السبع"، وأخضع ليغور الافانتان بالقوة؛ ثم، حسب الرواية، احتلت ألب-لا-لونج ودمرت، وانتقلت رئاسة الاحتفاء بجوبيتر اللاتيني إلى روما البدائية التي بدأت صعودها، والتي، كما يفترض بعض المؤرخين، كانت مذكورة على لائحة المتحدين باسم فيليا *Velia*.

العشير الروماني. باترسيان وكليان. بليبيان

يتبدى التنظيم الاجتماعي سهل اللاتيون بشكل أبوي واضح الملامح. فقد كان الشعب الروماني منذ أقدم العصور جمعا من البطون تعيش اقتصاديا في بوتقة مغلقة، أي مشلعات بدائية تنصرف أساسا إلى التدجين. وقد ساهم الاستثمار المشترك للأنعام والمراعي إلى اتحاد هؤلاء الـ"رعاة" في مشاعات أبوية ولذا كانت الأرض ذاتها معتبرة ملكا مشتركا للبطن، رزقه القومي. وكانت الملكية الخاصة، في بداية المرحلة الأبوية، محدودة بفيض الأنعام، والأسلحة والحلي، وأثاث المنزل، وحديقة صغيرة، ٥,٠ هكتار تقريبا. وكانت الأرض العذراء معتبرة ملكا للشعب كله؛ يتوجب على كل أعضاء العشير إحيائها، وتكون خاصة بهم كلهم.

ثمة قوة أخرى توحد المشاعة هي التزام أعضاء البطن كلهم بحمل السلاح في أيام الحروب، التي كانت تعتبر آنئذ الشكل المتفرد للنشاط الاقتصادي: غزو الجوار، للاستيلاء على الأسلاب والأنعام بخاصة وبحر غارات الأعداء. والثأر أيضا يدخل في مهام ميليشيا البطون.

وكما في مشاعة الأمومة، كان العامل الأيديولوجي يساهم في تلازم وترابط البطن الأبوي: فكرة الأخوة الحتمية لكل أحفاد جد مشترك، صاحب القبر الأسطوري الذي هو المكان المقدس لكل أعضاء البطن ومركز مدينة أموات العشير وعبادة الأسلاف. ولإثبات

أروماتهم، يحمل كل أعضاء البطن الاسم ذاته، المشتق من اسم جدهم: آل جولي، سلالة إسول، آل كلودي-منحدون من كلوزوس، وهكذا.

الجد أو أب الأسرة يمارس سلطة مطلقة، مع حق الحياة والموت، على كل أعضاء البطن. وفي الزمن الأقدم، هو الذي يقبل الأولاد بين العشير، يبيع البنات زواجا والصبيان عبيدا، يبعد أو يعاقب من يخرق عادات الأسلاف، يمتلك بدون رقابة حرث العشير وضرمه. وكان الزواج الخارجي يتم خطفا أو سبيا أو شراء للخطيبة؛ والنساء الزوجات، باعتبارهن غريبات عن العشير، يحتفظن باسمهن السابق ولا يتمتعن بأي حق.

ولقد أفضى تطور القوى المنتجة والأهمية المتنامية للملكية الخاصة، بعد تكديس أسلاب الحرب، إلى فارق في الثروة وتمييز بين الناس، يوصف بعضها بأنه كبير إي (١٠٠ ضعف حسب الرواية). وشكل شيوخهم، وأخوة الشيوخ وأبناؤهم، مع ذريتهم، شكلوا بالتالي أرستقراطية دم، ويسمون بأبناء الشيوخ. واستنادا إلى وضعهم المتميز في قلب البطن، امتلك الشيوخ وأبناؤهم الأرض، وهي حتى آنئذ ملك عام، وأزراقا أخرى، وحتى معبد البطن. ويعينون أعضاء البطن الآخرين في خاتمة الموالي، الموضوعين تحت تصرفهم، يأخذون حصتهم من الأرض من الشيوخ ويلتزمون باعتبارهم سادتهم (أي مكان الأب)، وبخدمتهم في البيوت، والذهاب إلى الحرب بقيادتهم، ويساعدونهم على أداء الفدية إن كانوا أسرى، ومعهم بناتهم، إلخ. ويلتزم السادة بمساعدة الموالي على تحقيق العدالة، وبكلمة، هم حماتهم. وكان ثمة أجناب ومحررون أيضا مقبولين كموالي في العشير.

كان هذا الفرق أول إمارة على تفكك نظام العشير.

ودلالة أخرى، أظهرت تطور التفكك الذي كان قد بدأ، هي تشكل شريحة ثانية أدنى، أقل مستوى. أكثر عددا من الموالي: العوام. يختلف المؤرخون في السراي حول منشأ وشرط هذه الجمهرة من الشعب الروماني البدائي. لكن يبدو جيدا أن العامة تمثل، بأغليبيتها، الرعية السابقة الخاضعة للاتيوم، صاحبة المستوى الثقافي الأعلى من قاهر يهايوم استولى عليها، لكنها نزلت من هذا المستوى بوضوح بعد الفتح. إلى هذا العنصر أضيف مستوطنون أتوا من نقاط عديدة في إيطاليا. كالعوام، وليسوا منظمة عشائرية، يعيشون في نظام مشترك، بل تحت قبة نظام الاقتصاد الخاص، الأسري. للمرأة في أسرة العوام وضع أكثر استقلالية، وربما كان هذا أحد الأسباب التي حالت دون الزواج بين العوام والأشراف.

فالعوام لا يعرفون عبادة الأجداد؛ كانت معبودتهم الرئيسية هي سيريس *Ceres*، إلهة الخصب، التي كانت يرتفع معبدها خارج أسوار المدينة، فوق رابية أفاننان.

كان العوام يعيشون في تبعية مضنية تجاه نظام الأبوة. الذي كان مؤلفاً بعاملة من صغار المزارعين، فيه يمارس البعض حرفة صناعية أو شيئاً من التجارة الصغيرة. بدون مراع وبدون أرض صالحة لزراعة، كانوا ملزمين باستئجار أسهم من الأشراف حائزي هذه الأرض؛ ويضيفون إليها أحياناً "مؤازرة" من الحبوب، من الدواب، إلخ. وإن اجذب الموسم، أو نزلت بالقوم جائحة مدمرة كالغزو أو المرض، يعود الفلاح إلى حالة المدين المفلس، وبالتالي، بحسب الحق القديم، يصير عبداً لدى الدائن. وإن كان دائنوه كثيراً، يقول قانون اللوائح الأثنتي عشرة (٦،٣) "لهم الحق أن يقتسموا جسده، ولاورز عليهم". فضلاً عن هذا، كان العوام معتبرين، حسب تعبير انجلز "أتباعاً"، عليهم تفرض "الضريبة". لا يسمح لهم بالاشتراك بأسلاب الحرب، وليسوا من ميليشيا القوم. ويذكر قدماء البلحثين أن العامة كانوا يهجون إلى "شرط الاستعباد" لسلطة الأشراف.

هي ذي السمات التي ميزت المجتمع الروماني، وطبعا المجتمع اللاتيني والإيطالي البدائي، منذ بداية الألف الأولى ق.م؛ المجتمع المتطور من العشير الأبوي، طبقة الأشراف، وظهور الشرائح الاجتماعية المرتبطة بها: كالتقاصرين المدمرين، الموالى والعوام "بدون جدود" المهددين أبداً بالرجوع إلى العبودية.

المؤسسات السياسية وحضارة روما البدائية

يمكننا القول بوجود ثلاثة أركان للسلطة، في روما، منذ أقدم العصور: الملك، مجلس الشيوخ، ومجلس الشعب.

لم يكن عاهل روما ملكاً بالمعنى الحديث للكلمة، بل بالأصح شيخ قبيلة، يمثل المصالح العامة للعشير. يقود الميليشيا المتحدة. يحاكم المتنازعين ليتقي الثأر، وكان أكبر كهنة المعبودات المشتركة، التي كانت عبادتها تتعلق بظواهرات الطبيعة (فيستا، وغيرها). لم يكن الملك وراثياً، بل منتخباً من شيوخ القبائل ومن "الشعب الروماني".

حسب الرواية، بقي الحكم ملكياً في روما حتى العام ٥١٠ ق.م. ومن السبعة المحفوظة أسماءهم، الثلاثة الآخرون فقط، سرفيوس توليوس وتاركين الثاني، يعتبرون شخصيات تاريخية؛ نقرأ أسماءهم في النقوش الأترورية^١. أسلافهم الأربعة روملس، الـ"مؤسس"

^١ - من أتروريا التي كانت تقع قديماً في غربي إيطاليا.

الخرافي للمدينة، نوما بومبيلي، المعتبر منظم العبادة الرومانية، تولى هوستلس وأنكوس مارتىوس - هم من المدى الأسطوري يصدر تاريخ ملوكهم من الخرافة.

وركن السلطة الثاني هو مجلس الشيوخ، أي مجلس قادة القوم، اذا سمي الشيوخ الـ "أباء". وحسب السماع، كانوا مبدئياً ١٠٠، ثم مع قبول عشائر جديدة في المشاعة. ازداد العدد إلى ٣٠٠ (عضو لكل بطن).

كانت الجمعية الشعبية في روما مؤسسة قائمة منذ أقدم الأزمنة: الـ "شعب" الذي كان يشكل المشاعة الرومانية يلتئم فيها، منقسماً حسب العادة إلى أفخاذ. ومن إجماع الأفخاذ يأخذ الملك سلطته وحقه بالقيادة العليا. يدعو الملك الجمعيات إلى الاجتماع، لبحث قضايا الحرب والسلم، سن القوانين، قبول عشائر جديدة، إلخ. الأشراف وحدهم ومواليهم يشتركون بالاقتراع، و"العوام بدون جدود" مستثنون.

أساساً، كانت روما البدائية مازال مجتمعاً بدون طبقات، وتتصف إدارة الشؤون العامة بالأبوة، المشاعة وما قبل-الدولة. مع بدء ظهور ترهصات أو أشكال جنينية لحكومة موجهة ضد الموالى وضد العوام التي يتزايد استبعادهم.

كانت زراعة الرومان واللاتين مازال بمستوى أولي. وضيعهم مؤلفة من خصوص دائرية، مصنوعة من الأغصان، وجدران مطلية بالغضار؛ وكانوا يجهلون استخدام القرص الدائري لصنع الفخار وكانت أنيتهم في الأغلب من خشب؛ يرتدون جلود الحيوانات، ثم ظهرت حياكة الصوف؛ وكان الحليب ومنتجات الحيوانات المدجنة الأخرى يشكل أساس غذائهم.

في ديانتهم تسيطر الإحيائية^١: الاعتقاد بأرواح لا تحصى. كان عندهم مثلاً روح المعبر *l'esprit de la porte* وجانوس، روح المدى الزراعي، وبوتينا، وغيرهم. يجدر الذكر أرواح الأسلاف المتوفين: الآلهة البيتية، أرواح الموتى، أرباب المساكن، وغيرها. ولا تناء أذى هذه الأرواح الشريرة وتهنتها، يلجأ إلى عدة طقوس وحشية، والتأليه، والتعويذات والتضرع. ولقد استمر طيف هذه الشعوذات حتى العصور التاريخية.

^١ - الاعتقاد بأن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في آن واحد.

الفصل الثالث والأربعون

نفك مجتمع العشير في روما (القرن السابع - السادس ق.م)

التقدم الاقتصادي والاجتماعي في لاتيوم وروما. بدايات النفوذ اليوناني انطلاقاً من القرن السابع دخلت روما عصر الحديد الثاني. وفي أثنائه، يهيمن استخدام هذا المعدن. وفي الوقت ذاته انتشر استخدام الدولاب والقرن للفخار، الأمر الذي يثبت أن المهنة الصناعية بدأت تختلف عن الزراعة. ويؤكد نموذج جديد للسكن السردابي بشكل مربع الانتقال إلى الزراعة المستقرة. ويشير متاع المقابر إلى تطور المبادلات (سلع العنبر والعاج من مصادر أجنبية، وصناعة الخزف والزجاج الفينيقية). ويحتل معيار تبادل جديد، بشكل أساور نحاسية بوزن معين، محل الدابة. ويفقد العشير الأبوي بوضوح أهميته لمصلحة الأسرة. وينبئ أحد العناصر المساهمة بتسريع التطورات الاقتصادية أن السلح الغربي والجنوبي لشبه جزيرة الأبيننس غص بشبكة كثيفة من المستعمرات اليونانية (كومس، ريجيون، سيبارس، هراكلية، تارانت، إلخ)؛ وعلى الشواطئ الشرقية والجنوبية لسيبيليا كانت هذه الشبكة أكثر كثافة (كانت سيراكوس أهم هذه الحاضرات). نشر المعمرون اليونان بين السكان الأصليين طرقهم التقنية، بالغة التطور ليومئذ، وأدواقهم وأخلاقهم. وفي إيطاليا الوسطى، لاحظنا مبكراً نفوذ مستعمرة الشالسيين في كومس، ومن هنا أتى الإتروسك، وبوساطتهم حصل اللاتين على أبجديتهم، التي ليست أساساً سوى اشتقاقاً من أبجدية شالسس (تنسب أولى النقوش اللاتينية إلى منتصف القرن السادس ق.م). استناداً إلى العثور في الحفريات اللاتينية على أكوام من بقايا الخزف القديم. كانت أثينا تمارس نفوذاً ثقافياً ملحوظاً على لاتيوم وروما. وفي بداية القرن الخامس، بني أول معبد، بالأسلوب اليوناني (معبد ديمترسيوس)، فوق تلة أفانتان. يوم أسس فنانو كومس للكايبيتول sa

ce le bre Louve . وشكل النفوذ الواسع للثقافة المادية والروحية الإغريقية المتطورة
بالتأكيد عامل تحريض لنقد الحياة الاقتصادية والاجتماعية في روما.

الأتروسك وحضارتهم

لقد مارس الأتروسك على جيرانهم الشماليين في لاتيوم وروما نفوذا عميقا. ولم يحل
العلم حتى الآن قضية الأتروسك وحتى اسم هذا الشعب لم يستقر: يسميهم اليونان "تيرين"،
ويسميهم المصريون "تورش"، ويسميهم الرومان "توسي"؛ وبشهادة دينيس ابن هالكارناس
واستنادا إلى النقش الأتروسك، كانوا يسمون أنفسهم "رازيني". ورغم اكتشاف أكثر من ١٠
آلاف نقش أجنبي، مازال لغتهم مجهولة. لا ينتسب الأتروسك في أي حال، إلى الشعوب
المسماة أيتالوت. يرى هرودوت أنهم من أصول من آسيا الصغرى، وأغلب العلماء
المعاصرون يقبلون هذا الرأي. يرى البعض فيهم معمرين من طروادة هاجروا إلى إيطاليا
الوسطى بعد سقوط هذه المدينة وزوال دولة طروادة من آسيا الصغرى. ولقد عثر بالفعل
في حضارتهم على الكثير من عناصر آسيا الصغرى، إيجيين أو كريتيو-ميسيين.

منذ القرنين السابع والسادس، كانت الصناعة والتجارة تزدهران عند الأتروسك، وكان
لهم مدنها (تاركيني، فييس، كار، فتولوني، وغيرها)، وكان المجتمع الطبقي قد تشكل. يثبت
هذه الواقعة وجود في أتروري أرستقراطية عسكرية وكهوتية ملاك عبيد وطبعا مالكي
الأراضي، يعيشون وقادة جيشهم في قصور حصينة في قمة الجبال. واستنادا إلى بذخ
غرف الأضرحة في القرن السادس، كان اللوكمون يمتلكون ثروات طائلة، لا يأتي شطرها
الأعظم من استثمار الأرض، بل كانت ثمرة حروب السلب والقرصنة.

كانت شعوب أتروري، أومبري وحوض البو الأوسط، الخاضعين للأتروسك، يعيشون
بدرجات متباينة من حيث ارتباطهم بالليكومون: كان بعض هؤلاء الأتباع يسمون لوتن،
وغيرهم، الأكثر خضوعا للاستغلال، يسمون هتيرا. وكان هؤلاء الناس الخاضعين،
ملزمين بمختلف الضرائب والسخرات (بناء استحكامات المدن، القصور، قبور اللوكمون،
والأقنية، وسواها). وكانت جماهير العبيد تشكل طبقة بنفسها.

لم يصلنا من مؤسسات الأتروسك السياسية سوى القليل من المعلومات. كان الملوك
يحكمون بعض المدن، لكن كان ثمة أيضا، ما عرف بـ"ملك الملوك" المنتخب، على رأس
اتحاد المدن الاثنتي عشر الأقدم، يقود جمعيات ممثليهم، وبنفس الوقت الكاهن الأكبر. كان

يحيط نفسه بالمجد والسودد والرفاهية (السجف والديباج، الخف الأحمر، الكرسي العلجي)؛
يمشي برفقة اثني عشر حامل فأس-ويحمل حراسه ومنفذو أوامره الباطلة وحزمة من
القضبان.

في دين الأتروسك، ثلاثية الألوهية الأسمى: تينيا (جوبيتر)، أوني (جونون)، ومنرفا
(منيرف) تشغل المقام الأول. تنتظم عبادة هذه الآلهة السماوية العظيمة وغيرها من
العبادات الثانوية في ديانة الأتروسك مع الإيمان بما لا يحصى من الأرواح، الطيبة
والشريرة. للحصول على عون الآلهة وتجنب فجور الأبالسة الشريرين، يسعى الكهنة إلى
السحر والشعوذة. ولتهدئة الآلهة والشياطين، يضحون بالبشر. كان السحر والشعوذة
والتعزيم، والتنبؤات الصادرة من طيران الطيور. وفحص أحشاء الحيوانات، والسبروق
والرعود، تشكل فن الكهنة واللوكمون السري. هكذا، بالارتباط مع ظهور الطبقات مضافا
إلى استغلال لا يرحم تمارسه الأقلية على الأكثرية، تصان فكرة أن ابن الشعب لا يستطيع
الحصول على رضى الآلهة أو الحماية من شرور الأبالسة إلا بواسطة أرسقراطيته
العسكرية والكهنوتية.

روما في عهد ملوك الأتروسك المظفرين

لقد ألقت كشوفات العلم الأتروري -نسبة للأتروسك- المعاصر، وبخاصة أعمال الآثار
الإيطاليين الآن (دوكاتي، بالوتيفو وغيرها) بعض الضوء على تاريخ روما القديم. وقد ثبت
منذ الآن، مثلا، أن الأتروسك أسسوا في القرن السابع ق.م. إمبراطورية واسعة تضم
بخاصة اللاتيوم وشطرا كبيرا من كامبانيا. والقرى القديمة على الهضبات السبع، وهي آنذا
تحت قبضتهم، تحولت إلى مدينة من نموذج أتروري، وصارت عاصمة إيالة اللاتين في
أتروريا. واسم روما بالذات وعلى الأرجح، هو الآخر، من أصل أتروسك. وتحت نفوذ
المنتصرين، صارت مركزا للصناعة الحرفية والتجارة، وصارت سورا من الجدران وبناوا
فيها ارتفاعات المياه؛ ونهض في الكايبنتول بالأسلوب الأتروري، معبد لجوبيتر. في الغالب
"أوبتموس ماكسموس"، جعله الرومان معبدهم الرئيس. والاقتباسات العديدة، في مجال
الحياة، الاقتصادية والأخلاق التي أخذها اللاتين والرومان يومئذ من الأتروسك، ساهمت
بتطورهم المادي (محراث أكثر إتقانا، تقنية المهن والبناء، بيت من نموذج جديد بساحة
داخلية، ونقد: الأس النحاسي والأبجدية) وفي مجال الإنتاج (استخدام أوسع لعمل الرقيق).

حسب الرواية الرومانية، حكم روما في القرن السادس ق.م. ثلاثة ملوك أتروسك: لوسيوس، تركينيوس بريسكس (تركين الشيخ)، الذي تسميه الخرافات الرومانية ببساطة "لوكومون"؛ وقد خلف سرفيوس تاليوس الذي، استنادا إلى جدارية محفوظة حتى الآن والنقش الذي تحمله، ليس إلا المحارب الأتروزي مستزنا، الذي قلب تركين الشيخ؛ وأخيرا لوسيوس ترلينيوس الثني أو تاركين العظيم، الذي تقدمه الروايات الرومانية كمستبد متوحش، جلد ومضطهد الشعب. وحسب أي احتمال، كانت سلطة هؤلاء الملوك الثلاثة، المظفرين الأتروسك، ذات الطبيعة الاستبدادية تتميز بوضوح عن سلطة ملوك البلاد السابقين.

في هذه الحقبة حدث، حسب الرواية "إصلاح سرفيوس توليوس". ينسب إلى هذا الأخير سلسلة من التدابير التي اتخذها على التوالي ملوك روما الأخيرون، والتي وصف ف.انجلز طبيعتها ومبدأها، فقال: "إن، في روما، أيضا، قبل تكتيس ما عرف بالـ "ملكية"، سحق النظام الاجتماعي القديم المبني على وشائج الدم، وحل محله دستور دولة جديد فعلي، مبني على إعادة توزيع الأرض وتباين الثروات".

لاشك أن السبب الرئيس لهذه التبدلات يكمن في استعار الصراع بين العوام، وقد دعمهم تطور الإنتاج، والأشراف الذين فقدوا في عهد الأتروسك كثيرا من هيمنتهم. والنتيجة الطبيعية لهذا الصراع هي تسريع تفكك مجتمع العشير. ومن جهة أخرى، أفضت مصالح السادة الأجانب، هي الأخرى، إلى إهمال حالة الأمور السابقة، لأنهم اعتبروا الأشراف أتباعا لهم، وكذلك العوام البسطاء. إذن، يبدأ التمييز بين الناس ليس حسب الانتساب القبلي بل فقط حسب الثروة. وخلال خمس سنين كانوا يحققون تمزيق الشعب وأرزاقه وانتسابه إلى "الطبقات" الخمس حيث صنف الناس حسب ثروتهم والضرائب التي يدفعونها. وقد نرى في هذا مبدأ تقديما، لأن المعيار هو الملكية الشخصية وليس الإطار القبلي. كانت الزراعة هي مصدر الحياة الرئيس، فشكل الملكية الأساسي هو الأرض. فمن يملك حصة كاملة (٥ هكتارات) يسجل في خانة الشريحة الأولى حسب الإحصاء. وبعد، في القرن الثالث ق.م. نقصت كثيرا قيمة الآس، والسبيكة السميكة من وحدة نحاسية، عادت

١ - ف.انجلز، أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، ص. ١٢٠.

إلى التداول وصارت تساوي ١٠٠ ألف آس. ويصنف من يملك ٤/٣ الحصاة (٧٦ ألف آس)، أي مساحة أرضه ٢/١ هكتار، يشكلون الشريحة الخامسة. وأولئك الذين لا يملكون دعة عنزة، ومعهم أيضا الحرفيون والتجار يعتبرون "خارج الصف"، ولا يحصون إلا "بالرأس"، مع الفقراء المدقعين، الـ"البروليتاريا".

يفيد هذا التقسيم الجديد في إعادة توزيع مختلف المخصصات، الخدمة العسكرية، وأيضا، كما يبدو، لدور الضريبة. فالمدينة، مع أرباضها، كانت مقسمة إلى أربع دوائر. وتوزع المخصصات النقدية والخدمية حسب انتسابهم لهذه "الشريحة" أو تلك. فكل الرعية، الأشراف كما العوام، ملزمون بالخدمة العسكرية، وكل يسلمح نفسه على نفقته، تناسبا مع ثروته العقارية. الأغنى يخدم على حصان (أو بالتالي، يشكلون ١٨ مائة)، ومواطنو الطبقة الأولى بسلاح ثقيل كامل (٨٠ وحدة مئوية)، ومن الطبقتين الثانية والثالثة بالسلاح الخفيف (٤٠ وحدة مئوية)، وأخيرا يشكل من لا أرض له والبروليتاريا الوحدات المئوية الخمس خارج الصف، بواقون، عمال سلاح، إلخ). وهكذا يتألف فيلقا الجيش الروماني من ١٩٣ وحدة مئوية.

يخطط هذا التنظيم كل عناصر القوم الروماني القديم، الذين يشكلون شطرا من القبائل أم لا. وحسب التقليد المحفوظ لهذا الموضوع، اعتبر العوام، رغم الأعباء الجديدة كالتزام الخدمة العسكرية التي ما كانوا ملزمين بها، "إصلاح سرفيوس تولىوس"، الذي جعلهم يساوون الأشراف بهذا الصدد، على رأس انتصاراتهم على الأرستقراطية الدم واستمروا طويلا في اعتبار هذا الملك "محسنهم".

يمكن أن نرى هذا الأمر منذ الآن البذرة التي أنتجت فيما بعد "الجمعيات الناجبة بالوحدة المئوية". لم يكن لهذه الجمعيات بداية ماكان لها فيما بعد أي تمثيل الشعب، لأن الملوك المستبدون لا يتنازلون عن سلطتهم برضاهم.

سقوط سيطرة الأتروسك ونهاية العهد الملكي

يرى المؤرخون الرومان أن سقوط هيمنة الأتروسك كان في العام ٥١٠. رغم أن هذا التاريخ غير دقيق أبدا، إذ لاشك أن الأتروسك طردوا من روما في حوالي العام ٥٠٠ ق.م. بدأ العصيان في الأرجح بانفصال مدينة لاتيوم، بدعم من المستعمرات اليونانية (كومس)، عدو الأتروسك الدهري. اندحر الأتروسك بهذا الصراع وأعلن تمرد في روما،

قاده الأشراف وخاضه الشعب كله؛ فطبقة الأشراف، الغاضبة من انتزاع ميزات الوراثية من قبل ملوك الأتروسك، مدعومة بالشعب، الراح تحت وزر الضرائب والسخرة التي فرضها آخر ملك أتروسكي هوتاركين الثاني، واضطر هذا الأخير إلى الهرب إلى أتوريا، مع رجاله المسلحين.

وهكذا أفل نجم "العهد الملكي" من تاريخ روما وانتهى معه عهد كامل من تطوره الاجتماعي. كان مجتمع العشير قد تبدد وانهار نهائياً؛ وبدأ عصر جديد، قضى على ماسبق وأسس على أنقاضه مجتمع جديد-طبقي، وبالترابط مع هذه الواقعة، ظهرت أشكال تقدمية للدولة الرومانية.

الفصل الرابع والأربعون

روما في وضع خارجي حرج أول أيام استقلالها

(٥٠٠-٣٥٠ ق.م)

عسكرة المجتمع والأخلاق

روما وجيرانها في القرن الخامس

بعد اعتاقها من نير الأتروسك، اضطرت روما لمساندة سلسلة من الحروب الباهظة الكلفة ضد جيرانها المباشرين. تذخر أول كتب "التاريخ" لتيت-لايف بقصص عن أهم مآثر الأبطال التي أفرزتها هذه الحروب.

قاتل الرومان قرابة ١٠٠ عام (في أثناء القرن الخامس) ضد الأتروسك الذين لم يسلموا طبعاً بخسارة لاتيوم وروما. لكن روما ذاتها انتقلت إلى الهجوم؛ ففي العام ٣٦٠، احتلت مدينة فييس الأتروسكية ودمرت وانتقل خط الدفاع إلى الأمام ٣٠ كم خارج سور روما. بينما كان الرومان يخوضون حروبهم مع الأتروسك، اضطروا طيلة النصف الأول من القرن الخامس، التصدي للهجمات الآتية من الشمال الشرقي ضد لاتيوم من قبل السابينين. ومن الشرق والجنوب، كانت الشعوب الجبلية (الأوك والغولسك) يشنون غزوات مستمرة على سهل لاتيوم، عادة في منتصف فصل الصيف، في أيام الحصاد. فلم تستطع روما الدفاع عن نفسها ضد أعدائها الذين يهاجمونها من كل صوب إلا برفع جاهزيتها القتالية كل عام وأن يحمل الشعب كله السلاح.

في بداية القرن الخامس، حصلت روما على حلفاء بشخص اتحاد أرسينين، جامعة من المدن اللاتينية يرأسها أريسيا، وشعب هرنيك أيضا تحت تهديد العدوان الأتروسكي. وفي العام ٤٩٣، عقدت معاهدة تعاون متبادل مع اللاتين، في الحرب. أزر هذا الحلف الثلاثي، الذي يضم بمتانة شعوبا أخوية، روما في الدفاع عن استقلالها وتوطيده، والمساهمة بنفس

الوقت باستقرار العلاقات العام بين الشعوب، الاستقرار الذي رسم لإيطاليا الوسطى كلها، في بداية القرن الرابع ق.م.

لكن، في أثناء العقود الأولى من هذا القرن، نزلت بشمال إيطاليا ووسطها داهية دهياء أي غزوة السلت أو الغولوا، الذين كانوا قد أقاموا في أوروبا الغربية والوسطى من المحيط الأطلسي حتى المجرى الأوسط لابل، فيما بعد حتى مجرى الدانوب الأسفل. وفي نهاية القرن الخامس، احتل عدد من شعوب الغولوا (بوايين، سينومين، إلخ)، بعد أن اجتازوا مضائق الألب، احتلوا سهل البو، الذي جعلوه لاغول سيزالين. ومن هنا مشى السلت نحو الجنوب، فتحوا أومبريا، وبدأوا باحتلال مدن الأتروسك. -يكتب تيت لايف- "عدو لم يُر قبلاً ولم يسمع به أحد تقدم من شواطئ المحيط وآخر حدود العالم". تقول الرواية إن الغولوا، بقيادة برينوس، (طبعاً، ليس هذا اسم علم إنما تأتي كلمة برينوس بمعنى من أراد قيادة السلت) أبادوا الجيش الروماني عن بكرة أبيه، عند ملتقى نهري أليا والبو، على بعد ٥١ كم من روما. ولجأت بعض الشراذم البائسة إلى فييس. و"صار يوم أليا" واحداً من أعظم ذكريات التاريخ الروماني. وبعد ثلاثة أيام من المعركة، احتل الغولوا روما، أحرقوا وذبحوا جمهرة كبيرة من القوم (٣٩٠ ضحية حسب الرواية الرومانية، و٣٨٧ حسب أرسطو). لم يبق واقفاً سوى قلعة الكابيتول، وتوارت الحكومة الرومانية، مع فصيلة خائفة، قاوموا بظفر حصاراً دام ستة أشهر. وحسب الخرافة، لم تخل روما إلا بفدية قدرها ١٠٠٠ ليبرة ذهبية.

تتابعت غارات السلت أربعين سنة أخرى. أنهكت روما وفقدت سيطرتها على لاتيوم واضطرت إلى العودة إلى الصراع لتركيز وضعها. وفي أواسط القرن الرابع فقط كان عندها ما يكفيها من القوات لتجيب على الغارة بغارة. وفي حوالي العام ٥٠ من هذا القرن، تمت هزيمة الإيكس والفوالسك نهائياً، واحتل الرومان في تلك الحقبة مدينة كار الأترورية. وانطلاقاً من العام ٣٤٩، أوقف الغولوا أعمالهم في لاتيوم. خلفاء روما واتسعت أرضها حتى صارت ٦٠٠٠ كم^٢.

مع ذلك، لم تتعرض روما في تاريخها لتهديد ضخم كهذا إلا في الـ ١٥٠ سنة الأولى من وجودها مستقلة، وكان هذا بنشر قواتها حتى الحدود الأخيرة التي حفظت لها حريتها وأمنت لها أرضها.

الإصلاحات العسكرية في القرنين الخامس والرابع وبداية هيمنة الجيش

الروماني

قطعت الحروب المنهكة، التي استمرت دون انقطاع تقريباً مدة ١٥٠ عاماً، علاقات روما الاقتصادية والثقافية مع جيرانها الذين كانوا يعيشون مستوى عالياً من التطور. فنقص المواد، والحبوب واضح، وتوقف استيراد البضائع من اليونان القارية. وجمد استيراد الصناعات والتجار، الذين كانوا قد ازدهروا في أيام الأتروسك. بالعكس، كبر دور الملاك العقاريين والشرائح الزراعية، وقبل كل شيء، برز دور الأشراف الذين سلبوا أراضي الناس -الموالي- وعلى أرض القبائل الجديدة، على طول الشاطئ الأيمن للتير، في جنوب روما وحتى قمم الألب، في مستنقعات رونتان، أقام المعمرون ليحرثوا الأرض. ولقاء حرث مستمر، لجأ الرومان إلى تجفيف الحقول المستنقعية، وتحولت لاتيوم كلها إلى بستان مزدهر استمر حتى بداية العصر الوسيط. وحسب الرواية، لم يتهرم الآباء الشيوخ من حرث أرضهم بأنفسهم أو حفر أقبية تصريف المياه. وكانت "البساطة الريفية" القاسية، وإيجابية أرض بأرض وذهن عملي فظ معتبرة منذذ إمارات سلفية وفضائل نوعية للشعب الروماني في العهود القديمة.

فضلاً عن هذا، رهن هذا الشعب كل طاقته لدعم نضال مستميت من أجل استقلاله وحرية. يقول أنجلز بهذا الصدد إن الجيش الروماني خلق "... أجود نهج لقتال المشاة ابتكر طيلة العصر، يوم لم يكن العالم يعرف استعمال البارود".

إن كانت نواة الجيش الروماني قد تألفت سابقاً من جحفلين، فهي تضم الآن أربعة، لأن العمليات القتالية جرت على مختلف النقاط المهددة في آن واحد. وتعداد الجحفل الذي تراجع إلى النصف، هو الآن ٤٢٠٠ رجل فقط، على أهبة القتال (سلاح ١٢٠٠ منهم خفيف)، عدا الخيالة، الموسيقيين، مساعدتي البنائين وعناصر أخرى خارج الصف. لكن انشطار الوحدة القتالية الأساسية كان يعوض بإلحاق بكل وحدة سوقة مساوية لعدد القوات المتحالفة، وكان سلاح الخيالة يضاعف عادة. فضلاً عن هذا، فالحرب تدور في بلد جبلي ووعر، ضد عدو سريع الحركة، لذا قسم كل فيلق إلى وحدات صغيرة، لإنجاز مهمة

١ - ف. أنجلز "الجيش"، الموسوعة الأمريكية الجديدة، المجلد الثاني، رقم ٤، ١٨٥٨، ص ١٢٨.

مستقلة، في كل جحفل ثلاثون فصيلة، ولكل منها بواقها ورايتها. كان الفيلق يشكل جسداً، ووضح المفاصل وفي غاية التعقيد، من وحدات قتال صغيرة، تعمل مستقلة، إنما تبعاً لخطة مشتركة، إذن لا يشكل الجحفل كله وحدة قتالية واحدة، كالكتائب اليونانية، بل لكل واحدة رقعة معينة مسؤولة عنها، مع الاحتفاظ بفواصل بين الرقعة والأخرى. الخط الأول، من عشر شرادم، مزودة برماح قصيرة، خلفها يصطف في الخط الثاني، بين فرجات الأولين، عشر شرادم أخرى من جنود مدربين، وأخيراً، في الخط الثالث، شرادم السلاح الثقيل، من أكفأ المحاربين. تخوض هذه القوات المعركة تدريجياً، والصدمة الساحقة من شرادم السلاح الثقيل تبديد العدو الذي أنهكه الخطان الأول والثاني. يقدم تيت، لايف وصفا رائعاً لهذا التكتيك عالي الإتقان.

في ذات الحقبة، تبدل سلاح الجحافل، وبخاصة، وبسبب شح المعدن، صنعت أسلحة الدفاع من جلود غير مدبوغة، كثيفة ومقاومة، وادخرت القطع المعدنية لأشد الضرورات. لكن هذا التفتير نفسه ساهم في جعل القوات الرومانية أسرع، أقدر على المسير الطويل والانتفاض على مؤخرات العدو.

وتحسن التسلح الهجومي أيضاً. فادخال الزوارق، المسلحة بنفس الوقت برمح وحربة، منتظماً بإحكام مع كميات سلاح الرمي بالأسهم والرمح الطويل، كان أهم تجديد. والسيف القصير (٦٠-٧٥سم) ذو حدين ورأس من الفولاذ المسقي، سمح بالطعن كيفما اتفق.

وفي هذه الحقبة أيضاً اختار الرومان، لنصب وإقامة معسكراتهم، مخططاً متقناً ناجزاً ودائماً، وهو عبارة عن مربع يخترقه ممران يتقاطعان في الوسط. يحيطه خندق من كل جهاته وسور ترابي متوج بشباك قصبي شد إلى بعضه.

كانوا يسهرون جيداً على معنويات وثقافة الجيش القتالية. وينزلون عقوبات صارمة بمن يخرق الانضباط ويخون الواجب القتالي. ويمتدحون مآثر الشجعان في أثناء الخطابات التي تلقى في اجتماع القوات، ويخصونهم بهدايا وأوسمة.

الجمهورية العسكرية والنبيلة في بداية القرن الخامس ق.م

لقد أفضى الاهتمام الكبير بقضايا الحرب إلى إعادة تنظيم جذري للجهاز الحكومي، بمنحى عسكري شامل وكامل. ومع اختفاء السلطة المطلقة التي كان يمارسها ملوك الأثروسك (احتفظ أحد الكهنة بلقب ملك)، صارت الحكومة "حكومة الشعب" وسميت الدولة

الرومانية لهذا السبب جمهورية. لكن استمرار الحرب جعلنا نفهم بكلمة "شعب" الشعب المسلح فقط. ولذا صار مجموع الجيش المؤلف من مئات، ليقرر المسائل العسكرية المطروحة، وبخاصة خوض الحرب أو وقف القتال، وانتخاب الجنرالات السنوي، الركن الأهم في الحكومة. لم تكن تعقد هذه الاجتماعات إلا مرتين في العام، في الربيع والخريف، في معسكر مارس -أذار- (الموقوف لإله الحرب)، الكائن خارج المدينة، على ضفة التير.

كان القائد الذي يدعو القائد الذي جمعية الناخبين للاجتماع يلقي خطبة يختتمها بطرح السؤال التالي على الشعب: "أتريدون، يا سكان روما، أن تعلنوا الحرب على هذا الشعب أو ذلك؟" ويذكر أيضا الأشخاص المدعويين لممارسة قيادة القوات.

لم يكن يقبل أي نقاش، أو احتجاج، ويحال الأمر في الحال على التصويت. آنئذ تتقدم القوات، وكل مائة تعبر عن رأيها وهي مارة (كان ثمة أشخاص معينون يجمعون الأصوات داخل المثويات). يقترح أولا ١٨ قائد مائة خيال. ("أصحاب الامتياز"، هكذا يسمون لأنهم أول من يعطي رأيه. ويأتي بعدهم ٨٠ قائد مائة مشاة (حملة السلاح الثقيل). فإن وقفوا إلى جانب الخيالة، تكون الأكثرية قد ضمنت (٩٨ قائد مائة). وفي هذه الحالة لا يستشار قادة الـ ٩٥ مائة الآخرين. وفي حال العكس، يستمر التصويت حتى يتخذ قرار ما. وهكذا، نادرا ما يستشار قادة المائة الأفقر، ويلعب صوت الأجور سلاحا، أي الأغنياء الدور رغم كل شيء، كانت جمعية الشعب هذه، المجندة والمنظمة على أساس المائة، تشكل الشكل الجنيني للديموقراطية العبودية الرومانية. وليس للجمعيات القديمة الفردية سوى حق تأييد القادة المنتخبين إلى مجالس المدن المشيخية وتوليهم، حسب الشعيرة، سلطة العاهل، والوظائف التي آلت إلى الشكلية العابثة.

في الأيام الأولى، ينتخب حاكمان من الأشراف فقط. وهما يشكلان الركن الثاني في حكومة الجمهورية الرومانية. يسمى كل منهما حاكم شرعي. وهما قائدا الجيش، مخولان سلطة غير محدودة في الحياة المدنية. كانا ينزلان عقوبة قاسية بمن يخرق "أمر القاضي"، أي القرار الذي يخول هذين الحاكمين ممارسة مهامهما (كان الجاني يضرب بمقرعة ويقطع رأسه ببيلة). وكانت العقوبة تنفذ على الفور من قبل حامل الفأس، الذي يحرس ١٢ قاضيا، حاملا على كتفه بلطة محاطة بحزمة من القضبان. كان حامل الفأس

يطوي حزمة القضبان عند اجتماع الجمعية الشعبية، بناء على أمر القاضي إشارة إلى المصدر الشعبي لسلطة القاضي.

على ذلك، ومع تراجع الهجمة العسكرية، وإرساء العدالة، سعوا إلى تقليص سلطة القضاة أو الحكام الاستبدادية. كان يحق لكل قاض التدخل بالقرارات التي يتخذها قاض آخر، وهذا ما يلزم القاضيان على التصرف بانسجام بين بعضهما. ولذا كان القضاة ملزمين بالتشاور بين بعضهم ولذلك كثيرا ما سموا قناصل أو (مستشارين)، لكي تزداد تدريجيا الصفة العسكرية.

ثمة مؤسسة من عينة أخرى لدى الحاكم، وزراء المال، الذين تتنامى صلاحياتهم لتحد من سلطة القاضي. كان يشغل وزارة المالية بداية وزيران، ثم أربعة اعتبارا من العام ٤٢١، وكان الأربعة مستشارين لدى القاضي. كان القضاة يسمونهم، ثم، في النصف الثاني من القرن الخامس، صارت هذه الوظائف انتخابية. وكان وزير المالية مسؤولا عن تصريف الشؤون الجنائية والانضباطية، وتوجيه الشؤون الإدارية، من حيث الاقتصاد والمال بخاصة. ولا يتم صرف أو أداء أي مبلغ حتى للمستشار بدون تدخل الوزير. وتطال صلاحياته أيضا جباية الضرائب، والتعويضات والضرائب الجنائية، لدى بيع الأسلاب وأسرى الحرب، وصلك النقوش، إلخ. كل هذا، مع الحفاظ على وظائف ملازم المستشارين، الذين يرافقونهم إلى الحرب ويحلون محلهم عند الإصابة أو المرض، وغيره.

كان التقليص الأهم لسلطة الحاكم هو إحداث مؤسسة تدريبية لممارسة حق من أدين بالموت في دعوة الجمعية الشعبية للاجتماع. تقول الرواية أن هذه المؤسسة تعود إلى العلم ٥٠٩، لكن الأرجح أن الجمعية الشعبية لم تصبح حقيقة فعلية إلا في حقبة أحدث بكثير. وكان حملة الفأس يتخلون عن البلطة لدى دخولهم المدينة، ولا يعيدونها إلى أكتافهم إلا عندما يتوجه الحاكم مع الجيش إلى المعركة. على ذلك، في حال الخطر الاستثنائي، الخارجي أو الداخلي، كانت السلطة المطلقة تعود للقيادة العسكرية العليا لتسمية دكتاتور، يختار من الأشراف المعروفين بكفاءتهم ونزاهتهم، لستة أشهر فقط، بسلطة كاملة؛ لذا كان الباحثون اليونان يعرفون الدكتاتور باسم طاغية. وكان العرف يقضي بأن يتمتع الدكتاتور بكامل سلطاته الاستثنائية قبل انقضاء هذه المدة، إذا كانت الظروف التي استدعت تسميته لم تعد موجودة.

لقد طالت عسكرة الجهاز الحكومي مجلس الشيوخ أيضا: فالحكام العسكريون السابقون، المدعوون للبقاء حتى انتهاء مهامهم، كانوا يكملون صفوفهم. ولهؤلاء الشيوخ فقط حق الكلام وإلقاء الخطابات واقتراح تدبير ما، في أثناء اجتماع مجلس الشيوخ؛ والآخرين يتمتعون فقط بحق التصويت الذي يتم وهم يصطفون هنا أو هناك، الأمر الذي أفضى إلى السخرية منهم بتسميتهم "سلاح المشاة".

بعد هذه العسكرية لم يتأخر مجلس الشيوخ عن إخضاع كل الحكام لتنفيذ قراراته. فالجمهورية الرومانية منذ بزوغها، كانت تجسد السيطرة الأرستقراطية العسكرية والأبوية لمجلس الشيوخ.

تتضح طبيعة هذا النظام في الاشتقاق العام الذي اختير لتسميته، الذي يندرج في معارف الحرب، الأبنية الرسمية والأعمال الرسمية، تحت أربعة أحرف طقسية $S P Q R$ (*Senatus populusque romanus*) -مجلس شيوخ الشعب الروماني- وبهذه البادئة الرمزية، يوضح الحرف الذي يشير إلى مجلس الشيوخ بطريقة شرعية تماما قبل الإشارة إلى الشعب، الأمر الذي يوضح الواقع الاجتماعي للجمهورية الرومانية.

W. J. ...

الفصل الخامس والأربعون

القضاء على مخلفات العشير وتشكيل

المجتمع الطبقي والدولة في روما

تمرد العوام وبدء التنظيم العامي

تم القضاء على مخلفات نظام العشير في روما كما في اليونان بالطريق الثوري. بعد زمن طويل من "إصلاح سرفيوس توليوس". والمصادر التي تتحدث عن هذه الحقبة من التاريخ الروماني غير كافية أبدا. تطفح أعمال دنيس ابن مدينة هاكرناس بالاختراعات الخيالية لحوليات وشعراء من الأزمنة السابقة وكذلك التقاليد المزهوة التي تتحدث عن "مآثر" أسلاف الأسر الشهيرة في روما. "فقط يمكن التأكيد، كما لاحظ ف. أنجلز حول موضوع بداية هذه الثورة، أن الصراعات بين العامة والأشراف هي السبب".^٢

كانت الشريحة المهيمنة من "الشعب الروماني"، النبلاء المنظمون من قبائل وعشائر، تسعى لصيانة امتيازاتها السلفية. ولقد استغل سقوط الملكية لتركيز السلطة بيد زمرة من الأسر النبيلة (قبائل فابيا، فاليريا، كلوديا). وكان النبلاء في الوقت ذاته يجهدون لديمومة المشاعة القديمة اقتصاد القبيلة، التي كان يزداد افتقارها للأرض، لأن المراعي وأسهم الأرض القائمة في مجال القبيلة والممنوحة بصورة وقتية لأعضائها ومواليها أخذ مع الزمن صفة الملكية الخاصة، الوراثية وغير القابلة للتصرف. وبالتالي، فقدت مشاعة القبيلة مبرر وجودها الاقتصادي وعمليا تفككت.

في هذه الشروط، تنامي اهتمام النبلاء بالأراضي المشاع، غير الموزعة على القبائل أو امتلكت أثناء الفتح، واتجهوا للدفاع بشراهة عن حقوقهم السلفية واحتكار التمتع بها.

^٢ - ف. أنجلز. أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ص ١١٩.

في هذا الوقت تشكلت شريحة ريفية من العوام المرتاحين وراحت الأسر الغنية العامة (قبائل ليسنيا، منوسيا، سمبرونيا وغيرها) تطلب بإلحاح مشرب للمساواة بالحقوق السياسية مع الأشراف، والسماح بالزواج بين العوام والأشراف ودخول الحاكمية. وكانت قضية الديون تقض مضجع الشرائع الدنيا العامة. وفي القرن الخامس، هوت جمهرة من العوام، تعيش في أراضي الأشراف، إلى جحيم العبودية بسبب العجز عن إيفاء الديون، وهدد الباقون بالمصير ذاته.

كانت القضية الرئيسية، خاصة لدى سواد الناس، هي قضية الأرض، أي التمتع بالـ "أرض المقدسة" وإشغال الأراضي الموات بحقوق متساوية مع الأشراف. فكان العلمي إذن، الذي يحمل حكومة الأشراف مسؤولية كل المصائب والأوصاب، على أهبة الاستعداد لدعم المطالب العامة من شريحته القائدة.

ارتدى النضال الذي قاده العوام شكل الانفصال، وكثيرا ما ذكرت في الموروث هجرة وانسحاب العوام. تشير المصادر إلى كثير من هذا (من العام ٤٩٤-٣٤٢). وقد قامت عصيانات خطيرة على الأولغارشية الحاكمة، من قبل سواد الجيش، الذين كانوا يهددون بالتخول إلى تمردات مسلحة. والجيش المنتفض، الذي تشكل منذئذ من العوام أساسا، كان يرفض، في الأوقات الحرجة عسكريا، الذهاب إلى الحرب أو يترك مواقعه ويتجه نحو المدينة. وكانت نقطة تركز العوام الغاضبين دوما في هضبة أفانتان. حيث ينهض معبد الإلهة العامة سيريس (ديمتر)، أي حي مرفأ روما. هنا، كان المنتفضون يشكلون "كتائب مقدسة"، تحت قيادات منتخبة. وبعد الارتباط بأيامين وصيغ لعانية ("الاحتفالات" أو "التضرعات" لسيريس)، كانوا يفدون نحو المدينة، التي يخرجون منها من باب الهضبة *porte colline*، أي الشرقي، ليعسكروا على بعد ٣٠٠٠ خطوة من سور الحاضرة، على التلة التي اتخذت فيما بعد صفة "القدس". طيلة هذا "الانسحاب"، كانت حياة المدينة الاقتصادية ترتكس، وتهمل حراثة الحقول، ويستولي الجيش على المون الموجودة في أراضي الأشراف، الذين كثيرا ما هدمت مساكنهم. ومن هذه الحدود العزلاء، كان العدو يغزو ويدمر وينهب الأرض الرومانية.

كان الأشراف والقادة العسكريون مرغمين على تقديم امتيازات لتوطيد الألفة مع المتردين. كان مجلس الشيوخ يرسل وفدا مؤلفا من أشخاص شعبيين ومحكيين،

وبوساطتهم كان الطرفان يصلان إلى وفاق. وبسلسلة من هذه الامتيازات المنزوعة من الأشراف، كان العوام يتابعون تدريجيا تحقيق برنامجهم.

خلق جمعيات عامية ومنصب محامي شعبي

منذ بداية القرن الخامس، بعد أولى هذه الانفصالات، ظهرت "جمعيات العوام"، أي الاجتماعات، التي أعطاها الأشراف الحاكمون لكل جماهير الشعب العامي؛ وكانت قراراتهم ذات طابع إلزامي لكل المجتمع العامي. كانت هذه الـ"جمعيات العامة" تقام على أرض المعرض، في أيام السوق الذي يجمع التجار والفلاحين. من المرجح أنه بعد "الانسحاب الثاني" الذي تنسبه الرواية إلى العام ٤٧١، بدأت القبيلة تجمع الجمعية العامة. ومنذئذ، سميت الجمعية القبلية، التي تطمح للعب دور جمعية الشعب كله.

واستنادا إلى الرواية أيضا. وفي العام ٤٤٩، التزم القنصلان م. فالريوس وم. هورتيوس دعوة كتائب المائة للتصويت على قانون يقر أن الاستفتاء الشعبي له قوة القانون في مواجهة الشعب الروماني. وبالفعل، صار العديد من قرارات الجمعيات القبلية، مثل قانون كانليا في العام ٤٤٥، الذي يمنح الزواج بين الأشراف والعوام، مرعي الإجراء. لكن التحول النهائي لهذه الجمعيات إلى مجالس عشائرية شرعية لم يتم قبل القرن الرابع. تقول الرواية أن العوام، منذ الانشقاق الأول (٤٩٤)، انتخبوا على التلة المقدسة أول محامي الشعب أو بكلمة أدق حكم العامة. كانت شخصية هؤلاء المحامين "مصونة مقدسة" وكان من يقاومهم يقذف به من أعلى صخرة تربليان، إلى تلة كبتولن. وكانت واجبات المحامين، الذين منذ تلك الحقبة ينتخبون سنويا من قبل الجمعيات القبلية، تكمن بالتدخل لمصلحة العوام ضد أي سلطة للأشراف، حتى الاستشارية، بطريق "الانشقاق"، أو تعارض تدابيرها، إن هي أدت مصالح العوام. وكان المحامي يستطيع إيقاف أي عمل قضائي وعرض القضية أمام سلطته القضائية. يرأس المحامي العام اجتماعات وجمعيات العوام، التي له حق دعوتها، ليتحرر من مقترحاتها. وفي شخص المحامين العامين، يكسب العوام، ضد تحكم الشريف، مدافعين عن السلطات الواسعة بدون استثناء.

كانت هذه السلطات مقيدة بحدود جديدة. أولا، لايمارس المحامون العامون *imperium*، أي القيادة العسكرية. ثانيا، سلطة للمحامين العامين محدودة بسور المدينة،

أي لا تمتد إلى الأرياف. وطيلة مدة مهمته السنوية، المحامي العام ملزم بعدم ترك المدينة ولا المبيت خارج مسكنه، المفتوح الباب أبداً، بحيث أن أي صاحب حاجة يقدر أن يتوجه إليه في أي وقت. وبتسمية الدكتاتور وانطلاقاً من لحظة إعلان حالة الحصار، كانت تعلق ممارسة السلطة الشعبية.

كان محامو الشعب بداية اثنين. وفيما بعد صاروا أربعة أو خمسة، وأخيراً عشرة. وتدرجياً بسطوا سلطتهم حسب أهوائهم (فرض الغرامات والتوقيف، إلخ)؛ لابل بدؤوا بمراقبة أعمال مجلس الشيوخ؛ وقوفاً في الأبواب، أو جالسين على مقاعد يجلبونها معهم، يتابعون المناقشات والقرارات. فإن مثلت هذه الأخيرة صفة ضارة أو معادية لأحد العوام، ينهض المحامي العام ويقدم اعتراضه.

المجلس العشائري وقانون اللوائح الاثنتي عشر

كان أهم إنجازات الشعب الروماني هو القانون المكتوب. وكان عرف القبيلة: "عرف وعادة الأسلاف" يشكل سر طبقة الأشراف، الأمر الذي يفتح الباب واسعاً لتحكم قضاء المستشارين. ولمعالجة هذا الوضع، عقد مجلس الشيوخ جلسة في منتصف القرن الخامس، بناء على إلحاح هيئة المحامين العامين، من أجل كتابة ونشر القوانين.

حسب الرواية، لم يمارس هذا الإصلاح إلا بعد صراع ضار، حتى الضرب بالأيدي المسلحة بين أنصار التقنين وشريحة من الأشراف الراغبة في الحفاظ على الحالة القائمة. في العام ٤٥٢، انتخبت جمعيات المائة لجنة من عشرة أعضاء، منحت سلطات دكتاتورية، مكلفة بتدوين القوانين. عملت سنتين. وفي العام ٤٥١، كانت حكراً على الأشراف. بينما في العام ٤٥٠ تشكلت من خمسة أعضاء أشراف وخمسة من العوام، برئاسة أحد أشهر ممثلي الأشراف، أنيوس كلوديوس. وكانت حصيلة أعمالها نشر شريعة نقشت على اثنتي لوحات برونزية. لم يصلنا هذا الأثر كما هو أصلاً، ولانعرف سوى بعض مواده محفوظة كما ذكرت في أعمال القانونيين الرومان للعصور المتقدمة. تمثل أكثر مواده الصفة القديمة وكانت أمنية فقط لنصوص الحق القديم المألوف. ففي أصول المحاكمات المدنية، مثلاً، لم تكن المحاكمة سوى حكماً بين المتخاصمين، للمدعي حق جلب المدعى عليه بالقوة ليمثل أمام القاضي، "بوضع السيد عليه" (لوح ١، ومادة ١ ومايليها). وعلى الخصم نفسه أن يقدم شهوده. وفي الحق الجنائي يسود مبدأ القصاص: من سبب تشويهاً جسدياً يكون عرضة لتشويه مشابه. وعقوبة الموت لمن أحرق أو من نوى تسبب ضرر

بحقل آخر، وبمن سعى "إلى تعزيمة ضد الحصاد" أو "من غنى أغان شريرة". وبعض العقوبات تمثل طبيعة التراتيل الدينية، إلخ.

في الوقت ذاته ثمة نصوص في شريعة الألواح العشرية تستوحي توجهات تقديمية، كتلك التي تهدف الدفاع عن الملكية الفردية، وإضعاف تحكم شيوخ القبائل وأنسنة التشريع القديم حول الديون. مثل إعطاء المدين مهلة ثلاثين يوما بعد إعلان عدم قدرته على الوفاء؛ وإن رماء الدائن في الحبس، لا يحق له أن يفرض عليه الجوع؛ وأن لا تزن الأغلال والحديد التي تكبله أكثر من ١٥ ليبرة. ولا يجوز أن يسجن المدين أكثر من ٦٠ يوما؛ بل يجب أن يساق إلى الميدان، وفي أيام السوق، لا أحد يرغب بشرائه، إلخ.

يجدر الاعتراف بالطبيعة التقدمية لهذه الشريعة، رغم أهمية مخلفات "حق العرف" السلفي، التي كانت قد شاخت يومئذ.

خاتمة الصراع بين العوام والأشراف: تسوية الشروط، تشكيل طبقة واحدة من مالكي العبيد، تنظيم جهاز الدولة.

بعد المجلس العشاري، تابع العوام، الذين ربما انضم إليهم الموالي، نضالهم الذي كلل بانتصارهم.

بداية ، سنت قوانين لمصلحة الشريحة العليا من العوام. وفي العام ٤٤٥، أقرت مبادرة المحامي العام كانوليوس التي تسمح بالزواج بين الأشراف والعوام. وانطلاقا من العام ٤٤٤، عندما احتال العوام على المستشارية، بديء بانتخاب محامين عامين عسكريين مخولين السلطة الاستشارية (عادة عشرة)، يملكون كل ما يملكه المستشار، عدا حق دخول مجلس الشيوخ. وانطلاقا من العام ٣٩٠ وحتى ٣٦٧، حلت المحامات العامية العسكرية تقريبا كليا محل المستشارية. بين هؤلاء كان لابد من وجود عدد من العوام.

طبعاً كان الأشراف يدافعون بعناد عن امتيازاتهم السياسية. وهكذا بديء، انطلاقاً من العام ٤٤٣، بانتخاب، كل خمس سنوات ولثمانية عشر شهراً، مراقبين، يختاران من المستشارين الممتازين، الذين كانوا مكلفين بمراقبة المواطنين وأرزاقهم، لإعادة توزيعها على الشرائح المناسبة. كانت الرقابة العامة تتم أمام الشعب المجتمع في حقل آذار *MARS*. وكانت كل إعلانات الأرزاق تدقق بصرامة وتولى أخلاق المواطنين أهمية قصوى. وربما أفضى السلوك الذميم (حياة عابثة، فاسدة، ماجنة، إلخ) إلى تفهقر طبقي. يرفع المراقبون

اللوائح لمجلس الشيوخ ويستطيعون ترقيين "غير الجديرين". وقد صارت هذه السلطة الواسعة للمراقبين، المتعلقة بمراقبة الأخلاق، بين يدي الأشراف وسيلة قوية لكبح التطور الاجتماعي. فضلا عن هذا، وضعت معرفة كل المسائل الخاصة بالأرض والمناجم العامة، وشق الطرق، أقيمت المجاري، والصروح العامة، إلخ. وضعت أيضا في أيدي المراقبين. ومن هنا ارتبط كثير من رجال الأعمال بالمراقبين، الأمر الذي خول هؤلاء الأخيرين ممارسة نفوذهم على النشاط والسلوك السياسي للعناصر الجريئة من العوام الذين كانوا يشكلون الخصوم السياسيين الأخطر على الأشراف.

لكن الشرائح الأدنى من العوام قد حظيت، هي الأخرى، ببعض المكاسب على المستوى الاجتماعي والاقتصادي. فقد ازداد توزيع الأرض أكثر فأكثر من الأراضي الملحقة حديثا. هكذا، بعد الاستيلاء على فييس في العام ٣٩٣، قرر مجلس الشيوخ توزيع أراضي هذه المدينة، بمعدل ٧ أسهم للشخص.

في أثناء الأعوام التي تلت غزوة الغولوا التدميرية، في العام ٣٨٧ ق.م، بلغ الصواع أوجه. بل تحدثت مصادرها بتعابير غامضة عن أعوام كاملة من "الالغارشية". حاول الأشراف عبثا سحق الحركة الشعبية على يد سلسلة من الدكتاتوريات، وفي العام ٣٦٧، ألزم الدكتاتور ومجلس الشيوخ على تصديق مشروع قانون المحامين العاميين: س. ليسنيوس ستولون ول. سكتيوس لترانوس، الذي لأجله أو ضده صارح الطرفان بضرورة منذ عشرة أعوام. قام قانون ليسينيا وسكتيا على ثلاث نقاط أساسية من برنامج العوام: المسألة الزراعية، وقضية الديون والمسألة السياسية. أولا، بفضل هذا القانون تمتع كل المواطن الرومان بالأرض العامة، وألغى احتكار الأشراف لهذا المرفق، ووضعت حدود ثابتة. حسب الرواية، ما كان يجوز لأحد أن يمتلك أكثر من ٥٠٠ سهم أو ٥٠٠ رأس ماشية، لكن هذه الأرقام كانت كبيرة جدا وغير متلائمة حتما مع الواقع. ثانيا، كان اهتمام المدنيين ينصب على إلغاء الديون. أخيرا، ألغى منصب المحامي العام العسكري والسلطة الاستشارية وعادوا إلى انتخاب مستشارين سنويين، على أن يكون أحدهما عاميا حتما.

وكانت الحاكمية في الوقت ذاته، بصفتها امتيازاً لطبقة الأشراف، منفصلة عن الاستشارية، لتشكيل مكتب قضائي مستقل، مخصص للأشراف. والحكام (بداية كانوا اثنين) ياتون بعد المستشارين أو القناصل. وخلقت أيضا حاكمية جديدة للأشراف، حاكمية قضاء

كراسي العاج (أي قاض بلدي له الحق بكرسي عاجي في مجلس الشيوخ): كانوا مكلفين بتنظيم الأعياد والاحتفالات العامة الخاصة بالعبادة، والحفاظ على الأمن والنظام في المدينة. مع ذلك، وبعد سنتين، في العام ٣٦٥، سمح للعوام بدخول هذه الحاكمية، دون أن يتخلوا عن دخول القضاء المدني وكل المهام الأخرى، بما فيها الدكتاتورية. وفي العام ٣٥٧ حصل العوام الفقراء على تحديد أعلى فائدة للدين ١٠%، وأخيراً ألغى قانون بوتليا العبودية الناجمة عن الدين وحرر المواطنون الرومان الذين رسفوا بقيود العبودية بسبب الدين.

وهكذا كانت نتيجة هذا الصراع الطويل إلغاء أغلب مخلفات مجتمع العشير السابق. ولم يعد الأشراف والعوام يشكلون من الآن سوى طبقة حاكمة واحدة، طبقة المواطنين الرومان الأحرار. ولم يعد يتميز المواطنون فيما بينهم بأرومتهم أو محتدهم، بل بثروتهم ومهامهم. ومنذئذ بدؤوا بتسمية القوم الفقير ساكن المدينة بالعوام، وبخاصة الفقراء المدقعين. وقد بدأت أرستقراطية الصف الجديدة، سلبية الشرائح العليا من الأشراف والعوام، تسمى النبالة أو النبلاء، أي "الجديرة بالصدارة"، "بالشهرة"، وفيما بعد الأفضل، أي، "الأحسن". فكل مواطن روماني، بدون استثناء، له أن يصير نبيلاً، إن نجح ببلوغ الحاكمية العليا.

إلى جانبهم تشكلت الطبقة الخادمة، أي العبيد، المحرومين من حريتهم بإكراه مباشر وغريب على الواقع الاقتصادي: أسرى حرب، أسرى اللصوصية أو القرصنة، إلخ. وفي شريعة الألواح العشر، أشير مراراً إلى العبيد والمحررين. كان هؤلاء الأسرى الغرباء ملكية بكل معنى الكلمة، سلعة لدى المحتل، كأي غنيمة، ثمرة الحرب وقطع الطرق، شيء يمكن استبداله ببعه وقتله. "رقيق أو أي دابة أخرى"، هو التعبير المعتاد الذي نجده حتى في حقوق العصور المتقدمة الرومانية. مع ذلك يمكن الافتراض أن العبودية كانت منتشرة جداً في روما في القرنين الرابع والخامس، لأن الاقتصاد الطبيعي كان ما يزال موجوداً إلى مدى بعيد.

ومع تكون المجتمع الطبقي في روما، انطلق الجهاز الحكومي انطلاقته الأوسع. وكانت السمات الأساسية لدولة العبودية هذه شكله العسكري وديموقراطيته الصورية.

في هذه الدولة، كانت السلطة معتبرة صادرة من "الشعب الروماني"، من التعاون التام بين المواطنين الرومان الأحرار. ففي كل مسألة هامة كان ضرورياً طلب موافقة الشعب. بينما كانت السلطة الفعلية بعيدة جداً عن السلطة الشعبية. أولاً، كانت قرارات الجمعية الشعبية التشريعية ذات طبيعة إدارية عامة فقط، ولم تكن تتخذ إلا بناء على اقتراح الحكم.

وليس لهذه الجمعية أبداً حق التدخل في الشؤون الإدارية وفي السياسة السائدة. ثانياً، حتى الجمعيات القبلية، الأكثر ديمقراطية بين الأشكال الثلاثة للجمعيات الشعبية، لم تكن تمثل سوى مصالح متوسطي وكبار المالكين العقاريين، لأنها تشكلت في القرن الرابع من سبع عشرة قبيلة ريفية وأربع قبائل مدينة فقط، فضلاً عن أن المزارعين الصغار، أي الفلاحين، نادراً ما ينزلون إلى روما ليشاركوا في الانتخابات والتصويت. وكانت الجمعيات المؤيعة دافعة ضريبة الاقتراع مبدئياً وتعطي الأغلبية المطلقة لـ ٩٨ مؤيعة من الشرائح المتوسطة والكبيرة. أخيراً ينحصر دور الجمعيات العشائرية بالمصادقة على قرارات جمعيات المؤيعة. وهكذا فتح المجال واسعاً لتزوير الإرادة الشعبية. أضف إلى هذا أن الحكام الأعلى، الذي يرعون الأمور، لا يعدمون وسيلة لإيجاد أساس ديني لتعليق أو إلغاء أي قرار وحتى حل الجمعية.

كان الحكام يلعبون دوراً بالغ الأهمية في حياة الدولة الرومانية: قنصلان، حاكمان شرعيان ثم الأربعة، مراقبان، كرسيان عاجيان، ٤ وزراء خزينة، ١٠ قبائل من الشعب، قاضيان عامان، أعضاء العديد من الجمعيات والموظفون النوعيون (من أجل ضرب النقود، وحراسة المدينة في الليل، إلخ).

كانت هذه الحاكمة التي تشكل السلطة الحاكمة حكراً على زمرة مغلقة من أرستقراطية الطبقة الجديدة، النبالة، التي تقاوم ضم "موالي جدد" إلى صفوفها. كان النبلاء ينضمون إلى هذه الزمرة باحترام مبدأ مجانية الوظيفة العامة، وحسب هذه القاعدة ليس لأحد أن يشغل مهمة أعلى إلا بعد أن يمر بمهمة أدنى. ولابد من مراعاة وبحزم فواصل الزمن للارتقاء من درجة إلى أخرى وشروط العمر. مثلاً، ألا يقل عمر القنصل عن ثلاثة وأربعين سنة، وأن يمر بكل المراتب السابقة. وهكذا تحولت النبالة الرومانية إلى أولغارشية مغلقة، حيث يقتسم الأعضاء المهام فيما بينهم. وكان صعباً جداً على "رجل جديد" ولوج وسطهم.

إلى ذلك، كان سيد دولة روما الحقيقي هو مجلس الشيوخ. كانت الخزينة بيديه، الأمر الذي ربط الجنرالات به، لأن التمويل ودفع رواتب الجيش لا يمتان إلا بأمر مجلس الشيوخ. وبمجلس الشيوخ ترتبط أيضاً كل تدابير الشؤون الاقتصادية. وفوق هذا، هو الذي يوزع الوظائف ومراكز السلطة على الحاكم، ويقدر أن يمدد مدة الحكم إلى أكثر من سنة،

باعتباره "قنصل محنك" أو "محام عام نزيه"، يدقق ويصادق على تقاريرهم، يميزهم أو يرفض النصر أو الترحيب، وغير ذلك. يستقبل الشيوخ ويرسل السفراء، يصدق أو ينقض المعاهدات. لا يجرو أي حاكم أن يقترح على الجمعية الشعبية أي مشروع قانون دون موافقة أولية لمجلس الشيوخ. ونجح مجلس الشيوخ بسحق سلطة المحامين العامين التي كانت بداية خطرة عليه، وذلك بضمهم إلى صفوفه ليجعل منهم شركاء له.

كانت الطبيعة العسكرية البارزة جدا صفة أخرى للدولة الرومانية، المنظمة السياسية للفلاحين المحاربين، الذين كانوا في وقت مع مقاتلين ومزارعين. وكان الجيش الروماني أساسا فلاحيا، لأن قاعدة المائة، التي بناء على أهميتها يتم تجنيد الفيلق، كانت امتلاك سهم من الأرض. وابن المدينة حتى الميسور، لكن لا أرض له، لا يقدر أن يخدم إلا خارج الجيش. وكانت خدمة الخيالة وفقا على مالكي الأرض، أغنى من الفلاحين البسطاء، والذين كانوا يحملون اللقب الماجد "فارس". وأخيرا أخذت حروب القرن الرابع طبيعة صناعية في ذاتها، تهدف إلى حيازة أرزاق مادية بواسطة أعمال هجومية مستمرة ضد الجيران. نجم عن هذا أن يبقى كل الحكام الكبار (عدا المراقبين والمحامين العامين) قبل كل شيء قادة عسكريين، يمارسون قيادة، ولا يستلمون وظائف مدنية إلا استثناء، إلا في أثناء الهدنة والفواصل بين الحروب. وكان مجلس الشيوخ نفسه يشكل إن صح التعبير الأركان العامة الدائمة للدولة الرومانية. وقد وحدت المرحلة التالية من تاريخه، تاريخ الحروب الإيطالية، ثم الفتوح خارج شبه الجزيرة، مرحلة ولادة الإمبراطورية الرومانية المتوسطة.

الفصل السادس والأربعون

فتح وتشكيل اتحاد روماني-إيطالي

حروب السامنييت. فتح إيطاليا الوسطى

بدءاً من القرن الرابع، في جنوب إيطاليا ووسطها، بسبب التطور الملحوظ للقوى المنتجة، تشكلت اتحادات حربية بين الشعوب التي كانت حتى آنئذ تعيش عشائر منعزلة. وفي حوالي العام ٣٨٠، صارت جمعية السامنييت، التي تضم كل الأرض الجبلية، من شواطئ كامبانيا حتى جبل غارغانو والبحر الأدرياتيكي، قوة ضخمة. فقد نزلت فصائل المقاتلين السامنيوت الجبلية المسلحة، بحثاً عن المرعى والأسلاب، إلى سهول أبوليا الخصبة واحتلت مدن كامبانيا الثرية، مثل كابو وكاموس. وانضوى العديد من مقاتلي السامنييت كمتطوعين في خدمة المدن الإغريقية (سيراكوز بخاصة) وعادوا إلى الوطن، محملين بالأسلاب، والأسلحة الوفيرة لدى اليونان ومفاهيم في فن الحرب الهليني. وفي منتصف القرن الخامس، صار السامنييت سادة إيطاليا كلها تقريباً، في جنوب فولتورنو.

لكن توحيد شعوب شبه الجزيرة كان هم دأب روما الأول، لأن بعض المدن الإيطالية، تملك الأرض الأوسع والأكثف سكاناً (حوالي ٦٠٠٠ كم^٢)، وتتمتع بتنظيم اجتماعي وسياسي أرقى نسبة إلى شعوب إيطاليا الأخرى. ولقد أفرز استقرار العبودية ونفوذ العوام المنعمين السياسي في روما، أفرز اختيار سياسة عدوانية. وبفضل التنظيم الرائع للجيش وعسكرة الدولة، خرجت روما ظافرة من سلسلة من الحروب الصعبة وصارت الدولة الأقوى في إيطاليا.

كان أول عمل لسياسة العدوان فتح كابو، وكامبانيا الغنية حتى حدود أرض نابولي (٣٤١). لكن غزو كامبانيا أثار أولى النزاعات المسلحة مع السامنييت، والرواية الرومانية المحاكاة حول هذه الصدامات، قدمتها كأول حرب للسامنييت (٣٤٣-٣٤١). ثم انفجرت ضد روما عصيانات في كل المدن اللاتينية، بما فيها حلفاؤها السابقون. وبعد عامين من

الصراع، الذي سمي "حرب اللاتين" (٣٤٠-٣٣٨)، نجحت روما بإخضاع كل مدن اللاتيوم، المحافظة مع ذلك على صفة "الأحلاف اللاتين".

بسبب كامبانيا أيضا، اضطرت روما مرتين لمساندة صراع الرومان إلى السامنييت. وفي أثناء حرب السامنييت الثانية (٣٢٧-٣٠٤ ق.م)، اضطرت الرومان إلى نشر قواتهم حتى آخر الحدود. رغم أنهم حاربوا تحت راية ما سمي: "صناعيون وعمال"، عرف الرومان عدة نكسات وعدة هزائم. أهمها نكبة الفورش كودين *Faurches Caudine*، يوم طوق السامنييت الجيش الروماني وأكرهوه على الاستسلام، متحملا شروطا مخجلة: أجبر كل الجنود، أن يمشوا عراة تحت النير "كما الدابة"، عرضة لتهكم وسخرية المنتصرين.

لكن الحرب الأكثر ضراوة كانت حرب السامنييت الثالثة (٢٩٨-٢٩٠)، في أثناءها تكثفت ضد روما كل شعوب إيطاليا الوسطى من أبوليا حتى وادي البو، وانضم إليهم الغولوا. وقد قررت معركة سانتيوم، في أومبريا، بإنهاء القتال بانتصار روما نصرا مؤزرا. دمرت ونهبت سامنيوم بدون رحمة. وفي العام ٢٩٠ كانت إيطاليا الوسطى كلها في قبضة الرومان. انتهت الحرب بقيادة القنصل مانيوس كوريوس دنتاتوس، المفترض أنه استولى على عدد كبير من المدن لم يستطع أن يعدها كلها في تقريره أمام مجلس الشيوخ.

الحرب ضد تارانت وبيروس. إخضاع جنوب إيطاليا

بعد فتح وسط إيطاليا، حولت الأوساط الحاكمة في روما أهدافها نحو جنوب إيطاليا، حيث كانت المدن التجارية الغنية تحافظ على هيمنتها. وبحجة مؤازرة المدينة اليونانية توريوا ضد اللوكانيين، طردت الحكومة الديموقراطية في أقوى مستعمرة يونانية في الميدي قادة الحزب الأرستقراطي، نصير إبرام حلف مع روما، وأعلنت الحرب. طلبت مساعدة بيروس، ملك إيبيريا، أحد ورثة اسكندر المقدوني، الطامح بالسيادة على البحر الأبيض المتوسط الغربي. وفي العام ٢٨٠، أبحر بيروس إلى تارانت، على رأس جيش من ٢٠ ألف رجل، محنكين ومسلحين على الطريقة المقدونية؛ وأشرك أيضا ٢٠ فيلا هنديا. فضلا عن مليشيات المدن اليونانية، ضم بيروس إليه بقايا السامنييت، اللوكانيان والبروتيانن فبلغ تعداد جيشه قرابة ٤٠ ألف مقاتل. قاتل، قرب هراكلية، قوات القنصل ب. فالريس لافينوس ووصل إلى أبواب روما. لكن الوقت توفر للرومان ليدعموا السوقات العسكرية من أتروزي، وجندوا حتى البروليتاريا، واضطر بيروس أن يقاتل وهو يتراجع إلى أبوليا.

ودارت معركة أخرى في العام ٢٧٩ في أسكولم؛ انهزم فيها الجيش الروماني وتكبد خسائر جسيمة، حتى أن بيروس اعترف بهذا، وقال: "إن كنا حققنا نصرا آخر كبيرا... لقد فقدنا ما لا يمكن تعويضه".

استنادا إلى بلوتارك (بيروس، ٣٣) كان المعاصرون يشبهون هذا الملك "بمقامر يقود أسعد الضربات لكنه لا يعرف كيف يفيد من ثروته". وظننا منه أنه ساد إيطاليا، وعوضا من أن ينهي القتال ضد روما، سارع ليشرع بغزو سيسيليا. صرف هنا ثلاثة أعوام. لم يفعل شيئا سوى كسب أعداء جدد من قرطاجة كانوا قد عقدوا حلفا مع روما. ولما عاد ببيروس إلى إيطاليا، في العام ٢٧٥، أنزل به الرومان المتأهبون جيда هزيمة حاسمة على حدود سامنيوم الجنوبية، قرب بينيغانتن فاضطر أن يعود إلى اليونان حيث قتل في مغامرة جديدة. واستسلمت فلور جيشه، الذين لجؤوا إلى تارانت حيث حوصرت برا على يد الرومان وبحراً على يد الأسطول القرطاجي، (٢٧٢). وهكذا أنجزت روما فتح إيطاليا. ولتوطيد موقعهم في جنوب شبه الجزيرة، قاتل الرومان على الشاطئ الشرقي لكلاهر الميدان الأقوى والأمنع لبروندزيوم، الذي انضم إلى عاصمتهم بطريق الحرب، وأسسوا فيه مستعمرات قوية.

الاتحاد الإيطالي في عهد سيطرة روما

أخضعت روما إيطاليا، لكنها لم تنظمها بدولة واحدة. فقد تكونت هي ذاتها على مبدأ المدينة القديمة ("حاضرة")، بشكل جمعيات قبلية مدنية وريفية، فوحدت إيطاليا على نفس المبدأ، بنهج اتحادي شديد التعقيد، استناداً إلى معاهدات فرضها المنتصر.

كانت شروط هذه الوفاقات تختلف، حسب ظروف كثيرة (حزم المقاومة، الموقف المعادي أو بالعكس، الصديق تجاه روما في تلك الأيام، إلخ). كان الشكل الأنسب "اتفاق على قدم المساواة"، ينص على احتفاظ المتعاقدين بكامل استقلالهم، عدا إعلان الحرب ودبلوماسية خاصة. وطبقت هذه الشروط على المستعمرات اليونانية، والعديد من المدن الأتروسكية، وبعض حاضرات لاتيوم، المرتبطة بروما بمعاهدات سابقة. بعكس السلطانية، اللوكنيان، الإبروتيان الذين انتزع منهم ثلث بل نصف أراضيهم، ومنعوا من إقامة أي علاقة خارجية مع الشعوب الأخرى. وحافظوا على عاداتهم وشرائعهم لكن روما اشترطت أن يكون أنصارها من حكامهم المنتخبين من صفوف الأرستقراطية. وعلى الأرض

المصادرة من المنهزمين، أقامت مستعمرات عسكرية، يسكنها مواطنون رومان أو "متحدون لاتين" متميزون. وهكذا، رغم إعطائهم صفة الحلفاء، لم يعاملوا إلا كأرقاء. بين "الاتفاق على قدم المساواة" وشروط "الحلفاء" الأتباع، ثمة عدد من الدرجات الوسيطة؛ فضلا عن هذا، احتفظت روما بمراجعة المعاهدات لمصلحة الأكثر خضوعا والأكثر حرمانا، لإعطائهم شرطا أفضل، وأحيانا نفس حق المدنية الرومانية. ساهمت هذه السياسة "فرق تسد" إلى إرساء سيطرة روما في الحلف الذي أسسته في إيطاليا. ووزعت أسهما من الأرض في المستعمرات، على الفلاحين الرومان المحرومين. على أن يحق لأغناهم أن "يشغل"، أي يستأجر من الدولة، البقاع غير الموزعة من الأرض المحتلة، وهكذا تشكلت حقول واسعة (للتدجين خاصة، في جنوب إيطاليا). وهكذا، ندرك أن الشرائح الغفيرة من المجتمع الروماني وحتى شريحة الفلاحين في مجملها ساهمت في الفتوحات، بالنهب، بتدمير وإيادة الشعوب والقبائل الأضعف، وأن الـ"وحدة" ذاتها جعلت من هؤلاء الأخيرين رعايا روما.

الفصل السابع والأربعون

الصراع بين روما وقرطاجة من أجل الهيمنة على غرب البحر المتوسط

روما في بداية القرن الثالث ق.م

لقد جعل فتح إيطاليا من روما واحدة من أقوى دول البحر المتوسط وواحدة من العناصر الأهم والأبعد نفوذاً في السياسة العالمية لذلك الزمن. في العام ٢٧٣، أرسل ملك مصر بتولميه فيلادلف إلى روما بعثة لتعرض لديها صداقته وتحالفه وفي العام نفسه أبحر السفراء الرومان لأول مرة إلى الإسكندرية، لرد هذه الزيارة.

فضلاً عن هذا، أمن امتلاك المدن التجارية الكبرى لشبه جزيرة الأيبينيين (كابو، نابولي، تارانت وغيرها)، ومنع الحلفاء من التجارة المباشرة فيما بينهم، للتجسس الرومان احتكار التجارة الوسيطة لكل إيطاليا. فظهر تعاضد المبادلين الذين، خلاف عمليات النقود، كانوا يهتمون أيضاً بالاعتمادات والربح؛ وتجار المواشي، ومالكو القطعان الوفسيرة التي ترعى تحت رقابة رعاتهم العبيد، في المراعي، أكثروا الحقول العامة، في أبولي، لوكانيا وبرتيوم، والتجار الذين احتكروا التجارة الخارجية وصدروا إلى اليونان بخاصة القديد، الصوف والجلود، التي كانت تتاجر بها سابقاً المدن اليونانية في جنوب إيطاليا.

كان هؤلاء التجار والصناعيون الجدد، وقد وعوا أهميتهم، يسعون إلى توجيه السياسة الرومانية نحو مصالحهم. هكذا، حاول أحد أنصارهم، المراقب أبيوس كلوديوس في العام ٣١٢، أن يؤمن لهم الدور الأهم في مجلس الشعب الروماني: أعاد توزيع سكان العاصمة بين كل القبائل الرومانية، بحيث جعلهم سادة الاقتراع. صحيح أن هذا الإصلاح قد ألغاه خلفاؤه المباشرين، لكن الاضطرابات الشعبية للعام ٢٨٧ أجبرت مجلس الشيوخ أن يقر قانون هورتانزيا، الذي بموجبه يتخلى عن حق تصديق قرارات المجالس القبلية، التي كانت العناصر التجارية والصناعية تمارس عليها مع ذلك تأثيراً متزايداً. فكانت هذه

القرارات منذ صدور ما تكسب قوة القانون بدون مصادقة مجلس الشيوخ.

بسبب انطلاقة اقتصادها، تركت روما في العام ٢٦٨ نقدها البرونزي الذي لا يلائم إلا المبادلات المحلية، لتختار معيار الفضة المستخدم لدى اليونان. كان ضرب النقد يتم في أقبية معبد جونومونيتا ("المنذرة") ومن هنا كان اسم النقد. وصار الدرهم الفضي، حامل صورة الإلهة روما، الوحدة النقدية. لهذا السبب حفر عليه رقم ١٠، وكلمة *denarius* ذاتها تعني "١٠ أس". وفي مصلحة الأوساط التجارية والصناعية، بسط أبيوس كلوديوس كثيراً الأبجدية اللاتينية فجعلها أنسب لتدوين العمليات التجارية، ونشر مولاه سينيوس فلافيوس صيغ الأحكام القضائية، التي بقيت حتى آنذ سر الأخبار.

في النصف الأول من القرن الثالث ق.م. حاز ممثلو هذه الفئة التجارة قوة مكنتهم من أن يفرضوا على روما، مباشرة بعد احتلال إيطاليا، أن تدخل في صراع ضد الخصم العنيد في حوض غرب المتوسط، أي المستعمرة السابقة الفينيقية قرطاجة. ولقد سمى لينين الحروب الفينيقية أو القرطاجية، من أجل السيطرة على غرب المتوسط، حروباً امبريالية قديمة، لأنها نجمت من نزاع المصالح بين الأولغارشيات الاستعمارية والغازية في روما وقرطاجة، وسببت استعمار التناحر غير المعروف قبلاً، وأفضت إلى دمار ونكبة الجماهير الشعبية في الدولتين المتحاربتين.

قرطاجة

أسست في القرن التاسع قبل الميلاد، وهي المدينة الفينيقية، أو "المدينة الجديدة" الشاغلة موقعا مناسباً بشكل استثنائي على شبه جزيرة يفصلها برزخ عن القارة الأفريقية. لها مرفأ رائع مؤلف من حوضين: خارجي مخصص للتجارة، وأرصفت للسفن التجارية، وداخلي، مجهز لاستقبال ٢٢٠ سفينة حربية، فيه عدد من المستودعات أو الأرصفة والترسانات، وبيوتها الطابقية، التي تؤوي الدكاكين والمخازن، كانت محمية، هي والمرفأ، بسور منيع. يقدر كتاب العهود القديمة (بوليب، سترابون) سكانها بـ ٧٠٠.٠٠٠ نسمة، تقدير مبالغ بعض الشيء، كما يبدو.

على أساس اقتصادهم البحري الواسع، كان القرطاجيون قد أسسوا امبراطورية ضاربة تجارية واستعمارية، تشمل كل شواطئ وجزر البحر الأبيض المتوسط الغربي كانت قد فصلت مستعمراتها ووكالاتها في أفريقيا (ليبتي، أوتيل، تالسيوس)، على شاطئ

مراكش الحالي، في جنوب إسبانيا (غادس، وغيرها)، في سيسيليا الغربية (بانورم، دربيان، ليلبي)، في كورسيكا، في سردينيا والبليار. كانت حكومات قرطاجية تدير شؤون الشعوب الملحقة، فبرزخ المشروع، وجراة ومهارة البحارة الفينيقيين، صبوا في مدنهم ثروات طائلة: العبيد السود، شوائب الذهب، عاج الشاطيء المحيطي لأفريقيا الغربية، تصدير بريتانيا، وعنبر بحر الشمال. كان بوليب يرى قرطاجة أغنى مدينة في العالم.

وللدفاع عن امبراطوريتها وتوسيعها، كانت قرطاجة قد خلقت جيشا رائعاً، مكوناً جزئياً من سوقات أبناء البلد (لوميد، ليبان)، جزئياً متطوعين، مجندين من الشعوب شبه البربرية: ليغور، سيلت، سامنيت ("كامبانيان"). كانت هذه الجحافل، بقيادة القرطاجيين مجهزة جيداً ومعززة بعدد كبير من فيلة الحرب. وكانت البحرية الحربية رفيعة الإتقاد. كان القرطاجيون أول من بنى سفناً ضخمة بخمسة صفوف من المجاذيف ("الفهود")، أوسع وأسرع بكثير من الثلاثية اليونانية.

في قرطاجة، كانت السلطة السياسية بيد لفيف من الأثرياء مالكي العبيد، من التجار ومالكي الأرض، لأن الزراعة كانت أيضاً تلعب دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية لهذه المدينة: كانت تمتد في وادي بغيرادس الخصب حقول واسعة تستخدم بخاصة العمل الرقيق. من هنا، طبع الجزء الأكبر من تاريخ قرطاجة الداخلي بالصراع بين الطرفين، التاجر والزراع، الذين لا يترددون أمام أي سبيل من أجل الاستيلاء على مراكز متقدمة. يؤكد أرسطو (السياسة، ٢، ٨، ٥-٦) بهذا الصدد أن كل الخدمات كانت تتم في قرطاجة. كان "مجلس الخمسة"، يمارس السلطة الدكتاتورية، إلى جانبه محكمة الرهيبة المؤلفة من "مئة قاض"، الذين كانوا عملياً مرتبطين بالحكام الكبار - "الملكان"، وكان يتألف مجلسهم الأعلى من ثمانية وعشرين عضواً، والقائد العام - كانوا مختارين من صفوف أغنى الأسر (كانت أسرة ماغون أغناها وأوسعها نفوذاً). وكان مجلس الشعب مقتصرًا على التعبير عن الغضب الشعبي. ولتبرير أعمال حكامهم اللاإنسانية، كان الكهنة يوججون الشعب: يقدمون للربة تانين (استارتيه الفينيقية)، الأضاحي من العبيد، والمساجين، والمجرمين وتقدم الذبائح لبعل (مولوش)، برمي الجثث في شفق الوثن المعبود المتائب؛ ويستبدل الأغنياء أبناءهم بأبناء الفقراء (بلوتارك، "في الخرافة"، ١٣). وقد استمرت التضحية البشرية عند القرطاجيين مدة أطول ما لدى باقي الشعوب.

لقد وصل اضطهاد القبائل والشعوب الملحقة حداً لا مثيل له، سابقاً له. والضرائب

المفروضة على الليبيين (سكان أفريقيا الأصليين) تعادل نصف دخل الفلاحين. وكان العبيد يشكلون واحدة من أهم سلع الاقتصاد القرطاجي، مما دعا لتلقيب الفينيقيين بـ"مطاردي الإنسان"، وكانت اليد العاملة العبيدة مستخدمة أيضاً في كل مجالات أغنياء أفريقيا وسيسيليا. إذن كانت العلاقات الاجتماعية متوترة جداً في قرطاجة. وفضلاً عن المعلومات التي تصلنا حول الصراع بين الزمر الأولغارشية، يحدثنا الباحثون القدماء عن إضرابات "الرعاع" الكثيرة، أي الكادحين بشرط حر، والعبيد، والجنود.

كانت التناقضات الاجتماعية الداخلية تشكل النقطة العطوب في الدولة القرطاجية المبنية على العبودية. لم تبلغ هذه التناقضات بعد أوج احتدامها في روما، آنئذ، بل كانت بنيتها الاجتماعية أكثر تجانساً لبدائيتها.

الحرب الفينيقية الأولى (٢٦٤-٢٤١)

استمرت العلاقات بين روما وقرطاجة علاقات صداقة وتفاهم مادامت العناصر الزراعية مهيمنة في روما ومادام للدولتين أعداء مشتركون في شخص اليونان والأتروسك. لكن مع تطور التجارة الخارجية الرومانية، بدأت هذه العلاقات بالتفاسم. وبدأ التجار والصناعيون الرومان بخاصة يقلقون من طاقة القرطاجيين وتنامي دولتهم، فقد كانوا بعد هزيمة بيروس في سيسيليا، قاب قوسين من احتلال الجزيرة كلها. لذا بدأ ميدان روما يضطرب لدى انتشار الخبر الجديد أن المدينة السيسيلية لسينا، المهيمنة على المضيق بين سيسيليا وإيطاليا، سقطت بيد القرطاجيين في العام ٢٦٥ ق.م. سابقاً، فسي حوالي العام ٢٨٠ ق.م، احتلت عصابة من المرتزقة السامنيت (الـ"مامرتن" أو أبناء مارس-آذار، كما كانوا يسمون) هذه المدينة، في طريق العودة من سيراكوز. وخوفاً من انتقام طاغية سيراكوز، هيرون الثاني، طلب المامرتن عون القرطاجيين، الذين كانوا قد وضعوا حامية في مسينا، وصاروا عملياً سادة المدينة والمضيق.

وتحت ذريعة مؤازرة المواطنين الطليان، فسي وضعهم الحرج، تدخل أبيوس كلوديوس، ابن الأسرة المتنفذة، وسيد التجار والصناعيين، "في قضية مسينا" ونجح في جعلها حالة حرب. ورغم إرادة مجلس الشيوخ، أوكل مجلس الشعب القنصل أبيوس كلوديوس بـ"إنقاذ" مسينا. قاد هذا الأخير القضية بثورة عارمة وهبته في أوساط مجلس الشيوخ لقب "رأس الأحرار": فرض على القرطاجيين سحب حاميتهم من مسينا، وبدون

إعلان الحرب، خاض عمليات حربية ضد سيراكوز والقرطاجيين. انتقل هيرون على عجل إلى جانب الرومان ودخلت قرطاجة في نزاع مفتوح ضد روما (٢٦٤). يعطى بوليبيس رواية ألفة وتفصيلية لهذه الحرب في الكتاب الأول من عمله "في التاريخ".

بدأت الحرب بصورة موفقة جدا لصالح لرومان الذين صاروا بسرعة سادة سيسيليا أهم مدن اليونان. ومع ذلك، لم ينجحوا في احتلال حاضرات رئيسية قرطاجية منيعة: بانوريم، دريبان وليليبي، حيث اضطروا لانتظار هجوم القرطاجيين المعاكس. واسترمت روما إذن ببناء أسطول حربي ضارب من ١٠٠ سفينة-فهد. جهز الرومان مراكبهم بعبارات عائمة، في أطرافها كلابات، تتشبث بجوانب السفن العدو، الأمر الذي خولهم القتال على ظهر السفن، لأنهم لم يتكلموا على مناورات بحارتهم غير المحنكين. وبفعل هذا التكتيك الذي فاجأ القرطاجيين، أنزل القبطان س. دوليوس، على رأس هذا الأسطول، هزيمة منكرة بالبحرية القرطاجية، في مياه جزر ليباري، قرب ميبس الجزيرة السيسيلية. فمحه مجلس الشيوخ وسام النصر، وعلى شرف هذا النصر البحري الأول، رفع في الميدان العام عمود النصر الحيزومي، وزين بمهايمز السفن العدو المدمرة.

لكن الرومان بالغوا في تقدير نجاحاتهم. فبعد إنزال هزيمة أخرى بالأسطول القرطاجي، في رأسيسنوم، قرب ثغر هيمير على الشاطئ الجنوبي لسيسيليا (٢٥٦)، أبحر إلى أفريقيا جيشان قنصلين (حوالي ٥٠ ألف رجل)، ودمرا الأرض القرطاجية المزدهرة حتى مجرى باغرداس. وأرسل من هذه الحاضرة ٢٠ ألف إنسان كعبيد. لكن الجنود الفلاحين الذين تعاني أرضهم من هذه الرحلات الطويلة، الأمر الذي فرض عليهم ألا يتركوا في أفريقيا سوى ١٥ ألف رجل وأربعين مركبا حربيًا بإمرة القنصل م. أتيلوس رغوولوس، وهذا بدوره مكن القرطاجيين، بعد تجنيد مرتزقة جدد، من سحق جي رغوولوس الصغير.

وليطفح الكيل وتتفاقم المأساة، غرق الأسطول الروماني المؤلف من ٣٦٠ مركبا، في أثناء محاولته موازنة ما تبقى من قوات رغوولوس، قبالة شواطئ سيسيليا في طريق العودة. وفي العام ٢٤٩ ق.م، ولدى محاولة احتلال دريبان، وبعد أعمال قائد الطائشة، وقع لواء القنصل ب. كلوديوس بولشركله بين يدي القرطاجين. وهكذا بلغت خسائر الرومان إجمالا ٧٠٠ سفينة-فهد، فاضطروا إلى التنازل عن سيادة البحر.

بدأت السفن القرطاجية باحتلال الشواطئ الإيطالية، وكان عليها أن تبني على الساحل

الأثري سلسلة من المستوطنات المنيعه.

ومن العام ٢٤٩-٢٤١ ق.م، كانت كفة السلاح تميل إذن نحو قرطاجة، وكان الرومان يذوقون أيضا الفشل في سيشيليا. دام حصار دريبان وليبيا طويلا، ونهض يونان من الحزب الديموقراطي من مدن الشط الغربي لتعريض حامياتهم. وكان القائد الأعلى القرطاجي أمكار باركا ("البرق") قد قطع كل ما وصلات الرومان، محتلا على جبل إيريكس وضعا منيعا، على أواخر المدن التي يحاصرونها. لم يرسل مجلس الشيوخ نجدات أخرى إلى سيشيليا، لأن الخزينة كانت فارغة. وكان الفلاحون الرومان منذ زمن قد أضنتهم الحرب وخربت وضعهم حتى بدوا وقد ضاعوا.

آنئذ عمر التجار والصناعيون، الذين أثاروا هذا النزاع والذين كانوا في رأس المستفيدين من حصيلته، وسلحوا على نفقتهم، وبالهبات الفريدة والاكتتاب التعاوني، أسطولا جديدا من ٢٠٠ سفينة سريعة من نموذج جديد. وفي العام ٢٤١، أبحر القنصل س. لوتاتيوس كاتولوس على رأس هذا الأسطول وأنزل هزيمة نكراء بالأسطول القرطاجي في جزر آغات: أغرقوا ٧٠ مركبا معاديا وأسروا ٥٠، وقطعوا دريبان وليبيا عن العاصمة، فاستسلموا، وخضعت قرطاجة لبدء مفاوضات مع المنتصرين.

بنصوص معاهدة السلام للعام ٢٤١ ق.م، التزمت قرطاجة بالتخلي عن ممتلكاتها البرية في سيشيليا وكذلك في الجزر الشاطئية، ودفع غرامة ٤٢٠٠ تالانت خلال عشر سنوات، وإعادة بدون فدية جميع المسجونين الرومان وعدم تجنيد بالتالي مرتزقة آخرين في إيطاليا. وصارت سيشيليا الغربية أول "ضاحية" لروما، وتفتح بحار الغرب من الآن أمام بحرية الحرب والتجارة والمشاريع العسكرية والتجارية الجديدة.

قرطاجة وروما بعد الحرب الفينيقية الأولى

أضعفت هذه الحرب الخاسرة قرطاجة بحيث لم تستطع الإنفاق على انسحاب ٢٠ ألف جندي من جيشها من سيشيليا. ولقد تمرد هؤلاء المرتزقة التائهون على وجوههم (٢٤١). وانضم إليهم أبناء البلد الأصليين (الليبيون) المستغلون بشراسة وعبيد المزارع القرطاجية، بحيث بلغ عدد العصاة قرابة ١٠٠ ألف رجل. وبعد احتلال أوتيكا، حاصروا قرطاجة. أبادوا عذابا وتنكيلا كل السجناء القرطاجيين، قطعوا أيدي الأغنياء الليبيين، أنصار قرطاجة، وأرسلوهم هكذا إلى هذه المدينة. كان قادتهم، الليبي ماتوس والعبد سبانديوس،

يتمتعون بشعبية واسعة. أدرك أعداء المدينة هيرون ومجلس الشيوخ طبيعة هذا التمرد الطبقي، فهبوا لموازرة الحكومة القرطاجية: بإرسال المؤن، بالسماح بتجنيد مرتزقة جدد من الشعوب الإيطالية. دام هذا العصيان ثلاث سنوات وأبيد بوحشية (في العام ٢٣٨ ق.م). وأتت الضربة النهائية للتمرد على يد أميلكار باركا، المدافع المظفر عن سيسيليا. قبض على سبانديوس الآتي كمفاوض وأمر بصلبه، وسحق الليبيين والعبيد الذين بقوا بدون قائد؛ وقضى على مقاومة يائسة، قاتل وسجن مائوس، الذي سلم إلى العذاب والتكيسل في قرطاجة. كتب بوليب "حرب المرتزقة" بالتفصيل، ورأها أشرس من كل الحروب المعروفة، وهذا طبيعي لأنها ارتدت الخاصة الطبقة بكل وضوح.

بعد الانتصار على المرتزقة، كلف أميلكار بإقرار سلطة قرطاجة في محيطها الغربي وأن يخلق في إيبيريا (إسبانيا) قاعدة قوية إعدادا لحرب جديدة مع الرومان. أنجز أميلكار بنجاح هذه المهمة؛ احتل مناجم سيرايفادا، وبعد إخضاع جبلي إيبيريا، جند منهم جيشا من ١٥٠ ألف مقاتل. وعندما قتل في معركة خاسرة، تابع صهره أسدربال الإعداد للحرب. وشيد قرطاجة جديدة (قرطاجنة)، فصارت الميدان الأيمن في الدولة الإيبيرية. قرابة ٢٠ ألف عبد للعمل في مناجم فضة المنطقة. وجذرا من يقظة الرومان، عقد أسدربال معهم معاهدة جعلت إيبر حدا لمناطق نفوذ الدولتين؛ والتمز القرطاجيون بعدم تخطي شمال هذا النهر.

في روما، وضع النصر على قرطاجة، الذي أثرى عددا كبيرا من الخاصة، على جدول أعمال السياسة الرومانية وفتح أراض جديدة خلف-البحار. لابل رأينا بين الأرستقراطية الحاكمة شيوخا تولوا شخصا التجارة، أو بواسطة المحررين الذين يديرون أعمالهم. وهكذا احتلوا في العام ٢٣٨ ق.م سردينيا وكورسيكا، اللتين انضمت هامياتهما إلى جانب المرتزقة القرطاجيين المتمردين في ليبيا. واستخدم السادة الجدد الكلاب البوليسية لاصطياد الناس، ومطاردة أبناء الجزر الذين يبعوا فيما بعد عبيدا. وفي العام ٢٢٩، بذريعة مكافحة القراصنة الإيلويين، احتل أسطول روماني كورسير، وصفت قوات بريسة مملكة إيليريا، التي تحكمها الملكة توتا، وجعلوها ترسانة أسلحة في شمال شبه جزيرة البلقان.

أورثت هذه السياسة الخارجية للأوساط التجارية والصناعية معارضة جماهير الفلاحين ووسعت نفوذ الحزب الشعبي الجديد. تبنى هذا الحزب إصلاح اللجان المثوية

بحيث يكون لكل طبقة ٧٠ مئوية تصوت. وبالتالي، صارت الطبقة الأولى أقلية، أي لها كلها (مع الفرسان) ٨٨ مئوية مقابل ٢٨٥ للطبقات الأخرى (عوضاً عن ٩٨ ضد ٩٥، حسب التوزيع السابق). وهكذا انتقلت قضايا السلم والحرب، أي توجه السياسة الخارجية، وكذلك انتخاب الحكام الكبار، إلى أيدي الطبقة الوسطى. وبدأ صغار ومتوسطو مالكي الأراضي يضعون في السلطة ممثلهم الذين يعملون لحيازات عقارية في إيطاليا والإعمار الزراعي. وفي العام ٢٢٣، اقترح المحامي العام الشاب س. فلامنيوس "الرجل الجديد" قانوناً يوزع على الفلاحين الأراضي الواقعة شمال بيسنوم، التي يعود فتحها للعام ٢٨٠. كان المستفيدون من هذا التوزيع كثراً فتوجب تخصيصهم بقبيلتين جديدتين (٣٤ و ٣٥).

وفي العام ٢٢٣، انتخب فلامنيوس قنصلاً وبدأ بتنفيذ خطة فتح الغول سيزالين بدعم من الحزب الشعبي بغية طرد وإبادة الغولوا وإقامة على أرضهم مستعمرات رومانية. أعلن فلامنيوس عليهم حرباً موفقة انتهت باحتلال مدينتهم الرئيسة مديولنوم (ميلانو)، وتشكيل الإيالة الرومانية من غول سيزالين. وأسس فلامنيوس في حوض البو عدة مستعمرات (بلاسانتيا، كريمون)، خصص سكانها بأرض واسعة ٣٠ سهماً للأسرة. ضمت "فيا فلامنيا" هذه المستعمرات إلى روما.

في العام ٢١٨، تبنى قائد شعبي آخر، كلوديوس للجمعيات الشعبية قانوناً حمل اسمه، منع الشيوخ من مزاوله التجارة وامتلاك بواخر ضخمة تجارية. مر هذا القانون لكن، بعد أن أثار غلياناً عاماً، رغم أنه لم يوافق عليه في مجلس الشيوخ سوى فلامنيوس.

تحققت في هذه الحقبة من الزمن تبدلات عميقة، صححت النظام السياسي والاجتماعي القديم في روما، ليكون في المسار الديمقراطي الأكيد. ولهذا السبب نفسه، أمكن ظهور وسيلة في مجلس الشيوخ، قلعة النبلاء الذين رأوا الأرض تميد تحت أقدامهم، لتحويل اهتمام الجماهير الشعبية من الشؤون الداخلية إلى القضايا الخارجية. لذا سارعت الدبلوماسية الرومانية إلى بدء الحرب الثانية ضد قرطاجة التي نشبت في العام ٢١٨، أي عام إقرار مجلس الشيوخ قانون كلوديا.

. الحرب الفينيقية الثانية (٢١٨-٢٠٨)

في العام ٢٢١ ق.م، استغل مجلس الشيوخ موت أستروبال، الذي قتلته وطني إسباني، وفسخ المعاهدة التي عقدها مع هذا الجنرال، وأخذ تحت حمايته المدينة الغريكو-إيبيرية

ساغونت، الواقعة في جنوب نهر الايبير. وكان هانيبال ابن ميلكار قد سمي وهو في الخامسة والعشرين ربيعا، قائدا أعلى للجيش القرطاجي في إسبانيا. وقد جعله أبوه يقسم، وهو طفل، أن يكن حقا دينا أبديا للرومان. كان هانيبال قد تلقى تربية رائعة على يد أساتذة يونان، وسرعان ما صار قائدا لامعا. ولقد ترك لنا تيت-لايف (٤٢١) صورة متقنة لهذا الرجل الفريد، تجسد كما يقول، المكر والفضافة الفينيقية، العدو الأزرق لروما؛ وهذا ما يثبت لنا بوليبي (٣،١)، الذي كان، مع المؤرخ الروماني، مرجعا الرئيس لدراسة الحرب الفينيقية الثانية. اختلق هانيبال ذريعة لإعلان الحرب، ومشى إلى ساغونت واحتلها بعد حصار دام ثمانية أشهر ثم باع كل من بقي حيا وأرسل جزءا هاما من الأسلاب إلى قرطاجة لتوزع على الأشخاص المتنفذين. فأرسل الرومان على عجل سفيرا إلى قرطاجة بغية تسليمهم هانيبال كمسؤول عن "العنف الواقع على حلفاء الشعب الروماني". رد "مجلس الشيوخ" القرطاجي بالرفض وأعلنت روما الحرب على قرطاجة (٢١٨ ق.م.).

اعتمد مجلس الشيوخ الروماني على نصر سريع وحاسم؛ هيا نزولا في إفريقيا ليهزم قرطاجة. لكن هانيبال أفسد كل خطط الرومان، إذ سار برا إلى إيطاليا (في ربيع ٢١٨)، على رأس جيش محك، بعد ٩٠ ألف ليبي وإيبيري مشاة، ١٢ ألف فارس وعددا لجبا من الفيلة. اضطر، وهذا صحيح، أن يشق طريقه بالسيف، عبر المناطق غير الخاضعة في شمال إسبانيا، وفتح معبرا بالقوة، والتهديد والترغيب على طول ساحل الغول *la Gaule* الجنوبي. بلغ هانيبال الرون بجيشه بعد أن خسر نصف مراكه، وليس إلا في نهاية أيلول حتى شرع بعبور جبال الألب العقبة الكأداء، في فصل يجعل المضائق غير سالكة؛ وخسر هنا جمهرة من الجند والمطايا لسقوطهم من سفوح الجبال المغطاة بالثلج. وبعد ١٥ يوما، نزل الجيش في سهول الغول سيزالين، ولم يبق مع هانيبال سوى ٢٠ ألف جندي مشاة، ٦ آلاف فارس وثلاثة فيلة. لكن السيلت المنضمين إلى روما وقفوا على الفور بإمرتهم. وبعد أن دحر طليعة الرومان في نيسين، اجتاز سهل البو، وعلى ضفاف تريببيان في كانون الأول ٢١٨، هزم جيوش القناصل تيبيريوس سامبرنيوس وف.كونليوس سيبيون اللذين سارعا لصدده.

أثارت خسارة غول سيزالين وكل المكتسبات الأرضية الأخرى التي حققها الحزب الشعبي خلال السنوات السابقة، في روما، هيجانا عارما، وتجدد الدفاع عن مصالح الشعب.

وفي العام ٢١٧، انتخب حظي الشعب س.فلامينوس قنصلا، وتلقى رغم أنف مجلس الشيوخ، قيادة الجيش المتمركز في أرتيوم، لحماية طريق روما.

لكن هانيبال قلب المواقع التي يحتلها الخصم في هذه المنطقة الجبلية. ففي أثناء أربعة أيام اجتازت قواته المستنقعات المعتبرة متعذرة الاحتلال من توسكانيا، بثمن باهظ من الرجال والرواحل (نفق آخر فيل وفقد هانيبال عينه)، لكنهم نفذوا أخيرا إلى مؤخرة الجيش الروماني وإلى درب روما الذي فتح أمامهم. سارع فلامينوس لمصاولة العدو، لكنه وقع في الكمين الذي نصبه له القرطاجيون، في المضيق القائم بين بحيرة ترازمين والجبال التي تحيط بها؛ وهنا نفق مع جيشه (٢١٧). لم تكن هذه النكبة الثانية للرومان فقط، بل هزيمة للحزب الشعبي.

على ذلك، عوض أن يسير هانيبال فورا إلى روما، شرع أولا بتمزيق الحلف الروماني. سار ساحل الأديريتيك كله، تقدم إلى لوكانيا، ثم، عن طريق سامنيوم، نفذ إلى كامبانيا، معلنا أنه محرر الشعوب الإيطالية، وأنه أتى ليحطم النير الروماني. في طريقه، كان يحطم بلا رحمة كل المستعمرات والحاضرات الرومانية واللاتينية. ولم يتأخر الدكتاتور كونتس فابيوس، خالق مجلس الشيوخ، عن التحول إلى عدو أزرق للشعب، بسبب تكتيكه الذي أقر بكل حذر ويقظة؛ متجنباً الالتزامات الحاسمة، كان يكتفي بمطاردة العدو، مناورا بموازاته على دروب الجبل، تاركا مزارع المستوطنين الصغيرة لقدرها، في السهل والوديان. مدينا بتكتيه هذا إلى لقبه ("المخايل").

وفي العام ٢١٦ ق.م، انتخب ل.إميلیوس بولوس، أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وس.ترنتيوس فارو، ممثلا للحزب الشعبي. أهمل مجلس الشيوخ مطالب الشعب وأمر القناصل بفتح معركة حاسمة. لكن الخلاف كان يسم العلاقة بين القنصلين، وبدأت المعركة بأوضاع ليست لمصلحة الرومان، في وادي أوفدوس، قرب كانس (في وسط صيف ٢١٦). في كانس، سحب هانيبال جزءا من تفوق فروسيته، وبفضل المواقع الحائقة، حاصر وأباد تقريبا جيشا كاملا من الرومان يعد قرابة ٨٠ ألف رجل. ولم ينج سوى القنصل فارون وبعض جنوده من الحصار.

بعد كانس أضحي وضع روما مأساويا. انتفض الغولوا السيزالبيين جماهيريا وأبادوا القوات الرومانية التي كانت قرب أمنيوس. وفي الجنوب، انفصل السامنييت، اللوكانيان،

والبروتيان عن روما. وانتقل عدد ضخم من اليونان الكبرى إلى جانب هانيبال؛ كابو، بالذات، خانت روما. وأبحر جيش قرطاجي من ٢٥ ألف رجل إلى سيسيليا، احتل أغرجانت ودعم الانتفاضة في سيراكوز التي، في العام ٢١٤ ق.م، شكلت قضية مشتركة مع قرطاجة. وملك مقدونيا فيليب الخامس، انضم نهائيا إلى هانيبال، وهاجم المواقع الايليرية للرومان. وفي إسبانيا، حطم أسدروبال، أخوه هانيبال، جيشين رومانيين بقيادة بوليوس وسنيوس سبيون. وفي العام ٢١١، شن هانيبال، بمساعدة مادية من قرطاجة هجوما على لاتيوم ووصل حتى روما: قرب باب كوللين، أطلق أول حربة في هذه المدينة، دلالة على حقه. وبدأت الدولة الرومانية تشارف على الانهيار.

لكن روما نجت مرة أخرى بفعل تضحية وبقظة شعبها الكادح. فبعد كانبس، خمدت المعارضة الشعبية. نهض كل الرجال السليمين بدءا من الـ ١٧ ربيعا، بين الرومان، وبقي الحلفاء مخلصين. وفي العام ٢١٤، امتلكت روما ١٨ فرقة. وجندوا أيضا ٨٠٠٠ عبد متطوع، شكلوا فرقتين. وبرهنت الحكومة الرومانية يومئذ عن يقظة وتبصر كبيرين في التعامل مع قواتها المقاتلة. واعتبر تكتيك فابيوس كونكتاتور في المماثلة نموذجا.

اقتداء به، أوجز القادة الرومان مهمتهم في إبعاد هانيبال عن تحقيق خطته الأساسية: حل الحلف الإيطالي وتوحيد أعداء رومان في حلف آخر؛ وهكذا بعزل جيش هانيبال المنهك، بمنعه من كسب تعزيزات جديدة ومناهل جديدة، حسب الرومان أن يروا هذا الجيش مفككا وغير قادر على خوض حرب طويلة.

تطلب الأمر من روما عشر سنوات، من ٢١٥-٢٠٥، لتحقيق خطتها الآجلة، شديدة التعقيد، والتي ضربت بقسوة اقتصاد إيطاليا. خلال السنوات الخمس الأولى، ٢١٥-٢١٠، نجح الرومان بتوطيد مواقعهم في شبه الجزيرة، خلف خط من المستعمرات المنيعة القائمة على طول مجرى ليريس، ثم التقدّم نحو عمق كامبانيا وسامنيوم. وفي العام ٢١١، أخذوا كابو والمدن الأخرى من كامبانيا التي تغيبت وسقطت بعدئذ. وذبح جميع حكام المدن المتمردين أو سلموا للتتكيل، وبيع القسم الأكبر من الناس بالمرزاد العلني، ونقل من بقي إلى أتروريا. وتحرك خط الدفاع الروماني بعدئذ إلى حدود أبوليا ولاكونيا، بحيث وجد هانيبال نفسه محاصرا أخيرا في جنوب إيطاليا.

في ذات الوقت أرسلت قوات كبيرة إلى سيسيليا. وعقد القنصل م. كلوديوس مرسلوس

معاهدة مع سكان الجزيرة القدماء، السيكل، الذين كانوا يكرهون اليونان، مستغليهم، ودخل سيراكوز. أدار الحملة ووجهها عالم الرياضيات الشهير أرخميدس، ولم تحتل المدينة إلا بعد حصار دام سنتين، في العام ٢١١: نشر المنتصرون هنا مذبحه رهيبة ونهبوا المدينة. وفي العام ٢٠٩، سحق الرومان نهائيا الجيش القرطاجي المدافع عن سيسيليا واحتلت قاعدته الأساسية، أغريجانت. احتل الرومان سيسيليا وأغلقوا أفق النهوض أمام القرطاجيين. وهوت الحياة الثقافية المفتحة في هذه المدن إلى سبات ونوم عميقين وتراجعت الجزيرة كلها إلى إقليم روماني زراعي، وإلى حقول واسعة من قطعان العبيد. في اليونان أخيرا، حقق الرومان نصرا على فيليب المقدوني حليف هانيبال (في أثناء الحرب الأولى المقدونية). اضطر فيليب للتخلي عن مشروع الهجوم على إيطاليا، وفي العام ٢٠٥، عقد صلحا مع روما.

لكن الضربة الأقسى لهانيبال صدرت من المعارك المظفرة التي دارت في إسبانيا على يد الجيش العامل بقيادة قائد في عامه الرابع والعشرين، ب. كورنيليوس سيبيون، ابن القنصل الذي قتل في العام ٢١١ في شبه جزيرة إيبيريا. وفي العام ٢٠٩، احتل سيبيون بهجوم عاصف مناجم فضة قرطاجة، ترسانتها الشاسعة، مخازنها وورشاتها الحربية. وشكلت المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد فيما بعد الإقليم الروماني من إسبانيا. على ذلك، لم ينجح سيبيون في منع أخوي هانيبال، أسد روبال وماغون، من السير نحو إيطاليا، بما تبقى لهم من قواتهم، لمد يد المساعدة لأخيهم الأكبر. لكن هذه الإمدادات انتهت إلى عدة مآسي الواحدة تلو الأخرى؛ صرع أسدربال مع جيشه، في معركة دارت في سينا غاليسيا في أومبريا، ورمي رأسه في مخيم هانيبال (٢٠٧)؛ وفشل ماغون بمهمته الإبحار إلى ليغوريا. إذ حوصر في خليج تارانتي، فحرم من أي أمل بتعزيز جيشه، ولم يعد هانيبال مصدر خطر لروما.

بعد ١٣ عاما من الحرب، تمكنت الحكومة الرومانية من العودة إلى مخططها الأول الهجوم المباشر على قرطاجة. وفي العام ٢٠٥، انتخب سيبيون قنصلا وكلف بهذه العملية. رغم أن مجلس الشيوخ رفض الأسس، بحجة خواء الخزينة، تمت الحملة الإفريقية، بفضل المساهمات التطوعية من الأغنياء الرومان وحلفائهم. فقد جذب طعم الغنيمة العديد من الالتزامات السابقة.

بعد أن أرسل جيشه من سيسيليا إلى إفريقيا، على ظهر مائة مركب تقل، أبحر

سبييون إلى أوثيك وبدأ بتدمير وادي باغراداس، أمراء قرطاجة الرئيس، لإرغام المدينة على الاستسلام جوعاً. ويفعل تغيب ملك النوميد، ماسنيسا، الذي انتقل إلى جانب الرومان، كان سبيون يقود سلاح خيالة محنكا، وكان مجلس الشيوخ القرطاجي قد أرسل الرسل إلى سبيون، لمناقشة عقد الصلح، لكن مجلس الشعب الذي رفع رأسه مجدداً، قرر استدعاء هانيبال وكلفه الدفاع عن مسقط رأسه.

كان هانيبال ينتظر هذه الدعوة منذ زمن؛ كان يدرك أن عودته إلى قرطاجة بمبادرة شخصية، غير مبررة بسبب إخفاقه. في كروتون جمع فلول قواته على متن بعض المراكب، متجنباً لحسن الحظ الأسطول الروماني (٢٠٣ ق.م). وفي أفريقيا، جهز قواته مجنداً المرتزقة وجزئياً من النوميد، خصوم مسينسا. واستناداً إلى عدم ثقته بالنصر، اقترح هانيبال الصلح على سبيون، لكن هذا الأخير رفض العرض.

بدأت المعركة الحاسمة، في العام ٢٠٢، قرب زاما، جنوب قرطاجة، وانتهت بنصر مؤزر للرومان، بفضل تفوقهم بالخيالة، مع ذلك حاول هانيبال خرق تجمعهم، موجهاً إلى هذه النقطة ٨٠ فيلاً. استسلم مجلس شيوخ قرطاجة بقضه وقضيضه إلى معسكر سبييون، الذي قبل خوض المفاوضات. كانت شروط السلم (٢٠١) التي أملاها قاسية جداً. ألا تحافظ قرطاجة إلا على جزء صغير من المواقع في أفريقيا، وليس لها أن تعلن الحرب على جيرانها إلا بإذن من الحكومة الرومانية، وعليها أن تسرح جيشها، وتدمر كل أسطولها المحارب، عدا ١٠ من ثلاثيات المجاذيف، وكل فيلته؛ والتزمت قرطاجة بإعادة كل المغنم التي كسبتها أثناء الحرب، وإعادة كل المساجين والفارين؛ وبقاء الجيش الروماني في أفريقيا حتى الجلاء عنها؛ أخيراً فرض المنتصر غرامة باهظة ١٠ آلاف تالانت. ولتأمين تنفيذ شروط المعاهدة، يحق لسبييون انتقاء ١٠٠ رهينة من أبناء أنبل الأسر القرطاجية لإرسالهم إلى إيطاليا. ومنذئذ فقدت قرطاجة جبروتها بل حريتها، لأن الرومان لم يتخلوا عن التدخل بشؤونها الداخلية، الأمر الذي أكره هانيبال على الهرب إلى الشرق ليحل في كنف الملك السوري أنطيوخوس، ليستدرجه إلى خوض صراع جديد ضد روما.

احتفظت روما بنصرها على عدوها الأخطر. وسبييون الذي جلب من أفريقيا ١٣ ألف ليبيرة من الفضة، صار الشخصية الأولى في الدولة، ووهب لقب الظافر الـ"أفريقي". لكن حرباً لخمس عشرة عاماً على أرض إيطاليا ذاتها سببت خسائر فادحة اقتصادية. أكثر

من نصف الرومان سقطوا صرعى؛ حسب إحصاءات العام ٢٢٠، كانوا ٢٧٠٠٠٠، وفي إحصاء العام ٢٠٧، لم يعدوا سوى ١٣٧١٠٨ رجل ملزمين بخوض الحرب.

كانت الخسائر التي نكبت الشعوب الإيطالية أقسى وأدمى، لأن سكان ٤٠٠ مدينة، وأيضا مناطق كاملة، صرعوا بالسيف، جزئيا سيف هانيبال، وأيضا ببعثات الرومان الانتقامية: كان الرومان قد باعوا كل سكان كابو وتارانت كعبيد، وأبادوا تقريبا كل سكان بروتيوم، إحدى المدن التي بقيت مدة أطول، والأعد إخلاصا لهانيبال. حتى في الحواضر التي هرب سكانها من أوار الحرب وأهوالها، انخفض مستوى حياة الناس كثيرا بسبب إهمال الأرض، والسوق المستمرة، ضرائب الحرب الباهظة، التهاب الأسعار وجنونها (سعر الملح تضاعف، مثلا)، انخفاض قيمة النقد، إلخ. وغزت أسراب من اللصوص وقطاع الطرق إيطاليا، باذرة حيثما حلت الرعب والانحطاط الخلقي.

إنما في ذات الوقت، لابل بعد الحرب الفينيقية الأولى، تنامي ازدهار الشرائح العليا من المجتمع الروماني، وبخاصة فئات الصناعة والتجارة. فقد ورث التجار الرومان كل الصفقات والعلاقات التجارية من كابو، تارانت وسيراكوز. وبفضل المصادرات لأمالك الحلفاء غير المخلصين، كبرت مساحة الأملاك العامة وكانت كلها تقريبا قد سقطت بين يدي طواغيت الأعمال الذين وظفوا بنشاط في الزراعة فوائد أرباح وأسلاك الحرب وغنائمها. أما الشعب، الذي لم يقتسم شيئا، فقد اشتروه، في أثناء أعوام ١٩٠ و ١٨٠، بتأسيس مستعمرات جديدة في مكان المدن المدمرة في كامبانيا وبروتيوم، وفي غول سيزالين (موتينا، بارما، بونونيا). واختفى حزب الشعب المستضعف وفاقد الاعتبار لمدة طويلة عن المسرح السياسي وعزف عن معارضته تحكم الأثرياء الرومان المندفعين. لهذه الأسباب، اتبعت السياسة الرومانية، في العقود التي تلت النصر على قرطاجة، بدون عقبات، الدرب الذي أشارت إليه النبالة المغتنية والـ"فرسان" الذين بني ازدهارهم المتزايد أبدا على مكاسب الحرب ومداخل المستعمرات. وما أن احتل حوض البحر المتوسط الغربي، حتى بدأت الشرائح المسيطرة في روما، دون وضع حدود لتعطشهم للتوسع، وعلى الفور، بغزو الشرق.

الفصل الثامن والأربعون

بداية الهيمنة الرومانية على الشرق

الحرب المقدونية الثانية

لقد نجحت روما بفرض تفوقها (ثم هيمنتها) على حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي، بشكل أسهل مما حققت فتح الغرب: توطد التفوق الروماني خلال عقد من الزمن (٢٠٠-١٩٠)، بينما كلفها قهر قرطاجة ٦٣ سنة علما أن هذا النجاح تحقق بسبب العلاقات الدولية القائمة آنذ. كانت قرطاج وحدها تحتل موقع السيد في الغرب في القرن الثالث، إسل في الشرق نشب صراع مستمر بين مدن مستقلة وتحالفاتها (جامعات بيوتيين، أشيين، إيتوليين)، الدول الصغيرة العديدة والدول الكبرى الإغريقية (مقدونيا، سوريا، مصر). فضلا عن صراع طبقي عارم كان يضعف قدرتها على المقاومة الخارجية. كانت هذه المصادفة تخول روما أن ترد ليس فقط بالسلح، بل أيضا بضرب هذه الدول ببعضها، بدبلوماسية ماهرة.

بفعل هذين السبيلين، صرعت الأولغارشية العسكرية والرقية لروما مقدونيا بأربع سنوات، فورا بعد الحرب الفينيقية الثانية. كان سبب اشتعال الحرب المقدونية الثانية (٢٠٠-١٩٧) مؤازرة الملك فيليب الخامس هانيبال؛ فضلا عن توسيع جبروته شرع بتشجيع الاضطرابات في البلاط المصري، بغزو الممتلكات المصرية في آسيا (كاريا وليديا) واحتل مدنا من هلسبوننت سستوس وأبيدوس، وسكلادس. وعندما، لهذا السبب، اجتمعت رودس، بيرغام وأثينا ضده، طلبت مساعدة روما، رأى الحزب الحاكم في هذه المدينة أن الريح مؤاتية للتدخل في شؤون الشرق. اصطدم مجلس الشيوخ، وهذا صحيح، بمقاومة حاسمة من طرف مجلس الشعب؛ ورفضت جمعيات الشعب الناخبة، فكرة إعلان الحرب على مقدونيا، واعتبرتها مغامرة جهنمية من قبل القادة العسكريين المتعطشين للذهب، لم يمر الاقتراح إلا بالاقتراع الثاني، وبعد احتجاجات عنيفة.

في أثناء السنتين الأوليتين من الحرب، حاول جيش روماني صغير حوالي ٢٥ ألف مقاتل عبثا اختراق اليونان الشرقي عن طريق إيليريا، بينما كان فيليب يحاصر أثينا ويدمر ضواحيها. وفي العام ١٩٨، أرسل الرومان إلى اليونان، كقائد أعلى ت. كينكتيوس فلامنيوس، رجل السياسة الشاب والمحك، المعروف بإعجابه بالثقافة الإغريقية ("نصير الهلينية"). عرف هذا المندوب كيف يقع اليونان أن هدف الحرب كان "إنقاذ الهيلينيين من النير المقدوني". عبر الإبيريون أولا من جهة فلامنيوس؛ اليونان الوسطى كلها والبلوبونيز. دل الأدلاء الإبيريون فلامنيوس إلى معابر في الجبال، عبرها قاد جيشه إلى تساليا، حيث تقوم سلسلة من التلال تحمل اسما رائعا، سينوسيغال (رووس الكلب)، وحقق النصر على فوج فيليب المقدوني الماجد. التمس هذا الأخير بخجل من مجلس الشيوخ صلحا جعلت نصوصه مقدونيا فجأة كيانا من الدرجة الثالثة: أعلنت كل المدن والأراضي اليونانية التي تحتلها مقدونيا حرة ومستقلة، ومنع على ملك مقدونيا تكوين جيش أكثر من ٥٠٠ رجل وأكثر من خمسة مراكب حربية؛ والتزم أخيرا بدفع تعويض من ١٠٠ تالانت. وهكذا قضى على هيمنة مقدونيا في اليونان، المستمرة ١٥٠ سنة، وسيطرتها في البحر المتوسط الشرقي.

في أثناء الاحتفالات الإثمية 'sthniques' للعام ١٩٦، أعلن فلامنيوس رسميا حق كل شعوب الحاضرات اليونانية في أن تعيش بـ"دون ضرائب، ولا حامية، بل تحكم نفسها حسب شرائعها" (بوليب، ١٨، ٢٩). لكن الحماس الذي أثاره هذا الإعلان لدى اليونان، تلتته عاجلا خيبة الأمل. لأن، فلامنيوس، بالاتفاق مع لقيف من مجلس الشيوخ، راح يضطهد الأحزاب الديموقراطية ويستبدل حكوماتها بحكومات أولغارشية، يرتبط وجودها بمساندة روما لها خوفا من شعوبها.

كان تدخل الرومان حاسما بشكل استثنائي في إسبارطة. نظم فلامنيوس حملة تأديبية ضد "طاغية" هذه الحاضرة، نابيس، الذي طرد منها الأغنياء ووزع أرزاقهم على العبيد، والفقراء والجنود المرتزقة. أجبر نابيس على عقد الصلح، والتزم بعودة المنفيين، وبرجوع

١ - احتفالات يونانية تقام في كرنثيا كل ٤ (ثم سنتين) سنوات على مجد بوسيدون، إله البحر لدى اليونان.

العبيد المحررين إلى رتبة مالكيهم، وتسريح الجيش، وتدمير الأسطول وبأداء غرامة من ٥٠٠ تالانت. وبعيد هذا قتل، عاد المهاجرون الرجعيون إلى إسبارطة، وقاموا بتنظيم الأولغارشية واقتصوا بشراسة من أنصار الديموقراطية.

أيضا بعد عودة الفصائل الرومانية في العام ١٩٤ ق، استمرت روما بالتدخل بالشؤون الداخلية للدول اليونانية، ناشرة الأولغارشية في كل مكان ومثيرة، بالتالي، حقد الأوساط الديموقراطية.

الحرب ضد أنطيوخوس الثالث السوري

إن الوضع المهيمن الذي احتلته روما في اليونان جعلها في خصام مع أكبر دولة هيلينية، سوريا، التي كان يحكمها أنطيوخوس الثالث الكبير. وهذا الأخير الذي كان يحلم بإعادة بناء إمبراطورية الاسكندر، استغل ضعف مقدونيا ليحتل، في آسيا الصغرى والردنيل، مدنا وأراض كانت خاضعة سابقا لآل بتولميه وفيليب. كان أنطيوخوس يستعد للحرب ضد روما، بنشاط مستعر منذ أن أوى هانيبال، الهارب من قرطاجة، وأضحى روح حزب الحرب في سوريا (١٩٥).

كما صرح أنطيوخوس بدوره أن هدف الحرب ضد روما كان "عتق اليونان"، ووعده بعض اليونان (الجامعة الايتولية)، الأكثر غضبا من سياسة روما في البلقان، بتقديم المساعدة لكل هيللاد.

على ذلك، عندما أبحر أنطيوخوس، في العام ١٩٢، إلى اليونان الوسطي، مستندا إلى هذا الدعم، لم ينشب التمرد العام ضد الرومان. والجامعة الآشية، بيرغام ورووس، التي كانت تخشى عدوانا سوريا، وقفت نهائيا إلى جانب روما. وللغاية ذاتها، قدم بتولميه الخامس، ملك مصر، للحكومة الرومانية إعانات مالية ضخمة. ودخل جيش روماني من ٢٥ ألف رجل إلى تساليا وانضم إلى الجيش المقدوني. التهبت المعركة الحاسمة في ترموفيل (١٩١ ق)؛ انهزمت القوات السورية وأجبر أنطيوخوس على الانسحاب إلى آسيا الصغرى. ثم حطم أسطول روما، بيرغام ورووس، الذي كان يقاتل موحدا في عدة لقاءات، وكان الأسطول السوري -وقسم منه بقيادة هانيبال- في بحر إيجه، الأمر الذي مكن الرومان من نقل المعركة إلى أرض آسيا الصغرى. أوكلت الحكومة هذه المهمة إلى قاهر قرطاجة الشهير، بوليوس كورنيليوس سيبيون الأفريقي، رغم أنه رسميا بإمرة أخيه،

لوسيو كونيوس سيبيون، فصل العام ١٩١. اجتاز الجيش الروماني إيبيريا، مقدونيا وثراسيا، وتخطى الدردنيل، وبعد أن ضم قوات بيرغام، سار إلى ساردس حيث كان ملك سوريا قد حشد جيوشه. ودارت معركة طاحنة واحدة قرب مانيزيا (بين ساردس وسميرن)، في كانون أول ١٩٠، قررت مصير آسيا الصغرى. رغم أن الرومان قاتلوا واحدا إلى ثلاثة، فقد بددوا قوات أنطيوخوس وأوقعوا بها الهزيمة؛ لأن تلك القوات التي كانت تتألف من جمع من الشعوب والأمم المتنافرة كإمبراطوريته؛ فقد وضعوا كتفا إلى كتف، اليونان، والعرب الممتطين الجمال وخمسين فيلا هنديا.

بعد مانيزيا، انتقلت كل الحضارات اليونانية في آسيا الصغرى إلى سلطة الرومان، الذين استولوا على ساردس، حيث أتى رسل أنطيوخوس يطلبون الصلح من سيبيون. كانت شروط هذا الصلح قاسية جدا على سوريا؛ إذ أجبرت على ترك كل ممتلكاتها في آسيا الصغرى حتى سلسلة طوروس، ودفع غرامة ثقيلة ١٥٠٠٠ تالانت، وتسليم كل القبيلة، تدمير كل الأسطول عدا ١٠ مراكب والاعتراف بالحماية الرومانية. وأعطيت الأراضي التي انتزعت من أنطيوخوس في آسيا الصغرى إلى بيرغام ورودس. كما أعطت حرب سوريا ١٩٢-١٨٨ روما الهيمنة التامة على شرق البحر الأبيض المتوسط، وبدأ سفراء الدول الشرقية، أثناء المفاوضات ينادون الرومان بـ"سادة العالم" (بوليب، ٢١، ١٦، ٨). على ذلك، ولتأمين سيطرتها على الشرق، استخدمت روما أساليب جديدة خلاف ما كان في الغرب: لم تقلص روما البلدان الملحقة مؤقتا إلى أقاليم، بل تركت لهم حكومتهم، وأقامت بينهم نهجا متوازنا. وهكذا غدت دبلوماسية المحنكة العداوة والفرقة بين هذه الدول التي راحت تسودها. وهكذا، كان صوتها سيدا حيثما سمع، إذ وجهت سياسة الدول الشرقية المعقدة، في فلك أهدافها وخدمة مصالحها.

الفصل التاسع والأربعون

سحق حركات التمرد الوطني وترسيخ السيطرة الرومانية على البحر الأبيض المتوسط

(الحرب المقدونية الثالثة (ضد بيرسيه^١ Persee)

لقد عاشت روما حوالي خمسين سنة في حرب ضارية لسحق مقاومة الجماهير الشعبية في الدول والبلدان المحتلة. وفي أثناء أعوام ١٨٠ و ١٧٠، طبعت الأحزاب الديمقراطية اليونانية بكل وضوح بمعاداة الرومان، بسبب حمايتهم للأوساط الأرستقراطية والبلوتوقراطية في اليونان. وبدأت كل الأنظار تصب على مقدونيا، المكروهة بعامة حتى آنئذ، وعلى ملكها بيرسيه. وريث فيليب الخامس، الشاب ذو الهيئة الأخاذة، الماكر والضعيف، والذي كان إلى ذلك "أهلاً بقوته الجسدية، لملاقاة العقبات بهمة نشطة" (بوليب، ٢٥، ٣، ٤). كان الجميع يرونه قائد الصراع ضد النير الروماني.

جند بيرسيه جيشاً من ٣٠ ألف مقدوني و ١٠ آلاف مرتزق، وألزم السكوردريك والبستارن، من شعوب الدانوب، على قتال شمال إيطاليا؛ عقد لقاءات مع الديمقراطيين اليونان، وسوريا وقرطاجة. ورودس، الحليف الأمين حتى آنئذ للرومان، خذلتهم أيضاً. لكن أومين فقط، ملك بيرغام، الذي استمر يخشى بعث مقدونيا، كان يطلع روما على هذا التحالف الذي تشكل ضدها. وفي العام ١٧١، أعلن مجلس الشيوخ للمرة الثالثة الحرب على مقدونيا.

أما بيرسيه، خشية من دعوة جماهير اليونان للقتال، اكتفى إجمالاً بالدفاع عن أراضي مملكته. وفيما بعد، في معركة دارت رحاها في الميدان الحصين المقدوني، بيدرا، حاصر قنصل العام ١٦٨، ل. إميليوس بولس، الجيش المقدوني، الذي أباده الرومان عن بكرة أبيه خلال ساعة واحدة. كان بيرسيه قد هرب بجبن، دون انتظار نتيجة المعركة، ليحط رحاله

^١ - آخر ملك مقدوني، ابن وخليفة فيليب الخامس.

في جزيرة ساموثرات، لاجئاً إلى أحد المعابد. واستسلم للمنتصرين بعد أن تركه الجميع. فأرسل إلى روما، حيث مات أسيراً.

تفككت الدولة المقدونية إلى الأبد وقسمت إلى أربعة أقاليم مستقلة. صادر الرومان أملاك التاج، أغلقوا مناجم الذهب والفضة وفرضوا على الشعب ضريبة باهظة. والدول اليونانية التي تعاطفت مع بيرسيه عوقبت بإجراءات دموية. ففي إبييريا، دمر الرومان وسلبوا ٧٠ مدينة، وبيعوا ١٥٠ ألف من السكان عبيداً. وطافت بعثة من ١٠ أعضاء من مجلس الشيوخ، بمساعدة ممثلي النبالة المحلية، أنصار روما، في أرجاء اليونان، بحثاً عن "خائني الدولة". وأعدم من عبئ من أجل الاستقلال، وفي الأغنياء إلى إيطاليا. لم يبق من جامعة الأشيان *Acheenne*، سوى حوالي ١٠٠٠ إنسان بينهم مؤرخ المستقبل، بوليب، الذي اضطر أن يعيش حوالي ٢٠ سنة رهينة في روما). وانتزعت أملاك رودس على ساحل آسيا الصغرى، وأنزل الرومان ضربة بتجاريتها، بخلق مرفأ حراً في جزيرة ديلوس (١٦٧)، وأعطى لأثينا. وسرعان ما أصبحت ديلوس مركز تجارة بحر إيجه كله. وفي الوقت ذاته ازداد ارتباط الدول الهلينية بروما. وفي سوريا، أكد خليفة أنطيوخوس الثالث، أنطيوخوس الرابع، أن "قرارات مجلس الشيوخ بالنسبة له مثل قرارات الآلهة". وكان ملوك مصر يأتون إلى روما بضعة وتذلل يطلبون عون مجلس الشيوخ.

إن هذه السياسة الماكرة التي تمارسها أولغارشية الرومان العبودية في الشرق لم تكف، في أعوام ١٦٠ و ١٥٠ ق.م، عن تفعيل دورها المسيطر في العلاقات الدولية لحوض شرق البحر المتوسط. لكنها في الوقت عينه كانت تورث كره الرومان لدى كل شعوب الشرق، وتهيء بهذا اختراقاً عاماً جديداً.

التمرد في اليونان (١٥٠-١٤٦). الحرب ضد من انتحل شخصية فيليب

pseudo philippe **و** ضد الجامعة الآشنية *acheenne*.

كانت مقدونيا، التي سحقتها روما بدون رحمة، قد صارت الموطن الرئيس لحركة التحرر. ونشبت فيها انتفاضات ضد الحكومات الأرستقراطية التي تفرضها روما منذ السنوات السابقة، بينما نهضت مقدونيا كلها في العام ١٥٠ وتراصت حول مغامر، أندرسكوس، ابن فراء من آسيا الصغرى أدعى أنه فيليب ابن بيرسيه. أمن أندرسكوس دعم بيزنطة والحاضرات اليونانية الأخرى، ووضع قادة ثراسيا تحت تصرفه عدة سوقات. وعلى رأس جيش لجب، صرع الجحافل الرومانية التي مشت لملاقاته ودخل تساليا. لكن الحاكم الروماني كوانكتيوس ميبتلوس، الذي أرسلته روما بقوات ضخمة، أوقف تقدمه في اليونان الوسطى وحصره في مقدونيا. وأخيراً بفعل خيانة أحد ضباط أندرسكوس، تلسستس،

الذي، انتقل وكل خياله إلى العدو في أخرج الأوقات بعد أن اشتراه الجنرال الروماني، وحقق ميتلوس نصرا مؤزرا على خصمه، في بيدنا (١٤٩). سجن المغامر أندرسكوس وأعدم في روما، ولقب ميتلوس بـ "ابن مقدونيا". وفقدت مقدونيا، إيبيريا وإيليريا ماتبقى من استقلالها، وتقلصت إلى إقليم، في حكومة حاكم روماني (١٤٨). لكن طيلة ٥٠ سنة، بعد سحق تمرد أندرسكوس، انبعث ماكرون كثر في مقدونيا، ونشبت انتفاضات في أماكن مختلفة.

في وسط اليونان وجنوبها، انفجرت الانتفاضة الشعبية في العام ١٤٧. كان مركزها الجامعة الأشية. وبعيد انتصارهم على بيرسيه، سارعوا إلى حل هذه الجامعة، فاصلين عنها ما استطاعوا من المدن. وضد روما نشب عداا ضار لدى الأشيين. وبعد هزيمة فيليب-الدعي أعد دياوس وكرتوليس، قادة الحزب الديمقراطي، العصيان على الملأ، "داعين في كل مكان مجلس الشعب". وأخذ نشاط الجماهير "والصناعيين والأتباع" انطلاقا لم تعرفها الجامعة الأشية. "إذ كانت كل المدن فريسة تعصب مخيف، -كما قال بوليب، نصير روما، كانت كورنثيا هكذا أكثر من أي مدينة أخرى دون تمييز طبقي" (٣٨، ٨-١٠). ومن بليونيز ربحت الحركة بيوتيا، منطقة من طيبا، مركزها الرئيس.

حاول كرتوليس دعم انتفاضة بيوتيا، لكن ميلوس، مصلح مقدونيا، الذي واصل جمع الشمل، صرعه. فلجأ شعب طيبة كله إلى الجبل لفلا يقع بين يدي الرومان. صرع كرتوليس، اتخذ دايوس الذي استلم القيادة مكانه، تدابير اجتماعية جذرية، لدعم المقاومة الشعبية. قرر إلغاء الديون وإسقاط الضرائب المتأخرة؛ حرر المساجين وعبأ جميع القادرين على حمل السلاح. أعتق ١٢ ألف عبد، وشكل منهم وحدة للدفاع عن كورنثيا، مركز الانتفاضة. وفرض على المواطنين الأثرياء مساهمات قاسية لتسوية ميزانية الحلفاء المدمرة، الأمر الذي أغرقهم، "يقول بوليب"، في الوهن والذعر.

عمت الحركة أرجاء بليونيز، الأمر الذي ألزم الرومان بإرسال جيش آخر إلى اليونان، بقيادة القنصل موميوس، مدعوما بسوقات كريتيّة، برغامنية وغيرها. حقق المتمردون بداية بعض النجاح، لكن ضخامة قوات موميوس أنزلت بهم هزيمة نكراء. صرع دايوس، وهجم موميوس على كورنثيا واستباحها وأحرقها. ذبح السكان الذكور الراشدين، والنساء والأولاد والعبيد الذين أعتقهم دايوس، يبعوا بالمزاد في العام ١٤٦ ق.م.

دمرت كل المدن التي اشتركت بالعصيان، وحظر على أهلها حمل السلاح. ألغيت المؤسسات الديمقراطية واستبدلت بمؤسسات مثوية وأولغارشية. حلت كل الجامعات وفرضت الضريبة على بلاد الإغريق كلها. وألحقت اليونان الوسطى الجنوبية بولاية

مقدونيا، باسم أشاي *Achae*. حافظت إسبارطة، أثينا وبلغيا على شيء من الاستقلال الوهمي، احتراماً لماضيها المجيد.

كانت هذه التدابير الاضطهادية على الأرجح من صنع موميس، القائد الأعلى للجيش المحتل، ولجنة مجلس الشيوخ. لكن السلطات الرومانية كانت تدعم الأغنياء. إذن لاتنفع مسؤولية تجميد ما بقي من استقلال اليونان على السلاح الروماني بل أيضاً على كبار مالكي العبيد في البلاد، الذين يشكلون الشرائح العليا من المجتمع اليوناني، والذين خانوا شعبهم وسعوا بالاحتلال الروماني إلى ضمان النظام القائم وكل النظام المبني على الاستعباد ضد تهديد الثورة الاجتماعية.

الحرب الفينيقية ونهاية قرطاجة (١٤٩-١٤٦)

نهضت قرطاجة من جديد بعد الحرب الفينيقية الثانية، وانطلقت تجارتها الشرقية انطلاقاً ملحوظة، بخاصة مع مصر ومع مملكة البونت *pont* على البحر الأسود. ولقد أزعجت مزاحمة التجار القرطاجيين كثيراً رجال الأعمال الرومان وتجارهم، الذين كانوا بقيادة م. بورسيس كاتون. كانت خطاباته كلها في مجلس الشيوخ تنتهي بهذه الكلمات: "في نهاية المطاف، يجب تدمير قرطاجة". لذا أصرت حكومة الرومان على منع ملك النوميدي ماسنيسا من احتلال المواقع القرطاجية رويدا رويدا على الساحل الإفريقي، لأن ماسنيسا كان منذ العام ١٥٠ قد صار سيد ١٢٠ ضيعة ومدينة في ليبيا. وأتت محاولة قرطاجة للدفاع عن أملاكها ذريعة للرومان لإبادة خصمها القديم التاريخي. وأبحر جيش جرار إلى أفريقيا، وفسر القرطاجيون الإنذار، التهديد بخوض الحرب، بأن دمروا مدينتهم بأيديهم وقبعوا في أعماق أراضيهم، على بعد ١٥ كم على الأقل من الساحل، أي التخلي عن التجارة البحرية والتحول إلى شعب مزارع. وجواباً على هذه المطالب شتت تمرد شعبي. ذبح عدداً من أعضاء مجلس شيوخ قرطاجة كانوا يستكينون أمام روما ويتذللون، وأعتق العبيد وراح الشعب، بنشاط محموم، يصنع السلاح، يعمر السفن ويرمم الحصون؛ وعبيء جيش كبير يؤمن المؤونة للمدينة. واستلم قيادة الدفاع رجل محنك، هو أسد روبال.

طيلة عامين (١٤٧-١٤٩)، أثبت المهاجمون عجزهم عن كسر بطولة مقاومة الشعب القرطاجي. وكان أثر الأسلحة الرومانية نافلاً جداً بل مشبوهاً. فاتفق حزب التجار والصناعيين آنئذ مع الأوساط العسكرية والأرستقراطية على تسليم القيادة العليا في أفريقيا لأبرز ممثلي رجال الحرب، الرجل الجدير والمتقف، بوبليس كورنليس سيبيون إميليانس (ابن بول إميل)، الذي اختاره ابن سيبيون الأفريقي). ولقد بدل نشاط هذا الأخير تبديلاً جذرياً موقف قرطاجة. احتلت كل الأحياء السكنية في المدينة، وأغلق البرزخ المعزول

بالخنادق والمسائر الترابية، فجاج المحاصرون، وأخيرا حطم الجيش القرطاجي في معركة سقط فيها قرابة ٨٥ ألف مقاتل.

وفي ربيع العام ١٤٦، بدأ سيبليون هجوما رهيبا من مركز المدينة ومن ثكنة قرطاجة أو قلعتها، حيث كان قد لجأ كل من بقي من السكان.

أمر سيبليون بإحراق وتدمير العمارات الضخمة ذات الطوابق الخمسة ليتوفر له ساح معركة حر. دام الهجوم ستة أيام بلياليها دونما توقف، وفي اليوم السابع تمكن الرومان من احتلال بيرسا، قلعة قرطاجة.

خضعت قرطاجة لاقتحام وحشي، أدانه بوليبي نفسه، رغم أنه معتاد على تأييد الرومان. دمرت المدينة حتى جذورها، وأعلن مكانها "مقدسا" (منع تشييد أي مبنى). ذبح بالسيف كل الناس تقريبا، وبيع من بقي عبيدا. وخول الجنود سرقة الخاصة، وثروات الصروح العامة، وأضيفت غنائم المعابد إلى الخزينة الرومانية. وشكلت أرض قرطاجة، عدا الشطر المتروك للحليف نوميديا، الإيالة الرومانية في إفريقيا، وبعد تدمير كل المدن تقريبا، تحولت كلها إلى إقليم زراعي، وصارت المزارع القرطاجية حقولا شاسعة للنبلاء الرومان. واستراحت الأولغارشية الرومانية من مزاحمة قرطاجة.

التمرد في إسبانيا، فيرياث وحرب نومانس.

اصطدم الغزو الروماني أيضا بمقاومة ضارية في إسبانيا، حيث استمر الصراع المسلح قرابة مائتي عام^١.

بعد الحرب الفينيقية الثانية، احتل الرومان في إسبانيا (أبريا) شريطا ساحليا ضيقا، في جنوب وشرق البلاد، من البرينييه إلى جبل طارق. كانت هذه الأرض تشكل بيتيك وتوردتانيا (اليوم غرناطة والأندلس)، المناطق الأخصب، الأغنى بالمعادن الثمينة والأرقى في إسبانيا. كان الأمر عكس هذا في وسط، غرب وشمال شبه الجزيرة، المأهولة بأحرار ومحاربي قبائل كريتان، سلتبير، لوزتيان، وغيرهم، الذين مايزالون يعيشون وفق النظام القبلي. وهنا أيضا اصطدمت مشاريع الفتح الروماني بمقاومة عنيدة؛ وبخلاف جيرانها في ميديا، لم تخضع هذه الشعوب لفقدان استقلالها، فالتهمت التمردات باستمرار.

كان تمرد لوزتانيا شارة بدء حرب التحرر، "حرب النار" كما يسميها المؤرخ اليوناني (بوليب، ١،٣٥). كان راعي لوزتاني بسيط، اسمه فيرياث، الذي كشف عن قيادة ماهرة

^١ - اقرأ أبيان. التاريخ الروماني. الكتاب السادس، إيبريكا.

ويقفزة وصار بطلاً إسبانياً، وروح ومنظم هذا التمرد. وفي وقت ما، في حوالي العام ١٣٥، كان وضع الرومان في إسبانيا حرجاً جداً فاضطروا لعقد صلح مع فيرياث لصالح هذا الأخير تماماً: إذ سمي فيرياث "صديق الشعب الروماني" وبقيت كل الشعوب المتمردة في الأراضي التي احتلتها.

لكن مجلس الشيوخ رأى أن هذه المعاهدة "غير لائقة أبداً للشعب الروماني". فالتقائد العام للجمهورية في إسبانيا، أمر بذبح فيرياث أثناء نومه بسيف خونة جندهم هو (في العام ١٤١، و١٣٩ حسب مراجع أخرى). ثم أحرق جيش روماني جبار لوزتانيا في عهد دسموس بروتس وأهرق دم سكانها، لا بل احتل غاليسيا، "عند حدود العالم". وفي العام ١٤٠، كان الرومان سادة الشطر الغربي من شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث بدؤوا يؤسسون المستعمرات.

إن حرب نومانس (١٤٣-١٣٣)، في بلد محاربي سلتيير، على المجرى الأعلى لداريوس (دورو)، تقدم نموذجاً مبهرًا عن البطولة التي كان يجترحها سكان إسبانيا القدماء دفاعاً عن استقلالهم. وأحد حلقات هذا النضال، التي تخجل المعلومات الرومانية، هي هزيمة القنصل س. هستوس مانسوس في العام ١٣٧، بعدها اضطروا لعقد صلح ذليل. أدانته مجلس الشيوخ لأنه خضع للنومانتان (الذين رفضوا استقباله)، وألغيت المعاهدة التي عقدها. ولترسخ نفوذها، أرسلت الحكومة الرومانية لمصاولة النومانتان المقاتل المظفر القرطاجي، سيبون إميليان، قنصل العام ١٣٤. أحاط سيبون نومانس بخطر التفاني، معزز بالأبراج، ودمر ضواحي المدينة. ولأول شارة تعاطفية مع النومانتان، من قبل سكان محلات مجاورة، كان المحاصرون يقطعون اليدين، ويقود سيبون شخصياً حملات التأديب. وانتهى المحاصرون بالاستسلام بعد أن أضفاهم الجوع. وسقط الكثير منهم في أثناء الاستسلام. أمر سيبون ببيع من بقي حياً، حطمت المدينة، وتوزع الجيران أراضيها. لكن هذه التدابير البربرية لم تهدئ أحرار إيبيريا إلا لبعض الوقت؛ وبعد نصف قرن، شبت تمرد جديد، ليس أقل عنفاً.

وقد واجه الرومان أيضاً مقاومة ضارية من طرف الأمم "البربرية" الأخرى، في إيبيريا، دلماسيا، غول ولغوريا. فرأوا أن أي تصرف مشروع، كالحيلة والمكر والتصنع، وخرق الوعود، والاتفاقات والمعاهدات، ترغيب ورشوة بعض القادة لإرهاب الآخرين، النهب، ونفي وإبادة الشعوب. كان هذا هو المسلك الدامي الذي مشاه الرومان "للسيطرة الشاملة" تسويغاً لبناء "امبراطورية جبارة رومانية".

الفصل الخمسون

انطلاقة الامبراطورية الرومانية العبودية

في القرنين الثالث والثاني ق.م

الولايات وطرق الاستغلال في روما

كانت الفتوحات الرومانية في القرنين الثالث والثاني قد حققت أعظم الثورات في كل مجالات الاقتصاد الوطني. فالتطورات السلمية في الزراعة، التدجين، الصناعة الحرفية والتجارة، المستندة بمجملها إلى عمل المنتجين الصغار الأحرار. أبعدها إلى المقام الثاني حروب الفتوح والاقتصاص المستمرين. فالقوة الغاشمة للسلاح، للغنائم وكل مكاسب الحرب الأخرى، كانت قد صارت المصدر الرئيس لاغتناء الأفراد وكذلك الدولة.

صارت "إيالاتها" عند روما الغرض الأساسي لاقتصاد الغنائم. في تلك الحقبة، كانت كلمة "إيالة" لاتطلق إلا على البلدان غير الإيطالية، "المكتسبة بالنصر"، المعتبرة "غنيمة للشعب الروماني"، مع كل المال الحي أو الجامد، الأراضي والأرزاق، الحيوانات والناس. وفي العام ١٣٠، كانت هذه الإيالات تسع: ستا غربية -سيسياليا، سردينيا، كورسيكا، الغول سيزالين، أفريقيا، وثلاثا شرقية- إيليريا، مقدونيا (مع أشاي) وآسيا (مملكة برغام القديمة).

منذ أن يصير الرومان سادة هذا البلد أو ذاك، حتى يقع تحت نهب منظم. وما أن تنفذ السكان أمر تسليم ذهبهم وفضتهم للخزينة الرومانية، حتى يسارع الجند إلى سرقة ما تبقى. مع ذلك، لم يمارس هذا العمل-السرقه- سوى نصف الجيش، يكتب بوليبي، ويبقى النصف الآخر على أهبة الاستعداد. الجنود المعنيون للنهب يلتزمون بجلب الغنائم إلى قيادتهم، والمحامون العامون يوزعون، ليس فقط على من بقي كاحتياطي، بل أيضاً على من كان يحرس الخيم، والمرضى". (بوليب، ١٠، ١٦). حصة الأسد تذهب للضباط، وبداية للأمرأ، منهم والقناصل والحكام، وكذلك للحكام العسكريين في الإيالات الذين يسميهم

مجلس الشيوخ من هؤلاء الآخرين (بعد انقضاء ولايتهم)، ويمنحون لقب "والي"، و"حاكم"، وسلطة غير محدودة.

بعدئذ، كل المناجم، المقالع، السبخات المالحة، الورشات البحرية، المؤسسات المرفأية غير المنقولة، وأحياناً السهول الشاسعة، وبساتين الزيتون وكل المثمرات، والغابات، تصدر لمصلحة الدولة. وتباع كل هذه الأرزاق بالمزاد العلني، تحت مراقبة رجال الإحصاء والأطباء، الذين يسمون في روما "العشارون". والسكان، أو بالأصح من بقي، يتوجب عليهم ضريبة متوسطها عشر مدخولهم. يتغير مقدارها سنوياً بسبب العقود التي يعقدها رجال الإحصاء مع العشارين المكلفين بالتغطية. وأحياناً، كما في سيسيليا، تكون الضريبة عينية لإهراءات روما.

أخيراً، يرفع حكام الولايات الاحتجاجات والابتزازات التحكيمية الأخرى. وإلى مداخيل الحكومة الرومانية، المقدرة بواسطة رجال الصحة، يجب أن نضيف الغرامات المفروضة على الدول المنحدرة، التي تحافظ مؤقتاً على استقلالها. مثلاً، في العام ٢٠١، التزمت قرطاجة بدفع ١٠ آلاف تالان، أنطيوخوس السوري ١٥ ألفاً، فيليب الخامس المقدوني ١٠٠٠ والايوليون ٣٥٠ تالان، إلخ.

إن سيلاً ضخماً من الثروات: الفضة، المعادن الثمينة، الأعمال الفنية، أرزاق وبضائع من كل نوع، تسيل نحو روما من كل البلدان الملحقة.

مناهل العبودية. عدد العبيد؛ سعرهم

كان تجمع اليد العاملة العبدية يتم بنفس الطرق الإضافية-الاقتصادية، بنفس أساليب اللصوصية والإكراه والابتزاز في الأرزاق المادية المصادرة. كانت هذه هي السمة النوعية لتطور العبودية كأحد أشكال الإنتاج.

كانت روما من هذه الزاوية في وضع متميز. فقد احتلت المناطق الأكثر تقدماً من وجهة نظر الاقتصاد والأكثر تمدناً في حوض البحر المتوسط، حيث انتظم الإنتاج شكل أفضل مما كان في إيطاليا، مع يد-عاملة أمهر.

وبفعل قرب البلدان المحتلة، لم يكن نقل العبيد يشكل عقبة قاسية. لذا كان رجال الغنائم من الشرائع الجديدة من المجتمع الروماني يهدفون إلى تحويل جماهير سكان البلاد المحتلة إلى خدم وتركيز العبيد في إيطاليا. فأضحى العبد المنتج الهدف الرئيس، وبدءاً من هذا العهد أخذ توظيف اليد العاملة المستعبدة انطلاقته القصوى.

هكذا كان القانونيون الرومان يحددون المصادر الرئيسة للعبودية: "يولد أو يصير عبداً". وبالفعل، أعطى تكاثر اليد العاملة العبدية (بالولادة) نسباً كبيرة. وكان العبيد الذين يولدون في البيت يسمون ربيعين وكان ثمنهم عالياً. فهم معتادون منذ الطفولة على الاستسلام والخنوع. على ذلك، في الحالات الأغلب -يصير عبداً- من يهوى لسبب ما من الشرط الحر إلى الشرط العبد. لذا كان أناس هذه الفئة يسمون بعامية في روما ("الأسرى"). يصنف في هذه العينة أولاً المدينون المعسرون. فقانون بوتليا *poetelia* للعام ٣٦٠ لا يخص إلا المواطنين الرومان. وعبيد الذين العائشون بين الطليان، محرومون من حق الحاضرة الرومانية، وفي الولايات، استخدم العشارون بسعة هذا الأسلوب لإخضاع الناس إلى شروط الرق. وثانياً، يصير "الأيتام" عبيداً، الأطفال المتخلى عنهم، اللقطاء والمسروقون، الذي كانوا يعتبرون ملك من يغذيهم. وكان هذا أيضاً قدر الرجال الأحرار الذين يقعون في أيدي قطاع الطرق والقراصنة وبييعهم خاطفوهم.

لكن حروب القرنين الثالث والثاني المستمرة تقريباً، كانت ترمي باستمرار إلى الأسواق العريضة بقطعان المساجين، المستمرين، مصدر الرق الأساسي. يكفي أن نذكر أن بول-إميل، فاتح إيبيريا، أخضع للعبودية ١٧٠ ألف إنسان من ٧٠ مدينة من هذه البلاد. صارت تجارة الرقيق شكلاً من الاقتصاد الأليف الأكثر ربحاً. وكان طواغيت تجار اللحم البشري يتابعون الفصائل العسكرية ويشترون مباشرة في المخيمات مساجين الحرب، الذين يبيعهم وزراء المالية للأفراد، "تحت التاج" وكان هؤلاء التجار أنفسهم يشتررون من خدم الامبراطورية الأسرى، الذين يقعون في أثناء الغزوات والحروب الداخلية بأيدي الملوك "البرابرة"، المرتبطين بعلاقات سلمية مع روما.

كانت قد تشكلت عدة مراكز ضخمة، متخصصة بهذا النوع من التجارة (مسينا عند مصبات الزون، أكيلىا على الشاطئ الشمالي للأدرياتيک، ومن شرشونيز توريك). وقام أهم الأسواق في جزيرة ديلوس، حيث يباع، استناداً إلى سترابون، في بعض الأيام حتى ١٠ آلاف عبد. وفي روما ذاتها، على رصيف الـ "طريق المقدس" عند كعب الكابيتول، افتتح بصورة دائمة، معرض للعبيد، حيث تباع الدواب. كان سعر العبد المخصص للأعمال العسيرة أو الكبيرة ٢٠٠٠ سسترس، والعبد المتعلم بـ ٨٠٠٠، والطباخ الماهر حتى ١٠٠٠٠، إلخ.

بصورة دقيقة لا يمكن معرفة عدد العبيد الإجمالي في روما وإيطاليا، في القرن الأول، لكنه كان يتجاوز في الأغلب عدد الناس الأحرار. ولم يكف هذا العدد عن الازدياد مع الزمن، وفي أيام الامبراطورية، كان كثير من الأغنياء يملك ٢٠٠٠٠ عبداً، "حشود من الأتقان وقطعان من الرقيق"، كما يقول شيشرون مداعباً. انتشر تداول هذه الملكية حتى صار للعبيد الموصوفين أنفسهم عبيد. وصارت العبودية أساس الإنتاج.

أشكال وطرق استغلال العبيد

بعدة انطلاقة الاقتصاد السلعي، بلغ استغلال اليد العاملة الرقيقة عند الرومان تطوره الأبعد والأتم. يعرف فارون Varran العبد بـ "أداة ناطقة"، ليميزه عن الـ "أداة المجتررة" وعن الـ "أداة الصامتة أو الصماء". وكان المالكون الرومان، خشية الموت، الهرب أو التشويه، وغيره مما قد يصيب هذه الـ "أداة الناطقة"، لا يكتفون فقط بالبحث عن انتزاع أكبر ربح ممكن، بل استهلك نفقات حيازتهم بأقصر مدة ممكنة. ينتج من هذا أن الكدح المطلوب من العبيد يدفع إلى أبعد حدود طاقتهم الجسدية.

كان هذا الاستغلال الذي لا يرحم ينقل قبل كل شيء على العبيد الزراعيين، الذين كانوا يشكلون جمهرة العبيد الرومانيين. وفي علاجه للزراعة، التي كتبت في العام ١٦٠، يطلب كاتبون من المسؤولين زيادة أعباء العبيد، دون مراعاة الوقت ولا يوم العطلة. مرتان في العام فقط، بمناسبة أعياد رأس السنة ونهاية السنة، يتحرر العبيد من العمل. والاقتصاد الدقيق الجزئي، الذي يمكن من انتزاع من العبيد ليس فقط فضل-القيمة، بل جزء من الإنتاج الضروري لاستمرار حياتهم، كان شكلاً إضافياً من الاستغلال. وهكذا يبقونهم جاععين أبداً. كان وسطي تعيين العبد الشهري ٢٥-٣٠ كغ من الحنطة الرومانية، التي يدقونها بأنفسهم في جرن، ويصنعون منه خبزاً أو يأكلونه بشكل عصيدة، ونصف ليتر من زيت الزيتون وحقنة من الملح (كاتبون في الزراعة، ٥٦-٥٩). ويشربون عصير العنب الحامض الممدد كثيراً بالماء، يغلى خمسة أيام، ويحرك باستمرار بعصى (المرجع السابق، ١٠٤). ويستلم العبد لعام كامل كنزة، ومعطفاً قصيراً لسنتين. وتنتزع منهم ثيابهم الرثة ليصنع منها أغطية. ويتلقون قيقاباً خشبياً لعامين. وفي حقول سيسيليا الواسعة، وصف ديودور نفسه هذا النظام 'بالسفاهة، والجشع المنقطع النظير، والخبث تجاه العبيد، والخداع الحقيق'. فكان أغلب العبيد في سيسيليا مضطرين لسرقة غذائهم وثيابهم.

كان العبيد خاضعين لاستغلال لايرحم أيضاً، في مختلف صناعة الاستخراج وصناعة التحويل، في المناجم، والمقالع، وصناعة الأجر، والزيوت، والطواحين، والأفران، وورشات السيراميك والنسيج. ففي تجارة الطحين، مثلاً، كان يوضع في رقبة العبيد أطواقاً حديدية لئلا يلتهم بضمه قبضة طحين، في أثناء العمل (بلوب، الأسرى، ٣٥٧). وفي الحديث عن عمال المناجم في مصر، يقول ديودور: "لا يرتاح لالمرضى، ولا المشوهون، ولا النساء نظراً لضعفهم. الكل يعمل بدون استثناء، تحت السوط حتى يقع أخيراً، وقد هذه التعب" (ديودور، ٣، ١٢ و ١٣).

لا يمكن، طبعاً تسخير العبيد بهذا الشكل إلا بوسائل الاضطهاد والإرهاب اللانساني. وكان الضرب بقبضات اليد في الوجه كثيراً ما يؤدي لقلع الأسنان أو العينين، وهو المعاملة المتداولة. يشير الكتاب القدماء كثيراً إلى العصي والسياط، والأكف المحروقة، بالحديد المحمى حتى الاحمرار، للسارقين، والألسن-للثرائزين، في عداد العقوبات التي يتعرض لها العبيد؛ والناجون كانوا موسومين بأحرف: هارب. والأقل طاعة، العبيد "السيئون"، كانوا يرسفون بسلاسل الحديد ويوضعون في سراديب، أو يكلفون بتدوير حجر الرحى، وفي المقالع؛ وأخيراً وهذا الأدهى، كانوا يصلبون.

كان وضع عبيد المدن لدى أغنياء الرومان يختلف كثيراً عن وضع العبيد العاملين في الإنتاج. بين البوابين، والحجاب، والطباخين، والموسيقيين، إلخ. وبين خادمات السيدات، كان يوجد عدد، تشبه أعمالهم السيئة. على ذلك، كان صاحب مالك العبيد، الذي يعتني كثيراً بذويه أو أصدقائه، قاسياً جداً معهم.

العبد غير موجود بنظر القانون الروماني

لضمان هذا النظام الإرهابي والتحكمي المتسلط، عرف رجال القانون الرومان كيف يضعون صبغاً عميقة التعبير: "العبد ليس إنساناً"، نقرأ هذا في اللوائح (١، ١٤، ٤). يحدد المشرع كايوس هذا النص قاتلاً: "العبد، حيوانات وسلع أخرى". مجموعة القوانين، ٧، ١، ٣ (فقرة ١١) والمشرع الروماني الشهير أولبيان يعبر بصورة أوضح: "العبد أو أي دابة". (مجموعة القوانين، ٦، ١، ١٥، الفقرة ٣).

بهذا الحكم الأساسي، يعطي القانون الروماني سلطة غير محدودة لمالك العبد، مشبها إياه بشيء ماء، دابة. فللمالك عليه حق الموت والحياة؟ وأن يزيد بكل الوسائل مدخول عمله قدر الإمكان.

ينجم عن هذا أن العبد كان محروماً من أبسط الحقوق المدنية. وحتى اسمه السابق يختفي عند تحرره، ويفرض له لقب مستعار، تماماً كذلك التي تعطى للحيوانات، كمثبل سيروس، سيتوس، ليديا، حسب أمته الأصلية، أو هكتور، أجاكس، هياسنس، نرسييس حسب أبطاله الأسطوريين، إلخ. وثمة نقوش كثيرة على القبور تمكننا من وضع قائمة حقيقية بألقاب العبيد هذه.

فضلاً عن هذا، لا يعطي القانون الروماني العبد حق الزواج والأسرة. فليس بينهم سوى مساكنة مؤقتة، حسب إرادة وأمر المالك؛ فمن أجل اعتبارات الاقتصاد العائلي كان المشرف ملزماً أن يتزوج المرأة الخادمة. وكان أولاد هذه المساكنة ملك صاحب الأم، وليس لأهلهم عليهم أي حق.

لا يعترف القانون للعبد بأي حق في التملك. وكل ما قد يدخره العبد يستطيع السيد أن ينتزعه. أحياناً، يضع هذا الأخير بتصرف العبد ملكاً ما، أدوات مهنية، مثلاً، ليبسر له فتح ورشة، تاركاً له حق التمتع بجزء من المردود. لكن، بحسب نظرية المشرعين الرومان، يولد الوفر ويموت بإرادة السيد، وما يربحه العبد، أو وفره، يمكن أن ينتزع منه في كل لحظة.

أخيراً ليس العبد مسؤولاً عن أعمال أمام المحاكم. والتعويض الناجم عن ضرر الحق العبد بشخص ما، يؤديه السيد، الذي يستطيع التملص بتسليم العبد إلى الجهة المتضررة. وكانت القضية تعرض لزاماً أمام القضاء ويكون العبد شاهداً، وإذا خرج من هذا الاستجواب مشوهاً أو مات، يتلقى السيد تعويضاً نقدياً.

هكذا تشكل، في الامبراطورية الرومانية، بدءاً من القرن الثاني ق.م، مجتمع أخذ فيه العبد يتطور وينمو بشكل غير معروف في العالم القديم.

الفصل الواحد والخمسون

ظهور المزارع الكبيرة

وطرد طبقة الفلاحين من الأرض

تشكيل حقول واسعة في إيطاليا تحرثها يد عاملة أجيرة

اغتنى النبلاء، وأوقف الفرسان فائض مصادرهم النقدية واليد العاملة الأجيعة لحيازة الأملاك الواسعة في الأرياف، ليحرثها العبيد. وكان الفرسان الذين يفضلون الاهتمام بالربا وجباية الضرائب، كانوا يوظفون شطراً من أموالهم في الصناعة والتجارة. على ذلك، كانت السلع الصناعية تصنع في ورشات صغيرة، وتصدر إلى الأسواق الأقرب، والتاجر لا يستطيع، بالتالي، التدخل في هذا إلا لمشتري قليل الأهمية. وليس للتجارة الرومانية أيضاً، وبخاصة التجارة البحرية، سوى طابع الوساطة ولا يتيسر لها أن تزاخم تجارة شعوب شرق البحر الأبيض المتوسط. ولقد وقفت الأعمال التجارية الرومانية والإيطالية، عديمة الخبرة، ومهارتهم وعلاقاتهم مع زملائهم الشرقيين (اليونان، آسيا الصغرى، السوريين، الفنيقيين، واليهود)، عند إعادة بيع بضائع الشرق، واقتصرت التجارة البعيدة على سوريا والاسكندرية. إذن كانت التجارة، بعامه، عملاً تحف به الصدمات والأخطار، وقلّة الشرف.

بالعكس، كانت حيازة الأرض السبيل الأنسب، الآمن وحتى "أشرف" لجني المردود. فامتلاك الحقول الواسعة يشجع جشع الأشراف: وفي شخص العديد من المعمرين، المزارعين، صغار المالكين، حاضرات الجوار، التي تشكل زبن الغني العقاري، كان يحوز ناخبين تحت تصرفه، وتجعله الانتخابات يرسم درجة جديدة في سلم هرمية الحكام، وتؤمن له المقام المناسب في حكومة الولاية، وتزوده، بالتالي، بجني غنائم كبيرة.

في (الحروب الأهلية ٧، ١) يصف ولادة هذه الممتلكات العقارية الواسعة. يقول: ففي أيام الخضوع لإيطاليا، كانت الأراضي المحتلة منقسمة إلى عينتين: (١) الأراضي المحروثة،

التي أفرزت، ليتم توزيعها على المحرومين الرومان، لافرق إن بيعت أو أجرت؛
(٢) الأراضي البور، تمثل المساحة الأوسع، وتشكل "الملك العام"؛ لكل من يرغب يقدر أن
يحتل قطعة منها، على أن ينقذ الدولة سنوياً مبلغاً قد يصل إلى ١٠/١ المحصول من
المزروعات و ٥/١ الثمار؛ وكانت المخصصات المطلوبة من المستثمرين تحسب بنسبة
معينة. كانت هذه الأحكام تهدف إذن إلى إرضاء الفلاحين الصغار. "وكانت النتيجة مع ذلك
معاكسة تماماً: فالأغنياء، وقد احتلوا الشطر الأكبر من هذه الأرض الموات، وتأسيساً على
التقادم الزمني المكسب يكون الأمل لديهم أنها لن تنتزع منهم، فراحوا يضمون إلى
أراضيهم حصص جيرانهم الفقراء، إما بشرائها نقداً، أو احتلالها بالقوة، بحيث في نهاية
المطاف، يصيرون أصحاب مزارع واسعة".

لكن هذه المزارع لم تتشكل عن طريق شراء، بل باحتلال الأملاك العامة.
فبسبب الاهتمام المتزايد الذي يوليه للزراعة شيوخ العائلات الكبيرة والأغنياء، شهدنا
في إيطاليا ازدهار الأعمال الزراعية. فضلاً عن الترجمات (أبحاث القرطاجي ماغون
وعلماء الزراعة اليونان، مثلاً)، ظهرت مؤلفات عديدة مبتكرة حول الزراعة. إن أعمال
م. بورشيوس كاتون (حوالي العام ١٦٠ ق.م)، م. ترانتيوس فارون (حوالي العام ٤٠
ول. جونيوس كولوميل (أواسط القرن الأول ق.م) وصلتنا كاملة.

يقدم بحث كاتون "في الزراعة" اهتماماً فريداً، فيما يدلنا إلى المزارع الضخمة يومئذ
حيث نشأت. فشكل الزراعة الذي تبناه كاتون هو مشروع زراعي ذو طبيعة تجارية: "على
المالك أن يسعى لأن يبيع أكثر ما يمكن وأن يشتري أقل ما يمكن". لذا، عند شراء عقار ما،
ليس صحيحاً أن تهتم فقط بخصوبة التربة، بل أن تتأكد أن بجانبها تعيش مدينة كبرى،
بحر، نهر قابل للإبحار أو درب جيد ومطروق من أجل نقل وبيع البضاعة. وفي الحقول
جديدة النموذج، أبعدت زراعة الحبوب إلى الصف الثاني، وعلى سؤال: ماهي الزراعات
المربحة وغير الربحية؟ يجيب كاتون: "أولاً، الكرمة، لأخذ الخمر الكثير، ثانياً: بستان
مروي لزراعة البقول، ثالثاً: "حقل صفاصاف لجدل السلال"، ورابعاً: حقل زيتون، وخامساً:
مرعى، سادساً: أراضٍ قابلة للزراعة، سابعاً غابة". (كاتون، ١، ٧) وفي الحقول الواقعة
قرب المدن، البستنة خير الزراعات، بسبب الحاجة الدائمة لمنتجاتها.

هكذا، في القرن الثاني، بدأت الحقول تنظم بغية البيع بالجملة في الأسواق؛ وفقد
استثمارها طبيعته المغلفة والرتيبة.

كان العامل الرئيسي وعملياً المشرف على الحقل هو مختار عادة من العبيد المطيعين الأمناء، المزارعين الجيدين والمتعلمين. تأتي بعده، امرأة متزوجة وطباخة، وهي عادة زوجته. تسهر على حفظ النظام في الاستئمار، تهيء غذاء العمال والمؤونات، إلخ... يتألف الجهاز العامل أساساً من العبيد، ويشهد حساب اليد العاملة الأجيعة لوحدة مساحة محروثة (مثلاً ١٤ عاملاً لمائة مسكية من الكرمة، حسب كاتون وخبراء آخرون، ساروما) إن عبيد الفيل كانوا مرهقين بشكل مهيّن. مع أنهم لا ينفذون إلا الأعمال المتداولة ذات الخاصة المنتظمة إلى هذا الحد أو ذاك. وفي الأعمال العاجلة جداً، نجدة الحصاد مثلاً، يجبرون على استخدام العمال الأحرار، الذين يتلقون أجره عملهم ٨/١ أو حتى ٥/١ المحصول. وفي قطاف الزيتون، يتفق مع قادة كبريات رابطات عمال المقطوعة. وكانت الأراضي غير الملائمة للعمل أو تقع في أمكنة موبوءة تؤجر للمعمرين، للفلاحين الفقراء الأحرار، الذين يحرثونها مع عائلاتهم. وكانت عقود الخمس سنوات تجدد لنفس المدة. وبحث كاتون أيضاً شأه قيم، فيما يدل أن العمل الزراعي كان يشكل آنذاك قمة خسارة الأجيال المتعاقبة. وتتلخص نصائحه في موضوع الحرثة السريعة، في استخدام عدة أنواع من الأسمدة، تطعيم الأغراس الغضة، إلخ. فيما يخص الأدوات، كانوا يستخدمون في القرن الثاني، بعده، أدوات ري ضخمة وبدائية، نفس سكة الحديد، ذات المعازق، مناجل ومقابض حديد، مستخدمة منذ أيام الملوك. الجديد في هذا المجال الـ *trapetum*، نوع من المكبس الزيتي، وحجرا رحى يحركها حمار (كاتون، *ch*، ١٠)، وكانوا مايزالون يعصرون العنب بأقدامهم ويطحنون الحبوب بالأجران الحجرية. هنا يظهر بالتأكيد هذا الظرف الفريد للعمل المساجور الذي يحدده ماركس هكذا: "العبودية، وسوء المعاملة والمبدأ الاقتصادي، المطبق في أسلوب الإنتاج هذا، يتلخص باستخدام أدوات عمل صلبة وثقيلة لئلا تتلف". فالاستئمار الضخمة التي تستخدم اليد العاملة الأجيعة كانت، بالتالي، تتخبط في نفق تقني مغلق وكان تطورها يصطدم بحاجز منيع لا يمكن تجاوزه ولا عقلنته. لكن الأمر الأخطر على مالكي العبيد هو أن هؤلاء لن يكتفوا بتخريب سراً أدوات

١ - ماركس. رأس المال، لكتاب الأول، المجلد الأول. ص ١٩٦.

وحيوانات العمل. بل قد يتحول غضبهم إلى اضطرابات مكشوفة بالقوة وتفضي إلى سرقة وتدمير الحقول. فالتكهن المخيف لهذا التوقع يستشف بوضوح من كلام كاتون: "كن يقظاً مع الجوار ولا تترك عبيدك يخالطونهم. وإن كان جوارك طيبين معهم، الأسهل لك أن تبيع ما يجب بيعه واستتجار عمال... وإن حدث مكروه، لا يرضي الله، سيسارعون بطيب قلب للدفاع عنك" (الفصل ٤). إن كاتون يخشى، كما يبدو، من تسمية سريعة لهذه الداهية، التي يقض توقعها كالكابوس مضجع كبار الملاكين العقاريين ويجعل رؤوس أموالهم الموظفة في الأرض في مهيب الريح.

حرمان الفلاحين الرومان والطلليان من الأرض؛ وظهور "الدهماء المدينية".

"الاستثمارات الضخمة خسرت إيطاليا"، يلاحظ بلين، في القرن الأول. وبالفعل، دمرت الحروب المستمرة في القرنين الثالث والثاني والضرائب الاستثنائية الباهظة التمويل، وتوسع توظيف اليد العاملة الأجيعة في الزراعة، وفيض القمح الرخيص من البلدان المحتلة، دمرت كلها الاستثمارات الصغيرة وخلق في إيطاليا شروطاً ملائمة لانتزاع ملكية عدد كبير من المزارعين. ولقد استغل كبار الملاكين الدمار العام للفلاحين الرومان والطلليان، إما بشراء من الفقراء الأسهم المجاورة لأراضيهم أو بزعها بالقوة (أبليان، الحروب الأهلية ١، ٧). ويشير بلوتارك إلى أن الأغنياء استعدوا لاستتجار، بواسطة بعض السوق، أسهم الفقراء من الأرض التي انتهوا إلى احتلال شطرها الأكبر، وكان الفقراء أيضاً قد طردوا من أراضيهم.

كان هذا الحرمان الفلاحي يتطور بصورة عشوائية في مختلف أصقاع إيطاليا وعلى كل جال لم يكن قد تم بعد. كانت مناطق التجدين في ميدي (بروتيوم، لوكانيا، أبوليا) هي الأكثر تضرراً. أما في كامبانيا، لوتيوم وأتروريا، ثمة العديد من الاستثمارات الصغيرة، تهزل وتترنح، ولدى السامنيين، البلجيان والمارسيين، كانت الاستثمارات الفلاحية مازال سليمة، وفي هذه الأصقاع الجبلية، لم تتوسع الاستثمارات الكبيرة أبداً. أخيراً، في شمال إيطاليا، كان الغول السيزالين، منطقة ملكيات ريفية صغيرة ومتوسطة؛ وكان المعمرون الطليان واللاتين، الذين أخذوا أكثر من ٣٠ سهماً من أرض الغولوا المبادرين أو المطرودين، يعيشون براحة وهناءة في هذه البقعة الخصبة.

على ذلك، فقد تراجع عدد الاستثمارات الفلاحية في القرن الثاني: كان عدد أبناء

المدينة، في عمر الدعوة لحمل السلاح، الذين يملكون حسب صنف المائة ملكية عقارية قد نقص ٢٠ ألف بين أعوام ١٦٩ و ١٣٥، وبقوا لا يقلون عن ٣٠.٠٠٠.

من هؤلاء المحرومين، الذين نزع من حصتهم العقارية، بقي البعض في البلاد، بصف مستوطن مزارع، وصار الآخرون مياومين، يعملون بأجر نقدي، أو بنصف أجر. لكن أرباح هؤلاء العمال الزراعيين كان ضئيلاً جداً وموسمياً فقط. فليس مدهشاً أن يكون فكر البروليتاريا الزراعية معادياً لكبار الملاكين، وأن يحلموا باقتسام حقولهم وأرزاقهم الأخرى.

لكن، منذ نهاية القرن الثالث، هاجرت جماهير الريفيين المدمرين والمملقين إلى المدينة، بحثاً عن أسباب الحياة. وعمل البعض مهنيين؛ وفي القرن الثالث، فتح في روما العديد من المخابز، والمصانع، وأحواض لدعك الجوخ أو الجلد وحوانيت لصنع الأحذية. وبدأ آخرون أعمالاً تجارية صغيرة أو فتحوا نزلاً أو مطعماً. وثمة من عمل في البناء، في البحر، في العتالة، إلخ.

لكن الغالبية لم تجد أعمالاً دائمة ومحددة، فعاشوا مشردين، معوزين وطفيليين. كانت هذه الجمهرة من خاويي البطون تقضي يومها في الساحات العامة والأسواق بحثاً عن عمل مؤقت يكسبهم فلساً أو اثنين، ليبتلعوا ما بقيت. الكوميديون التمساء يستأجرون منهم "مصفيين"، والمرشحون للوظائف الانتخابية يقدرون أن يشتروا منهم عدد الأصوات الضروري، وشكل منهم الأغنياء ماشاؤوا من الأتباع والموالي.

في روما والمدن الإيطالية الكبرى الأخرى تشكلت شريحة من المعدمين، كان يسميهم المعاصرون باحتقار الدهماء المدنية. واستخدمت اليد العاملة الرقيقة الرخيصة في كل فروع الاقتصاد الموجودة في ذلك العهد، منعت الدهماء المدنية من أن تصبح طبقة من المأجورين الأحرار وحكم عليها بحياة البطالة والجوع دون وسيلة حياة أخرى سوى الربح العارض وإحسان الأغنياء. والنتيجة الطبيعية لهذه الشروط، أن تفقد الدهماء المدنية أهلية العمل ورغبة العثور على عمل دائم. لذا كان ماركس، الذي سماهم "بطالة الأندال" الرومان، يفرق بين البروليتاريا العمالية في أوربا الجديدة: و"البروليتاريا الرومانية التي كانت تعيش على حساب المجتمع، بينما يعيش المجتمع المعاصر على حساب البروليتاريا

الجديدة^١. ففي حركة روما الاجتماعية لم تكن الازدهار المدينة، بعكس البروليتاريا المعاصرة، لم تكن قوة مجابهة وثورة، بل كانت تلعب دوراً ضاراً بشكل استثنائي، لكبح التقدم الاجتماعي.

^١ - ك.ماركس، ١٨ برومير اللويس بونابرت، باريس، دار النشر الاجتماعية الألمانية ١٩٢٨،

الفصل الثاني والخمسون

الثورة الثقافية في روما منذ نهاية القرن

الثالث حتى بداية القرن الثاني

لقد ترافقت التبدلات الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عن تحول روما إلى امبراطورية عظمت عبودية بحر-أوسطية مع تغير ليس أقل عمقاً بكل أوجه الحياة الرومانية، ثورة حقيقية في حقل الحضارة المادية والروحية.

قبل كل شيء، صارت روما مدينة ضخمة، من حيث امتدادها، ومن حيث عدد سكانها. تدفق الناس في أرجاء إيطاليا كلها، وتوافد إليها الأجانب ليقيموا فيها، يونان، سوريون ويهود وبخاصة. وأضحى عاصمة كل عالم البحر المتوسط. شيدت فيها صروح عامة رائعة وبيوت خاصة، رصفت الشوارع بالحجارة، وبلطت الاسواق والميادين، أقيمت سدود جديدة على التبرير. إنما في الوقت ذاته، وحتى من حيث المظهر الخارجي، كانت روما تشهد بصورة جلية التناقضات العميقة التي كانت في أساس هذه الامبراطورية الشاسعة التي خلقتها. فإلى جانب أكواخ الدهماء القذرة، بدأ المقاولون يبنون بيوت سكن رخيصة أحياناً من ثلاثة طوابق، عدا القبو. بنيت بالأجر على هيكل خشبي، فتنهار أحياناً تحترق كثيراً. كانت الطوابق تجهز بسلام ضيقة وتقسّم إلى حجرات صغيرة محرومة من أسباب الراحة، حيث تتكدس الأسر الفقيرة. والقمامة، المرمية في الأدوار والشوارع، كانت تشكل بؤراً عفنة تنشر الأوبئة. ويجوار هذه الأكواخ الوسخة، تدفقت الأحياء حيث يشيد الأغنياء الجدد داراتهم (بخاصة في البالاتان، وهي الأصل لكلمة قصر *palais*)، حسب النمط الهلنستي، بأعمدته وحدائقه ونباتات الزينة المعرشة والمقلمة بأشكال فنية. فيها الشقق المريحة، غرف الحمام، بلاط الموزاييك، الجدران المغطاة بالرخام الثمين واللوحات الجدارية، الأثاث المذهب، والعاج، إلخ. إن الدارات المدنية "لأرستقراطية الرومانية، المشهورة في كل الأنحاء بروعتها (مثل تيبور واليوم تيفولي) ومحطات الاستحمام تتميز

بترف بأذخ. لقد ترك النبلاء الرومان أنفسهم يغرقون في الملذات الجسدية. دونما تردد أمام أي نفقة للاحتفال حيث يعيش المدعوون الشراهة والنهم المنفلت والسكر بدون حدود. ولقد اختفت نزاهة وتكشف الأخلاق القديمة: بثيابها المتواضعة التي كانت ترتديها النساء المهيئات، وحل محلها السجف والفرو والديباج، وأتى أسلوب المظلة ومراوح ريش الطاووس، والتسريحات النسائية المبتكرة. آنئذ بدأت شهرة النمش، ومذابح الحيوانات المتوحشة من أجل جلدها وشعرها، والمصارعات الدامية، صارت مشهدة عاما مألوقا. حتى ذلك العهد، لم تقبل هذه المقاتل إلا في المآتم، كواحدة من مخلفات الضحايا البشرية. لكن مع هذه العيوب الغريبة بدأت تنتشر أيضا القيم الثقافية للحضارات الأجنبية اليونانية بخاصة. "اليونان الأسيرة، كما لاحظ هوراس فيما بعد، غزت قاهرها المتوحش وفنتت بالفنون الريفى لاتيوم" فمنذ بداية القرن الثاني ق.م صار المربي اليوناني الملحق الضروري لكل بيت روماني.

بتأثير هذا الشغف بالهيلينية بدأت تتشكل ثقافة جديدة رومانية منذ نهاية القرن الثالث وحتى بداية القرن الثاني ق.م.

إن المربي العبد يوناني الأصل، تيرانتان ليفيوس أندرونيوس هو أيضا أي الأدب الروماني؛ فقد ترجم إلى اللاتينية أوديسة هوميروس (حوالي العام ٢٤٠ ق.م) وكتب بالأسلوب اليوناني أولى الكوميديات والتراجيديات الرومانية.

لكامبانيا، المطبوعة تماما بالطابع الإغريقي، تدين روما بشاعرها الثاني سنيوس نافايوس، كاتب أول قصيدة ملحمية لاتينية "الحرب الفينيقية" (بسبعة كتب). وترجم نافايوس كوميديات وتراجيديات يونانية وكتب ("أثواب النبلاء"، هكذا سميت لأن شخوصها كانوا يرتدون، على الطريقة الرومانية قفطانا. في أحد أعماله، نقرأ هذه العبارة: "لقد أحببت الحرية أبدا وأبدا وضعتها فوق المال". كان نافايوس، الطامح لأن يصير "أرستوفان الرومان"، يسخر من عيوب بعض الرجال العتاة، الأمر الذي كلفه حريته فرمي في السجن؛ والطرده من روما، والموت في المنفى (حوالي سنة ٢٠٠).

ونفس الروح الديمقراطية تشف من أعمال بلوت (تيتوس ماسيوس بلوتوس، حوالي ٢٥٤-١٨٤)، مهاجر فقير من أومبريا.

فبعد أن جرب، جميع أنواع المهن في روما، صار بلوت، الذي دخل المسرح بشخص

خادم، صار هو نفسه كاتب كوميديات شعبية بحتة (وصلنا منها ٢١ ملهاة). انتقل أثرها إلى اليونان، لكن مع الإدعاء أنها تسخر من "أخلاق الرومان" تفصح في المجال أنها ليست غريبة على روما. فقريحتها الساخرة تستوحي بخاصة بعض مظاهر المجتمع الروماني الجديد: من حيث العسكرية المظفرة في (الجندي المتبحر)، والتعطش للثروة في (القدر) وفي الوقت ذاته يشيع حماسا ملتهبا تجاه الفقراء والعبيد العدو ستيشوس *stichus*.

لكن الرجعية السياسية، التي بزغت في روما في النصف الأول من القرن الثاني، كان لها شعراؤها أيضا. كان أنيوس كالابري الأصل، الذي وصل إلى روما في العام ٢٠٤، الشاعر الغنائي للأرستقراطية الرومانية؛ وكان يسخر على المكشوف من "نافيوس الفظ" ويطنّب في إطراء سيبليون الإغريقي. وفي شعره، كان يمجّد الأبطال الرومان، من إيني *Ene* حتى فابيوس ماكسموس، "المماطل"، ويكره الشعب. لكنه تحدث أيضا، شعرا عن نظريات الفلاسفة الماديين والعقلانيين اليونان (إيشارم وأقيمير). مات في العام ١٦٩، حاصلا على حق ابن المدينة. ولقد رفع له آل سيبليون نصبا في مقبرة أسرته.

ابن أخ أنيوس، اشتهر الشاعر والرسام باكونيوس (٢٢٠-١٣٠) بتراجيدياته التي اقتدت بأخيل، سوفوكليس وأوربيد، لكن الشعب ظل غير مبال بأعماله. وهو لم يهتم بأعمال الشاعر الكوميدي بوليوس أفير، أحد أنصار الاتجاهات الأرستقراطية (حوالي ١٩٠-١٥٩)، الذي حرره عضو مجلس الشيوخ ترانتبوس لوكاموس. وفي كوميدياته (كلها ست)، كان ترانس شارحا أذواق وروح النخبة المستنيرة من المجتمع الروماني. وهو صاحب هذا القول الذي صار مثلا: "أنا إنسان؛ إنساني لأشيء غريب علي".

الفنون الجميلة بدأت تزدهر، بفضل الروائع الكثيرة المقتبسة من المدن اليونانية، والداخلية إلى روما بخاصة بواسطة بول-إميل (١٦٨) ول. موميوس (١٤٦). ومنذ انتشر أسلوب الأعمال المختارة، ولما كانت الأصول لاتفي بالطلب بديء بنسخ النماذج اليونانية (أبولون بلغدير واحد من هذه الأعمال). كانت لوحات المعارك هي أهم ما طلب من الرسامين اليونان. ثم صار للرومان رساموهم. ومنذ العام ٣٠٤، أبدع أحد أحفاد فابيوس بريشته صورة لمعبد "الخلاص"، ومن هنا أتى لقب بيكتور الذي انتقل إلى ذريته.

اشتهر الشاعر باكونيوس أيضا باللوحة التي رسمت في معبد هرقل، من كل أعمال القرنين الثالث والثاني لم يصلنا للأسف سوى شطر صغير من قبر يعود للقرن الثالث. مع

أننا نعرف الكثير عن النحت والنقش الروماني لذلك العهد. وقد ولدت عادة صبب قالب شمعي لقناع المتوفين، عادة إبراز سيمائهم، في الحجر أو الرخام، مع الإلحاح على الشبه الدقيق، مع كل تفرداتهم وحتى عيوب الوجه. ومن هنا كان فن الرسم النصفى الروماني بواقعية أخاذة. ومن أنصاب رائعة من ذلك الزمن لم يبق سوى بعض البقايا من البازليك^١ الإملياني *basilique emilienne*، الذي أقيم في العام ١٧٩.

وبتأثير الفلسفة اليونانية تغيرت المفاهيم الساذجة السالفة أيضا، على الأقل في أعلى مراتب المجتمع. كان لسيبيون إمليان صديق هو الفيلسوف اليوناني بانتيوس الذي، كالمؤرخ بوليبي، كان يرافقه في حملاته. فكان انصار الموروث الروماني القديم، المصطفون خلف كاتون، عاجزين عن منع تغلغل أفكار الفلاسفة اليونان. وكذلك كان عبثا تصرف أعضاء مجلس الشيوخ الذين نفوا غير مرة الفلاسفة اليونان من إيطاليا.

بدأ التاريخ الروماني يتطور بدءا من نهاية القرن الثالث. فكتب عضو مجلس الشيوخ فابيوس بكتور حوالي العام ٢٠٠ أول تاريخ روماني، منذ تأسيس المدينة حتى زمنه، استنادا إلى التسلسل التاريخي الرسمي، وتقاليده الأسرة والمصادر الأخرى. كان هذا العمل الذي يقترح أن يدل اليونان إلى جبروت الدولة الرومانية، قد كتب بلغتهم. وكتب "أغلب الحوليين" الآخرين، الذين أتوا بعد فابيوس، ل. سانسوس، المانتوس (مقاتل في الحرب الفينيقية الثانية) وبستونيوس ألبنيوس (حوالي العام ١٥٠)، كتبوا أيضا باليونانية. بينما كتب كاتون باللاتينية "أصوله"، التي وصلنا أجزاء منها. سرد في هذا التاريخ ولادة روما وأولى عهودها، والعديد من الحاضرات الأخرى، مستندا إلى التسلسل التاريخي، والنقوش والآثار الأخرى.

يقول، معارضا المبالغة في الأهمية التي ينسبها المؤرخون للرجال العظام: "ليس القنصل بول هو من صرع بيرسيه، بل الشعب الروماني".

كان من الطبيعي أن تبدأ العلوم الطبيعية والرياضية بالازدهار أيضا في روما، ففي هذا العصر. فبدون معارفهم بالرياضيات، بالميكانيك، لما استطاع المعماريون والمهندسون الرومان أن ينجزوا أعمالا ضخمة (البازليك، أقنية الري، الجسور)، وأن يعمروا سفنا من

^١ - مبنى روماني مستطيل في أحد طرفيه جزء ناتئ نصف دائري-المترجم.

مجانيف خماسية، إلخ. لكننا لانعرف اسم أي رياضي، فيزيائي أو ميكانيكي روماني من ذلك العصر. معروف فقط أن ضابطا رومانيا تنبأ بكسوف الشمس في العام ١٦٨.

كما تمت ثورة عميقة في مجال الدين. فمنذ القرنين السادس والخامس ق.م. مع تطورات الزراعة، بدأت الإحيائية البدائية تتبلور في عبادة الآلهة التي ترأس أعمال الحقول. واحتلت قوى الطبيعة، المؤثرة في عمل الفلاح أهمية واسعة: إذ صارت لدى الرومان "الآلهة الأبوية". فكان فيفكتور وريبارتور، إلهي الحرث، أنستور، إله البذر، بروسربين، إلهة النباتات، فلورا، إلهة الإزهار، ماتورا، إلهة النضج، إلخ. كان يرأس هذه الآلهة العديدة سيدة الفلاحين ثلاثية الآلهة (كلية الخير، كلية العظمة): جوبتير، إله السماء، العاصفة والمطر، وفيما بعد إله الخمر، مارس، إله الحقول، والأعمال الزراعية وفي الوقت ذاته إله الحرب أما كيرينوس، لم تحدد مهامه بعد بوضوح.

كان الخط الأهم في هذه العبادة العامة الرومانية هو خاصية العقلنة العميقة، العادية، وفي غاية النفعية. فبرفع الصلاة لهذا الإله أو ذاك، مسعى لإقامة علاقة معه تعاقدية، إلزامية لكلا الطرفين: عطاء بعطاء (*do at des*) يكون الانطلاق من هذه الفكرة إن كانت كل الصيغ المتوجبة في إتمام العمل الديني مراقبة بدقة وكل الشروط مصاغة بوضوح، وهكذا يتم الضمان الذي تلتزم به الآلهة، هي الأخرى، وتقدم التزاماتها. إن هذه الصياغة الطقسية للعبادة الرومانية القديمة يجب أن تطمئن المزارع الصغير، عبد ارتباطاته، الذي كان بعامة روماني من الزمن الغابر.

إنما منذ عهد السيطرة الأتروسكية، مع انطلاق المهن والتجارة في روما، وإقامة علاقات أمتن مع الأجزاء المجاورة في إيطاليا، أخذ عدد متزايد أبدا من "الآلهة الجدد الأجانب مكانا في الدين الروماني.

إن جونون ومنيرفا اللذين أتت عبادتهما من أتروريا، مع جوبتير، يشكلون ثلاثية الكايبيتول، وصاروا الآلهة العليا للبانتيون^١ الرسمي. وحوالي العام ٥٠٠، بدأ تعبد اليونان لهرقل وتابعيه ديونسوس وبوللويس، أبولون وأرتميس (ديانا)، يتغلغل في روما. وتعبد ديميتير وتابعيه ديونسوس وكوري، الذين سموا الآلهة الرومانية القديمة المقابلة، سيرس،

^١ - مجمع الأرباب عند القدماء - المترجم.

ليبر وليبرا، وفدت من سيسيليا، وهذا ما يعلل شراء القمح المستمرة من هذه الولاية لكفاية حاجات روما. ومعبدهم المبني في العام ٤٠٦ على رابية أفانتان، وصار قلعة للدهماء، بني على النمط الإغريقي، وكان التعبد فيه مشهورا " على الطريقة اليونانية *a'la grecue*، ومع راهبات يونانيات: في ذات الوقت، انتقلت عبادة أبولون إلى روما، طبعا من كومس - إحدى المستعمرات اليونانية، و"كتب العرافة" وفدت كمجموعة إرشادات من النبيات الشهيرات اليونانيات.

كان الدين الروماني يقدم بالتالي، في منتصف القرن الثاني، من اضرب العناصر القديمة والجديدة. كانت الشرائع العليا من المجتمع قد صارت لامبالية، بل متشككة بقضية الدين. ورجال دولة هامون، في ممارسة وظائفهم، يتهمون على المأ على تكهنات (س.فلامنوس، مثلا). وفي أوساط الشعب، في روما كما في إيطاليا، شكلت عدة طوائف يونانية (أورفست، ديونزيك، إلخ)، أخويات سرية، على نمط كاهنات باخوس اليونان، التي تهودت أو تراجعت عن الوثنية.

كان الشيوخ الرومان ينجحون أحيانا، وهذا صحيح، بإثارة ردود فعل وحشية عارضة ضد هذه الهرطقات، مثل دعوى بكشنال للعام ١٨٦، التي قضت على سبعة آلاف إنسان. لكن أي تدبير بوليسي لم يكن قادرا على صرف الناس عن تحطيم نير دين الدولة. فلم تعد الحكومة الأولغارشية الرومانية تملك هذا الكابح الروحي الذي كان يشكل أحد سبل السيطرة على الفئات السفلى من الناس الأحرار.

الفصل الثالث والخمسون

بدء الحركة الثورية لدى العبيد

المتوردون العبيد في إيطاليا في أثناء النصف الأول من القرن الثاني ق.م كان تأسيس امبراطورية عبودية واسعة، وما ولدت من علاقات اقتصادية واجتماعية، قد خلق في روما وفي الولايات، في بداية القرن الثاني ق.م. جملة من التناقضات الاجتماعية الحادة.

الأولى، التناقض الأساسي، كان التناحر بين العبيد وسادتهم، الذي احتدم بخاصة منذ بداية القرن، بسبب تنامي استخدام اليد العاملة الرقيقة.

فمنذ العام ٢٠٠، ومع مضاعفة الحقول الكبرى، أخذت حركة الرقيق طابع التمردات المحلية بسعة هامة، اشترك بها مئات بل ألوف العبيد، لكن على مدى إقليمي محدود نسبيا. الانفجار الأول من هذا النوع أشار إليه تيت-لايف (٣٢-٢٦)، حوالي العام ١٩٨، في المستعمرة الرومانية سينييا، من لاتيوم. كانت هذه المستعمرة المقر الرئيس لمجموعة رهائن قرطاجية من عائلات متميزة، كانوا يعيشون فيها عيشة البذخ، وكانوا محاطين بعدد ضخم من عبيدهم، طبعا الإفريقيين. كان هؤلاء الأخيرون قد وضعوا هنا لمهاجمة، في يوم عيد، المسرح، حيث يجتمع سادتهم مع سكان سينييا الأحرار. وبعد ذبح الموجودين، اقترحوا الوصول إلى مرفأ سيرسيوم المجاور، ليحتلوا سفنا تحملهم إلى وطنهم. فشلت المكيدة، لأن الخونة وشوا بهم إلى سلطات العاصمة. جمع حاكم روما ٩٠٠٠ جنديا، ووصل في الوقت المناسب إلى سينييا: سلم عدد كبير من العصاة على الفور للتعذيب، وأسر فيما بعد الـ ٥٠٠ الذين هربوا. إن مؤامرة عدد من الرجال الشجعان، يعينون لحظة المبادرة، ويرسمون العودة إلى الوطن، والخيانة المفضية إلى فشل المشروع، -هي الشروط المميزة لعشرات الانفجارات من هذا النوع.

يذكر تيت-لايف (٣٦، ٣٣) انتفاضة أخرى أضخم، نشبت في العام ١٩٦، في

أثروريا، إحدى الولايات التي يهيمن فيها كبار الملاك الريفيين. كان المتمردون قد نجحوا بتشكيل جيش حقيقي، ألزم السادة بإرسال جيش كامل لمقاتلتهم. انهزموا نتيجة معركة نظامية، قتل أكثرهم أو سجن، صلب قادتهم، عوقب الآخرون أو أعيدوا إلى سادتهم. المقصود هذه المرة عصيان جاد حاسم جدا بأبعاده، في الجوار المباشرة لروما.

وفي العام ١٨٥، انتفض رعاة أبوليا ولم يقيموا إلا بعد جهد: "كانوا يغيرون على الطرقات والمراعي العامة" (تيت-لايف، ٢٩، ٣٩)، وقد استطاعوا عزل الميدي وألزموا اللواء التأديبي المرسل لقمعهم أن يرحل عن تارانت. وبعد سحق العصيان، أعدم الحاكم يوستوميوس ٧ آلاف عبد متمرّد، لكن الحكم لم يستطع أن يقضي على الجميع لأن "عسدا كبيرا منهم قد هرب"، واستمروا يقاومون بضراوة. وسلم الباقي للتعذيب، فضلا الأذى الضخم الذي لحق بمالكهم لخسارتهم كمنتجين.

لقد أثرت عصيانات العبيد، في بداية القرن الثاني، على أقاليم عديدة، وفي هذه الانتفاضات، كانت مقاومة الجماهير الرقيقة أكثر فأكثر جراءة وتلازما، رغم محافظتها على الطابع المحلي، إنما في النصف الثاني من القرن الثاني، نشبت حركات بعنف لامتثال له، شمل ولايات بكاملها وهدد بالتحول إلى حريق شامل. هكذا كانت تمردات عبيد سيسيليا، أتاكيا وإقليم آسيا، التي زعزعت بعمق كل العالم الرقيق.

تمرد عبيد سيسيليا الأول (١٣٨-١٣٢). تمرد أرسطونكوس في برغام

كان تمرد العبيد الأول، في سيسيليا، الذي دام ٧ سنوات كاملات، كم قال أورو "ذبالة مشتعلة نشرت حريقا في أمكنة عديدة". "أبدا لم تنتشب انتفاضة عبيد تماثل التي انفجرت في سيسيليا"، يكتب ديودور (٢٥، ٢، ٣٥)، مرجعنا الرئيس في هذا الحدث.

كان نهج الاستثمارات الضخمة التي أحيها العبيد ذا جذوة قديمة في سيسيليا حيث بدأ يتطور منذ أيام الاستعمار اليوناني والقرطاجي. وإلى سيكيل *Sicules* الأصليين أضف اليونان جموعا من العبيد المستوردين واشتروا الكثير من العبيد السوريين، العمال المهرة والحراث الطيبين.

"كان في سيسيليا ما لا يحصى من العبيد، يقول ديودور، حتى أن الناس الذين يسمعون هذا القول يرفضون تصديقه ويرون أنه يبالغ". ولما سقطت سيسيليا بيد الرومان، لم يطرأ على هذه المجالات الواسعة من اليد العاملة العبدية سوى تبديل السيد. (كان أغلب مالكي

العبيد فرساناً رومانيين"، يكتب ديودور)، لكنهم استمروا في التطور متبعين الخط ذاته. كان عبيد سيسيليا ضحايا استثمار بربري، حتى في الزمن القديم. كانت حبوب، وخمير، وزيت زيتون الحقول السيسيلية، المصدرة إلى روما، والمدن الإيطالية الأخرى، وعن طريق كورنثيا، تباع في بلوبونيز، بأرباح ضخمة. وكان المالكون يدفعون إلى التوفير في نفقات الإنتاج ليوزعوا ما استطاعوا الغذاء والثياب إلى عبيدهم الذين كانوا يتحولون إلى قرصنة الدروب ليؤمنوا عيشهم.

وفي الوقت ذاته، كان نهج الزراعة الضخمة يوطر العبيد في تنظيم مختص، يدفعهم بسهولة لأن يصيروا ثوريين، ليناضلوا ضد سادتهم المكروهين.

بدأت الحركة في سيسيليا أيضا بمكيدة بين العبيد الذين يعملون في حقن المالك الكبير داموفيلوس الذي اشتهر بهذا الاسم وكذلك زوجته ميغاليس لقسوتهم الشاذة مع العبيد. كلنت اراضي داموفيلوس تقع في الشطر الأخصب من سيسيليا، قرب هينا.

كان العصاة بداية قلة، حوالي ٤٠٠، لكن قائدهم كان يشبه إنسانا نابعا من الناس. كان سوريا اسمه أونوس ("المضحى"، لقب نموذج للعبد)، مهرجا مأخوذا من لدن أحد كبار السادة العقاريين في المنطقة، وعرف كنائب "للإلهة السورية العظمى". اختار العبيد أنسب وقت، الحصاد على أشده في العام ١٣٨، فصل تجمعهم في الحقول، فاجأوا مدينة هينا بالسلاح ووقف إلى جانب عبيد المالكين الذين سلخوا معهم سلوكا إنسانيا. وأعادوا إلى كاتان تحت الحراسة ابنه داموفيلوس، الذي كان قد توسط لصالحهم.

توبع مثال هينا مرارا في مدن سيسيليا الشرقية الأخرى. وفي أغريجنت، مركز إنتاج الزيتون، كان على رأس التمرد سانس الخيل كليون، الذي كان قد انصرف في فتوته للصوصية في جبال توروس، وجمع حشدا من ٥٠٠٠ رجل. وانتفض العبيد أيضا في مسينا، ليوقتوم، كاتان وتورومانيوس. وصل عدد المتمردين، حسب ديودور، حتى ٢٠٠ ألف رجل. وكان موقف الدهماء المعسرة في المدن منذرا بالخطر. "كان الناس المساكين، يقول، دون إبداء أي تعاطف مع الأغنياء، يبتهجون؟" رجال من العامة، عبيد يغزون الأرياف، ويحرقون الدارات.

كانت حاشية الحكام على رأس القوات المحلية عاجزة عن كبح هذه الحركة التي احتلت سيسيليا الشرقية كلها، ولم يستطع جيشان أرسلتا من إيطاليا أن يقمعوها. حكم العبيد

العصاة لأربع سنوات الشطر الأعظم من كل سيسيليا، حيث أسسوا دولتهم، وعاصمتها هينا، وحيث عاشوا، حسب قول ديودور، "في ازدهار تام".

كان تنظيم دولة العبيد هذه يثير الفضول بشكل استثنائي. كان يقدم ترتيباً مبتكراً لنظام عاهلي وديموقراطي. كان العصاة وبينهم كثير من السوريين قد "انتخبوا" قائدهم أونوس، ملكاً باسم أنطيوخوس، الذي اشتهر بعدة ملوك من الأسرة الحاكمة السورية، التعبير الساذج عن سلطتها المطلقة وجبروتها. إنما، رغم أن هذا "الملك" المنتخب كان يرتدي، حسب العادة، ثوب الملوك ويعتمر تاج الملوك، وله "ملكة"، لم يكن أبداً عاهلاً على النمط الهليني. "باعتباره ملك دولة المتمردين، جمع أونوس مجلس الشعب"، يقول ديودور. وكانت تعمل إلى جانبه أيضاً محكمة شعبية، تقيم في المسرح، أكثر أعضائها من المتمردين؛ كانت تشكل إن صح التعبير صيغة أخرى من الجمعية الوطنية، من طبيعة قضائية. كان إلى جانب الملك "مستشارية" مؤلفة من أبرز الشخصيات بين العبيد: السيسيلي كلبيون، الذي رفع إلى جنرال أعلى، وأخوه كومانوس، واليوناني النابغة آشيسوس، وكثير غيره. كان أكثر ما يفاجئ مالكي العبيد، هو حلول الوئام بين هؤلاء الأخيرين، ورغم أنهم من أمم عديدة، اعترفوا طوعاً بسلطة أونوس.

ما يشد الانتباه أيضاً التدابير الاقتصادية التي اتخذتها "مملكة العبيد" هذه، الأمر الأهم - يؤكد ديودور بدهشة (٤٨،٢،٣٥) - هو أن العبيد العصاة، يهتمون بالمستقبل بحكمة، لم يحرقوا الدارات الصغيرة، لم يحطموا الأدوات ولا المون التي كانت بين أيديهم ولم يمسوا بسوء أولئك الذين استمروا يحرثون أرضهم، "حالمين طبعاً بالعودة هم أنفسهم إلى شسوط الفلاحين الصغار الأحرار والمستقلين، بعد توزيع الاستثمارات الضخمة. وفي المدن، "أمر أونوس بعدم إيذاء صنّاع الأسلحة، الذين أرسلوا إلى العمل، بسلاسل الحديد"، من أجل حاجة جيش المتمردين.

كان خطأ الحركة الأخطر، الذي سلمها إلى هزيمة محتمة، هو طبيعتها الدفاعية، وعجزها عن الخروج من الإطار المحلي وإقامة علاقات مع الأماكن الأخرى لتمرد العبيد التي تفجرت في نفس الحقبة في الامبراطورية الرومانية. يتحدث ديودور عن مؤامرة من ١٥٠ عبداً في روما، وعن حركة اتبعت في أتيكيا، اللتين شارك بهما قرابة ألف عبد، من المتمردين في ديلوس وغيرها.

أهمها، حركة أرسطونكوس، نشبت في العام ١٣٣ في برغام، التي كانت منذ عدة قريية "الولاية الآسيوية". ذكرها ديودور، سترابون، وبعض كتاب روما الآخرين اللاحقين، وبعض النقوش التي تتحدث عنها وصلتنا. يقول ديودور إن آسيا "شهدت أحداثا كذلك التي شبت في سيسيليا" والخوف من العبيد الذين دفعتهم استبدادية سادتهم إلى آخر الشوط أغرق حاضرات عديدة في كوارث دهياء". وإلى عبيد بيرغام انضم "غير-المالكين"، العمال الأحرار في الورشات الضخمة الملكية لصناعة السجاد والرق Parchemin وكذلك الفلاحون، والمزارعون الصغار في الأطيان الملكية. كان على رأس الحركة أرسطونكس "سارق السلطة الملكية تعسفا" (كان الأخ غير الشرعي لأتال الثالث Attale III، الذي أوصى بمملكته للشعب الروماني). كان أرسطونكوس قد وعد المتمردين بإقامة في برغام هليوبوليس المثال ("مدينة الشمس")، محققا فكرة الرواية الطوباوية الشعبية جدا في ذلك الزمان، التي كتبها بهذا العنوان إيامبولوس، وصف هذا الأخير، "هليوبوليس"، جزيرة خيالية سعيدة، يعيش الناس فيها بمساواة، بأخوة وحرية تامة؛ حيث كان يعمل الجميع بمحض إرادتهم من أجل الخير العام ويوقفون أوقات فراغهم للأفراح المتوفرة للجميع، بهجة الطبيعة، والفنون والعلوم (اقرأ ديودور، ٢، ٥٥-٦٠).

تيسر لأرسطونكوس أن يقنع شريحة ضخمة من المملكة القديمة في برغام، رغم أنهم توحدوا ضد كل القوى التي تهدد سطوتها الثورية الاجتماعية الناشبة: مدن آسيا الصغرى الثرية، على رأسها إفيز، نيكوميد، ملك بيبثيني ومستشار بوليوس كراسس، المرسل من روما، على رأس جيش جرار. أرسطونكوس هزم كراسس المنحدر في معركة ضد المتمردين "أبناء مدينة الشمس".

إن طبيعة هذه الحركات المشتتة، الجبارة بذاتها، خولت روما أن تهزمها الواحدة بعد الأخرى.

ففي العام ١٣٢، تولى القنصل بوليوس روبلوس، الذي اشتهر في روما بقسوته، القتال الحاسم ضد مملكة العبيد في سيسيليا. وبعد حصار طويل، لما ألزم الجوع المدافعين

١ - من Peregame، حيث أقيم لأول مرة، كما يقال، أول مصنع للجلود المعدة لكتابة المخطوطات أو الطباعة. وأخذ ألقاب النبلاء: الألقاب لا تزيد قيمة الإنسان - المترجم -.

الذين يبلون مقاومة يائسة، يأكل لحوم بعضهم، احتل بخيانة تورميوم، أحد الشوارع المتمرده الرئيسة. كان المساجين، والمعتقلين، يرمون من أعلى الصخور. "مشى روبليوس ضد هينا... وهذه أيضا لم يستطع أن يأخذها إلا بالخيانة، لأن موقعها جعلها منيعة" (ديودور، ٣٥، ٢، ٢٢). وقتل كليون وهو يحاول الهرب. حوالي ألف رجل من النخبة، كانوا حرس الملك أنوس، دافعوا عنه حتى آخر رجل منهم، و"أمام النهاية الحتمية، قتلوا بعضهم بسيوفهم". ومات أنوس في سجن روماني. يقول أروزر إن ابلبيوس قتل في هينا أكثر من ٢٠ ألف عبد.

في العام ١٣٠، انتهت روما من قمع تمرد أرسونكوس. أكره هذا الأخير، الذي هزمه أسطول إفيز، على الانسحاب إلى الداخل، حيث حاصرت قوات القنصل بربينا، التي ضمت قوات ملك بيتيني وكابادوس. وسحقت الانتفاضة. سجن أرسونكوس وأرسل إلى روما حيث جندل في سجنه (١٢٩).

تمرد العبيد الثاني في سيسيليا (١٠٤-١٠١ ق.م). تمرد سوماكس في

البسفور

رغم القمع والاضطهاد البربري، شبت انتفاضة ثانية عامة للعبيد في سيسيليا بعد ثلاثين سنة، واستمر أوارها ثلاث سنوات.

بدأ التمرد في العام ١٠٤، مدفوعاً بالأعمال غير العادلة للوحش حاكم سيسيليا، لسينوس نرفا، الأعمال التي أججت حقداً عارماً لدى العبيد. بناء على أمر مجلس الشيوخ، الذي سببته شكاوى الولايات والملوك المتحالفين، بدأ نيرفا حملة، تهدف إلى البحث عن العديد من الناس الأحرار الذين هوا إلى حماة العبودية لحسرمهم عن وفاء الدين، والذين كانوا يعيشون في "عائلات" رقيقة لدى كبار الملاكين وفي السرايب؟ وبعد أن حرر حوالي ٨٠٠ من بينهم. استعبدوا ظلماً وأيقظ الأمل لدى العديد من العبيد الآخرين، أقفل الحاكم البحث بعد أن اشتراه المالكون. وبالتالي راح يسعى إلى قمع الحركة التي انبعثت من جديد، محرضاً على المتمردين قطاع الطرق السيسيليين. فرد العبيد بتمرد مفتوح. امتدت هذه الانتفاضة الثانية بخاصة في الشطر الغربي من الجزيرة. كان مركزها ضواحي ليليبيا، حيث نصب العبيد أثينيون قائداً، وهو مولى في واحد من أكبر استثمارات المنطقة. وفي نفس الوقت، قرب هراكلية، في أنحاء جبل كابريون، جمع سوري اسمه سلفيوس، عواف

وساحر، حوله قرابة ٢٠ ألف عبد متمرّد. كان التمرّد هذه المرة ذا طابع زراعي بحث: لم ينجح المتمردون باحتلال أي مدينة، لأن عبيد المدن، عوضاً من أن ينضموا إلى المتمردين، ساعدوا سادتهم في الدفاع عن مدينة مورغانتيوم. توجب إذن على التمرد أن يبحثوا عن مكان يجعلونه عاصمة لهم، واختاروا جبل تريكالالا.

أقاموا هنا قصرًا ملكيًا، إلى جانبه كان يوجد ميدان خصص لمجالس الشعب. انتخب سلفيوس ملكًا، باسم "تريفون"، لكن القائد الحقيقي كان الجنرال أتينيون، رجل ذو طاقة ثورية عجيبة، حفظ الرومانيون ذكراه كأخطر عدو. واقتداءً بأميلكار، نظم الحرب من أنصال من مختلف المشارب، مدمرًا مخازن الرومان، قاطعًا دروب الاتصال في كل سيسيليا، مبيدًا فصائل كاملة. وأمره: "احفظ البلاد كملكك الشخصي، بدوابها وأرزاقها"، يستحق الإعجاب. وكان أتينيون يسعى بكل قواه للحوّل دون سرقة المزارع الضخمة، لأنه لم يضم إلى قواته إلا الرجال الأشداء وأمر الآخرين بالانصراف إلى أعمالهم العادية. كما اهتم بتموين جيشه.

أخذت الحركة مدى واسعًا جعل ديودور يقول إن سيسيليا كلها كانت ضحية الـ"فوضى". شغرت المحاكم، انقطعت الصلات بين المدن، ولم يعد الموظفون يهتمون إلا بالاعتناء تحت جناح الاضطرابات الدائرة. كان لصوص المدينة يسرقون ويهربون.

لكن ذات الضعف والوهن الذي سبب فشل التمرد الأول رأيناه هذه المرة أيضًا: نقص المبادرة الخاصة الأساسية الدفاعية للتكتيك. الأمر الذي مكن الحاكم لسنيوس لكولس من طرد المتمردين بداية من شرق سيسيليا، ثم تمزيق قواتها في معركة نظامية، ومحاصرة تريوكالا. لكنه لم ينجح في إبادة الحركة. ففي العام ١٠١، اضطرت روما لإرسال جيش قنصلي بقيادة مانيوس أكيللوس. وبعد موت سالفوس صار أتينيون "ملكًا". تقول الخرافة إن مانيوس هو القاتل، بمعركة فردية، بحضور الجيشين الأمر الذي أفضى إلى هزيمة الهبيد. وسقطت تريوكالا بعد مقاومة يائسة. وكان القمع هذه المرة وحشيًا بشكل متفرد؛ جماهير لا تحصي علقت على الصليب أو عذابات أخرى؛ وأرسل ألف منهم إلى روما حيث أجبروا على إبادة بعضهم، في السيرك، كما المصارعين.

وضعت سيسيليا منذ الآن تحت نظام إرهابي دائم، ل يبقى العبيد في خوف مستمر. في

أيام شيشرون كان العبيد ما يزالون ممنوعين من حمل السلاح، أو الموت لافوري عقاباً؛ "كل قرارات وأحكام الحاكم تتابع لتستمرار عزل العبيد من السلاح" (شيشرون، "المصاييح"، ٥، ٧). والواقع أن عبيد سيسيليا بعد ثلاثين سنة، أيام عصيان سبارتاكوس، ماكانوا بعد قادرين على حمل السلاح.

ولقد تزامنت الانتفاضة السيسيلية الثانية طبعاً، من حيث الزمن، مع تمرد سوماكوس، على رأس عبيد سيث من مملكة البوسفور، التي ربما كانت صداها البعيد. وهي غير معروفة إلا في نقش وجد في شرسونيز، لمجد ديوفانت، القائد مثرادات السادس أو باتور، ملك البونت. كان ديوفانت أكره ملك البوسفور، سارزادس، على الاعتراف بتابعيته لمثرادات، لكن هذه التابعية أغضبت موالى بارزادس، فحمل عبيد سيث السلاح، بقيادة سوماكوس. قتل بارزجاس، هرب ديوفانت ونجا، وسمي سوماكوس ملكاً على البوسفور. وجدت نقود تمثل قسما هليوس، الجبهة محاطة بتاج ذي إشعاعات: فحلم "مدينة الشمس" لم يكن غريباً إذن عن هذه الحركة. لكن بعد ستة أشهر، كما يقول النقش، وصل ديسودور من (البونت، في آسيا الصغرى) مع جيش بري وبحري، وانطلق من مدينتنا (شرسونيز)، بعد أن أبحر على متن ثلاثة مراكب نخبة من أبناء المدينة، واحتل تيودوسيا وبانتكابي (كيرش). وعاقب مقاتلي التمرد، وسوماكوس، قاتل الملك بارزادس، وقد سقط بين يديه، أرسله إلى مملكة ميثريادات وهكذا أقام سلطة ميثريادات أوباتور.

تثبت موجة تمردات العبيد التي جابت الامبراطورية الرومانية النضال الطبقي، العنيف والضاري، الذي كان يمزق مجتمع العبودية. لكن هذه التمردات تكشف أيضاً بخصوصيتها المحلية والمنعزلة، عن ضعف حركة العبيد.

الفصل الرابع والخمسون

الحركة الديمقراطية

في روما وإيطاليا (٩٠-١٠٠)

عهد الإصلاحات؛ الأخوان غراسك

بالتوازي مع تمردات العبيد، كانت تتطور باتساع مستمر حركة الفئات السفلى من الناس الأحرار، في المدينة والريف. كانت هذه الحركة الديمقراطية، أو كما يقال في رومان حركة "الشعبيين"، استمراراً لحركة فلاحي النصف الثاني من القرن الثالث، التي كانت قد شبت بدءاً من المنتصف الثاني للقرن القادم.

كانت تساهم بهذه الیقظة، أولاً، الأسباب ذاتها للاضطراب الديمقراطي، - لدى طبقة الفلاحين، من أجل انتزاع الأرض الذي تتابع على أشده، وحياة "الدهماء المدنية البائسة"، لكن تطورات حركة العبيد، المحرصة بمثلها الجماهير الشعبية الحرة بدعم مطالبها بصورة أنشط، استمرت أيضاً تلعب فيها دوراً هاماً. ولقد استطاعت انتفاضة سيسيليا أن تؤثر بشكل مباشر على تجديد نشاط الحركة الديمقراطية في إيطاليا، في أن هذه الولاية، المدمرة بتوحيش، كفت لفترة عن أن تكون أهراء روما، الأمر الذي حرض رفع أسعار القمح. وبالتالي، تفاقمت أيضاً من جهة شروط حياة جماهير المدن، ومن جهة أخرى، تأكيد بشدة رغبة الفلاحين الذين انتزعت أسهمهم من الأرض باستعادة ما فقدوه. فكانت مسألة القوات والمسألة الزراعية قد أخذتا الأولى والثانية، احتداماً وراهنية بشكل متفرد.

وكان ثمة مسائل أخرى مرتبطة بمسائل إدارة الامبراطورية والولايات. ففي العام ١٤٩، أقر مجلس الشعب قانوناً لإحداث "لجنة بحث في تعسف السلطة" الذي تمارسه حكومات الولايات. وبعد ١٠ سنين، ١٣٩، سن قانون الاقتراع السري كتابة في جمعيات الناخبين.

وهكذا أعد برنامج واسع من التدابير الديمقراطية. وانطلاقاً من العام ١٣٠ أحيى الميدان العام بوضوح: وفدت إليه شرائح واسعة من المستعمرات والبلدات البعيدة، كان الخطباء يلقون خطابات ملتهبة، وغطيت جدران البيوت والآثار الجنائزية بشعارات تدعو إلى الدفاع عن مطالب الشعب بشكل أجراً. ودارت نسخ من الرسائل بين أنصار الإصلاح (نعرف، مثلاً، رسائل كورنيليا، أو الأخوين غراسك)، وتداولها بين الناس، وقد شكلت نوعاً من مكتب أو مصلحة لتدبير هذا الهجاء والانتقادات السياسية، الساخرة أحياناً.

ليس بميسورنا أن نحكم للأسف على هذه الأحداث إلا من أعمال بلوتارك (حياة تيربوس وكايوس غراكشوس) وأبيان (الحروب الأهلية، الكتاب الأول، فصول ٧-٢٧). لكن هذين المؤرخين، اللذين عاشا في الحقبة الامبريالية، أوردا أحداثاً غير مألوفة وغامضة القسم الأكبر من ابتكار الشخصي بحث، إلى جانب التراجم أو السير الذاتية، مرجئة إلى المقام الثاني دور الجماهير الشعبية.

لقد بلغت الحركة الديمقراطية نقطة الأوج مع انتخاب إلى منصب المحامي الشعبي، في العام ١٣٣، تيربوس سمبرونيوس غراكشوس، الشاب الغني النبيل الروماني. كان نزاع عنيف مع مجلس الشيوخ، بشأن مسألة شخصية قد وضع الطمّوح تيربوسو فسي صفوف المعارضة الشعبية. كان هذا الانتقال طبيعياً لأنه تزوج من سمبرونيا سخت نسيبه إمليان، وكان مركز نوع من الرابطة السياسية التي تحلم بعودة "الأخلاق القديمة" بإحياء الزراعة الصغيرة وجيش الفلاحين الروماني السابق. ولقد حاول أحد هؤلاء "الشيوخ الرومان" س. ليلوس بحث مسألة أراضي الحقل العام.

لما صار تيربوس محامي الشعب، أحيى، غير عابئ بغضب مجلس الشيوخ ونقمتهم، مشروع القانون المعادي للنبلاء، محاولاً تسوية احتلال أراضي الأملاك العامة. يثبت بلوتارك (تيربوس غراشوس، ٩) بوضوح أن القانون كان عادياً ومعتدلاً جداً. يكتب أبيان (الحروب الأهلية، ١، ١١)، كان يهدف أساساً إلى زيادة كدح المواطنين الرومان وليس راحتهم. يتفق بلوتارك وأبيان على تأكيد أن تيربوس غراشوس كان قلقاً بشكل استثنائي لرؤية إيطاليا تخفق العبيد مجدداً، فأثار "ماكابده حديثاً، في سيسيليا، مالكو هذه المنطقة من قبل عبيدهم... وذكر أن الحرب التي اضطر الرومان لخوضها في هذه الجزيرة ضد هؤلاء المتمردين لم تكن سهلة ولا سريعة، بل طالت واستطالت..." (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٩).

لم يكن مشروع تيبيريوس غراكشوس بالفعل سوى دعوة إلى تنقيح نصوص قانون ليسينيا وسكستيا، للعام ٣٦٧، حول أراضي الأملاك العامة، مع بعض الشروح والتعديلات، التي تصون بخاصة مصالح كبار المالكين. "إن هؤلاء الناس الذين يستحقون العقاب لعدم طاعتهم، والطرده بعد دفع الغرامة التي امتلكوها خارقين نص القانون، يجب عليهم أن يرفعوا أيديهم، ودفع ثمن الأرزاق التي حازوها بدون وجه حق، وأن يتركوها للمواطنين الذين يحتاجونها ليعيشوا". (بلوتارك، تيبيريوس غراكشوس، ٩).

يقترح المشرع تحديد حق حيازة الأراضي من الملك العام بـ ١٢٥ هكتاراً على الأكثر، إنما مع تصحيح يسمح، بطريقة خفية، بتكبير هذه الحصاة إلى ٢٥٠ هكتاراً: وبالفعل يقدر كل مستلم، إن كان عنده ولدان أن يحوز لكل منهما ٦٢,٥ هكتاراً. مازاد عن هذا يعاد إلى الملك العام، لكن تعويضاً منصفاً تقدمه الخزينة للمالكين السابقين لقاء إصلاح هذه الأرض التي تركوها أو الأبنية التي بنوها عليها. والأرض التي استعادتها الدولة يجب توزيعها بـ ٣٠ مسكبة لكل فلاح فقير، بأتاوة مقسطة، وبشكل أبدي. وكانت لجنة خاصة من ثلاثة أعضاء مكلفة بالإشراف على إعادة توزيع الأملاك العامة.

"مهما كان هذا الإصلاح بسيطاً، فقد أَرْضَى الشعب"، كتب بلوتارك (تيبيريوس غراكشوس، ١٠)، لكنه اصطدم بمقاومة ضارية من قبل كبار مرابي الأرض العامة. وبتحريض منهم، عارض المحامي الشعبي ماركوس أوكتافيوس، المالك الكبير، إقرار القانون وحال دون مروره.

أمام هذه المقاومة، لم يكن ممكناً تحقيق إصلاح تيبيريوس غراكشوس إلا بتبني مسبق لتعديلات دستورية هامة. فاقترح تيبيريوس على مجلس الشعب اعتقال المحامي العام أوكتافيوس "باعتباره عاملاً ضد مصالح الشعب" (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١٢)، وانتخاب شخص آخر كمحام عام أكثر اهتماماً بواجبات مهمته. وهكذا دخل المبدأ الجديد جذرياً، الغريب على الدستور الروماني القديم للمراقبة الشعبية على الحكام الشرعيين: في روما كان كل الموظفين العاميين غير قابليين للعزل حتى نهاية الأجل الذي انتخبوه له. ولما لم يكن ثمة قوانين مكتوبة جذرية، كان يمكن أن يفضي اقتراح تيبيريوس إلى تخصيص أي حاكم بإرادة مجلس الشعب.

لذا لم يتم هذا إلا بعد امتلاء الصدور نفوراً وغلاً. ترجى طويلاً، وباستمرار

أوكتافىوس أن يرفع اعتراضه. وحتى ، بعد أن أقرت سبع عشرة قبيلة الأولى اقتراحه بالإجماع، من أصل خمس وثلاثين، أوقف تيبيريوس الاقتراح وترجى أوكتافىوس من جديد أن يعدل عن موقفه، لكن الإصرار والرفض العنيد جعله يعود ثانية إلى التصويت حتى النهاية. أقيـل أوكتافىوس، وانتخب أحد أنصار تيبيريوس محاميا عاما مكانه؛ وأقر الشعب مشروع قانون إعادة توزيع الأملاك العامة، الذي قدمه مجددا تيبيريوس وصار بحكم القانون. وانتخبت جمعية زراعة، اشترك فيها غراكشوس نفسه، وأخوه الأصغر كايوس، في سن ١٨ عاما، وحموه أبيوس كلوديوس، من مؤسسي القانون. يدل بلوتارك وأبيان أن مصلحا معتدلا مثل تيبيريوس، فقط تحت ضغط الضرورة، يضطر لاتخاذ أعمال حاسمة، أثارت استنكار وحقد النبلاء.

لكنه أثار انفجارا رهيبا بين الـ"متفائلين" بسبب التدابير التي اتخذها فيما بعد (استدعتها، هي الأخرى، مقاومة النبلاء) لتقليص صلاحية مجلس الشيوخ في إطار الإدارة المالية والمحلية. ولما طلب الأعضاء الزراعيون الثلاثة تحديد الاعتمادات الضرورية لإتمام مهمتهم، عين لهم مجلس الشيوخ، بناء على تقرير المالك الكبير بوبليوس سيبينيون نازيكا، الحبر الأعظم والعدو الأزرق للإصلاح، أجرا زهيدا هو ٩ أس في اليوم. وليحصل على النقود، اقترح تيبيريوس عن طريق مجلس الشعب قانونا ثالثا "حول إدارة الإقليم الآسيوي". وبذريعة أن هذا الإقليم وصية من الملك أثال للشعب الروماني شخصا. رفع مجلس الشيوخ يده عنه، وتحولت إدارته إلى مجلس الشعب، ووضع دخله بتصرف لجنة الإصلاح الزراعي، كان يجب اقتطاع مبلغ من هذه العائدات، لتغطية النفقات الأولى لإحياء الأرض الموات. بفعل هذه التدابير، استطاعت اللجنة بعد لأي أن تمارس عملها، ونعرف أنها خلال السنوات التالية، وزعت حتى ٧٠ ألف سهم، من الأملاك العامة التي زادت بما استعادتها من مختصبيها (ولقد عثر على أنصاب تحمل نقوشا وكتابات للأخوين غراسك).

لكن حقد النبلاء ومجلس الشيوخ على المشرع الذي كبل سلطتهم الدهرية كان قد بلغ أقصى الحدود. فرموه بشلال من الأحقاد وسعوا إلى طرق مجرية مثل طمعه بالعرش ، يقولون: ليس ثمة مبرر ليتمتع مرة أخرى ويصير رجلا متميزا" (أبيان ، الحروب الأهلية، ١٣، ١). ولم يتردد المدافعون عن النظام الأرستقراطي في التآمر المباشر على حياته: كان النبلاء مستعدين لكل أنواع العنف من أجل صيانة سطوتهم.

وقعت النكبة عندما طلب تيبريوس منصب المحامي العام مرة ثانية، في العام ١٣٢. جرت الانتخابات في شروط ليست في مصلحة تيبريوس، لأن مجلس الشيوخ خرق العادة وحدد التاريخ في فصل الصيف، عندما يكون "أبناء الحواضر في الحقول... مشغولين بأعمال الحصاد" (أبيان، الحروب الأهلية، ١٤١). لكن أبناء المدن أولوه دعمهم الكبير، وصدق الاقتراح لصالح ترشيحه. لكن بفعل مكر بعض محامي الشعب الذين عارضوا إعادة انتخابه، تحول الاقتراح إلى مجابهة وجهها لوجه. اشترك مجلس الشيوخ، الذي يقيم غير بعيد عن الميدان العام *Forum*، في معبد إلهة الأخلاص، بهذه المشاجرة. تسلم أعضاء مجلس الشيوخ بقوائم الطاولات والمقاعد والطناقص، وخلف الحبر الأعظم، الذي لا يقف الشعب في وجهه احتراماً له، شقوا طريقاً إلى حيث يجلس غراكشوس وقتلوه مع ثلاثمائة من أخلص أنصاره. وحسب بلوتارك، رميت جثته المشوهة بحقد في التبر، وكذلك جثث رفاقه. "لكن حقدهم وانتقامهم لم يقف هنا: فقد حكموا على بعض أصدقائه بالنفي دون اللجوء إلى أي قضاء، وجندلوا كل من استطاعوا العثور عليه". (بلوتارك، تيبريوس غراكشوس، ٢٤).

يلاحظ أبيان بحق أن القوانين في روما، بدءاً من هذا الزمن راحت تترك مكانها لصوت الواقع وأفعال العنف" (الحروب الأهلية، ١، ١٧) والمسؤولية تقع في هذا على كاهل النبلاء أنفسهم، الذين ماكانوا يختارون شكلاً سياسياً آخر إلا الذي يؤمن سيطرتهم دون مشاركة أحد، بل يتبنون كل "حق" وكل "عدالة أو مساواة" ما أن يبتعد جدول أعمال الإصلاح عن مصالحهم. قضى تيبريوس غراكشوس نحبه لأنه لم يع أن هذه المبادئ ذات قوة نسبية فقط. ربي على "احترام القانون"، فكان يعتقد بسداجة بإنجاز الإصلاحات بطريق السلم والدستور.

كان هذا مصير، بعد اثنتي عشرة سنة، أخيه الأصغر كايوس غراكشوس، الذي رغب في السير على دربه وإتمام مهمته. كان خطيباً كبيراً، وكانت فصاحته المتقدة تشد الجماهير الشعبية. انتخب محامياً عاماً ١٢٣، أي بعد عشر سنين من مصرع أخيه البكر مصرعاً مأساوياً. على ذلك رأى كايوس غراكشوس عدم إمكانية قيادة الشعب بطريق أكثر حسماً: كان فعلاً المتمم المباشر لبرنامج وتكتيك تيبريوس المعتدل، لكنه سعى إلى توحيد جميع العوامل المعادية لمجلس الشيوخ والنبلاء، ليعطي قرارات مجتمع الشعب السلطة المطلقة،

وعلى الأقل كما اعتقد، قوة لا تقاوم. واكسب لقضية الشعب كل خصوم مجلس الشيوخ، وقف كل جهوده على برنامج تام من المطالب الديموقراطية، فانتخب محامي الشعب لسنتين متتابعتين (١٢٣-١٢٢) ق.م.

عند الفلاحين تم البرنامج الزراعي بالتدريج. استعادت لجنة إعادة التوزيع، المعلقة، نشاطها، وانتخبت إلى جانب كايوس أحد أصدقائه، المستشار فلفيوس فلاكوس، رجل نابغة وجسور مثله. من قانون عسكري يحسن شروط حياة خدمة الفلاحين من هذا العيب الباهظ.

وأقر قانون ثالث، كبير الفائدة لطبقة الفلاحين، برنامج واسع لفتح الطرق، والأعمال العامة المباشر بها في كل إيطاليا يجب أن تقدم أرباحا دسمة لصالح ابن الريف الضعيف. كما وجدت الكثرة من أبناء الحواضر مصالحها. ويلاحظ أبيان أن غراكشوس فتش هذه الورشات، "يهتم بأغلب العمال والكادحين من كل الشرائح". وبناء أهراءات واسعة عامة في روما، لتعبئة الحبوب المستوردة من وراء البحار، وتنفيذا لـ"قانون الحنطة" الذي أتى به غراكشوس للاقتراع وأقر، استفاد سكان المدن من توزيع القمح شهريا، بسعر معقول ٦,٣٣ أس لـ (٨,٧ ثمنية من الطحين)، بواقع ٥ ثمنيات للمواطن. حسن هذا التدبير كثيرا من شروط حياة الشعب البسيط. واهتم كايوس غراكشوس كثيرا بكسب الفرسان لمعارضة مجلس الشيوخ: مرر لهذه الغاية الـ"قانون القضائي"، بموجبه يؤخذ القضية من الفرسان وليس كما في السابق من مجلس الشيوخ. وبقانون خاص "في إدارة الإقليم الآسيوي"، وسع ملاك الفرسان وأعطاهم بعض الامتيازات، التي تقيهم من مزاحمة التجار الشرقيين الذين ينافسونهم جباية الضرائب في هذا الإقليم الغني، واحتكار مشاريع الدولة، إلخ. وقدم مشروع استثمار الأقاليم في مصلحة جماهير المواطنين الرومان، وشرع ببناء (باسم جونونيا) مستعمرة على انقاض قرطاجة، وطرحت أيضا قضية حق ابن المدينة للحلفاء اللاتين والإيطاليين.

بفعل هذه التدابير، حسب عبارة أبيان، "انقلبت حتى أسس الدولة الرومانية" (الحووب الأهلية، ١، ٢٢). لم يصن مجلس الشيوخ سوى سلطته الأخلاقية، إنما القوة والنفوذ كانا بيد الفرسان والشعب. تعددت مجالس الشعب جدا، وكثيرا ما أشار الخطباء إلى أن النظام الأرستقراطي استبدل بالديموقراطية. وهم يلقون خطبهم في الميدان العام، كانوا يديرون

ظهرهم لمجلس المشيخة، حيث يقيم أعضاء مجلس الشيوخ، ليخاطبوا الشعب (بلوتارك، كايوس غراكشوس، ٥). إن دور هؤلاء القادة، المحامين العامين، وبخاصة، دور غراكشوس، كبر فوراً. توزعوا فيما بينهم بالقرعة مصير تنظيم مستعمرات ما وراء البحرا، ونهض غراكشوس، فضلاً عن هذا بإدارة الشؤون المتعلقة بالمستعمرات: "كان يمشي محاطاً بلقيف من المقاولين، المهنيين، السفراء، الرجال المحليين، جنود وعلماء، محدثاً كلا منهم بود وترحاب" (بلوتارك، ك. غراكشوس، ٦). لقد صار محامي الشعب الحاكم الأول في روما.

على ذلك، كان كايوس غراكشوس يزدري مكانة مجلس الشيوخ والنبلاء، التي ماتزال قوية، جولة تكسر الاسنان. ولقد سعى النبلاء، حسب كلمة بلوتارك، لإبعاد الناس عن غراكشوس إلى وعود كاذبة تماماً بل مخادعة، واستسلموا إلى حماة الديماغوجيا. كان أحد زملاء كايوس غراكشوس في مؤسسة المحامي العام، ليفيوس دروسوس، "يترك لمجلس الشيوخ ممارسة منصبه كمحام عام" (بلوتارك، ك. غراكشوس، ٨). اقترح تأسيس حتى اثنتي عشرة مستعمرة في إيطاليا، رغم عدم توفر الأرض، فلم يكن مشروعه إذن سوى محاولة ديماغوجية لكسب عطف المواطنين بوعود جوفاء. وحين اقترح غراكشوس إعطاء حق المواطنة للحلفاء الإيطاليين، نصح القنصل فانيوس نفسه، رغم أنه من أنصاره، نصح الشعب عدم الاقتراح لصالح القانون لأن الآتين الجدد سيقاسموننا القمح والميادين في الفوروم.

كان لهذه الحملة الحاقدة أثرها: فقد كايوس غراكشوس نفوذه وحظوته لدى الشعب؛ لم ينتخب نالئة إلى منصب المحامي العام، ونجح الطرف الأرستقراطي بتمرير قنصل رجعي عتيق، هو لوسيوس أو بيمبوس. ورفض مجلس الشعب حق المواطنة للحلفاء وقرر مجلس الشيوخ خطر بناء مستعمرة على "أرض قرطاجة الملعونة". وعلى أثر صدام حدث في الشارع بين أنصار وخصوم غراكشوس، قتل في أثناءه واحد من حاملي فؤوسه، استغل أوبيكيوس الحادث في مجلس الشيوخ، مدعياً أن أعداءه يحرضون على ذبح الموظفين العامين. تشبث مجلس الشيوخ بغبطة بهذه الذريعة، ووظف أوبيميوس في سلطة غير محدودة، وانطلق هذا الأخير إلى اضطهاد الحزب الشعبي بتوحش. لكن فولفيوس فلاكوس، الأجرأ والأصلب من غراكشوس، سلح رجاله واحتل آفاتان، المركز القديم لحركات الدهماء. واقترح على الأرجح، ولو متأخراً، دعوة الشعب إلى التمرد. لكن، كما يقول

بلوتارك، لم يشأ غراكشوس أن يتسلح، وخرج من بيته، بثوب القضاة، وكالعادة، ذهب إلى الميدان العام، ليس معه سوى خنجر صغير في نطاقه "بينما يحقق الخبثاء العدالة بسالحديد والعنف". "لم ير أحد كايوس يقاتل"، رغم أنه متميز بالبسالة. هاجمت قوات أوبيمبوس الآفائن. قتل غراكشيوس وفولفيوس فلاكوس أثناء الفوضى والانكسار واشترى رأسيهما المبتورين بوزنهما ذهبا (في العام ١٢١). ثلاثة آلاف "شعبي صرعوا في أثناء المجازر الوحشية التي تتالت، وتوقفت الحركة الديمقراطية إلى حين بسبب الانتقام غير المعروف الذي بدأه النبلاء، متحررين من خوفهم بعد النصر.

هكذا انتهى العهد، الإصلاح الأول، من الحركة الشعبية في روما، المحكوم عليه بالإخفاق بسبب التكتيك الحذر جدا والمعتدل جدا الذي مارسه قاداته، وسياساتهم التصالحية والتوافقية. بعكس قادة حركات العبيد، أولئك الذي قادوا الشعب كانوا رجال مواجهة، "رفاق طريق" بمعنى ما، من أرومة نبيلة، والذين لم ينقطعوا أبدا عن إيدولوجيته. بهذا بدلا ممن دفع الحركة إلى الأمام كانوا يكبحونها. كانت المحصلة الأولى لنشاطهم إبراز السدرس السياسي الذي نجم عنه، أي بالإصلاحات التشريعية التي سنها مجلس الشعب، يستحيل سحق سلطة الأرستقراطية الوطيدة التي لا تردد أمام أي وسيلة للدفاع عن سلطتها. إن الأخوين غراكشوس ساهما رغما عنهما بتسجير النضال السياسي وإيقاظ الوعي السياسي لدى الجماهير الشعبية، التي انتقلت إلى تكتيك أرفع وأصلب عودا.

ماريوس: محاولة دكتاتورية عسكرية ديموقراطية

بعد موت كايوس غراكشوس، حكمت روما رجعية شرسة خلال عشر سنين. وضع المنتصرون في خدمة ظفرهم لتوطيد وضعهم أراض مغتصبة من الأملاك العامة وتوقعوا كل محاولة تهدف توزيعا جديدا. وبحسب قوانين بابياوتوريا اعتبرت كل الأراضي المحتلة والاسهم التي وزعتها اللجنة الزراعية ملكية خاصة لمن كان قد تمتع بها، وحلت اللجسة. بناء على هذا الواقع تنابعت حركة رفع اليد، التي كان الفلاحون ضحيتها، من جديد، كما أشار أبيان (الحروب الأهلية، ١، ٢٧): "حاز الأغنياء من جديد حصة الفقراء، أو انتزعوا بالقوة، تحت مختلف الذرائع"، الأمر الذي كان يلهب هياج المملقين.

سارع النبلاء المنتصرون لاستغلال جيروتهم وليغتوا بالطرق الأكثر تكالبا وسفاهة: أبدا لم يمارس الابتزاز، الاختلاس، شراء الضمير العام على يد الحكم، بهذه الوقاحة

والانحطاط. وكانت العائلات الاحتياطية توفر حياة بذخ لاسثيل لها يعيش المبنزون فوق مستواهم، لئلا يبقوا وراء الآخرين. وإذا اضطروا للاستدانة، بحثوا عن مصادر غير مشروعة للإثراء.

بدأ تفكك النبلاء الحاكمين ينعكس على وضع روما الخارجي. فرغم سعة مواردها المادية والحرب، عجزت الجمهورية، خلال ست سنين (١١١-١٠٥) أن تضع حدًا للميليك أبق مثل جوغورثا *Jugurtha*، بعد أن ذبح ذويه وسلب ثرواتهم، كان يدمر من هاجيا الجنرالات أبناء النبلاء الكبار الرومان، الذين أرسلوا ضده عدة حملات كان على رأس إحداها -لوسيوس أو بيمبيوس هذا الذي قمع بوحشية أنصار كايوس غراكشوس.

كان هؤلاء الجنرالات المباعون يتظاهرون بمحاربتهم؛ لكنهم كانوا يقدمون لجوغورثا، عند الضيق فرص النجاة، يعيدون له من سجن من أتباعه والسلاح والفيلة التي استولى عليها. زار جوغورثا مرة روما حيث استخدم كل مواد التخريب وقال وهو يرحل: "مدينة للبيع، من يشتري!" كانت شعبيته واسعة جدا لدى السكان الأصليين من شمال إفريقيا الذين يكرهون الفاتحين الرومان بحيث هددت الولاية الإفريقية.

وفي العام ١٠٩ أرسل ضد جوغورثا رجلا نزيها، ومن أسرة نبيلة، كوانتس كاسيليوس، ميتليوس، الذي أنزل بخصمه هزيمة قاضية على ضفاف ميتول، لكن الأمور تمت بتهاون وغفلة فلم ينجح ميتلوس بتحقيق نصر حاسم. والمؤرخ الروماني سالستيتوس كرسبس، معاصر يوليوس قيصر، قص بالتفصيل هذه الفضيحة "حرب جوغورثا"، الذي كشف الانحطاط الأخلاقي، وعجز وضرر الأولغارشية المشيخية المفككة، المشتتة.

في الشمال لم يكن الوضع أفضل. بداية، طيلة الأعوام ١٢٠، كان الرومان قد أتموا شؤونهم بتفوق واحتلوا الغول الترازالبين الغنية. وفي العام ١١٨، بعد نصرهم على الأولبروج والأرفيرن، أسست مستعمرة رومانية هامة في مكان مدينة ناربون، المدينة القديمة المحصنة، وولاية جديدة ولاية غول نربونيز، فوق الأرض الواسعة الكائنة بين الألب والبرينيه. لكن بعد العام ١١١، خضعت نربونيز لغزوة مدمرة على يد السامبر، الشعب الجرمانى، الذي ضم قبائل من العرق السلتي-توتون، أبرون وتغورين. وبعد أن صرع ثلاثة قناصل ومشرع، أباد سنة ١٠٥ جيشين كبيرين قرب أروزيو (أورنج)؛ يوم سقط ٨٠ ألف روماني، كما في معركة سانس الشهيرة.

ساهمت هذه الظروف كلها ببعث حركة ديموقراطية جديدة وتكاتف قوى المعارضة: الفلاحون، فقراء المدن والفرسان. على ذلك، واستتارة بفشل التكتيك الدستوري الذي اتبعه الأخوان غراسك وأكثر فأكثر اغتياضا من تجاوز وتحكم المنتصرين، كان الشعبيون الآن يمتلكون وضعاً أرسخ: كانوا يبحثون عن جندي مندفع وجدير، واحد منهم، يوقف النكبات والهزائم في ساح المعركة ثم، بنفس السبل القتالية، يحقق الإصلاحات الداخلية.

وجدوا هذا الرجل في كايوس ماريوس، محامي عام سنة ١١٩، ابن فلاح من المدينة اللاتينية أربنوم. كان ريفي التصرف وقليل الثقافة، أدهش الشعب ببساطته كجندي، بطريقته في مخاطبة الناس وأيضاً بمواهبه الطبيعية وجرأة طروحاته الديموقراطية. وسرعان ما صار ماريوس معشوق الشعب. مؤلفاً من فرسان، تجار، مهنين وفلاحين، باسم ماريانست -أنصار ماريوس- دعم ترشيحه إلى كل الانتخابات ورفعته إلى أرفع الأمجاد. وبعد أن مارس مهمة الحاكم، خدم ماريوس كمحافظ في إسبانيا. ثم أوصى لمتلوس في نوميديا، وفي العام ١٠٧، انتخب قنصلاً، مع تكليف عاجل لإنهاء الحرب ضد جوغورثا. بدءاً من هذا العام، وبفعل شعبيته المتنامية، أعيد انتخابه ست مرات متوالية، الأمر الذي لم يحدث بعد في روما. هكذا فتح هذا العهد لست سنوات خلالها ساد في روما الديموقراطيون الماريانست، الملتفون بحميمية حول قائدهم الجديد.

يفعل المتطوعين الذين انضموا جمهرة إلى جيشه، أنهى ماريوس خلال ستة أشهر، حوالي خريف ١٠٦، بمعركتين نظاميتين، الحرب ضد جوغورثا التي تركتها الحكومة الأرستقراطية تجر جر ست سنوات. وبعد ستة أشهر، نجح لوسيوس كونيوس سيللا، وزير مالية ماريوس بالقبض على جوغورثا في أثناء حملة جريئة على مؤخرات العدو. تابع القائد الأبق الذي اقتيد إلى روما، وعليه كل الشارات الملكية، ظفر ماريوس، وأعدم في أسفل الكابتول.

في العام ١٠٤ كلف ماريوس بالقيادة العليا للحرب ضد السامبر والتولون، الحرب التي كانت موضع اهتمام فريد لدى العناصر الديموقراطية، لأن الولايات المهددة كانت بالضبط هي الأهم عند الجماهير الشعبية، وبخاصة، الغول السيزالين بمستعمراتها الزراعية؛ على ذلك كان الرعب مخيماً على روما. لذا أعد ماريوس بكل عناية هذه المعركة خلال عامين.

وفي هذه الفترة، على الأرجح، أنجز إصلاحه الحربي الشهير الذي دون منذ زمن بعيد في برنامج الحزب الديمقراطي (كما نثبت بعض تدابير ك. غراكشوس). من جهة ليخفف عبء الخدمة العسكرية، بدأ الجيش يتقاضى راتباً منتظماً، فضلاً عن تزوده بالسلح والطعام على نفقة الدولة، الأمور المذكورة في قانون كايوس غراكشوس. كان المشاة يتقاضون ١٢٠٠ أس في العام، وضعفهم، ٢٤٠٠ أس، لقائد المائة، و ٣٦٠٠ أس للفراس. ومن جهة أخرى، عدل منهج التجنيد لمصلحة الفلاح. ولتشكيل الأفواج، وجه دعوة أولاً للمتطوعين، الذين يأتون زرافات، تضم بخاصة العناصر غير المالكة ولاعمل لها عند بروليتاريا المدينة، وهذه كانت فقط لإتمام الصفوف، وعند الحاجة، يسعون إلى التجنيد. وهكذا تحولت الميليشيا الشعبية القديمة إلى جيش محترف ومرتق، بالفعل، لم يتحول بعد إلى جيش دائم. ومن وجهة النظر التقنية، أنجزت إصلاحات هامة أيضاً: خلقت وحدة جديدة تكتيكية مستقلة: كتيبة مؤلفة من ثلاث فصائل أو أكثر. وكل فوج مؤلف من عشر كتائب، ٣٠ فصيلة، ٦٠ مئوية، ببنية منتظمة ودقيقة. ودعم سلاح الأفواج المحاربة: ضم عددا كبيرا من آلات الحرب، والقوات "القدوة" وغيرها.

فضلا عن هذا كانت هذه الإصلاحات ذات نتائج اجتماعية ضارة: تقليص تسليح السكان المدنيين، وإبعادهم عن الحياة العسكرية، الإغضاء عن عادات القتال، بينما كانت تولد يوجد إلى جانب وخارج جماهير المواطنين قوة مسلحة رهيبة من الجنود المحترفين المهرة بقتال. إن هذا الفصل بين الجيش والشعب يسفر عن أصداء مدمرة لدى كل أكنية الحركة الديمقراطية في روما.

في العام ١٠٢، أتم ماريوس استعداداته، وعلى رأس جيش ضارب، خاض الصراع ضد السامبر وحلفائهم. وفي معركة دامت يومين قرب أكس، المستعمرة الرومانية الصغيرة في شمال ماسيليا، تحدى حشود التوتون، الذين حاولوا غزو إيطاليا من الشمال، ثم بعد أن احتل غول سيزالين، مشى لمواجهة السامبر، الذين تغلغل أكثرهم هنا عن طريق ممرات الألب. وألت المعركة الضارية التي دارت في حقول فيرسيل (غرب ميلانو) إلى إبادة هذه الأمة. سقط أكثر المقاتلين؛ سجن ٦٠٠٠٠ وبيعوا كعبيد، ووقع كذلك ٩٠ ألف توتون وغيرهم في أيدي الرومان.

وبينما كان ماريوس ينتصر على السامبر والتوتون، أنجز معاونه، القنصل مانيوس

أكيليوس مهمته، في العام ذاته مع التمرد الثاني لعبيد سيسيليا، الأمر الذي أفضى إلى اتساع شعبية ماريوس بشكل لامثيل له: فسمي "منقذ روما"، "رومulus الثاني"، وتوقع منه الناس إصلاحات اجتماعية جريئة. قاد هذه الحملة بعقريّة نادرة واحد من أقدر قادة الحزب الديموقراطي ل. ألبوس ساتورنينوس، محامي عام مرتين (١٠٣ و ١٠٠)، وهو الذي قدم يد العون غير مرة لماريوس في الانتخابات. وفي العام ١٠٠ ق.م، قدم ساتورنينوس مشروعاً ضخماً أعده مع ماريوس كان يشكل تطوراً لتشريع الأخوين غراسك الزراعي. نص على إقامة عدد كبير من المستوطنات في الأقاليم وأولا في غول نربونيز التي أخليت من السامبر والتوتون، ثم أيضاً في إفريقيا، سيسيليا ومقدونيا. وأعطى ١٠٠ جوجورا للأسرة، أولا الجنود، ثم المحنكون ورفاق سلاح ماريوس، ثم على المواطنين الرومان، وأخيراً حتى على حلفائهم الإيطاليين. ولئلا يصير هذا القانون إلى ما صارت إليه إصلاحات الأخوين غراسك، طلب من مجلس الشيوخ أن يقسم يمينا على تنفيذه.

نوقش المشروع في مجلس الشعب في جو متوتر جداً. كان الشعبون أنفسهم منقسمين بشأنه. كان مدعوماً بحزم من أبناء الأرياف، وبخاصة، الإيطاليين، الذين خدموا مع ماريوس وبإمرته وكانوا لأول مرة على قدم المساواة الحقيقية مع الرومان. تجمعوا بأعداد ضخمة في روما، بدعوة من سعاة بريد خاصين، بمبادرة أبوليوس ساتورنينوس. وفي روما بالذات، بالعكس، كان الشعب المعتاد على سيطرة إيطاليا، ضد المشروع "لأنه يؤمن مصالح الإيطاليين". يكتب أبيان أن معركة حقيقية دارت في الميدان العام *Forum* حول صناديق الاقتراع بين أبناء الأرياف الطليان وأبناء المدن (أبيان، الحروب الأهلية، ٢٩، ١-٣٠).

عدا *les optimates*، المعارضون طبعاً، كان الفرسان خصوم المشروع الرئيسيين هم؛ وبالفعل كان مشروع رفع قيمة "أملك الشعب الروماني" بالاستثمار على نطاق واسع، واستحلاب حشود من المواطنين الرومان والطليان، كان تماماً في غير مصلحة المزارعين العاملين والمرابين الذين يشكلون الصف الفروسي. وعداوة الفرسان للكتلة الديموقراطية وانشقاقهم عنها ألزم ماريوس، الذي شكل ثروة واتحد مع النبلاء بزواجه من أخت يوليوس قيصر، على تغيير موقفه. وكان ماريوس أصلاً، متحالفًا بشكل صميمي، قبل هذا الزواج، مع الجناح اليميني من الحركة الديموقراطية، الذي شكله الفرسان، وبعد الزواج مال إلى تفاهم وصلح مع مجلس الشيوخ. وهكذا ساهم بتسريع تفكك الحزب الديموقراطي وتشجيع

سحب الثقة من قائده، بين الأعضاء الأكثر تطورا ونشاطا في هذا الحزب.

لقد نتج عن انتخابات العام ١٠٠ أزمة حاسمة. تراجعت شعبية ماريوس، حتى أن الشعبيين دعموا ترشيح الحاكم س. سرفلس غلوسيا، إلى مجلس الشيوخ الخطيب المتألق واحد أبرز أنصار ساترنيوس. ومع أبيليوس، انتخب محاميا للشعب المغمور ل. إكتيوس، العبد السابق الذي عرف أنه ابن تيبيريوس غراكشوس. كان النبلاء والفرسان قد قدموا مرشحين الذين استقبلهم الشعب بالعصي، وقتل ميمبوس، أحد مرشحي النبلاء، بهذه الطريقة. وتحول الصراع الانتخابي إلى تمرد مسلح حقيقي، بمساندته نجح أبيليوس ساترنيوس، غلوسيا، ابن غراكشوس المزيف "والرفيون" بدعم من جنود ماريوس، من احتلال الكابيتول. فأعلن مجلس الشيوخ أن الدولة في خطر، وكتب إلى القناصل الديموقراطيين ماريوس وفاليريوس فلاكوس لاتخاذ تدابير استثنائية، كفتح الترسانات، وتسليح كل "المواطنين الطيبين" وقمع التمرد.

وبشهادة شيشرون، "مجلس الشيوخ كله... ووراء الفرسان، حملوا السلاح، وانضم إليهم كل الحكام، وكل شباب عليّة القوم بالولادة" (من أجل رايبيريوس السابق، ٢٠-٢١)، وأحيطوا، طبعاً، بأتباعهم، بمواليهم ومن أعتقوا من العبيد. وأرسل رماة نبال كريتيون، جمهرة مرتزقة للهجوم على الكابيتول. وعندما استسلم المحاصرون، لم يشأ ماريوس، الذي نفذ قرار مجلس الشيوخ على مضض، أن يموت أنصاره السابقون فاكتفى بحبسهم في مبنى مجلس الشيوخ. لكن أبناء الأسر النبيلة، الذين رأوا في هذا العمل حيلة بل خديعة، صعدوا إلى السطح، ونزعوا القرميد، ورجموا الأسرى، وكان أبيليوس بينهم: كان قاتل هذا المخامي العام الفارس الشاب المدعو رايبيريوس.

بعد هذا القمع الثالث للحركة الشعبية وهذه المجزرة لقادتها، سقطت الحركة في سبات لعشر سنوات. فقد خسر ماريوس نصاعته الشعبية، بعد أن تراجع عن مواقفه فانسحب مؤقتاً من الحياة الشعبية وسافر بحجة زيارة معابد الشرق. لكن الأمر لم يكن أكثر من هدأة واستراحة، سبقت انفجاراً أشد هولاً، زعزع هذه المرة ليس فقط روما، بل كل إيطاليا وحتى الأقاليم. عرفت هذه المرحلة الثالثة من الحركة الديموقراطية في تاريخ روما باسم "الحرب الاجتماعية".

الحرب الاجتماعية في إيطاليا وانتفاضة أقاليم الشرق

لقد شد النضال الاجتماعي إلى فلكه جماهير من الشعب الإيطالي تزداد أبداً. وبالفعل كان ينبغي على الحلفاء الطليان وزر الخدمة العسكرية في الجيش الروماني، بينما كانوا محرومين من توزيع القمح ومن استئجار الأرض. ولقد أجبر غضبهم المتنامي قيادة الديموقراطية الرومانية، كايوس غراكشوس، فولفيوس فلاكوس وأبيليوس ساترنيوس على طرح "القضية الاجتماعية"، أي توسيع حق المواطنة للحلفاء الطليان.

بدأ من السنة الأولى من القرن الأول، تأهب الطليان أنفسهم للنضال الواسع المكشوف. وفي التسعينات رأينا، تحت اسم "إيطاليا"، تشكل حلف سري، يمد فروعه في كل اتجاه، ويتواصل أعضاؤه بواسطة سعاة البريد، ويتبادلون الرهائن، ويكدسون السلاح والمناهل لكي يرفعوا علم التمرد على روما.

إن مبادرة ديماجوجية صاخبة من المحامي الشعبي م. ليفيوس دروسوس الابن، ابن عدو كايوس غراكشوس سنة ١٩، حتمت عليهم التصرف أخيراً. وكان دروسوس، ممثل الفرع النبيل، المعتدل والميال إلى الامتيازات، يسعى لرفع سلطة ونفوذ الأرستقراطية المحطمة باختيار بعض المصالحات الجزئية. ولإتمام التوافق العام وتهذبة الخواطر، اقترح بداية إصلاحاً واسعاً في مجلس الشيوخ والمحاكم. فمجلس الشيوخ يجب أن يتألف من ٣٠٠ عضو من النبلاء و ٣٠٠ عضو من الفرسان، ومنهم يجب اختيار القضاة. فضلاً عن هذا، ولجعل الجماهير الشعبية أكثر قبولاً لفكرة هذه الحكومة الجديدة المختلطة، لابد من توزيع القمح بسعر منخفض على مؤسسات المستعمرات الجديدة في إيطاليا و سيبيريا، واقترح أخيراً منح حق المواطنة لكل الحلفاء الطليان، بتسجيلهم في القبائل العشرة الجديدة التي وجدت لهذه الغاية. لكن مشروع دروسوس لم ينتج سوى إثارة الغليان لدى كل شرائح المجتمع الروماني والطلياني، حيث لا أحد يريد، سوى محركي هذه الإصلاحات، سماع الحديث عن توافقات ومصالحات. فاضطر دروسوس، مثل الأخوة غراسك، إلى السعي إلى سبل أكثر ابتكاراً: القيام باتصالات مع المنظمات السرية لدى الشعوب الإيطالية، وتبادل معها أيامين المؤازرة المتبادلة. ثم، لما ضرب في عتبة بيته، راح يضطهد منظماتهم، فنشبت الانتفاضة المبيتة منذ زمن.

بدأت في أسكولوم، عاصمة بيستوم، التي قتل حاكمها وهو يحاول قمع أحد مراكز

الحركة. ثم انتقلت بسرعة إلى شعوب الجوار (مارسس، بلنيان)، وكل منطقة سامنيوم الجبلية، حيث يعيش، فضلا عن الشامينيت، عدد كبير من الغولوا الآتين من شمال إيطاليا، وتقريبا كل كامبانيا، أبوليا، لاكونيا وكلابر، بلاد يعمرها قوم ضخم من الفلاحين، بدأت تحس بالفعل أنها مهددة بتوسع الاستثمارات الشاسعة.

انضم إلى المتمردين عدد كبير من العبيد الزراعيين، الهاربين من الأملاك الكبرى، وشكلوا حملات كاملة. ولم تلتحق المستعمرات الرومانية المحصنة إخلاصاً لقادة حامياتها. ولما احتل السشامنيت الضيع الرومانية: كامبانيا، نولا، ستابيا، منتورن، ساليرن، وقف المعمرون العسكريون والعبيد فوراً إلى جانبهم وذبحوا الضباط التابعين للعائلات النبيلة الذين رفضوا الاقتداء بهم. وحدث نفس الأمر في أبوليا، حيث كان المتمرديون يعملون بقيادة جوداسلوس.

ارتدت الانتفاضة خواص الحرب الداخلية الضارية التي سميت في الحوليات الرومانية الحرب الاجتماعية. لم يكتف المتمدون بتشكيل جيش نظامي من ١٠٠ ألف رجل، على النمط الروماني، وضعوا بقيادة *deux imperators*، المارسي كوانتس بومبيوس سيلو والسامنيت ك.بابيوس مونلوس، بل أسسوا حكومة فدرالية إيطالية. أخذت عاصمة لها كورفنيوم، عند البلجيان، حيث يقوم مجلس شيوخ من نواب كل الشعوب المتمردين، وكلفوا ١٢ حاكماً بالشؤون الإدارية والقضائية، وحيث سستلتئم جمعية شعبية إيطالية. وضرب نقد فدرالي يحمل كلمة "إيطاليا"، وصورة الثور، مرافق الفلاح ومساعدته، ناطحا بقرنيه الكلابة الرومانية المتوحشة المحطمة.

في أثناء ١٨ شهرا الأولى من هذه الحرب (٩٠-٨٩)، تقدم المتمدون بوضوح على الجيوش الرومانية المرسلة ضدهم. وتعرض القنصل ب.روتليوس لوبوي، لهزيمة رهيبة وسقط صريعا في ساح المعركة. وصرع زميله لوسيس جوليس قيصر. وكانت روما ذاتها عرضة للخطر: إذ وصلت المعركة إلى تخومها المباشرة.

تفاقم وضع الجمهورية لأنها كانت مضطرة لدعم حرب صعبة جدا في الشرق. وأسفرت الحرب الاجتماعية لسنة ٨٩، عن انتفاضة عمت كل أقاليم الشرق تقريبا. وعلى شواطئ البحر الأسود تشكلت دولة إغريقية جديدة وقوية، سميت دولة البوننت *le pont*. ولدت هذه المملكة في كبادوسيا الشمالية، منذ القرن الثالث، لكنها وصلت ذروتها في عهد

مثرديات السادس أوياتور (١١٤-٦٣) وكانت تمتد آنئذ على كل جنوب أوكسن.
كانت تضم في تلك الأيام أرمينيا الصغيرة، كولشيد، مملكة اليوسفور التي تس
مثرديات عرشها بعد قمع تمرد سوماكزس بقيادة معاونيه ديوفانت ونيوبتوليم. وكانت الدا
اليونانية على الشط الغربي، أستريا، تومي، ممزامبريا، أبولونيسا، أيضا تحت رقا
مثرديات وصكت نفودا تحمل صورته^١.

كان هذا العاهل يرعى جيشا من ٣٠٠ ألف رجل وبحرية حربية من ٤٠٠ مرك
يمتطي متن قسمها الأكبر القراصنة. استغل مثرديات صعوبات روما في إيطاليا، وش
عليها حربا شعواء في العام ٨٩. هزمت قواته بدون صعوبة قواتهم المدعوة على عج
واحتلت بيشيا والإقليم الروماني في آسيا؛ واحتل أسطوله بقيادة أرشلايس مضائق وج
بحر إيجه (عدا رودس)، وغز اليونان عن طريق تراثيا ومقدونيا.

استقبلت الشعوب المرمقة بأسلاب واضطهاد الإدارة الرومانية وعشاريها في ٥
مكان مثرديات وأعوانه كمحررين؛ وانتفضت أثينا قبل وصول قواته. ورغبة في كس
المزيد من تعاطف الشعب، أعلن مثرديات ببياناته الإصلاحات الضخمة الاجتماعية التي
كان ينوي تحقيقها في البلاد المتحالفة معه: إلغاء الديون، اقتسام الأرض وعتق العبيد، و
على أوامره ذبح الموظفين، المرابين والتجار الرومان في كل مكان وبمساعدة الس
النشطة. صرع في المعركة حوالي ٨٠ ألف؛ وزعت أملاكهم وعتق عبيدهم. وك
مثرديات على علاقة وطيدة مع المتمردين الرومان، الذين وعدهم ان يسارع لمؤازرتهم.
لقد جعلت الأزمة النقدية التي لاسابق لحدثها، والناجمة عن الحرب الاجتماعية وفة
الأقاليم الشرقية الغنية، جعلت وضع روما في الويل والنبور. صكت الحكومة النقود الفد
بتغطية ثمنها فقط واختفت النقود ذات العيار الصحيح. طالب الدائنون بإلحاح شديد تس
ديونهم على الفور. ولتخفيف حمل المدينين، اقترح الحاكم أولوس سامبرنيوس أرليو ت
الديون المستحقة، لكنه قتل في أثناء إضراب الدائنين الساخط.

وهكذا، حوالي العام ٨٠ ق.م، بلغ الصراع الاجتماعي في روما وممتلكاتها ذروته.

^١ - خص أبيان هذا الملك بالفصل ١٢ من عمله "التاريخ الروماني" وهو بعنوان "Mithridatica".

الفصل الخامس والخمسون

بداية الدكتاتورية العسكرية العبودية. سيللا

قمع تمرد الحلفاء الإيطاليين

في هذا الوضع المفجع مارست روما لأول مرة، على نطاق واسع منهاجا جديدا في التجنيد، أبدعه ماريوس. تطلبت الحرب قوات جرارة، ١٨٠٠ لواء على الأقل حسب بعض المراجع- والسوقات الفلاحية غير مؤمنة. فلجؤوا بسرعة إلى المرتزقة والمتطوعين؛ واستأجروا كتائب كاملة من البربر (غولوا ونوميد)، وبدأوا لأول مرة بتطويع المحررين. لكن جماهير المتطوعين كانوا من عامة الناس، مشدودين إلى الأجور وآمال السلب. ولتدفع رواتب المرتزقة، صادرت الحكومة ثروات المعابد وعائداتها المقدسة منذ أقدم الأزمنة في الهياكل الرومانية. وأخذ الجيش الروماني من الآن الطابع المهني التام وغير الشعبي، الأمر الذي يدل إلى سلوكها في أثناء هذه الحرب الداخلية: كانت المدن الداخلية تهب، تماما كالمدن الغربية، ويبيع سكانها عبيدا. والجنود لا يقدرّون عاليا إلا القادة الذين هم بعيدون عن منع هذا التجاوز المفرط، كانوا هم أنفسهم يشتركون فيه.

لقد حاز لوسيوس كورنيليوس سيللا شهرة مدوية في أثناء هذه الحرب. حفيد أسرة ضخمة مواطنة مدمرة. ذكي ومتقف، مغامر سياسي يهتم فقط بمكسبه الشخصي وكان مؤمنا بنجمه إيمانا عميقا، وكان سيللا ممثلا نموذجيا لأرستقراطية ذلك العهد المفككة (اقروا بلوتارك، سيللا). كان في قيادة حملة تأديبية ضد الطليان، سعى بكل السبل إلى شراء الجند، مغريا إياهم بمنح نقدية، مغمضا عينيه عن بعض السرقات؛ الأمر الذي أكسبه شعبية واسعة.

بهذه الجحافل وهؤلاء الجنرالات توصلت روما، في العام ٨٩، إلى تحقيق النصر تحت راياتها. أباد سيللا، في كامبانيا، قرب تولا جيشا ضاربا بقيادة لوسيوس كلياتنس، أحد أشهر قادة المتمردين، الذي صرع في التحام مع ٥٠ ألف رجل من قواته. ثم، بعد أن تغلغل

سيللا في جبال سامنيوم، تحدى جيش السامنييت، واستولى من الحركة على ميدان بوفيانونم المنيع، حيث كانت عاصمة الحلفاء. وأخضع سنيوس بامبيوس سترابو، قنصل عام ٨٩، معشوق آخر للجند، بلد سابان وبسنوم. وهزم قائد حملة الإبادة الثالثة مئيلوبيوس ولوكانياس اللتين تعرضتا "لمذبحة رهيبة" (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٤٦-٥٣).

مع ذلك لجأت روما إلى الدبلوماسية التي وظفتها بنشاط في بذر الشقاق بين صفوف الحلفاء. ومن العام ٩٠، مثلاً، صرح مجلس الشيوخ أن روما ستمنح حق المواطنة لكل الإيطاليين الذين ظلوا مخلصين لها ولم ينضموا إلى المتمردين (قانون يوليا). وأعطى قانون بلوتيا-بابيريا، في العام ٨٩، لنفس الغاية، حق المواطنة لكل المتمردين الذين يلقون السلاح خلال شهرين، الأمر الذي أفضى أيضاً إلى تفكك الجامعة الإيطالية. كان الأكثر ميلاً إلى الصلح من "الحلفاء" هم ممثلي الأغنياء والفئات العليا، الذين رضوا بالمساواة المدنية مع الرومان، والجدير بالذكر أن المدن الكبرى، حيث يقيم الأغنياء "المفاوضون" الطليان، قد بقوا تماماً خارج التمرد لابل أعادوا سفنهم التجارية للرومان للمساهمة في سحق التمرد. صحيح أن الإيطاليين، مسجلون في ١٠ قبائل تكونت حديثاً (يقول البعض إنها ثمانية)، الأمر الذي قضى على نفوذهم السياسي. لم يكن هذا الامتياز قليل الأهمية. فباستثناء السامنييت واللوكانيان والمارسيس الذين لم يصلحوا، ألقى الطليان كلهم سلاحهم في العام ٨٨ وقبلوا الإلحاق والخضوع.

على ذلك، كانت الحرب الاجتماعية ذات مدى بعيد في إيطاليا. فقد تحول التحالف السابق رومانو-إيطالية إلى دولة موحدة، وضع سكانها الأحرار على قدم المساواة، على الأقل بصدد الحق المدني. وصارت كل المدن الإيطالية قادرة على تشكيل بلديات من النمط الروماني وأضحت روما عاصمة الدولة الإيطالية. فضلاً عن ازدياد عناصر الأحزاب المناضلة: وسع النبلاء الطليان صفوف *optimates* والفرسان، بينما شهد الدهماء الرومان نمواً ملحوظاً وتوطيداً بواسطة ممثلي الفئات السفلى من المدن المتحدة.

الانقلاب العسكري الأول ورد الفعل في روما لسنة ٨٨ ق.م

لقد خول الصلح الإيطالي حكومة روما أن تباشر الحرب ضد مثيردات وتصدر إلى قمع تمرد الولايات الشرقية. كانت كل القوات جاهزة منذ نهاية الحرب الاجتماعية قد تحشدت في نولا، وكامبانيا، لتشكيل "جيش ضارب للرق"، موقوف على العمل في اليونان

وآسيا. وكانت قوات سيللا التي تميزت بتفرد في الحرب الاجتماعية تشكل القسم الأعظم من العناصر، وقد تلقى سيللا بعد ترفيعه إلى مجلس الشيوخ لهذه الغاية من قبل حزب المشايخ في العام ٨٨، قيادة الحملة إلى الشرق.

لكن المسألة الشرقية كانت تهز بشكل استثنائي الأوساط التجارية والمرابين، الرومان والإيطاليين، الذين يملكون في هذه المنطقة عشرات المشاريع وبخاصة في الولاية الآسيوية. لم تقبل هذه الفئات أن يستخدم سيللا، "تصير ومرؤوس الـ *optimates*، بعد أن ينتصر على مثيردات"، سلطته كقائد عام ليحرمهم احتكار شؤون آسيا. وبالفعل أيضا بإلحاح أن قيادة جيش الشرق لماريوس، الذي كان نصيرهم. كانت هذه أيضا رغبة الشرائح الوسطى والدنيا من المواطنين الطليان الجدد، الذين يكرهون سيللا وجنوده بسبب فظاظتهم. أضف إلى هذا أن جمهرة من الطليان تأذت كثيرا ودمرت في أثناء الحرب الاجتماعية ترغب في أن تسند إليهم مهمة ما في هذه الحملة الواعدة بأسلاب دسمة.

يشكل عام، أحيت حرب الشرق صراع الشرائح في الـ *Forum*، حيث اتسع مدار الحزب الديموقراطي وعزز بمنح حق المواطنة لجمهرة من الـ "أحلاف" السابقين. وليس سوى تحديد الحقوق السياسية للمواطنين الجدد بتسجيلهم في القبائل العشر المكونة حديثا قد عرقل هيمنة العناصر الديموقراطية.

وصارت مسألة المساواة الكاملة بين المواطنين الجدد والقدماء وتوزيع الأولين على القبائل الخمس والثلاثين الأصلية هي القضية الأساس.

وقدم مشروع قانون بهذا المعنى في العام ٨٨ من قبل أحد أنصار ماريوس، الشاب ومحامي الشعب الجريء والديموقراطي بوبليوس سلبسيوس روفوس. كان القانون يمثل أيضا إصلاحا دستوريا عميق الأهمية، محولا طابع مجلس الشعب من زوماني بحت إلى إيطالي، بل حاز العنصر الإيطالي فيه الهيمنة. أثار هذا التدبير، بحق، هياجا لم يعرف بعد في روما، في كل الأحزاب؛ وفي الجمعيات الأولية واللقاءات الشعبية حيث كان المشروع قد رفض، بدأت العصي والحجارة دورها، وإلرجاء الاقتراع، سيعلن القنصلان المنتميان إلى الجناح الأرستقراطي، سيللا وكوانتس بامبيوس روفوس، موعدا جديدا وبعده كل الذين ذكروا دعوة مجلس الشعب الذي يجب ان يبدي رأيه في القانون. مع ذلك أقر قانون سلبسيا ووزع الحلفاء السابقون على كل القبائل الرومانية. وبعيد هذا سن مجلس

الشعب قانونا ينزع من سيللا قيادة جيش الشرق، وسمي مكاركوس مكانه. من هنا، أعطي حق تنفيذ سوقات جديدة، الأمر الذي يحقق رغبة المتمردين السابقة.

لكن خصوم الديمقراطية الواعين تماما الأهمية الحاسمة للحركة، كانوا مستعدين لاتخاذ التدابير الأكثر تطرفا من أجل انقاء تجميد سلطتهم. وهرب القنصلان سيللا وبامبيوس روفوس، من روما بعد أن رفضا الطاعة لما اقترعه مجلس الشعب. عاد سسيللا فورا إلى نولا، حيث وجد جنوده فدفعهم إلى تمرد مكشوف، أما الألوية المعسكرة حول هذه المدينة أعلنت موقفها ضد الحكومة الجديدة. ورجم محامو الشعب الذين أرسلهم ماريوس، وطلب المتمردون من سيللا أن يمشوا على رأسهم إلى روما.

زاغ سيللا عن أي اقتراح أو توافق، وبعد أن احتل كل الأبواب، بدأ هجوما مركزيا على العاصمة، حسب كل قواعد فن القتال. كان الناس يساندون الديمقراطية، وأرسل ماريوس مبشرين يعدون بعثق كل العبيد. ولاقى جيش المتمردين إذن في روما مقاومة يائسة.

يصف بلوتارك (سيللا، ١٢) معركة الشوارع الرهيبة التي دارت آنذ، فيقول: "يصعد الناس العزل من السلاح إلى السطوح ويمطرون سيللا بكسرات الأجر والحجارة التي تمنعه من التقدم وترده على أعقابهِ حتى الأسوار. ويظهر سيللا فجأة في هذا الوقت، وبعد أن رأى ما حدث، ينادي جنده ليرموا بالنار إلى البيوت، وهو نفسه أخذ مشعلا ملتهبا، ومشى في المقدمة ويأمر رماة السهام قذف السطوح بنبالهم المشتعلة".

سحقت مقاومة تشكيلات الدفاع التي اتخذها الديمقراطيون على عجل، قتل سلسيوس، ونجى ماريوس وبعض القادة المنهزمين وسقطت روما بيد سيللا وجنده (٨٨).

كان هذا النصر ذا مغزيين. بداية، كان نصرا لجيش جديد على حكومة مدنية: دل الجيش أنه لم يكن درع الدولة الرومانية ولا حامي سيده، وأن إرادته أكبر وزنا من إرادة مجلس الشعب، ومجلس الشيوخ وباقي المؤسسات الحكومية العادية.

وثانيا، إن ما جرى كان نصرا للحزب الرجعي، نصر حزب الأعيان الذي قرر عدم التراجع أمام أي سبيل. كانت أولى التدابير التي اتخذها سيللا تهدف إلى تدمير التنظيمات الديمقراطية وتجميد كل مؤسسات الدولة التي تعبر عن إرادة الشعب. ومنذ صباح احتلال المدينة، دعي الناس المروعون للقاء "مجلس الشعب" الذي تحت ضغط المنتصرين المباشر

من دستوراً جديداً، حرم الشعب من أي دور سياسي ومن أي سلطة. ألغيت قوانين سولبيسيوس، وانضم الحلفاء من جديد إلى القبائل العشر المجتمعة. قلص دور المواطنين إلى المرتبة الثانية. وكانت الجمعيات الانتخابية، الأكثر ديموقراطية، ممنوعة، وبقيت فقط الميليشيات. المثوية، حيث تسود الطبقة الأولى، المؤلفة من الأغنياء. وتراجعت أهمية مؤسسة محامي الشعب إلى العدم، لأن هؤلاء المحامين حرموا من أهم سلاح لديهم، حق الاعتراض. وأخيراً، أدخل إلى مجلس الشيوخ ٣٠٠ عضواً من أنصاره واعتبره الجهاز الأعلى في الدولة. وفرض إحالة كل اقتراح إلى أن مجلس شيوخ وهو من أتباع سيللا، قبل أن يعرض على مجلس شعب تابع وعاجز كالميليشيات المثوية (انظر أبيان، الحروب الأهلية، ٥٩٤١).

وهكذا عادت الحياة السياسية في روما أربعة قرون إلى الوراء، وانتهت أول محاولة من الديموقراطية المتحدة نبغي إعادة تنظيم الدولة الرومانية على قاعدة إيطالية، انتهت بهزيمة نكراء.

حكومة ن. كورنيليوس سينا

على ذلك، كان انتصار الرجعية الأرستقراطية الأول وهما عارضا. إذ اضطر سينا وجيشه أن يغادروا روما في الحال لبدء معركة الشرق، حيث تتوسع رقعة التمرد أكثر فأكثر. كان شعب روما يكره سيللا ونظامه: رفض مرشحوه لمنصب القنصل، وفي العام ٨٧، اختار الشعب عوضاً عنهم شخصيات بعيدة جداً عن تحقيق مشاريع ووجهات نظره: ثيوس أوكتافيوس، من عائلة كبرى لكن من طبع سهل العريكة، ولوسيوس كونيلى سينا، نصير ماريوس وسلبكوس فعلاً. "يذكر أولئك الذين يعتقد أن انتخابهم يؤدي سيللا كثيراً ويذله"، بلوتارك (سيللا، ١٤).

بعيد هذا جرت محاولة رفع دعوى ضد سيللا وإعادة العمل بقوانين سلبسيوس. ولما انتهت بمذبحة شعبية، شنها أنصار سيللا وأتباعهم المسلحين، في ذلك اليوم، إذا استخدمنا عبارة شيشرون، "كان الفورم غاصاً بالضحايا وبركة من دماء مواطنينا" (حوالي ١٠ آلاف قتل). غادر القنصل الديموقراطي كورنيليوس سينا روما مع ستة من محامي الشعب وحشد جيشاً لقتال أنصار سيللا. قدمت له مدن الحلفاء المال. وهكذا فعل الكثير من الوجوه، أعداء الهدوء والجمهورية، تركوا روما ليقفوا إلى جانب سينا. (أبيان، الحروب الأهلية، ١،

٦٦). وانضم إليه كل قادة الديموقراطية، كينتوس سرتوريس، كايوس ماريوس الشاب، ابن ماريوس، وابن أخيه م. ماريوس غرانديانوس هربا من الموت. وماريوس نفسه عاد من ملجنه في أفريقيا وشكل فيلاروري جيشا ثانيا انضوى تحت رايته سكان المدن والريف "الرعاة والحرثون الأحرار" (بلوتارك، ماريوس، ١١).

بفعل انضمام جماهير العوام، في الريف والمدينة، أخذ البرنامج الديموقراطي لتلك الحقبة طابعا راديكاليا مؤكدا. لم يكتف قاداته كجدول أعمال الحزب: العدالة التامة في الحقوق لكل المواطنين، بل كانوا مستعدين لتحريك سلسلة من الإصلاحات الاجتماعية (قانون زراعي، قانون الديون). ولأسباب تكتيكية ذهبوا حتى أعتقت أعداد ضخمة من العبيد الذين شاركوا في القضية، دون أن يقصدوا إلغاء العبودية من الأساس.

في أتروري، جند ماريوس "تكنات كاملة من عبيد الريف"؛ وسينا، منذ مذبحه المواطنين الرومان على يد الـ *optimates*، في العام ٨٧، دعا العبيد لموازرتة، الأمر الذي اتخذ مجلس الشيوخ ذريعة ليحرمه من وظيفة القنصل. ولما تم انضمام جيشي سينا وماريوس مع بعضهما، دخلا العاصمة وقطعا وصول المؤونة "...أرسل سينا مبشرين إلى المدينة، ليعدوا بالحرية العبيد الذين أتوا إليه بدافع ذاتي. فانضم عدد ضخم إلى هذا المعسكر". (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٩٦). وهكذا بدأ العبيد يلعبون دورا هاما في النضال السياسي، الأمر الذي أخاف بعض الشعبين.

فاضطرت حكومة سيللا شديدة الرجعية أن تستسلم بعد محاولات مقاومة بسيطة؛ فعاد الدستور السابق والسلطة الديموقراطية إلى روما. وانتخب القائدان الشعبيان البطلان قنصلين للعام ٨٦، س. ماريوس للمرة السابعة وسينا للمرة الثانية؛ ولما مات ماريوس بعد شهر واحد، انتخبت مكانه شخصية حزبية وجبهة، هو ل. فالريوس فلاكوس. واعتبر بيت سيللا عدوا، فدمر، وصودرت أرزاقه. وأعلن أصدقاؤه، من الجناح المغرق في الرجعية، أعداء الوطن وأعدموا؛ وصودرت أملاكهم ودمرت بيوتهم. وعرضت رؤوسهم في الميدان العام، إلى جانب منصة إلقاء الخطب. لم يعدم منهم سوى حوالي خمسة عشر زعيما.

غير أن قادة الديموقراطية كانوا بعيدين عن إظهار نفس الاعتدال تجاه العبيد المحررين حديثا، كجنود سنا، الذين كانوا يسعون للانتقام من ساداتهم السابقين. "إن سينا الذي منعهم عدة مرات من تكرار الجريمة دون أن يستفيد، طوقهم في ليلة ليلاء وذبحهم عن

آخرهم على يد جيش من الغولوا". (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٧٤) تكشف هذه الواقعة عن الوجه الحقيقي لهذه الطبقة من هذه الديمقراطية القديمة العبودية. واتخذت تدابير جريئة في الحقل السياسي لخمس سنوات، دون انقطاع، ٨٦-٨٢، كانت القنصلية بيد قادة الديمقراطيين، البعض متنفذون والآخرين جسورون. انتخب سينا ثلاث مرات متتالية، حتى موته، في العام ٨٤ ق.م. واستلم سينيون كاديوس هذا المنصب ثلاث مرات. كان هذا عودة للنهج الذي أرساه ماريوس بين العام ١٠٦-١٠٠، توكيل طويل للقائد الديمقراطي، وفي العام ٨٢، سمي كايوس ماريوس الثاني، ابن ماريوس القديم، قنصلا مع بابرئوس كاربون، رغم أنه كان في عامه ٢٧، ولم يستلم أي وظيفة في هرم الحكم. لكن ل.فلاكوس، قنصل العام ٨٦، حقق واحدة من أمانى الناس، شرع قانونا يلغي ٤/٣ الديون، بما فيها الأجور، الحمل المرهق للمدفعين. سحب النقد قليل القيمة من التداول واستبدل بقطع عالية العيار، وصار محقق هذا الإصلاح، الحاكم م.ماريوس غرانديانس، حسب تعبير شيشرون "الإنسان الأعز لدى العامة. وفي العام ٨٤، أقر بناء مستعمرة كابو الهامة بمبادرة م.جونيوس بروتوس؛ وكان الشعبيون، يتأهبون، بوضوح، لتحقيق برنامجهم الإصلاحي الزراعي.

لقد خضعت الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة إلى تحول راديكالي، تطبيقا وتنفيذا لمطالب الإيطاليين، لأن هؤلاء الأخيرين شكلوا من الآن السند الأساسي للديموقراطية الرومانية. فأعيد تشكيل الحاضرات الإيطالية على نمط البلديات الرومانية ووزع المدينيون الجدد على كل القبائل التي يحكمها حكام منتخبون، وانتخب إلى مجلس الشيوخ ١٠٠ عضو وكذلك أعيدت مجالس الشعب. وتم هذا في الأرياف حيث أدار "أعضاء البلدية" المنتخبون الشؤون المشتركة. أخيرا جهز جيش جديد للشرق وأرسل، بقيادة القنصل فلاكوس، واحتل الولاية الآسيوية. اجتاز فلاكوس إيبيريا ومقدونيا، عدوتي روما، واتجه إلى البوسفور وخاض عمليات كللت بالنصر ضد متريدات على الأرض الآسيوية. أبدا لم تحقق حكومة روما، التي صارت إيطالية فعلا، حركة بهذه الجراءة، والإبداع والنتائج.

الحرب ضد متريدات. الحرب الأهلية الأولى ودكتاتورية سيللا

لكن خصوم الديمقراطية الرومان والاطليان ماكانوا نائمين. كانوا يهاجرون زرافلت، ليلتحقوا بجيش سيللا العامل في اليونان. كان سيللا وقواته في وضع صعب، وهذا صحيح.

واعتبر سيللا عدوا للوطن، فلم يتلق من روما أي دعم بالعدة أو الرجال، وكان فلاكوس مكلفا بقتاله وقتال ميثريديات وإجباره على الخضوع للحكومة الديموقراطية الرومانية. في هذه الحال، كانت اليونان كلها تحارب، كان أوسطول ميثريديات راسيا في بيريا، بقيادة خير قائد، أرشلاوس. وكان جيش البونت البري، -أكثر من مائة ألف رجل، وكواكب خيالة عديدة، وعربات حرب، وغيرها- يتقدم عبر ثراسيا، مقدونيا وتساليا، لمد يد المساعدة له. وربما بدا وضع سيللا وجيشه الذي يضم خمسة جحافل، متروكا مهملا من حكومته بالذات، بلا رجاء ولا أمل.

هنا ظهر بصورة متألفة الدور المستقل الذي لعبه الجيش وقادته. قرر سيللا، القائد العام، والمبعدون الرجعيون، الملتجئون إليه، إهمال حكومتهم الرومانية وجعل الحرب ضد ميثريديات الشأن الأهم.

للحصول على المال، فرضوا الرسوم تحكما على الأقاليم اليونانية المستمرة بإخلاصها لروما، تساليا وإيتوليا، ونهبوا الهياكل الشهيرة في أولمبيا ودلفيا وجردوها من ثرواتها المقدسة. والبدائع القديمة الذهبية والفضية أحالوها إلى أجزاء وصهروها ليصكوا منها نقودا ويضعون عليها رأس سيللا عوضا من رأس الإلهة روما. وزعوا بكرم وفوضى هذه المناهل الثرة على الجند، الذين سموا سيللا السعيد: "امبراطورا". حشد سيللا وأنصاره في صفوفهم حشدا من المرتزقة اليونان المستعدين للانضمام إلى جانب أي طرف، فقط من أجل الغنائم. وأرسل سيللا المحتاج لأسطول إلى شرق البحر المتوسط مساعده ل. لسنسيوس لوكوللس، ليستأجر مراكب القراصنة الكريتيين، السيليزيين والفينيقيين، ولكنهم لم ينفقوا.

قاد سيللا بعناده المعروف حصار أثينا والبيريا، مركز التمرد في اليونان، رغبة في الانتهاء من هذا الحصار قبل وصول جيش البونتيك من الشمال. ولما أضنى الجوع أثينا، سقطت، "مذبحة رهيبة دون رحمة بدأت.. لم يوفروا امرأة ولا طفلا، أمر سيللا بقتل الجميع عشوائيا" (أبيان، ميثريديكا، ٣٨). وسلمت هذه المدينة، الغاصة بالكنوز الغنية، للنهب، وخضعت بيريا للمصير ذاته، فأحرقت ودمرت. ثم، خلال معركتين نظاميتين في بيوتيا وشيرونيا وأرشومين، هزم سيللا، الذي عزز جيشه وصار عشرون جحفا، هزم جيشين جرارين بونتيين، مطهرا هكذا اليونان كلها من قوات ميثريديات. وعن طريق شواطئ ثراسيا، عبر إلى آسيا، حيث وجه ضربة قاصمة بمثير يدات، الذي خارت قواه نهائيا. على

هذا، لم يعد سيللا وأصدقائه الرجعيون يهتمون بمثيريدات، بل بمستقبل جيش الديمقراطية الرومانية في آسيا والوضع في روما. وليطلق يديه ويحرر موقفه اشترى سيللا الحاكم أرشلايوس، وعن طريقه عقد معاهدة مع مثيريدات، في العام ٨٥؛ في داردنوس على هلسبون^١. التزم مثيريدات بموجبها بدفع تعويض ألفي تالانت، ولقاء هذا، حافظ تماما على مملكته البونت كلها، مع لقب 'صديق وحليف الشعب الروماني'.

بعد توقيع هذا الصلح المذل لروما مع عدوها الأزرق، مشى سيللا ضد الجيش الروماني في آسيا، وطوقه في ضواحي برغام. رفض جنود هذا الجيش، الذي يمزقه الشقاق منذ زمن، ان يقاتلوا قوات سيللا وانضموا إلى جانب هذا الأخير، لاسيما بمكافأة مرتزقته. وهكذا خسرت روما هذه الولاية الآسيوية من جديد، وصار سيللا سيدها، مع مجلس شيوخ غير شرعي، شكله الرجعيون. تحملت هذه المنطقة الغنية نفقات مدمرة لصيانة عسكر سيللا وعانت ابتزازا واعتصاما لم يعرف لها مثيل: اضطرت أن تدفع الضريبة المتخلفة طيلة سنوات الحرب الخمس وتعويضا من عشرين ألف تالان، أي أكثر بعشر مرات من تعويض مثيريدات.

بعد أن أنهى شؤونه في الشرق، مشى سيللا إلى روما، في العام ٨٣ ق.م، بجيشه وأسطوله الجبار. ولدى انتشار خبر إبحاره من برزوديوم، هبت إيطاليا كلها، ملتفة حول الحكومة الديمقراطية الرومانية: وخلال أيام تشكل جيش جرار للدفاع عنها، يعد استنادا إلى البعض ٢٠٠ كتيبة، واستنادا إلى آخرين حتى ٤٠٠ كتيبة (من ٢٠-٤٠ جحفا)، بقيادة ١٥ جنرا، حسب رواية سيللا نفسه.

اضطر سيللا وقواته إلى نضال دام سنة ونصف لسحق هذه المقاومة. يرجع نصر سيللا وانصاره بهذه الحرب الأهلية القاسية، ٨٣-٨٢، إلى جملة من الظروف الملائمة لحزبه في تلك الشروط. فمنذ نزوله في برونديزيوم، بدأ جيش سيللا يكبر بسوقاته جهزتها على نفقتها العائلات الرومانية الكبيرة، كانت تتوافد نحوه من كل صوب. وانضم إليه متلوس بيوس، أشرس صانع صلح في الحرب الاجتماعية، بكل جحافله. والتحق به الشباب الأرستقراطي بحماس غامر. وقاد إليه الشاب ماركوس

^١ - الاسم القديم للدرنيل- المترجم.

مراسوس، الذي قتل أباه وأخاه الديموقراطيان، جمهرة من المرتزقة الأسبان؛ وقدم له الشاب سنيوس بامبيه، الذي يمتلك أملاكاً واسعة في بيسنوم، خدماته لسيلا على رأس لواء كامل، طوع من أتباعه. وبفضل مساندة أغنى الشرائح، صارت خزينة سيلا بما لا يقاس أكثر جاهزية من جاهزية الحكومة الديموقراطية، التي أرهقتها الاضطرابات لمدة سنوات. استغل سيلا بمهارة هذا المكسب لتفكيك القوات غير المتجانسة، وغير الواثقة بنهوض الجماهير الديموقراطية. كان الجنود ينفرون من الذهاب إلى الحملات البعيدة ولا يريدون الدفاع عن أوطانهم.

قبل إبحار سيلا إلى إيطاليا، حاول سينا أن يتجه لملاقاته في إيريا، لكن قسماً من جنوده كانوا قد تمردوا، لحظة الإبحار إلى إنكون، ورجموا بالحجارة هذا القائد البطل من الحركة الديموقراطية.

جرت العمليات بصورة مأساوية بالنسبة للديموقراطيين في جنوب إيطاليا: بخسارة محدودة، نجح سيلا من بدء المعركة أن يهزم قسماً كبيراً من قواتها، وأن يحاصر جيش ماريوس الشاب في برينست، ويجمده حتى نهاية الحرب. كان سيلا قادراً إذن أن يحتل كل إيطاليا الجنوبية تقريباً، وأن يستولي على روما وأن يطرد خصومه إلى شمال إيطاليا، حيث كان يقوم خليفة سينا، بايروس كاربون، قنصل العام ٨٢، بمقاومة شاقة وصلبة.

من الجميع، كان السامنيون هم الذين قاتلوا بكل حزم وعناد، مدركين جيداً أن شعبهم الذي لعب دوراً جيداً في الحرب الاجتماعية، سيعامل بدون رحمة من قبل سيلا والرجعيين الرومان. فاتجه جيش ضارب من السامنيين بداية إلى برينست، بقيادة بونتيوس تلزنسوس، لإنقاذ ماريوس الشاب، لكنه وقد فشل المشروع مشى بمناورة جريئة مستقيمة إلى روما، بهد تحريرها من المحتل سيلا. وفي أثناء المعركة الضارية بل المستميتة التي دارت أمام باب كولين، صد سيلا، لكن كراسوس، بضربة مفاجئة لمجنبة ومؤخرات السامنيين الذين خرقوا جبهة سيلا، أنقذ قائده وأنهى المعركة بإبادة العدو. حوالي ستة آلاف سامنيتي كانوا قد استسلموا وسيقوا إلى السيرك وذبحوا جميعاً. وبعد هذا خضعت سامنيوم كلها لدمار كان يذكر بعد قرن بالصحراء.

انتهت هذه الحرب الأهلية الطاحنة أخيراً، في العام ٨٢ ق.م. وحل محل الحكومة الديموقراطية نظام الإرهاب العسكري المنتصر والرجعيون الرومان الملتفون حوله بعناد.

نقد تجاوزت المذابح المخيفة كل تخوف. "نشر سيللا الموت في المدينة" يكتب بلوتارك (سيللا، ٤٠). وأمام الرومان المجتمعين، المرتجفين من الرعب، أعلن بوضوح "أنه لا يريد مسامحة أحد من أعدائه". (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٩٥). كتب لوائح ونشرها بأسماء من أبعد، ومن قتل. كافأ بسخاء القتلة والجلادين وعاقب بوحشية كل من قدم أي مساعدة للمنفين. لم يذكر في هذه اللوائح سوى وجوه الحزب الديموقراطي، ومائة ممن أعضاء مجلس الشيوخ وحتى ١٦٠٠ فارس - لكن حسب تعبير بلوتارك "ليس هذا سوى نقطة فسي بحر مقارنة مع إجمالي الضحايا". ألوية مسلحة هاجمت إيطاليا، وأبادت سكان المدن الذين سجلوا إخلاصهم للحكومة الديموقراطية؛ حضر سيللا شخصياً الإبادة العسكرية لسكان برينست. ونشرت لوائح المبعدين في الولايات مثل أفريقيا أو بامبيه، المرسله لهذه لغاية، وبذبح كل الديموقراطيين الذين لجؤوا إليها.

كان ذبح الديموقراطيين يترافق طبعاً مع مصادرة أرزاقهم جملة وتفصيلاً وأراضي الحاضرات كلها. بيعت كل هذه الأملاك بالمزاد العلني، بسعر بخس، وزعه سسيللا على غانياته، على مادحيه وعلى الممثلين المتملقين، أو سرقة ضباطه. اغتنى كراسوس بشكل استثنائي، والثروة التي كدسها، بفضل المضاربات من كل نوع، جعلته أغنى رجل فسي روما. عدا ثمار النهب والغنائم، تلقى جنود سيللا (٢٣ جفل) أيضاً شطراً كبيراً من الغنائم: تقديراً لما فعلوه وزع عليهم سيللا ١٢٠ ألف سهم من الأراضي المصادرة. ويجب ان نسجل أن سيللا، كما فعل الديموقراطيون، أعتق ١٠ آلاف عبد، من أملاك خصومه، ومنحهم حق المواطنة، وجعلهم أتباعه، وأعطى الجميع صفة المولى. وصار بعض المعتق من أخصائه وموضع ثقته.

توج سيللا عمله بإبادة منتهجة لكل إيطاليا الديموقراطية، بدستور العام ٨٢ ق.م الجديد، الأكثر رجعية من دستور العام ٨٨ بغية قمع أي محاولة ديموقراطية. بمبادرة من احد أنصاره، فاليريوس فلاكوس، ("قانون فاليريا")، أعلن سيللا دكتاتوراً لمدى الحياة وذا سلطات غير محدودة: بإرادته يغير القوانين، له حق الحياة والموت على كل مديني روماني، ومصادرة الأرزاق والتصرف بها على هواه. وهب أو إعطاء التاج للملوك الحلفاء، وشيد له نصب مذهب في الميدان العام، ، نقش عليه: "كونيلوس سيللا، فيليكس إمبراطور".

كان سيللا وأنصاره يكرهون بشدة المؤسسات التي أسستها الإنجازات الديمقراطية. لذا ألغى من جديد منصب المحامي العام، وجرده من سلاحه، وليفقد هذه المؤسسة اعتبارها، أعلن أن من يزاولها غير جدير بمزاولة منصب قضائي أو تنفيذي آخر؛ انتزعت مكاتب القضاء من الفرسان وأعيدت لمجلس الشيوخ؛ وأبطل توزيع القمح أو الأرض على الشعب نهائيا.

وجهت هذه التدابير بمجملها ضربة قاصمة للحركة الديمقراطية الرومانية والإيطالية لم تنهض من تحتها. انخرطت الدولة الرومانية في طريق جديد، أفضى إلى دكتاتورية عسكرية وعبودية.

الفصل السادس والخمسون

أزمة النظام الجمهوري

دكتاتورية سيللا، أولغارشية السنطة (٨٢-٧٠) ق.م

ثمة اتجاه ملائم للمفاهيم الدارجة تماما، لدى مؤرخي أوربا الغربية المعاصرين (ج. كركوبيتو، ف. شور)، وهو أن سيللا كان المثال والقدرة، والرجل الذي "أنفذ الجمهورية من التعصب الديماغوجي-الذرائعي". يذم فقط "لأنه تخطى طوعا عن سلكته العليا مع أن أحدا لم يطلب هذا منه.

شاعرا بالأمان التام، بين الرجال الذين يرتجفون فرقا أمامه، اعتزل سيللا الدكتاتورية شكلا، في العام ٧٩، دون أن يتنحى فعلا عن أي من الحقوق المرتبطة بهذه المهمة. منسحبا إلى ملذاته في بيته الريفية، حيث "كان يقضي الأيام بالقصف والمجون" (بلوتسارك، سيللا، ٤٥)، دبح قوانين لمدن الضواحي، يدعو إليه القضاة والحكام الذين كانوا يجلونه ويميتهم بأيدي خدمه. ولما مات في العام ٧٨، أقيمت له في ميدان مارس، جنازة ملكية. حمل جسده إلى مثواه الأخير، محاطا ببلاطات حملة الفؤوس، الموسيقى العسكرية وألفي تاج ذهبي. واكب مجمع الأحرار ومجلس الشيوخ كله محفة التشييع، ودلف رجاله من كل إيطاليا. "... مايزال حامل النعش يخشى، هو بالذات، وجيشه، وأجويته الموت، كما لو كان مايزال حيا". هكذا يصف أبيان بأسلوب رائع أولى الأحرار الإمبريالية في روما (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١٠٧).

مات سيللا، فوجد النظام الجديد الأولغارشي الرجعي، الذي فرضه على روما، وجد نفسه مقطوع الرأس، وبالتالي، غارقا في حالة من الفوضى والعجز التام. حتى عن التفكير بأي انقلاب. أثار موت سيللا انطلاقة استثنائية لعمليات رجال الأعمال والمضاربين من كل نوع، وليس فقط الفرسان وجباة الضرائب، وضامنو بيت المال، والمرابسون، ومنظمو الجيوش والغشاشون كانوا خلال وقت قصير ينهارون بسبب الخسائر الناجمة عن هذه

الأزمة في نهاية الثلاثينات، بل أيضا اغتلى بعضهم بشكل فضائحي على حساب الآلام العوام، طيلة هذا العهد القاتم الموسوم بكل أسباب الظلم والعنف والدمار، بين عامي ٨٠ و ٧٠. حقل واسع من النشاط فتح أمامهم، في الولايات الشرقية التي أعيد احتلالها، وكبلت بوزر التعويضات والعقوبات من كل نوع، تأمين نفقات الجيوش، البيع بالمزاد العلني، وبأسعار تافهة، للأراضي والبيوت وباقي الأرزاق المسجلة. إن هؤلاء "الناس الأشراف"، كما يدعواهم عادة شيشرون. كانوا يحتقرون بطانة الملك الرجعية البطانة العاملة على استمرار الحياة الرومانية في إطار خانق من الماضي؛ ويحلمون بحكومة قادرة وحربية، أنسب لتطلعاتهم الاقتصادية. فأنطلقت نظرتهم الشرهة إلى مصر، سوريا، منطلق الفرات، وأيضا، نحو مناطق الهند الخيالية، والصين وأرمينيا والقفقاس. فشنوا حربا ضد مثريدات الذي فتح لهم درب الشرق.

بهذا الصدد كانت آراؤهم منسجمة مع عدد كبير من أقرب رفاق سيللا، الذين ما كانوا في حياة الدكتاتور، يوافقونه على حلفه المتين مع الرجعيين. هكذا كان وضع معاونيه الشباب سنويس بامبيه، الملقب "الكبير" بسبب نجاحاته العسكرية، وخصمه، لسنيوس كراسوس، "الغني". كان بامبي، المالك العقاري الثري، يمارس أيضا الريا على مدى واسع، ويوظف ثروته الطائلة في العمليات المثمرة المالية، في إيطاليا وفي المحميات. ولقد اشتهر كراسوس بمضارباته المربية، في أيام إيعادات ومصادرات سيللا، التي جنى منها الملايين. كان يشتري بسعر بخس الحقول الجيدة، ولا يتردد عن أن يحوزها بالعنف والتهديد. وعندما تشب إحدى الحرائق الكثيرة في روما، يأتي إلى مكان الكارثة مع فريق من عمال الإطفاء المؤلفين من العبيد ويفتدي بسعر مناسب من المالك المنكوب البيت الذي ما يزال يحترق وكذلك أملاك الجوار، ويعيد بناءها بأيدي عبيده المعماريين. وبهذه الوسيلة، يكتب بلوتارك، امتلك قسما كبيرا من روما. كان يحوز عدة مناجم فضة، وأراض على علاقة وطيدة مع الكثير من الحراثين الذين يرفعون قيمتها. لكن هذا لاشيء إذا قورن بما يجلبه له عبيده". كان يبحث أيضا عن الشعبية، دون أن يخشى أن يقع في الديماغوجية. كان "الرجل الأمهر في كسب ود الناس بمديحهم"، وكان يخاصم إن شاء بنبوغ معروف (بلوتارك، كراسوس، ٧).

كان بامبيه، كراسوس ومزاحمهم الكفاء إميليوس لايبديوس، والأقل شهرة منهم

يمثلون في حياة سيللا، المعارضة في معسكر الدكتاتور، بين أعوام ٨٠ و ٧٠، انقبت وجهات نظرهم أكثر فأكثر مع وجهات نظر جبهة الضرائب والفرسان لإدانة نهج الحكومة جملة وتفصيلا. وانتقل ليبيد إلى الحزب الديمقراطي وراح يطعن على المكشوف سيللا ونظامه، وفي العام ٧٧، ترأس إضرابا فعليا أرثه بقايا الحزب المارياني، رغم انه كان آنذ قنصلا في الحكومة التي أتت بعد الدكتاتورية السيللية. وأقام علاقات مع الديمقراطي الجموح المندفع ماركس جونيس بروتس، الذي دفع إلى التمرد فلاحي الغول السيزالين: الحركة الحاسمة التي قضت على ليبيد بعد استيلاء بامبيه على موتينا، وموت بروتس، الذي أعدم في هذه المدينة.

كان كل الغاضبين على نظام سيللا ينظرون بأمل إلى إسبانيا، حيث بقي قيادة من الديمقراطية الرومانية التي خلقت لنفسها ميدانا مربحا منيعا جدا، بفصل الأذكياء الذين تحالفوا مع حركة التحرر الوطني لهذه الولاية. وشكلوا مجلس شيوخ لهم من المنفيين، وحكامهم ووزراء ماليهم، وجحافل من التمرديين الإيبيريين، المسلحين والمدربين على الطريقة الرومانية، بقيادة ضباط رومان من الجذب الشعبي. كان قائد هذه الدولة الديمقراطية رومانو-إيبيريين أحد الأصدقاء الموثوقين ورفيق سلاح سينا، كونتس سرتويوس، الضابط الماهر الجريء، المنظم المعروف. سمي محافظا في أسبانيا في عهد سينا وتمكن من معالجة بعض مشاكل سكان الأقليم: قلص الضرائب، أعفى السكان من عسكرة القوات، وخلق مدارس للإيبيريين (بلوتارك، سرتوريوس، ٧-١٤).

كانت كل أسبانيا، حتى إيبيريا، قد نهضت عفويا لدعم سرتوريوس، وفي روما، كانوا ينتظرون رؤيتها تمشي إلى إيطاليا، على مثال هانيبال. فقد اضطرت الحكومة الرومانية أن تخوض ضده صراعا ضاريا لمدة ثماني سنوات (٧٩-٧١)، زودت أسبانيا بخيرة قواتها وأكفأ قادتها (كاسليس، بامبيه)، الذين مع ذلك، ذاقوا هزيمة حاسمة. وليس إلا بفعل مؤامسة حبكهم أفراد جبناء تسللوا إلى محيط سرتوريوس، وذبحوه، نجح بامبيه أخيرا بقمع أسبانيا. حرق بامبيه أرشيف سرتوريوس (٧٢)، ليقضي على كل الدلائل الدكية بينه وبين العديد من وجوه روما.

كان عجز الحكومة الأولغارشية كبيرا بحيث مولت الحرب الأسبانية بأموال الخاصة وقادتها "جيوش الخاصة" لبامبيه ومتلوس. وكانت حرب الشرق التي شبت في تلك الحقبة،

مشروعاً فردياً (اقرأ أبيان، متريداتيكا، ٦٩ وبعد). أدرك ملك أن معاهدة دردنوس (٨٥) لم تكن سوى هدنة، أعد نفسه بنشاط لصدمة حاسمة، فتمون بالخشب لبحريته، عمر بواخر، كوم أسلحة وجمع حتى ٢ مليون بود قمح، في مستودعاته الحربية على شواطئ البحر الأسود.

كان تحت تصرف متريدات أسطول حربي جبار من حاضرات اليونان من ضفاف أوكسن، وكان واتقا من تحالف الشعوب البربرية، الموزعة على القوس الساحلي الواسع، الممتد من شرق القفقاس حتى الدانوب، أي حتى البلقان. كان حليفه ونسيبه تيغران الكبير، ملك أرمينيا المقتدر، الذي تعد دولة آنذ ليس فقط كل شرق القفقاس، بل أيضاً، سوريا، بحيث كان تيغران يسمى "ملك الملوك"، وفخر بأربعة ملوك يتبعونه. ويأتي أخيراً فراتس الاسم الأقل عتوا لملك فارس، هو الآخر وعده بدعمه، الذي كان ينظر بقلق شديد إلى التغلغل المتزايد لرجال الأعمال، التجار والمرابين الرومان في آسيا.

وعندما خسر نكوميد، ملك بيتيني، الديون التي فرضها على جباة الضرائب، أوصى وهو يموت بمملكته للرومان الذين كانوا يستعدون لوضع اليد عليها، لكن متريدات سبقهم ودخل المملكة واحتلها (٧٤). انتفضت بيتيني كلها واستقبلته بغبطة، بأمل أن يكسر نير المرابين العاتي والمضاربين الرومان. وولجت شعوب ثراسيا ومقدونيا من الجنوب. وغزت بحر إيجه مراكب القراصنة، حلفاء متريدات، وكان الوضع يذكر بالنكبة التي زعزت الشرق الروماني قبل ١٥ عاماً.

وفي العام ٧٤، أرسلت حكومة روما ضد متريدات القنصلين، م. أورليوس كوتا ول. لسينوس ليكولس، اللذين لم تستطع إعطاء كل منهما أكثر من إقليم. وبالتالي هزم متريدات خصمه كوتا على الغوركوتا وطوقه في شالسودان. إما ليكوس، الذي كان ذراع سيللا الأيمن، اتبع في هذه الحرب أساليب سيده: جند هو نفسه قواته في البلاد وعلى مناهل البلاد وأرزاقها، فاجبر متريدات على الانسحاب نحو الشرق. وأرسل لمطاردته أسطول المؤلف في الوطن، في الحاضرات اليونانية للشاطئ الغربي من آسيا الصغرى الذين خشوا متريدات، لأنه خاتهم في الحرب السابقة. وجه لوكولس أشرعته نحو الشرق، على طول ضفاف آسيا الوسطى، احتل مدن بيتيني وغزا البونت، وكبر جيشه بقاء جديد للمرتزقة الطامعين بالغنائم، فمشى نحو الشرق، وأتعب قاداته من استيعاب حماسه للصوصية.

دام الخضوع والدمار الممنهج لمملكة البونت المتروكة لقدرها على يد العاهل سسنتين (٧٢ و ٧١). وبدأ القادة القابعين في التكنات المنيمة الانتقال جمهرة إلى جانب لوكوس وابن مثريدات نفسه، ماشارس، حاكم اليوسفور، بعد أن دعم لمدة طويلة وعن طريق البحر سينوب، عاصمة البونت، التي يحاصرها الرومان، خان أباه وبعث إلى لوكولس تاجاً ذهبياً. وكانت الحاضرات اليونانية الكبرى مثل هركلييه وسينوب، التي تدين بازدهارها لوجود دولة البونت القوية التي بناها مثريدات، الحاضرات الاطول والأحزم مقاومة، الأمر الذي كلفهم الدمار على يد الرومان (انظر ممنون، تاريخ هاكلييه، ٤٧-٥٢).

مع حملة لوكولس، دخلت منطقة البحر الأسود لأول مرة في فلك الإمبراطورية الرومانية. مشيت الجيوش الرومانية على سواحل هذا البحر الجنوبية والغربية وشكلت ولايتي بيتيني والبونت. اجتاز أخو سفير المشرع، ماركوس لسنوس لوكوس، العامل ضد الثراس حلفاء مثريدات وضد البسترن، اجتاز البلقان، وصل شجر الدانوب وأدخل إلى الحلف الروماني المستعمرات اليونانية على ساحل ثراسيا، استرا، تومي، كلانس، أودسس وغيرها (٧٢-٧١)، فارضاً على الحاضرات نيراً غليظاً من التأكيد والغرامات التي لا تنتهي.

إن التهكم والابتزاز، والاعتصاب والعنف الذي مارسه الحكام السيليين-سيللا، بإشراف مجلس الشيوخ وأتباعهم الكثر، مورس بقسوة أيضاً في الأقاليم الأخرى. ومحافظ سيسيليا، دولابيللا، خليفة الدكتاتور المتوفى، اشتهر، بسلب بلا عقاب أو ابد الفن القديم، المعابد والدارات فريدة المثال. فجمع هكذا مختارات ضخمة وثمينة. ومساعدة س. فيرس، فيما بعد محافظ سيسيليا (٧٣-٧١)، عمل أيضاً بنفس الوقاحة والسفه. وبهذه المرافعات الشهيرة *les verrines* (٧٠) وشى شيشرون المدافع عن مصالح جباة الضرائب والفرسان المتضررين من هذه المنافسة، "بمأثر" فيرس في سيسيليا، ليشهر بطريقة محكمة إدارة رجال سيللا.

لقد أسفر النظام الرجعي الذي تركه سيللا لروما عن تخريب حكومة الجمهورية ونصرة العوامل الاجتماعية الأكثر التباساً.

تمرد سبارتاكوس

في هذه الشروط التي تحمل الدمار القريب، هيأت الجمهورية الرومانية العبودية لتمرد

جديد وهائل، بقيادة سبارتاكوس، الذي اكتسح هذه المرة كل إيطاليا (٧٣-٧١)^١. وفي كتابه الهام في الدولة^٢، حدد لينين بدقة وإيجاز هذه الأحداث، فقال: "كان سبارتاكوس بطلا عظيما في واحدة من أعظم عصيانات العبيد، منذ ألفي سنة تقريبا. خلال أعوام كثيرة من حياة الإمبراطورية الرومانية، المبنية كليا على العبودية والتي كانت تبدو وطيدة الأركان، هزها وزعزها تمرد العبيد الهائل المسلح وحشد، بقيادة سبارتاكوس، جيشا جرارا".

يدعو مؤرخو الزمن القديم، وعيا منهم لأهمية وطبيعة هذه الحركة، عادة، "حرب العبيد" أو "حرب سبارتاكوس"، ويكتب أوتروب، أنها كانت "حربا ربما أصعب من الحرب التي شنها هانيبال". ومن الاهتمام التفصيلي الذي أعطاه سالوست بعد ٣٠ عاما في "تاريخه"، لم يصلنا لسوء الحظ إلا بعض المقاطع العجاف. والكتب الثلاثة (٩٥، ٩٦، ٩٧) التي خصها تيت-لايف لهذا العصيان قد ضاعت هي الأخرى، فراجعنا الرئيسية تنحصر في شيء من مقاطع بلوتارك في "حياة كاسيوس" (الفصل ٨-١١) وأبيان في "الحروب الأهلية" (١، ١١٦-١٢٠)، إجمالا ليس أكثر مما أعطانا ديودور لثمردات العبيد في سيسياليا. ولا يمكننا أن نضيف سوى بعض الجمل المبعثرة، في مختصرات الكتسابين ٩٦ و ٩٧ لتيت-لايف، وكذلك من كتب فلور، أوتروب، أوروز وكتاب آخرين. ونحن لا نملك نقشا واحدا يتعلق بهذه الأحداث. فقط، جدارية اكتشفت حديثا في بامبي تمثل، على الأقل افتراضا، سبارتاكوس على ظهر جواد، في أثناء صولته الأخيرة ضد الرومان^٣.

بدأت الانتفاضة بمؤامرة، كما كانت تبدأ بشكل عام حركات العبيد، لكن المنتفضين كانوا هذه المرة رجالا اعتادوا امتشاق السلاح: اشترك فيها حسب بلوتارك ٢٠٠ عنصر من مدرسة مصارعين، كانت في كابو. لكن ٧٤ منهم فقط استطاعوا الهرب، وفي أثناء هربهم تسلحوا بسكاكين المطبخ، والسفافيد، والعصي، ثم بأسلحة جلادين كانت لدى موكب

^١ - يشير أوزور وأوتروب بصورة دقيقة إلى العام ٧٣، في عهد قنصلية م. لسنيس لوكوس وكاسيوس فاريوس.

^٢ - لينين. في الدولة. منشورات باللغة الأجنبية، موسكو ١٩٥٤، ص ١٩.

^٣ - لقد جمعت كل المقاطع والصحاف التي بقيت من مؤلفات القدماء حول هذه الحروب، في مؤلف الأستاذ أ. ميشولين "تمردات سبارتاكوس"، م. ١٩٣٦.

ما وقع بين أيديهم، وبعض أسلحة الحرب، ولجؤوا إلى مخابي منيعة في سفوح فيزوف. لكن هذا الحدث، العادي جداً في ذلك الزمان، كان نقطة انطلاق لحركة محلية عجزت قوى الأمن عن قمعها. بعد الحرب الاجتماعية وحملات سيللا، بامبيه، لوكولس، خنقت إيطاليا العبيد أكثر من أي وقت آخر، والمتمردون السابقون، الإيطاليون، الثراسيون، الغاليت، مساجين بعد نضال ضار، هم الذين كتموا حقداً كبيراً على روما وأفعالها الحربية. كان قائد هؤلاء اللاجئين، سبارتاكوس، ثراسي الأصل. "كان قد خدم في حفل ما (في قوات ميثريدات)، وكأسير بيع كعبد" (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١١٦)؛ كان رجلاً مميزاً بقوته الجسدية والشجاعة الاستثنائية مضافة إلى حذر ولطف أكبر من ثروته، بكثير ويليق لأن يكون يونانياً لا بربرياً" (بلوتارك، كراسوس، ٨). والقائدان الآخران، أونومايس وكركوس، اللذان ينتميان إلى عرق محارب وجموح هو أحد أعراق الغولوا في آسيا الصغرى (الغالات)، كانا أيضاً قد خدما في صفوف جيش ميثريدات، فسي أثناء حربه ضد سيللا. ولم يتردد عدد من نفس المعدن عن الانضمام بحماس كبير إلى نواة التمرد، وهذه سرعان ما كون على سفوح فيزوف وحدة من سبعة آلاف رجل. يؤكد بلوتارك أنهم كانوا يضمون نساء، وبخاصة، زوجة سبارتاكوس، التي كانت من الأمة ذاتها.

يجب أيضاً أن نقيم وزناً للحالة الروحية التي كان يعيشها شعب إيطاليا الحر وبخاصة كامبانيا التي دمرتها الحروب الاجتماعية والأهلية، ومصادرات سيللا، والتي شوشتها نداءات الحرية التي كان يوجهها إلى العبيد قادة الانتفاضة الإيطاليون، ثم الحزب الشعبي. في هذه الحروب الداخلية، كان تجنيد جحافل كاملة من العبيد يتم من كل حدب وصوب؛ والجحيم الذي كان يفصل سابقاً العبيد عن الناس الأحرار من الطبقة السفلى كان قد تقلص بشكل ملحوظ. ويمكن أيضاً أن نصدق أقوال أبيان، القائلة أن فلاحين فقراء، أحراراً، انضموا إلى الحركة، ويذكر ساللوست، أن الميليشيات المحلية كانت تنفر وتشمز من القتال ضد المتمردين: "كان البعض يهرب، لأحد يعرف إلى أين، رغم الأوامر القاسية؛ وآخرون يرفضون الخدمة بخزي" (تاريخ، ٣، ٦٧، ١). وهكذا اتسعت الحركة جداً، واستطاع سبارتاكوس أن ينزل ضربات قاسية بخصومه، لابل أن يهزم عدة مرات الميليشيات المحلية بقيادة الحكام كلوديس، فارنيوس وسفرائهم المرسلين من روما. وقتل واحد من هؤلاء،

كوسنيوس. ووجد الحكام معسكرهم، وحملة فؤوسهم، وخيول القتال وقد خطفها المتمرديون، الذين قاموا بغزوات ارتجالية على مخبرات القوات الرومانية واستخدموا كل الحيل الحربية (انحدروا دون أن يروا من أعالي صخورهم بواسطة سلالم جدلوها من أغصان الكروم، وهبطوا فجأة على العدو أو الأصح، أقاموا الجثث بمثابة الحرس، وانتزعوا الخيام دون جلبه في جنح الليل.

لكن الانتفاضة أخذت مدى واسعاً عندما ربح سبارتاكوس، على رأس قوة قادرة، ربح من كمبانيا، جنوب إيطاليا، ليعمل في مناطق تدجين لوكانيا وبرتيوم، "يوم انضم إليه من الرعاة العبيد" كل الرجال المحاربين المهرة (بلوتارك، كراسوس، ٩). وكان قد نجح في تكوين جيش حقيقي، يقدره أبيان بـ ٧٠ ألف رجل. كانت كل الأرض الواسعة من متبوننوم على خليج تارانت حتى كونسانتيا في وسك برتيوم كانت تحت سلطة المتمردين (أوروز، ٥، ٢٤، ٢). عن هذه الحقبة يتحدث أبيان: إن مدينة توريوم كانت النقطة الرئيسية لتجمعهم، حيث يتمون استعداداتهم الضخمة لمتابعة النضال. "احتل الجبال التي تجاور توريوم؛ واستولى على المدينة ذاتها. منع التجار من بيع الذهب والفضة، ومنع أنصاره من أن يشتروا شيئاً من هذا. وماكانوا يشترون سوى الحديد والبرونز، وبثمن مرتفع وكانوا يرحبون بمن يبيعهم هذين المعدنين. بحيث يتجهزون بالضروري فقط؛ ويتسلح جيد كانوا يغزون من حين لآخر الشعوب المجاورة. وتقاتلوا مرة أيضاً مع القوات الرومانية، وهزموها، وعلى حسابها كونوا غنيمة ثرية". (١، ١١٧).

وبفعل عجز وغفلة الحكومة السيلالية -سيللا- يبدو أن سبارتاكوس كان يتأهب طيلة عام ٧٣. لم يكن راضياً عن تسليح قواته، فحاول ضبطها. وكانت الغنيمة توزع أيضاً وكان تداول الذهب محرماً. يسجل سالوستر بدهشة أن سبارتاكوس، كان كبيراً "بقواته جسداً وروحاً، يتصرف في الأغلب بقناعة وليس بأساليب الوحشية واللاإنسانية المعروفة في انضباطية الرومان الحربية.

يكتب المؤرخ ذاته، مثلاً أن سبارتاكوس كان يحذر من الإفراط بالعنف الدموي الذي قد يرتكبه العبيد، عند احتلال القرى. كان يمجّد تقاليد أتينيون، أمراً "بصيانة البلد كما يصاب الملك الشخصي". لكن خلافات حادة، تصل لحد الفرقة والانشقاق، تثور بين القادة بهذا الصدد، ودرماً استناداً إلى سالوستر "قد تنشبت حرب فعلية في معسكر العبيد، في موضوع

خطة العمليات". "انشق كريكس وأخوته في المحتد، غولوا وجرمن"، الذين كانت الصناعة العادية تنهب في وطنهم، وأقاموا معسكرهم في أبوليا، قرب جبل غارغانو. وهنا حاصرهم الرومان وأبادوهم.

لكن سبارتاكوس كان آنذ قوياً بحيث أن حرباً متواصلة ضده صارت، حسب تعبير بلوتارك، "واحدة من الحروب الأكثر كلفة والأخطر" تتحمل روما مسؤوليتها (كراسوس، ٩). كان عليها أن تسيّر ضده كل قواتها القتالية، جيش قنصلي العام ٧٢، ل. يوليوس بوبكولا وس. كورنليس لانتوس، لكن محاولة تطويقه انتهت بهزيمة محكمة.

وبقي شطر من متاع الرومان بيد المتمردين. يؤكد أوروز بدون التباس أن "القنصلين، بعد أن حشدا قواتهما بدون جدوى، انهزما بعد معركة رهيبة". فضلاً عن هذا، فقد انتقل سبارتاكوس، على رأس جيش يصل إلى ١٠٠ ألف رجل، مسلحين ومجهزين بعتاد غنمه من الرومان، انتقل بحزم إلى الهجوم، لأول مرة في تاريخ الحركة العبودية. من سامنيوس، حيث بدأ القتال الذي تكلمنا عنه، مشى نحو الشمال عن طريق الجبال حتى مينيّا (قرب سهل البو حيث هزم مشترع غول سيزالين، ك. كاسيوس لونجينس، الذي حاول أن يسد عليه الدرب).

في الحالة الراهنة واستناداً إلى مراجعنا لن نستطيع أن نعين بطريقة لاتقبل الرد الأسباب التي دعت سبارتاكوس لأن يتوجه إلى الشمال بداية بجيشه ثم يعود به إلى الجنوب. إن بعض المؤرخين القدماء، محاولة منهم للتغلل في خطط سبارتاكوس، نسبوا إليه الرغبة في الخروج من إيطاليا مع جيشه. "كان سبارتاكوس يثبت أنه كان آنذ قوياً وجباراً" يكتب، مثلاً، بلوتارك، مقوماً بحق جبروت المتمردين القتالي، لكن، يتابع (لننتقل عياناً إلى الظروف)، فقبل أن ينبهر بانتصاراته، اتخذ تدابير في غاية الحكمة، وبدون أن يزدهي بالظفر على الآلة العسكرية الرومانية، قاد جيشه إلى الألب، مقتنعاً بصحة خطته لكي يجتاز هذه الجبال وأن ينسحب كل إلى بلده البعض إلى الغول، والآخرين إلى ثراسيا (كراسوس، ٩). (سالوست) ويؤكد بلوتارك مستنداً إلى المرجع ذاته أيضاً أن مسيرة سبارتاكوس كانت أصلاً ذات طابع "انسحابي" إلى خلف الألب والغول، لما وصل أحد القنصلين لسد الطريق عليه، بينما يدفعه القنصل الآخر نحو مؤخراته. (الحروب الأهلية، ١، ١١). لكننا نجد لدى أبيان شاهداً في غاية الأهمية، يثبت أن سبارتاكوس، بعد أن قطع

مضائق الألب، راجع نفسه، وقرر العودة إلى روما: "سبارتاكوس.. [القناصل] ليظهر الواحد بعد الآخر، ويفرض عليهما الانسحاب مشتتين. ولقد قدم سبارتاكوس ٣٠٠ ضحية رومانية قربانا لكريكس. وأخذ بجيشه البالغ ٢٠ ألف رجل مشاة وعلى عجل الطريق إلى روما، بعد أن أحرق كل العتاد النافل، وأعمل السيف برقاب المساجين، وصرع كل دواب الحمل... وقت الكثير إلى جانبه لينضموا إلى جيشه؛ لكنه لم يشأ أن يقبل أحدا". (المصدر السابق) ويؤكد بلوتارك (كراسوس، ١٠، ١١، ١) أيضا وجود هذه الخطة، وكذلك فلور، الذي استقى معلوماته من تيت-لايف ("مزدهيا بانتصاراته قرر سبارتاكوس السير إلى روما").

يعلل مؤرخو هذه الأيام بأساليب متغيرة هذا السلوك الغريب والمنقلب لقائد العبيد المتمردين. يفرض البعض أن سبارتاكوس فقد سطوته ونفوذه على جيشه الذي أراد المتابعة لنهب روما؛ ويؤكد آخرون أن الفيضان منعه من اجتياز نهر البو، أو أن سبارتاكوس خاف مقاومة البلدان الريفية في الغول غرب الألب، أو أخيرا تهيّب صعوبات عبور الألب. الفرضية الأقرب إلى المنطق هي أن سبارتاكوس، مدفوعا بتألقه القتالي، وضع خطة السير إلى روما.

وهكذا بدأ جيش العبيد الرهيب التوجه إلى الجنوب. كانت روما تعاني من ضائقة، وكان آخر رفاق سيللا، الذي كان جاهزا أنثذ في العاصمة، ل. لسنوس كراسوس، "بطل معركة باب الكولين، الذي استلم السطات الدكتاتورية"، قد وضع على رأس قوات الجمهورية، بما فيها فلول الجيشين القنصلين اللذين بددهما سبارتاكوس. كمالك كبير للعبيد يهتم بحيوية سحق التمرد. تكاثفت معه جمهرة من هذه الفئة، أمام هذا الخطر المحدق أعيد العمل بالتدابير الانضباطية المتوحشة الممارسة في العصور الغابرة: أبيتد الوحدات التي هربت من الجبهة: كانوا يقتزعون على عشرات الجنود، ومن يصيبه القدر يقتل. هكذا صرع كراسوس ٥٠٠ رجل دفعة واحدة؛ بل يتحدث أبيان عن ٤٠٠٠ إعدام. فدعي جيش م. كوكولس على عجل من ثراسيا، وجيش بومبيه من إسبانيا.

على رأس القوات الضخمة، المسحوبة من كل إيطاليا، حاول كراسوس سد طريق سبارتاكوس، عند تخوم بسنوم. لكن مناورته التطويقية فشلت: والجحفلان المكلفان بحركة التفافية بقيادة السفير ميموس، تبعثرا فلولا وشرادم، لكن جمهرة من الجند هربت ونجست، بعد أن ألقت السلاح. إنما أبيان يزودنا بهذه الواقعة الهامة: "رغم هذا النجاح، عزف

سبارتاكوس عن مشروعه الأول في السير إلى روما، لأنه أحس أنه لم يتقن بعد فن الحرب، وأن كل هذه الحشود لم تشكل جيشاً مناسباً (الحروب الأهلية، ١، ١١٧). وبعد معركة بسنوم، تابع سبارتاكوس إذن سيره نحو الجنوب، مقدراً عبور سيسيليا. وهنا يأتي ما ينقله لنا بلوتارك: "إن سبارتاكوس، الذي اجتاز لاكونيا وانسحب نحو البحر، لدى مصادفة قراصنة سيسيليين، كون مشروع عبور سيسيليا وتخصيصها بألفي رجل؛ كفى هذا العدد لإعلان العبيد الحرب في هذه المدينة، الحرب التي، لم ترمد نارها بعد، لم تكن بحاجة لسوى مشعل بسيط ليئلهب المجتمع كله" (بلوتارك، كراسوس، ١٠). كان الشطر الأكبر من قواته في شبه جزيرة رجيوم، في طرف بروتيوم، ومن هنا راقب بهدوء أعمال كراسوس ليطوقه: "مد كراسوس من بحر إلى آخر خندقاً طوله ثلاثمائة مرحلة، وعرضه وعمقه ١٥ قدماً بنى عليه سوراً سميكاً وعالياً بشكل مدهش" (المصدر ذاته). وعندما تبين أنه لا يستطيع الاعتماد على التمرد في سيسيليا، لأن القراصنة كانوا قد خانوا ولم يقدموا المراكب الموعودة، وعبيد سيسيليا، المكبلين بنظام رهيب، لن يجرؤوا على الانتفاض من تلقاء أنفسهم، هجم سبارتاكوس في جناح عاصفة ثلجية من ليل شتوي، على خطوط المحاصرة فوجد نفسه عند مؤخرات العدو. "خشى كراسوس أن لا يرغب سبارتاكوس في السير مباشرة إلى روما"، التي كان دربها مشرعاً.

لكن في تلك البرهة وصلت الجيوش المدعوة من ثراسيا وإسبانيا. الأمر الذي فرض على سبارتاكوس أن يمشي أولاً إلى قوات لوكولس، المهيأة للإبحار إلى برونديزيوم، قبل أن يتوفر لها وقت التمرکز والانتشار. لكن برونديزيوم، المرفأ الروماني الهام الحربي على البحر الأيوني، كان في غاية التحصين والمناعة من أن يؤخذ من الهجوم^١. فالتف سبارتاكوس آنئذ حول كراسوس، بحثاً عن المعركة الحاسمة. قبيل هذا كان جيشه أصيب بهزة ما لأن جمهرة غاضبة من الجند تخلت عنه، على رأسها كايوس كانكوس (الأرجح أنه من ميثاق إيطاليا) وكاستوس. ولقد دمر كراسوس الاثني عشر ألفاً هؤلاء الذين شكلوا وحدة منعزلة. وجرت المعركة الأخيرة بين سبارتاكوس وكراسوس في ضواحي شمال

^١ - ليس لسبارتاكوس أبداً أن يفكر بالانتقال إلى اليونان بحراً، لأن نقل جيش جرار كهذا يحتاج مئات المراكب.

لوكانيا. "دام القتال طويلا وضاريا؛ لأن رجال سبارتاكوس كانوا يقاتلون بيأس. لكن سبارتاكوس جرح أخيرا في فخذه بضربة سهم. سقط على ركبته. وبحماسة درعه، راح يقاتل أولئك الذين هاجموه، حتى استسلم، هو وعدد كبير شكل حلقة حوله. ومن بقي من جيشه، تشتت وبعد موت القائد تحول إلى فلول. كان عد الصرعى، من جانب الجلادين، لا يحصى. فقد مات هنا ألف روماني. وكان محالا العثور على جثة سبارتاكوس." (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١٢).

يقدم بلوتارك رواية أخرى لموت سبارتاكوس: قبل المعركة، "حينما أتى له بحصانه، انتضى سيفه وقتله: "لقد مكنتني النصر أن أجد كفاية من الخيول الطيبة بين خيول أعدائي، وإن هزمت، فلست بحاجة له". وبهذه الكلمات اندفع إلى وسط الأعداء. سعيا للوصول إلى كراسوس،... قطع بيده نطاقين كانا يحيطان جسده. أخيرا، تركه من حوله، بقي وحيدا بين الأعداء، وسقط صريعا لكن بثمن غال جدا" (كراسوس، ١١).

حتى بين قصص كتاب العهد القديم، نشعر بالاحترام العميق لهذا القائد العبد المتمرد، الذي صار بين الشعب بطلا خرافيا. وصار اسمه شبحا مخيفا، لدى كل المجتمع المبني على العبودية، الذي عاش في خوف يقض مضجعه من تمرد جديد من هذا النوع.

سحقت حركة العبيد. وصرع سبارتاكوس. وفلول جيشه التي تبعثرت بين الجبال، أبيدت شيئا فشيئا. صلب كراسوس ستة آلاف سجين في الطريق من كابو حتسى روماء والعصابات التي تمكنت من الوصول إلى الشمال، أبادها بومبيه، الذي كان يتناول "بإقتلاع جذور هذه الحرب" لكن قضية سبارتاكوس، التي هزمها السلاح، كانت ظافرة خلقيا، وإذا كان مؤرخو العالم العبودي، مثل بلوتارك وأبيان، اللذين عاشا في القرن الثاني بعد الميلاد، يحملون حكما مبصوما بالتعاطف مع شخصية سبارتاكوس، فذلك لأنهم رأوا منذئذ أن أساليب استغلال العبيد الممارسة في أيام كراسوس كان مرفوضة وخطرة. لقد عكس المؤرخون روح الأجيال الجديدة من مجتمع العبودية. التي بدأت ترى أن عمل العبد يعامه لم يعد مجديا وراح ينتقل إلى أشكال أخرى في استثمار الكادحين، -الوفر، الاستيطان. إن هذا التطور البليغ تجاه العبودية لمس منذ تمرد سبارتاكوس وجعل يطلق أهميته التاريخية على حركات العبيد لأعوام ٧٣ و٧١: ولقد شرع بالانتقال إلى علاقات أخرى اجتماعية واقتصادية، أكثر تقدما وتقدمية.

آخر حركة الشعبيين في روما. "مكيدة كاتلينا"

لقد تزامن تمرد العبيد مع تجدد نشاط الحركة الديمقراطية في روما. فمنذ العلم ٧٧، حاول الشاب كابوس يوليوس كيزر (تولد ١٠١ ق.م) ابن أخ زوجة ماريوس وصهر سينا، الذي نجا بأعجوبة من مذبة ذويه، وكان يعتبر واحدا من القادة الذين بقوا من الحزب الديمقراطي، حاول التصدي بجرأة لأحد الكواسر من السيسيليين -سيللا-، كورنيليس دولابيللا، الصديق الشخصي للدكتاتور. وفي العام ٧٣، عام انتفاضة سبارتاكوس، نصح محامي الشعب الجسور، س. لسنوس ماسر، المؤرخ، الذي درس بعناية التغيرات المفاجئة للنضال بين العوام والأشراف، نصح الشعب، مقتفيا خطى أهليه، أن لايقبلوا لمصلحة الأغنياء أو ينضموا إلى قضيتهم ورفض الخدمة العسكرية. واستنادا إلى سالوست. هناك أستاذ نظام سيللا، هذه الـ"عبودية الشاملة، التي جعلت من الشعوب حيوانات". وبعد هذا، وفي العام ٧١، رفع شيشرون، الذي كان ينتمي للديموقراطية، دعوى مدنية ضد اختلاسات فيرس الذي ولاه سيللا على سيسيليا. وقد أصبحت "مرافعات" شيشرون بالفعل بصمة الاتهام لكل النظام الفضائحي وأنزلت به ضربة قاصمة.

وفي العام ٧٠، عبر رجال من أنصار سيللا على المكشوف لضرب الديمقراطية. وبعد النصر على سبارتاكوس وسرتوريوس، وصلوا معا إلى أبواب روما، كل مع جيشه وبهدف القيام بانقلاب لحسابه الشخصي. وهنا تنازعوا تأييد الفرسان والشعب، واعددين بإحياء النظام الذي دمره سيللا. ونجح قادة الديمقراطية الرومانية، مستغلين خصوماتهم، في تحقيق نصر مؤزر: وأملوا على القائدين عقد معاهدة تتجنب الحرب الأهلية؛ فضلا عن هذا، وعلى حساب منصب القنصل الممنوح للثلاثين (رغم أن بومبييه مايزال في الرابعة والثلاثين من عمره ولم يحتل أي منصب حكومي كبير، حصل الديمقراطيون على حق عودة الجمعيات العشيرية الانتخابية، والفعالية القبلية بكل مداها، والرقابة: وبأشر المراقبون فورا تنقية مجلس الشيوخ، وطردوا ٦٠ من أبرز لصوص الزمر السيللية. ثم حصلوا على إصلاح المحاكم: لم يبق لأعضاء مجلس الشيوخ سوى ثلث القضاة، وما بقي، كما كان الأمر قبل الدكتاتورية، يقسم بين الفرسان وما يسمى اليوم وزير مالية، الذين يشكلون نوعا من صغار التجار، والأمر شديد التميز هو عودة مكاتب استئجار جباية الضرائب إلى أسيا. هكذا، في العام ٧٠، أبطل الدستور الكورنيلي كله وأحيى النظام الجمهوري لزمان ماريوس وسينا.

خلال السنوات التالية، تحرك الحزب الديمقراطي، وقد تعلم من هزيمته الحديثة، تحرك بطريقة أكثر انتظاماً ووسع برنامجه. وانتسب إلى الحركة النقابات المهنية والجمعيات الشعبية. كانت هذه المؤسسات موجودة في روما منذ زمن سحيق، لكنها كانت تشكل آنذ رابطات شعبية حقيقية وتكون بشكل ما قاعدة "الحزب الشعبي"؛ وبسبب امتداد حق الحاضرة في كل إيطاليا، ما كان عملها يمارس فقط في روما، بل في بلديات إيطاليا كلها، من هنا كان نفوذها يتغلغل في القرية، في الاستثمار الفلاحية المرفقة بالديون، بين العمال الزراعيين، في مستعمرات محنكي ماريوس سيللا، بومبييه، كراسوس، إلخ. كان العدد الأكبر من هؤلاء المعمرين مدمرين ومكبلين حتى أعناقهم بالديون، بسبب عدم أهليتهم، وعدم معرفتهم لشؤون الزراعة ومزاحمت كبار المالكين. وقد اشتركت بالحركة النساء ذوات الذهن المنفتح، مثل شمبرونيا، (من أسرة غراسك)، أرملة م. جونيوس بروتس، قائد تمرد شمال إيطاليا قتل في العام ٧٨، وعدد كبير من الشباب الرومان، منهم يوليوس قيصر الذي قدمت أسرته أنصاراً لماريوس وسينا. وفي اللقاءات والاجتماعات غير القانونية الديمقراطية، كان الحضور يطرح قضية إلغاء الديون ("فتح سجلات جديدة للدائنين") وقضية "القانون الجديد الزراعي" المنصف الذي يؤمن التمتع بالأرض فقط لأولئك الذين يعملون بها حسب العرف القديم. وعدم الشك بالنفوذ الذي تمارسه على الرأي العام الروماني يومئذ النظريات الاجتماعية اليونانية والخطباء والفلاسفة الرواقيون والأبيقوريون الآتون للتعليم في روما.

اهتم المؤرخون القدماء في الحقب اللاحقة (سالوست، مثلاً، في مؤامرة كاتالينا) وبعده المؤرخون المعاصرون (مومسن بخاصة) بتقديم نشاط الحزب الديمقراطي الروماني في تلك الأيام المضطربة، فقط برأى المؤامرات الكارثية لزمرة من الطامعين المتنفذين والأوغاد، جارين وراءهم على عجل لقيفاً من الطائشين، المباعين والمجرمين. صفات تليق بهم تماماً. لكن هذا لا يبعدنا عن الاعتراف بأن الحركة كانت تحمل نقاط ضعفها. قلة الثقة بقواها، انتظار الإنقاذ من منقذ، "سيللا مقلوب"، إن صح القول. فقد أولت الديمقراطية الرومانية الجديدة ماريوس عبادة فعلية. وفي العام ٦٩، كان يوليوس قيصر، كما ينبغي بلوتارك، يتمتع بشعبية واسعة لدى العامة، وانتخب تلك السنة وزيراً عاماً، وأقام مأتماً مهيباً لخالفته جوليا، أرملة ماريوس، وتجرأ أن ترافق الجنازة صور لماريوس، لم تظهر منذ

مجي سيللا سيدا إلى روما، وتعلن ماريوس وأنصاره أعداء الوطن...، لكن الشعب...
بتأييده شديد الوضوح، يشهد على اختياره وحبه له (المصدر السابق). وبعد هذا أقام قيصر
في الكابيتول أنصابا مذهبة لماريوس وانتصاراته، الأمر الذي استقبل بترحاب حماسي من
قبل الشعب وأثار في مجلس الشيوخ فضيحة حقيقية.

وبومبييه، الذي اتحد نهائيا مع الجناح المعتدل في الحزب الديمقراطي، سعى بشرف
ليصير "ماريوس الجديد". ولعدم وجود شخصية كفاء لهذا المنصب، دعم الحزب الشعبي
الآخرون قيصر الذي مايزال فتى. ولمداواة الجوع الذي أرقى روما في العام ٦٧، والذي
اتضح في وحشية القراصنة ووظف مجلس الشعب، باقتراح من محاسب الشعب أوليوس
غابينيوس، بومبييه، وأعطاه سلطات غير معروفة. عرف بـ"دكتاتور البحر" ومهمة شن
حرب طاحنة ضد هذه القراصنة، واستلم لثلاث سنين قيادة كل شواطئ البحر المتوسط،
وقيادة كل المراكب والقوات المحتشدة فيه (١٢٠ ألف رجل و ٥٠٠ باخرة)؛ ووضع تحت
تصرفه ٦ آلاف تالانت -مبلغ ضخيم- ووضعوا بإمرته ٢٥ معاونا. "أبدا، قبل بومبييه، لم
يستلم أحد هذه السلطة على البحر"، يكتب أبيان (مثيرات، ٤٩).

وعندما انتهى بومبييه من هذه المهمة بجدارة مذهشة -خلال ثلاثة أشهر فقط- فقد
نظف البحر من القراصنة وأمن المؤونة لروما الجائعة، استلم في العام ٦٦ مهمة أوسع
منصب أن يحل محل الأرستقراطي لوكولس، المكروه شعبيا لدى الفرسان، لينهي الحرب
مع مثيرات ويسوي أمور الشرق. طرح هذا الاقتراح على مجلس الشعب بمبادرة محلي
الشعب مانليوس ودعمه قيصر، فأثار غضبا رهيبا لدى الرجعيين.

أعلن هؤلاء عدم صحة استلام رجل واحد سلطات بدون حدود، القانون "المعادي
لتقاليد الحدود"، وبعبارة أخرى، الدستور الجمهوري. قاضطر الشعبون أن يتصدوا في
الفوروم لشيشرون، الخطيب المفوه. لم يكن خطابه من أوله إلى آخره سوى تقرّظ لحبيب
الشعب الجديد.

واستنادا إلى قانون مانيليا، صار بومبييه السيد الحقيقي لآسيا الصغرى. غزا البونت،
طرد أولا مثيرات من كولشيد، ثم أجبره على الهرب إلى البوسفور. بعد أن تركه حتى
ابنه، فرناس، مات عدو روما اللدود هذا في العام ٦٣ في بانتكاييه، بعد فشل محاولته
السير إلى روما بمؤازرة السيث والتراس في شمال البلقان. وما تزال قمة الجبل حيث

القصر الذي مات فيه تحمل الآن اسم "مثريدات". أرسل فرناس جثته إلى بومبيه الذي كافله بتسليمه حكومة البوسفور.

واضطرت تيغران، ملك أرمينيا وصهر مثريدات، وقد هوجم دفعة واحدة من الرومان والبارث، أن يمثل في القيادة العامة لبومبيه ويحصل منه، لقاء فدية من ٦ آلاف تالانت على الصلح، ويقائه بلقب ملك أرمينيا و"صديق الشعب الروماني، وهذا يعني التبعية والولاء. وفيما بعد شن بومبيه حملة على شعوب ألبانيا (أذربيجان) وإيبيريا (جورجيا) حلفي مثريدات. لكن صعوبات الحرب، في هذه البلدان الجبلية، فرضت عليهم إنهاء هذه الحملة، مكتفين بإخضاع سكان شرق القفقاس. وعلى السواحل الجنوبية للبحر الأسود، شكل ولايتين جديدتين، بيتيني والبونت. وانطلاقاً من روما، اجتاز ما بين النهرين الغربي، فتح مملكة السلوسيد، المنهارة، وحولها أيضاً إلى إقليم روماني في سوريا في العام ٦٤. ولملكها الأخير، أنطيوخوس، لم يترك سوى أرض صغيرة من كوماجين، في شرق هذه الحقول القديمة. وفي غلاسيا، كبادوسيا وجودي، نصب ملوكاً جدد، مجرد أتباع لروما.

وكانت روما قد وضعت يدها على أراض واسعة، الضفاف الشمالية لمملكة البوننت حتى الفرات وتخوم مصر؛ ولم تكن الغنائم أقل روعة و ضخامة، لكن يمثل هؤلاء القادة، صنعت الديمقراطية الرومانية بيديها مستقبل سيادتها وسوددها، معتادة ممارسة سلطة ملكية وغير مستعدة للتخلي عنها.

لكن كراسوس، خصم بومبيه، اتخذ موقفاً مغايراً. فلبعض الوقت، كان قد حلم، هو الآخر، بأكاليل غار مارس وداعب مخيلته مشروع احتلال مصر الثرية، بل طائلة الثراء. لكنه، وقد اصطدم بمقاومة حازمة من العناصر المحاذية التي رأت أن وضعها كاف لإمبراطور كبير، التزم بالعمل بوسائل أخرى، أكثر تمويهاً. اقترب كراسوس إذن من قيصر والقادة الآخرين من الجناح اليساري في الحزب الديمقراطي ولتفتيت سلطة وشعبية بومبيه، في غيابه، راح يمول، من ثروته الطائلة، الحملة الهادفة لإجراء تدابير راديكالية، في الحقل الداخلي.

وبموازاته حقق الحزب الديمقراطي النصر في انتخابات العام ٦٦: وتسمية مرشحيه ب. كورنيلس سيللا (الذي، رغم أنه ابن أخ الدكتاتور، كانت آراؤه السياسية مغايرة تماماً لآراء عمه) وب. أوترنيس باتوس، إلى منصب القنصل؛ انتخب كراسوس مراقباً،

وقيصر فيما للمدينة. لكن لما خشي مجلس الشيوخ من هيمنة الديموقراطيين في الحكومة شل، بمناورات مبهمه، القنصلين، بتهمة شراء المقترعين وانتخب اثنين من اتباعه، وعقد القادة الحزب الديموقراطي اجتماعا (قيصر، ك. كالبورنيس بيزون، ل. سرجيس كاتلينا) في مسكن كراسوس، حيث احتدم النقاش فوصل إلى مناقشة مشروع انقلاب الدولة. أسفر عن قتل أعضاء مجلس الشيوخ الذين نسجوا هذه المكيدة وتابعهم، ثم، وقد صار وحيدا، سمي كراسوس مديرا، في أثناء "خلو العرش"، وقيصر كقائد للخيالة، وما استتب الوضع، حتى عادت سلطة القناصل الديموقراطيين الذين رقتهم مجلس الشيوخ (سويتون، قيصر، ٩).

ثمة أسباب ما تزال غامضة حالت دون تنفيذ المؤامرة التي حاكها كراسوس (المسماة عادة "أول مؤامرة لكاتلينا" رغم أن هذا الأخير لم يلعب فيها سوى دور ثانوي). شاعت القضية وفشى سرها، لكن نفوذ كراسوس ساهم في خنقها، وكان المتضرر الوحيد هو كالبورنيس بيزون، الذي أبعد منفياً بذنبه إلى إسبانيا.

كل هذا يشهد عودة نشاط العناصر الراديكالية الديموقراطية، المهياة لمبادرات جسورة. وفي نهاية العام ٦٤، قدم الشاب محامي الشعب سرفليوس رولوس، إلى مجلس الشعب مشروعاً لقانون زراعي واسع المدى. نابعاً من مجموع محامي الشعب: حيازة أراض واسعة وتوزعها على الفقراء على نفقة الدولة؛ تغطي النفقات غنائم الحملات إلى ما وراء البحار، ومنتوج بيع الأملاك العامة والمشاريع الصناعية ومناجم الدولة، إلخ. في الولايات. كانت مدن ومستلحقات الولاية مخولة استرداد ضرائبها النوعية والعينية، وتحويلها إلى مبلغ مالي واحد. ولتنفيذ كل هذه العمليات المالية والزراعية، على مجلس الشعب أن يختار عشرة أعضاء مخولين سلطات إدارية، مالية وقضائية واسعة جداً. كان هذا الإصلاح يعيد، بالتالي، إلى أيدي العشارين تقريباً كل السلطة، وهكذا يبعد مجلس الشيوخ عن الأقاليم، الأموال، والأملاك العامة؛ وهذا يفضي إلى القضاء على تأجير الضرائب وإلى توسيع ملحوظ في الملكية الصغيرة، وتضييق الأملاك الواسعة، المحرومة من اليد العاملة الرخيصة.

وانتشر الصخب إن مشروعاً زراعياً من هذا النوع، يضيق الخناق على الأسر الكبرى، وعلى كبار المالكين، والعشارين -جباة الضرائب- الديموقراطيين المعتدلين أنفسهم. وكما كان قد حدث في العام ١٠٠، قطع الفرسان علاقتهم بالشعبيين. وانتخب

شيشرون، نصير "أشراف رجال الأعمال والمحترمين منهم"، قنصلاً في العام ٦٣، وسمي أيضاً "قنصلاً ديموقراطياً"، ونجح بتشكيل كتلة من أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان، ولإفشال مشروع سرفليوس رولوس أمام مجلس الشعب، ألقي ضده ثلاث خطب مصممة بمهارة، ساعياً وراء كل الخيوط الديماغوجية، السخرية، الكذب، والنميمة، والتودد توصل إلى تكتيل عوام المدن ضد المشروع، حتى أجبر مقترح المشروع على سحبه.

ولقد مكنت خطابات شيشرون (الخطاب الثاني "حول القانون الزراعي"، ٩-١٠) من فهم الاتجاهين اللذين يغلبان في الديموقراطية الرومانية؛ الاتجاه الأول: "سلم، حرية وحياء بدون هموم"، الأمر "الديموقراطي الفعلي" في نظر شيشرون يمثل مصالح الفرسان و"أشراف الناس" بعمامة؛ الاتجاه الثاني الدفاع عن مصالح الفقراء، في خدمتهم، كما تعلن هذه الشريحة من الشعبين، يجب أن توضع كل السلطة وكل مناهل الدولة المادية. كان هذا، لدى شيشرون، نظرية "ضالة" تهدم أسس ليس فقط السلطة بل أيضاً رفاهية أو سعادة الشعب الروماني، وتشكل "شكلاً جديداً من المذهب الاستبدادي ولا تقدم سوى "بذر الضيق على الفوروم *Forum* (المصدر السابق، ٨).

كان قائد هذه الشريحة، الخطر جداً في عيون "أشراف الناس"، الحاكم السابق، من العام ٦٥ حتى ٦٣، ل. سرجيوس كاتلينا، الذي كان يجمع حوله عدداً كبيراً من أعيان الناس من المجتمع الروماني وأيضاً من صف مجلس الشيوخ، الذين كانوا يعانون من أزمة اقتصادية أو من تحكم مجلس الشيوخ. نذكر بخاصة القنصلين اللذين شلها مجلس الشيوخ في العام ٦٦، أوترونيس باتوس و ب. كورنيليس سيللا، والحاكم ب. لانتوس سورا وس. ستغوس ومحامي الشعب ل. بستيا، والفرسان، وكذلك العديد من ممثلي المستعمرات والمستحقات. كان قيصر أيضاً قد ربط جزئياً بهذه الفئة، ليلعب دوراً هاماً، لا يشغل إلا مهام وزير مالية والإشراف على المدن، وكما في الماضي، بقيت هذه الشريحة مع كراسوس. لكن الجماهرة التي تبحث عن موازرتها موجودة، باعتراف شيشرون ذاته، وعدوها المخيف في الكتلة الواسعة من المدن والأرياف التي ترهقها وتغيبها الحاجة والعوز (شيشرون، كتلنر الثاني، ٢٠-٢١). ويؤكد سالوس أيضاً أن العصيان يربح... العوام في المدن، والشباب في الأرياف، الذي يجرر حياة بائسة ليكسب قوته بعرق جبينه... وكل الفقراء بعمامة. "إن هذا الوباء الوبيل يطعن أغلب الناس... كل الشعب يتمنى

التبديل بشراة وجشع، ويصفق لخطط ومشروعات كتلينا" (مؤامرة كتلينا، ٣٦ و ٣٧).
كان شيشرون يرى في كتلينا وحشا خرافيا، "يتمنى أن يضع الكون كله على النار والدم" (شيشرون، كتلينا الأولى، ٣)؛ أما أصدقائه وأنصاره، ليسوا كلهم سوى "عصابة سافلة من الأوغاد النائيين والغارقين في الفجور" (شيشرون، كتلينا الثانية، ١٠) إن هذه المسبات ليست أكثر من التعبير عن الخوف والكراهة الذي يثيره لدى المالكن الطابع الجذري للحركة. وشيشرون نفسه يخطر بشكل كلبى صديقه بومبيوس أتيكوس أن لا يشق بكل مايقوله في خطبه: "أنت تعرف تفجري عندما أتكلم بهذا الموضوع" (شيشرون، رسائل إلى أتيكوس، ١، ١٤، ٤). كتلينا، بالفعل، مثل بومبيه وكراسوس، جندي منشق عن معسكر سبلا إلى معسكر الشعبين، في الماضي أذبل مثلها وليس أقل فسقا من الآخرين في حياته الخاصة. ورغم كل شيء لم يغتن بالإبعاد والحرمان، او يغذي أحاسيس عميقة معادية للأولغارشية الحاكمة (سالوست، مؤامرة كتلينا، ٢٠). ومنذ العام ٦٥، كان شيشرون قد سعى للتقرب منه.

واستنادا إلى معلومات المراجع المعادية، الوحيدة التي وصلتنا (خطب شيشرون ومؤامرة كتلينا لسالوست)، كان برنامج هذه الشريحة من الحزب الديمقراطي يتضمن إلغاء الديون، وقانون زراعي جديد وانتزاع السلطة من الأولغارشية. يكتب سالوست بأسلوبه الاتهامي أنهم كانوا قد "وعدوا بمراجعة الديون، حرمان الأغنياء ونفيهم، مناصب الحكم المدنية، البابوية والنهب العام" (مؤامرة كتلينا، ٢١، ٢). وبالفعل، ذات المسائل التي طرحت قبل عشرين عاما في عهد سينا، كانت على جدول الأعمال. إن برنامجا كهذا لا يمكن طبعا إلا أن يشد عطف ومساندة الشرائح الدنيا من الشعب الروماني والإيطالي التي كانت راضية عنه تماما مثله مثل برنامج شيشرون وأنصاره، الديمقراطيون المعتدلين والمحافظين.

حاول هذا الجناح الراديكالي من الحزب الشعبي ثلاث مرات أن ينتخب كتلينا إلى منصب المستشار أو القنصل، ليحقق برنامجه، وأخفق في المرات الثلاث، للأعوام ٦٥، ٦٤، ٦٣، بسبب المقاومة المتكالية ولم يتراجع أمام أي سبيل من الأولغارشية الرجعية وديموقراطيي اليمين المتحالفين معها. وفي العام ٦٣ كان كتلينا أقرب من الآخرين إلى الظفر: جماهير الفلاحين والمعمرين من أتروريا والمناطق الأخرى المجاورة لروما توافدوا

إلى روما ليدعموا ترشيحه، وكان محامي الشعب يستينا قد أعد عوام العاصمة؛ والنساء، الشباب وخاض حملة حاسمة لمصلحة قائد الراديكاليين. وكان الجناح اليساري للديموقراطية في ذلك العام أقوى من كل ما مضى: وحبیب آخر للشعب يوليوس قيصر، كان قد انتخب حبراً أعظم رغم منافسة أمير مجلس الشيوخ كايوس لوتاتيس كاتوس وطابور كبير من حزب الـ *optimates* بوبليوس سرفليوس ايزوركوس. وفي العام ذاته، انتخب قيصر حاكماً للعام ٦٢.

في انتخابات العام ٦٣، وضع الـ *optimates* كل ثقلهم والأعيان ليهزموا كتلتنا. اشتري مرشحهم، منافس فيرس، على المكشوف المقترعين حتى أن مناوراته أثارت فضيحة مدوية. بعثت، حتى لدى النبلاء المحافظين، احتجاجات أشرف الناس مثل كاتون، الذي أدانها. وشيشرون، القنصل، غضب من هذا الوضع، ووقف بعنف إلى جانب مورينا ونشر شللاً من النميمة الغريبة ضد كتلتنا وأنصاره ووصفه بـ "قاتل مستأجر"، "متآمر، والرمح بيده" (برومورينا، ٤٩). وحصل من مجلس الشيوخ على إعلان حالة الحصار وتأخير الانتخابات لإجبار الفلاحين، المرهقين من انتظار كهذا، على العودة إلى بيوتهم، وفي الوقت ذاته، أغلق هيئات رجال المهن والجمعيات الشعبية. وأخيراً في يوم جمعيات الناخبين (٢٦ تشرين أول ٦٣)، ولإرهاب المقترعين، أحاط ساحة مارس بالقوات وظهر هو نفسه، مدرعا ومحاطاً بموكب من أولاد الذوات المسلحين. في هذه الشروط قال بالحرف: "من أراد إنقاذ الدولة من هذا الطاعون انتقل على عجل إلى جانب مورينا" (انظر برومورينا، ٥٢) ولم ينجح كتلتنا.

إن فشل الشعبين لثلاث مرات، محاولين بالطريق الشرعي الاشتراك بالحكومة، هو إذن نتيجة لسلوك انتخابي كربه وضغط الأرستقراطية. فمن الطبيعي جداً أن تدفع هذه الطرق الديموقراطيين المغتاضين إلى السبيل الوحيد الذي بقي مفتوحاً أمامهم، سبيل اللجوء إلى السلاح. وبدأ الـ "كتلينير" (أنصار كتلتنا وبرنامجه) الإعداد له، بعد الفضائح الانتخابية للعام ٦٣. واستادا إلى شيشرون وسالوست، لم تقر خطة التمرد وبيت بها نهائياً إلا في ليل ٦/٧ تشرين الثاني، في أثناء اجتماع لقادة الحركة، في بيت أحد المتأمرين م. بورسيس لوكا. ولقد تقرر الإفادة من غضب وإدانة مقترعي الأرياف الذين شكلوا عفواً جماعات متمردة (الأهم كان قد تشكل منذ نهاية تشرين أول في أثروري بقيادة قائد المائة السابق ماتليوس) و،

بمساعدة المفوض المرسل من روما، بتنظيمهم في جيش، عليه أن يمضي إلى العاصمة. واقتداءً بسينا في العام ٨٧ اضطر "القنصل كتلينا"، الممنوع بشكل غير شرعي من أن يحقق مهمته، أن يترأس الموقف. والحاكم لانتوليوس، ومحامي الشعب بسينا وقادة آخرون راديكاليون، يسكنون العاصمة، حرضوا العوام. وقد تلقى السيد م. سباريوس مهمة الرجوع إلى أبوليا، ليدعو فيها الرعاة العبيد إلى الانتفاضة. وعرض اثنان من المتآمرين قتل شيشرون في صبيحة اليوم التالي بالذات.

كان المقصود تكرار انقلاب العام ٨٧ (شيشرون يسمي كتلينا "سينا الثاني")، بطرق أخرى، سبيل المكيدة سيئة الإعداد وفي ظروف عامة متباينة تماماً إن في روما أو في الأقاليم. فمُنذ ٢١ تشرين أول بالفعل، حصل شيشرون من مجلس الشيوخ على القانون الحربي؛ فجيوش القائدين المسميين، ك. مرسوس وك. متلوس الكريتي، كانت عند أسوار روما، منتظرة النصر مهياً مباشرة لقمع الحركة التي رأت النور في المناطق الإيطالية. كان شيشرون قد اطلع على خطة المتآمرين، بفعل شبكة تجسس جيدة التنظيم، ومنذ الثامن من تشرين الثاني، أمام مجلس الشيوخ المجتمع في جلسة غير عادية، فجر "معركة كتلينا الأولى" الشهيرة، حيث يتباهى بمعرفة كل شيء، مكرهاً كتلينا على مبارحة روما على عجل؛ عوض الجيش الذي يعتمد عليه هذا الأخير، اضطر أن يكتفي، برئاسة جمهرته الصغيرة من فلاحي ماتليوس، المسلحة إلى هذا الحد أو ذاك، والمطورة بقوات الحكومة. كان المتمردون قد أخذوا شارة لهم نسر ماريوس الفضي، الذي كان كتلينا يحفظه في بيته. في جنح الاضطراب الذي خلقته هذه الأحداث، بذر شيشرون الرعب بين سكان روما، بخطبه المهولة والغاصة بالمبالغات المبتكرة التي ألقاها في الميدان العام *Forum*، (ذاكرا وملوحاً أن المتمردين، قرروا إشعال النار في روما، في عدة أماكن، وذبح الناس الطيبين، لتحويل المدينة إلى مغارة لصوص وقطاع طرق). وبناء عليه، أوقف كبار أنصار كتلينا، لانتلوي، ستغوس وآخرين، الباقين في روما، والذين مكنته غفلتهم من القبض على التراسل مع نواب الغولوا أولوبروج، المعروف لدى لصوص الحكومة الرومانية. وفي الخد أخرج ملهاته بمحاكمة "أنصار كتلينا" أمام مجلس الشيوخ، غير المخول السلطات القضائية، وخنقهم بحضوره، في سجن مامرتين، في أسفل الكابتول. أرسل القنصل أنطوان ضد كتلينا وقوته المؤلفة من ٣ آلاف رجل (بعكس سيناً، رفض أن يضم إلى صفوفه العبيد

الوافدين من كل حذب)، وفي كانون الثاني ٦٢، أكره كاتلينا، يائسا من كسر الطوق الحديدي المحكم حوله، على خوض المعركة. بدأ القتال في واد جبلي، قرب بستورا، (ليس بعيدا من فلورانس)، صرع كاتلينا وأنصاره في التلاحم. وخنقت بؤر الحركة المشتتة في نقاط عديدة من إيطاليا: بروتيتيوم، أبوليا، بسنوم، بسرعة.

لإشهار هذا النصر، أمر مجلس الشيوخ بالتضحية، وبشهر من الأفراس العامة. لكن رغم كل جهوده، لم ينجح بالإجهاز نهائياً على الحركة الشعبية. يتحدث ديون كاسيوس عن الإضرابات المستعرة التي استمر نشوبها في إيطاليا العام ٦٢ و٦١، ضد مجلس الشيوخ؛ وكان عليهم من جديد إعلان الحصار، وإرسال الحكام لقمع السلاح الغاضب في المحميات، وخلع الحكام الكبار (الحاكم يوليوس قيصر، محامي الشعب مثلونيوس) اللذين نهضا، في مجالس الشعب، ينهضون ضد الـ *optimates* (ديون كاسيوس، التاريخ الروماني، ٣٧، ٤٢-٤٤). وشيشرون نفسه اضطر أن يعترف أن الشعب استمر بتمجيد ذكرى كاتلينا والاحتفال بذكرى موته في ساح معركة بستوريا (شيشرون. بورفلاكو، ٩٥).

أنهى شيشرون حزينا جداً مدة قنصليته. وفي أثناء الاقتراع على إعدام "المتآمرين" عارض عدد كبير من الشيوخ، على رأسهم قيصر، والتأم اجتماع ضم جمهرة عريضة من الأحرار والعبيد لانتزاع المدانين من أيدي الجلادين. كتب ديون كاسيوس: في نهاية مهمته، كان شيشرون عدو العنف العام "وبعد أن أثبت نفوره في عدة مناسبات، فرضت عليه الجماهير السكوت، عندما أراد أن يدافع عن نفسه... في آخر يوم من قنصليته". (كاسيوس ٣٩، ٣٧).

الفصل السابع والخمسون

سقوط الجمهورية

الحكم الثلاثي الأول ونهايته

انتهت حركة عتق الأقاليم، وتمرد العبيد الغريب وحركة الشعبين بزعة أسس الدولة الرومانية. وقد أثبتوا بكل وضوح أن القوة الوحيدة الخليفة بدعم المجتمع العبودي والحفاظ عليه هي: الجيش وقادته المعروفون. لذا، لدى الشرائح السفلى من الشعب. المذهولة بهزائمها، كما في قلب الأرستقراطية التي تنتهت بالسلطة، تلتفت الآمال أكثر فأكثر نحو جندي "منقذ". وأيضاً، خيم رعب هائل على روما، لما علم في خريف ٦٢ أن سينون بومبييه، "العظيم"، أبحر أخيراً مع قواته إلى برونديزيوم. وبدهشة عامة، لم يشأ "سيللا الديموقراطي"، (كما كانوا ينادونه بخوف في الأوساط المحافظة) اقتفاء أثر سلفه وسيده فلم يقيم بقلب الدولة بل تصرف بالعكس كمواطن يحترم الدستور: بعد أن كافأ بكرم وأريحية جنوده وضباطه، ترك جيشه وعاد إلى روما مع لفيف متواضع، لينتقل إلى أمجاد النصر ويحتل المركز اللائق به وبكفاءاته في المجتمع والحكومة. كمالك لأراض اقتصادية مدمرة، ليست في مصلحة الديموقراطية، التي كان حليفها العارض.

كان بومبييه يخوض زوبعة السياسة الرومانية، وبدا أضعف بكثير مما توقع. وكان خصومه العتاة، لوكولس، كراسوس وغيرهما، يحسدونه، فمجلس الشيوخ يخشاه ويعارضه في كل شيء، بينما تعامله الجماهير الشعبية بلا مبالاة. رغم دعاية أنصاره الديماغوجية أكره على انتظار النصر قرابة العام، ولم يأت النصر إلا في آب ٦١، ولم يحصل من مجلس الشيوخ على تصديق التدابير التي اتخذها لتنظيم البلدان المحتلة بأسلحته وتوزيع الأراضي الموقوفة لجنوده.

حاول بومبييه، بحثاً عن حلفاء، التقرب بداية من شيشرون، "أب الوطن"، ليجد في شخصه سندا في مجلس الشيوخ، لكن شيشرون، الذي كان يقوم عالياً وشائجه الجديدة مع

الـ *optimates*، رفض التعاون المقترح، تعاونوا ربما جعله يندم كثيرا فيما بعد. فلم يبق أمام بومبيه إلا أن يبحث عن عون لدى قادة الحزب الشعبي وإن يعقد كما في العام ٧٠ صلحا جديدا مع خصمه القديم كراسوس ومع قيصر، حبيب الشعب الحديث، الذي تمت حدة نزاعاته المتنامية مع مجلس الشيوخ بديماغوجية أسرة. ففي أثناء السنة العاصفة من حكمه (٦٢)، اعترض بعنف وحسم ضد العقوبات التي كانت مستمرة بطعن أنصار كتيلينا ووشى باختلاسات قادة الشريحة الرجعية (كتولوس)، إلخ. حتى حاول مجلس الشيوخ إعفائه من مهمته، لكن مظاهرة جماهيرية شعبية أكرهته على سحب القرار بعدما نشر.

وهكذا عقد، في العام ٦٠، صلح فريد سري بداية بين الأشخاص الثلاثة الأكثر نفوذا وشعبية في روما: بومبيه، كراسوس وقيصر: وهذا ما يدعى "أول حكم ثلاثي". ولقد أشار بلوتارك بحق أن هذا الاتفاق كان بمثابة انقلاب دولة حقيقي "... للقلب الحكومة الأرستقراطية" (بلوتارك، قيصر، ١٣). كان هذا "الوحش ذو الرؤوس الثلاثة"، وهو تعبير فارون المحافظ، يمثل فعلا دكتاتورية تعاونية وخفية.

ومرت التدابير الملائمة للثلاثة من الآن فصاعدا بدون أي عقبة. ودل قيصر، فنصلى العام ٥٩، إلى جعلهم يقترحون بمهارة لاسابق لها، بدون اهتمام باعتراضات زميله بيبولوس. لهذا السبب قال الفكهون إن هذا العام كان عام "قنصلية يوليوس وقيصر". لم يدع مجلس الشيوخ وتم العمل بمجلس الشعب.

أقر قانون زراعي قريب جدا من مشروع رولوس: الأموال التي يجلبها بومبيه من الشرق تنفق على شراء الأراضي وتوزع بين معاونيه، ومابقى من الملك العام في إيطاليا (وبخاصة في الريف الخصب) وزع أيضا؛ استفادت ٢٠ ألف الأسر كبيرة من هذا التدبير. وصدقت كل القرارات التي اتخذها بومبيه في الشرق، ورسخ كل الملوك الذين سلمهم عروشا أرسى ملكهم، مثل فيما بعد ملك مصر، بتولميه أوليت، الذي أتى شخصا إلى روما وسلم الثلاثة المبلغ الضخم، ٦ آلاف تالان مقابل لقب "صديق الشعب الروماني". وحصل الفرسان ورجال الأعمال، المتفاهمون مع كراسوس، على مكاسب ضخمة بتقليص سعر استئجار المزارع إلى الثلث، الأمر الذي أعطى قيصر شعبية واسعة بين رجال المال هؤلاء، وهذا ما عاد عليهم بأقسام أساسية عديدة في مشروعهم. "غضب الفرسان غضبا شديدا من شيشرون، وقطعوا مجددا علاقتهم بمجلس الشيوخ وتوجوا قيصر إلها"، يكتب

أبيان (الحروب الأهلية، ٢، ١٣). فأقام هذا الأخير، بفضل هذه السياسة المحنكة حلفا جديدا من الأنصار، أقوى من الشعب. وغير غافل عن شؤون الشخصية، بل أمن، منذ أول آذار ٥٩ منصب محافظ، يضم ثلاث ولايات دفعة واحدة، ولخمس سنين: غول غرب الألب، نربونير وإيليريا.

كان كل هذا يتم تحت ستار إنجاز إرادة الشعب: وبغية وضعه في الصورة، أوجد قيصر مكاتب إعلان لـ "أعمال الحكومة" تلصق على ألواح بيضاء كبيرة في مختلف أحياء المدينة، وتنمها منشورات تتحدث عن أهم الأخبار الصادرة من كل مكان؟ كان هذا بشكل ما أول صحيفة معروفة في التاريخ. وفتحت الروابط الشعبية والنوادي مرة أخرى. وجند عمالهم الثلاثة فيها من نوع المحامي الشعبي كلوديوس، الأصوات الضرورية لتمرير اقتراحاتهم إلى الجمعيات الانتخابية. هذا هو كلوديوس نفسه الذي عمل على اتهام شيشرون، ليميت بدون محاكمة مواطنين رومان، أنصار كتلينا. وفي العام ٥٨، أجبر شيشرون على الذهاب إلى المنفى، ويهدم بيته في البلاط الإمبراطوري. ولبرسخوا سلطتهم، عقد الثلاثة فيما بينهم وشائج عائلية: زوج قيصر ابنه جوليا، وهي في الرابعة عشرة، لابن الخمسين بومبيز وتزوج هو نفسه شابة مثل جوليا، كاليرنيا، ابنة كاليرنييس بيزون، الذي سيشغل منصب قنصل في العام القادم.

حكم الثلاثة منسجمين هكذا قرابة ثلاث سنوات، وطيلة هذه المدة، كان الميمن هو بومبيز، ولم يكن قيصر، إن صح التعبير، أكثر من مدير، لكنه الأنشطة والأكفأ في شؤون "الشراكة". على ذلك، لم تكن دكتاتورية الثلاثة هذه، المقنعة بجدول أعمال ديموقراطي، سوى الانتقال نحو الملكية. كان قيصر بمناقبه الشخصية، يتلائم قيصر مع هذا الدور خيرا من بومبيز. كان رجل دولة حقا-خطيبا مفوها، نافذ البصيرة جسورا بالسياسة، كاتباً موهوبا، رجل مجتمع، متألقا. وكان في الوقت ذاته كلبيا، لامباليا بأي مبدأ أخلاقي، محتقرا أيضا الأرستقراطية التي ينتمي إليها بالدم، والديموقراطية التي كان فائدها التقليد العائلي، والديني، حبرا أعظم كان حرا تماما في تحقيق أحلامه وخططه المستوحاة من طموح لا حدود له. ولتساوى مع رفاقه في الثلاثية، ماكان ينقصه سوى ثروتهما ومجدهما العسكري، ولتقدم عليهما، كان بحاجة لجيش وقفا على التضحية بالنفس.

إن السنوات الثلاث الأولى من معاون قنصل لدى الغوليين حققت له مايعوزه وأكثر.

استلم قيصر منصبه في العام ٥٨، مباشرة بعد انقضاء وكالته القيصريّة، محافظاً على وساطة أتباعه المطلعين على كل شؤون روما ومتابعاً التأثير فيها. لقد قدم حساباً ليس بدون تدويق على الأرجح، وليس بدون تكتم في بعض الحالات، بالطريقة التي تجعله وفيما بمهمته في أراضي الغول، التي افضت إلى احتلال هذا البلد وتشكيل ولاية أخرى شاسعة وغنية، رومانية، في "إيضاحاته الرائعة حول حرب الغول" (بثمانية كتب لثماني سنين إقامة في غول-كتب الأخير سفيرة أوليس هرتيس).

بسلسلة من العمليات الجريّة والمتوجة بالنجاح، حققها جيش صغير، مؤلف من أربعة ألوية (رفع هذا لعدد فيما بعد إلى ١٠ ألوية)، صار قيصر سيد البلاد خلال ثلاث سنوات. لكن مشروعه المدعوم بخصب وغنى المنطقة الممتدة بين الألب، الرين والمحيط الأطلسي، التي يسميها الرومان "الغول المشجر" أو "غول شرق الألب" كان ضحية صراع ضار، نتيجة تفكك مجتمع العشير. حرب ضروس ملتتهبة أبداً بين العديد من شيوخ القبائل الذين، حسب تعبير قيصر، أعادوا شعبهم "تقريباً إلى عهد العبودية". ولقد أفاد من هذا الوضع جوار شرق الغول، الهلفيت والجرمن، ليشنوا عليهم غزوات مستمرة. وهكذا تمكن الجرمني أريوفست، ملك السويف من احتلال كل الشطر الشرقي من الغول تقريباً، والحشود الهلفيت المتحمسين بدون أمل لاستعادة قراهم الألبنية القاحلة، كانت متلهفة لاحتلال أراض جديدة في المجرى الأدنى لفارون واللوار.

وصل قيصر وهزم الهلفيت وأجبرهم على العودة إلى أرض جدودهم. ثم انتصر على أريوفست وطرد الجرمن إلى ضفة الرين اليمني. وأخضع خلال عامين، رغم مقاومة ضارية، البلجيك، أقوى أمم الغولوا وأكثرها احتراباً، المقيمة شمال السين، بينما فعل سفيره بيبيلس كراسوس (ابن أحد الثلاثة) ما فعل معلمه مع الأرمرور كان والأكتان، في الغول الغربية. وفي نهاية العام ٥٦، كانت الغول كلها بيد قيصر وسطوة خامياتها رومان، معسكرة في مخيمات منيعة؛ كانت الضريبة السنوية المفروضة على هذه الولاية الجديدة مرهقة (٤ ملايين سسترس)^١.

ولقد سرقت كنوز معابد الغولوا التي لاتحصى (كان الكهنة الغاليون يتمتعون بنفسود

^١ - عملة رومانية قديمة - المترجم.

وتأثير استثنائيين) على يد القيصر ومقربيه وعلى يد موجات المغامرين من كل جنس، والوافدين من كل صوب إلى معسكره. عدا الغنيمة، كان الجند يتلقون راتبين وما يشاؤون من مواد المعيشة؛ ولقد وزع عليهم العبيد أيضا. كان قيصر يومئذ متقلا بالديون بسبب نفقات الحياة الضخمة والهذر بدون حساب والهبات المقدمة للشعب، لأنه كان من كبار الأغنياء ومن أوسع مالكي العبيد. كان يوزع الدراهم، الأغراض الثمينة، العبيد بالألوف على الأعيان المتنقلين، ليوسع عدد أتباعه. وفي العام ٥٥، بدأ البناء في العاصمة، فسورم جديد، المجهز بأفخم الصروح ("فورم جوليان")، وقد كلفه شراء الأرض فقط، لهذا المشروع ١٠٠ مليون سسترس.

إن هذا التفوق هو بذور الانشقاق الأولى بين الثلاثة الكبار. فمنذ العام ٧٥ راح بومبييه يناور ضد محامي الشعب كلوديوس، الرجل الموثوق الأول لدى قيصر ورأس مواليه، بدعم خصمه ميللون وساعيا للتقرب من شيشرون. وبعد ١٦ شهرا من النفي، أعفي هذا الأخير، بناء على اقتراح بومبييه وعاد مظفرا إلى روما. ورغم نفوذ قيصر، كان بومبييه وكراسوس يسعيان أيضا لتقلد مناصب هامة في الأقاليم وجني عون عسكري. وفي العام ٦٥، ولتذليل خلافاتهم وتسويتها، اجتمع قيصر، بومبييه وكراسوس في لوكا، المقر الشتوي لقيصر. كان هذا اللقاء مؤتمرا فعليا لملوك بدون عروش، ولا يقل عدد أتباعهم أو مرافقيهم عن ٢٠٠ عضو من مجلس شيوخ. اتفق سادة روما فيما بينهم لإقامة توازن مسا. يستلم بومبييه وكراسوس المهام القنصلية في العام القادم (٥٥) ثم المحافظات، بومبييه في إسبانيا، وكراسوس في سوريا. كان قيصر مستمرا لخمس سنين قائدا في الغول. وأعطيت الإدارات المناسبة للأتباع المخصصين الذين يؤمنون ليس بدون مشقة تنفيذ هذا الاتفاق، لأن الانتخابات جرت في شروط عاصفة جدا، بسبب مقاومة الـ *optimates* الضارية (كأتون الابن وغيره).

لقد سوى لقاء لوكا الخلاف وقتيا، لكن وفاق الثلاثة ظل سائرا نحو تفككه الجمعي. فلم ينتظر كراسوس انتهاء قنصليته، حتى سافر إلى ولايته السورية. عطشا شرها للغنائم والانتصارات، التي أشعلتها في صدره أمجاد قيصر (كراسوس، ١٤). "...بعيدا عن إرواء أطماعه بحكم سوريا والبارث^١، بل انطلق إلى ألعاب الأطفال أمجاد لوكولس ضد تيغران

^١ - شعوب السيث التي ضمت إلى إيران في أيام حكم الساسانيين - المترجم.

وانتصارات بومبيه على مثريدات؛ وفي آماله المجنونة، كان يرى بكتريان، الهند والبحر الخارجي التابع لأسلحته" (نفس المصدر، ١٦). على ذلك، ما إن وصل كراسوس إلى سوريا حتى انكب على تحضير جدي لحملة الشرق، وسرقة المعابد أيضاً (منها معبد القدس)، وابتلاع الفدية من المدن والملوك الحلفاء، واستبدال المال بتقديم قرعات المجندين، وغير ذلك. وبدون استعداد، بدأ العمليات الحربية، وفي صيف ٥٣، على رأس سبعة جحافل، ترك نفسه ينساق وراء البارث في سهول ما بين النهرين الغربية الجرداء، حتى وجد نفسه مطوقاً قرب كارس (غير بعيد عن غديس) بخيالة البارث ثقيلة السلاح حيث أبيد مع جيشه كله.

في بداية النصف الثاني من القرن الأول ق.م تقلص الثلاثة الكبار إلى اثنين كبيرين قيصر وبومبيه، لكن بومبيه كان يبتعد أكثر فأكثر عن حليفه القديم ويسعى للتقرب من أعدائه، أوساط روما المحافظة، الذين يرون في هيمنة بومبيه، أقرب إلى المصالحة، وأقل ضرراً، مقارنة بهيمنة قيصر "الديماغوجية" المخيفة. ومنذ العام ٥٧، بسبب جوع روما، وبفعل عون شيشرون الكبير، صب بومبيه كل طاقته لتأمين الغذاء للعاصمة. وعوضاً من الذهاب لاستلام حكومته في إسبانيا، كان يدير شؤون هذا الإقليم المدنية والعسكرية بوساطة سفرائه. وفي العام ٥٢، من جراء الصراع الانتخابي الضاري الذي تحول إلى معركة حقيقية في الشوارع بين زمر كلوديوس وميلون المسلحة (كليوديوس قتل ميلون)، وبقيت روما في حاكمية واحدة، وظف مجلس الشيوخ هذه الظروف لتقليد بومبيه سلطات استثنائية، شبه-دكتاتورية: بناء على اقتراح الرجعي المتطرف كاتون، العدو الأول لقيصر، سمي "قنصلاً بدون رصيف" "كان بومبيه آنذ في قمة قوته في روما، لأنه كان مدعوماً من أعضاء مجلس الشيوخ، دعماً حرم منه قيصر لأنه لم يفعل شيئاً لصالحهم في أثناء قنصليته" (أبيوم، الحروب الأهلية، ١١، ٢٥).

في أوساط روما المحافظة، بدؤوا يتحدثون بصراحة، آنذ، عن انتهاز الظرف لإصلاح شامل في الدولة، بروح عاهلية مجلس الشيوخ، برئاسة بومبيه. كان هذا الإصلاح هو النظرية التي طورها شيشرون في مؤلفه "رهبليكا" الذي نشر في العام ٥١. "الحربة بدون كايح، يكتب، تحول بذاتها شعباً حراً إلى عبيد" وإذا قارنا أشكال الدولة في حالتها النظيفة، لانرى عيباً في النظام الملكي، بل أنا مقتنع ألا بد من وضعه فوق كل الأشكال

الأخرى بدرجات"، بشرط وحيد هو جعل منصب الملك انتخابيا، كما كان ملوك روما الأسبقون وخاضعا لسلطة مجلس الشيوخ. ويجب أن لا ينفر "أب الوطن" من أن يرى هذا المنصب "كمدير" أو "أمير" الجمهورية.

على ذلك كانت "إمارة" بومبيه قصيرة المدة، وهو لم يدم إلا بفضل وضع قيصر الصعب في الغول بين العامين ٥٥ و ٥٠. اضطر قيصر، بالفعل، إلى طرد غزوة جرمانية جديدة، غزوة أوزبيت والتانكتار الذين، اجتازوا الرين بحشد ضخم، خمسمائة ألف رجل، كما يقال، من شعوب تريفير غطوا أراضي الأرياف الخصبة. نجح المحافظ بطرد قسم من هؤلاء المتدخلين، بفضل حيلة غادرة: جلب إلى معسكره قادة الجرمان، تحت ستار التفاوض، وسقط فجأة على "البربر" الذين كانوا ينتظرون نتيجة المباحثات، ونجح أربعين ألفا. من أجل هذا "الخرق لشرف السلاح الروماني وهذا الاعتداء على الثقة المطعونة" اقترح كاتون على مجلس الشيوخ تسليم "الخوون" لانتقام الجرمان.

ثم اجتاز قيصر الرين مرتين، ليدب الرعب لدى شعوب الجرمان، وبخاصة، السوييف، الذين كانوا يعدون غزوات جديدة. وفي العامين ٥٥ و ٥٤، حاول بأسطول ضخم عمر لهذه الغاية، حاول احتلال بروتانيا، "جزيرة ذات مساحة لاتصدق"، راغبا في قطع التعزيزات التي ترد إلى الغولوا. لكنه أخفق هذه المرة (انظر شروحات وتعليقات قيصر، ٤، ٢٠-٣٦ و ٥، ٨-٢٣).

لكن قيصر وقع في وضع خطر جدا أمام تمرد الغولوا العام الذي نشب في سنة ٥٢. كان على رأس التمرد قائد يقظ محنك من الأرفيرن، هو فرسنجتوريكس، الذي نجح باستنهاض ضد الرومان حتى الحلفاء السابقين: الأكويين، وأعطى التمرد الطابع الوطني فعلا. نجح العديد من الحاميات الرومانية وشتت الغولوا قسما من خيم الجنود المبعثرين على امتداد هذه البلاد الواسعة. وذاق قيصر نفسه طعم الهزيمة تحت جدران جرغوفيا وتجنب بصعوبة كأداء أن يقبع مكرها في معسكره المنيع. فبعد أن جهز ثلاثة جحافل جديدة، توصل أخيرا أن يحاصر فرسنجتوريكس مع قسم كبير من قواته في أليزيا، لكن الغولوا نهضوا جمهرة (حوالي ٣ آلاف رجل لينفذوا قائدهم. فحوصر قيصر نفسه والتزم أن يدافع عن نفسه بين خطين من الخنادق المنيعة، أي المتمردين والمطوقين. وهنا لا بد من الاعتراف بمهارة أخصائيي التحصينات لدى قيصر: فهم فقط الذين أنقذوا جيشهم من

ضياح محقق. فقد رفعوا طوقا مضاعفا مستمرا من المعازل ومن كل نوع: متاريس خشبية محصنة بأبراج، خنادق عميقة، أفخاخ مسلحة بأوتاد حادة الرأس، وجذوع الأشجار وسواها. (قيصر، تعليقات على حرب الغول، ٧، ٧٢٠٧٣). وبغطاء من استحكاماته، اقتنص الجيش الروماني اللحظة الملائمة ليمنع بضربة غير منتظرة الجيش من مساعدة الغولوا الذين، من جراء نقص المؤن، لم يقدروا أن يصمدوا طويلا تحت أليزياس. وبعد مقاومة ضارية أجبر الجوع المطوقين على الاستسلام وتسليم فرسنتوريكس. وهكذا قتل قائد الغولوا عند قدم الكابيتول، بعد أن لاحق على قدميه عربة قيصر المظفرة.

وليس إلا بعد قمع دام خضع له الغول كله، عقابا لهم على انتفاضتهم، تيسر لقيصر أن يصفي حسابيه مع بومبيه ومع الحزب الرجعي الذي كان يرفع رأسه أكثر فأكثر في روما. وطرح على مجلس الشيوخ الطلب إلى قيصر أن يقلص قيادته التي دامت طويلا وأن يسمى خلفه. وردا على هذا، طلب بصبخ محامو الشعب ج. كوريون، أنطوان وكاسيوس، أن يتخلى بومبيه أيضا عن سلطاته. وهنا أمر القنصلان أميليس باولس وس. كلوديس مرسلس، المنتميان إلى الليف الأرسنقراطي الأكثر عداء لقيصر، أمرا بومبيه أن يمضي إلى قيصر كعدو، من أجل الدفاع عن الوطن، وتسليمه قيادة كل القوات في إيطاليا. دون المبالاة باحتجاجات محامي الشعب الذين أثاروا قضية الاعتداء على شخصية المحامين المقدسة، هربوا لينضموا إلى قيصر: وهكذا أعطوه ذريعة شرعية ليخوض حربا مكشوفة ضد بومبيه وكل حزب الشيوخ "للدفاع عن حقوق الشعب الأبدية" أو، كما يعلن قيصر نفسه، "...ليؤمن حريته وحرية الشعب الروماني المقموعة من قبل عصابة ما" (قيصر، تعليقات على الحرب الأهلية، ١، ٢٢).

الحرب الأهلية (٤٩-٤٥). دكتاتورية قيصر

سارع قيصر واحتل إيطاليا وروما، قبل أن ينجز بومبيه تجهيزاته. وكان القسم الأكبر من قواته، التي استدعاها من غول غرب الألب، لم يتسن له وقت لوصولها، في بداية كانون الثاني ٤٩، على رأس جفل واحد، اجتاز فجأة روبيكون. التي تشكل تخم إيطاليا وإقليمها، واحتل أرمنوم. وسرعان ما انتشر رعب لاسابق له: "لم يكن الأمر فقط، كما في الحروب الأخرى، رجال ونساء يركضون تائهين في أرجاء إيطاليا. ... وغمر روما نفسها طوفان من الشعوب لاجئة إليها من كل صوب، وباضطراب، في عاصفة هوجاء، لم يكن

ممكنا لأي حاكم التصدي لهذا لا بالحكمة والعقل ولا بالسلطة". أعلن بومبيه مغادرة العاصمة أمرا الحكومة ومجلس الشيوخ اللحاق به، وكذلك "كل أولئك الذين يفضلون على الاستبدادية وطنهم والحرية" (بلوتارك، قيصر، ٣٣). لكن بومبيه وأنصاره من الأرستقراطية ومجلس الشيوخ، لم يلق أي دعم من الشعب الإيطالي. فالفرسان، العوام، والحاضرات الإيطالية كانوا جميعا وبحزم من حزب قيصر. ورغم المسير الإلزامي الذي باشره إلى الجنوب، عبر أومبريا، بسنوم وبلدان السابان، لم ينجح قيصر في حرمان بومبيه وحاشيته المشيخية والحكام الآخرين، من الإبحار إلى برانديوم، للوصول إلى الشرق، حيث يعتمد بومبيه على علاقاته القديمة لتنظيم المقاومة. وخلال شهرين صار قيصر سيد إيطاليا كلها، ضاماً إليه القوات المشتتة بدون قائد، احتل روما بدون قتال، واستولى على الكنوز التي تركتها الحكومة وهربت. وبُعِدَ هذا أعلن نفسه دكتاتوراً (٤٩). دامت الحرب الأهلية، التي أخذت هذه المرة مدى فريداً، خمس سنين، طالت أرض الامبراطورية الرومانية، وتقريباً كل الأقاليم. لم يكن بميسور قيصر، وهو بدون أسطول ضارب وجحافل جرارة، أن يشرع على الفور بمطاردة بومبيه إلى اليونان، حيث استطاع هذا الأخير أن يحشد قرب براشيوم، إيبيريا، أحد عشر جحفاً، وسبعة آلاف فارس، وقوات كبيرة مساعدة، شكلت من يونان، ثراس، غالات سيسيليا، كبادوسيين وشعوب أخرى شرقية، وأسطولاً قديراً ينهض إلى ٦٠٠ مركب. في هذه الشروط، بحث قيصر بداية عن خلق قاعدة صامدة في الغرب وأن يحشد فيها قوات على الأقل معادلة. أخذ سيسيليا وسردينيا وأرسل كوريون ليحتل أفريقيا، على رأس جحفلين. فشلت هذه الحملة، لأن كبار الملاك في نوميديا كانوا إلى جانب بومبيه. هلك كريون وكل جيشه، بسيف جوباء، ملك النوميدي. وصل قيصر إلى اسبانيا ليثير هذا الإقليم الغربي على بومبيه، واحتلها بعد صولة بسيطة ضد سفراء خصمه، أفرائيوس بتريوس وفارون، الذين انتقلت أغلب قواتهم إليه. وليس قبل العام ٤٨، استطاع أن يسير إلى بومبيه، مع ١٠ جحافل و ١٠ آلاف خيال غولوا. وبعد اجتياز صعب لبحر إيجه، في أشد أيام الشتاء، وخسائر عارضة أمام دراشيوم، استغل قيصر غياب قائد محنك لدى بومبيه أو عدة جنرالات يقتسمون القيادة، وتحدى هذا الأخير قرب فرسال (في تساليا). وقبض على جميع أعضاء الحكومة الهاربة تقريباً؛ وعدد كبير، مثل شيشرون، أوقفوا القتال تلقائياً لأن قيصر لم يلجأ إلى النفي والإبعاد بل كان جدول

أعماله "الرحمة والرأفة". أما بومبييه، الذي بحث بعد الهزيمة عن ملجأ في مصر، قتلته أنصار الملك الشاب بتولميه الثاني عشر، القاصر، الذي أراد الانضواء برغبته إلى قسوات قيصر، والتزم بمشاركة عاهلهم ضد أخته كليوباترا في حربها ضده.

لكن كل هذا لم يمه الصراع. لأن قيصر، المنطلق لمطاردة بومبييه، تدخل في شؤون مصر، رغبة في وضع اليد على الكنوز الملكية. وبذريعة الانتقام من ذبح بومبييه غدرا، الذي دفن ممجدا عسكريا، وعلى ذكره أقام ضريحا ضخما، قتل عناصر الجريمة، عزل بتولميه وأعطى العرش لكليوباترا. أثار تدخل قيصر هذا انتفاضة قادها أنصار الملك المخلوع، المسماة حرب الإسكندرية، وصلنا عنها بحث كتبه أحد أصدقاء قيصر الصدوقين، وعرف كتتمه لـ "شروحات الحرب الأهلية".

إنما اضطر اضطرارا أساسيا أن يقاتل ثلاث سنوات أخرى أنصار بومبييه الكثر، وحلفاءه، "البومبيين"، في آسيا الصغرى، أفريقيا وإسبانيا. ففي الشرق، بعد موت بومبييه، كانت حامية فرناس، ملك البوسفور، واحدة من أمهر وأقدر الذين تابعوا الصراع. دخل البونت، مملكة أبيه السابقة، صرع دوميتيوس، سفير قيصر، وأخذ مدينة أميازس، الموالية للرومان، وباع كل سكانها. أجبرت أعماله المتطورة قيصر أن يجرّد له حملة، بغية إنقاذ السيطرة الرومانية في آسيا. كانت حملة سهلة، صحيح: فلول صولة، قرب زيلا، شنت جيش فرناس وأكرمه على اللجوء إلى بانتكابي (كيرتش)، حيث قتله أتباعه المتمردون. وعلى أثر حملة زيلا بعث قيصر رسالة إلى روما من ثلاث كلمات: "*veni, vidi, vici*".

إن هاتين الحربين، حرب الإسكندرية وحرب ضد فرناس، اللتين أقيمتا قيصر في الشرق، سمحتا إلى شتات حزب بومبييه أن يخلقوا قواعد متينة في الغرب. ولكي يجمعها، شن قيصر معركتين صعبتين وفي غاية الخطورة في أفريقيا (٤٦) وإسبانيا (٤٥). ففي أفريقيا، كان على رأس البومبيين القنصل لوسيوس سيبوني والحاكم م. بورسيوس كاتون، العدو اللدود للدكتاتور. وبمهارته المعروفة وجه هذا الأخير إلى نوميديا ملك موريثانيا بوكشوس ووجه جنده لمصارعة الفيلة، السلاح الذي ما اعتادوا قتاله. ثم في تابسوس، هزم خصومه شر هزيمة؛ وهلك كاتون وجوبا. وتقلصت مملكة نوميديا إلى إقليم روماني، وفي عهد حكومة سلوستس كرسبس، مؤرخ المستقبل.

^١ - أنت، رأيت، انتصرت. جملة مألوقة الاستخدام جدا، للتعبير عن سهولة وسرعة نصر ما - المترجم.

ولقد اضطر قيصر إلى بذل جهود مضنية حتى تمكن من قهر حصن بومبيه الأخير، إسبانيا، حيث لجأ من بقي حياً من حزب "بومبيه الأب" إلى أبنية سنيوس بومبيه وسكتس بومبيه. وتحت تأثير فشله، بدل هذا الحزب لبوسه الأرستقراطية ومال إلى الديموقراطية. تمثيلاً لسرتتوس، كان حليفاً صدوقاً للعناصر الايبيرية الأصلية، مجندين بينهم جيشاً قوياً نظامياً، انضم إليه العبيد. ومثل قيصر، اعترف فيما بعد، بمعركة ماندا الرهيبة، ولإشعال شجاعة جنده، قاتل على رأسهم كجندي، "بعكس المعارك السابقة، حيث قاتل من أجل النصر، سقط من أجل الحياة. لكن بهذا اللقاء أيضاً، هزم البومبيون، وأكره قائدهم الوحيد الذي بقي حياً، أن يركب البحر، مع الملتاعين الباقين من قوى الحزب في إسبانيا، ليعيش قرصاناً.

"إن قيصر بعد أن انتهى من الحرب الأهلية، يوجز أبيان، أخذ من جديد دربه إلى روما، القادرة والمخيفة كما لم تكن يوماً معه" (الحروب الأهلية، ٢، ١٠٦). يعترف المؤرخ نفسه أن هذا النصر كلفه غالباً جداً: "أمر بإحصاء كل مواطني روما، وكان عدد السكان قد تراجع إلى نصف ما كان عليه قبل الحرب، لكثرة الشقاق الداخلي الذي عانت منه الجمهورية...^٥ (نفس المصدر، ٢، ١٠٢).

خضعت روما مجدداً إلى حكم العسكر، كما في عهد سيللا، إنما بشكل أكثر ليونة. والجنود الذين أحسوا القدرة الحاسمة، اضطربوا، عصوا، طلبوا مكافآت واسعة وعدوا بها. كان تمردهم في العام ٤٧، قبل الحملة الأفريقية، خطراً بشكل استثنائي؛ احتشدوا في مضمار مارس، وطلبوا بصبخ التوزيع المباشر لـ *donativum* وإجازاتهم. تعرض ساوست، حامل وعود قيصر الجديدة للقتل. وكانت المدينة عرضة للسرقة. لكن ظهور قيصر الذي قدم إليهم بجرأة، وسلوكه الأريب والحازم تجاه المتمردين أنقذ روما من النهب. وبالموازنة بين التهديدات والوعود، عرف قيصر كيف يهدئ حركات الجنود الغاضبة والرهيبة وإعادتها إلى إطار الطاعة. لم يجنوا أقل مما أرادوا وأجبر قيصر أن ينقص إلى النصف عدد المحاصيل التي تراجعت من ٣٠٠ ألف إلى ١٥٠ ألف. وفي العام ٤٦، تلقى قيصر أمجاد النصر أربع مرات (على الغولوا، ومصر، وفرناس ونوميديا)؛ ولقد وفى قيصر بعهده: "أعطى كل جندي ٥ آلاف دراخماً قديمة، ولقائد المائة ١٠ آلاف، ولقائد الألف أو الخيال ٢٠ ألفاً.

ولقد جنت هذه الأبهة الانتصارية، كم ورد في الموروث ٦٠ ألف تالانت نقداً، و٢٨٠٠ قطعة ذهبية ترن ٢٤١٤ ليرة ذهبية". (أبيان، الحروب الأهلية، ٢، ١٠٢). لكن قيصر افتقر للوقت ليتم توزيع الأرض على أبطاله، بدءاً بالرتبة العليا (وزع على ٨٠ ألفاً). وراح هؤلاء يعيشون الرغد والرفاهية والقصف والمجون. والشيء الهام الذي انتقاه قيصر هو النقي، المذابح، والمصادرات، كما في عهد سيللا.

كان قيصر نفسه لا يخفي أن سلطته تركز أساساً على الجيش. ومثل سيللا، كان لقبه الرئيس هو الإمبراطور، الذي مارسه كاسمه الشخصي: "الإمبراطور قيصر، أب الوطن، الموجه الأبدي" هذا ما نقرأه على النقد الذي ضرب في عهده. وإلحاق ألقاب "أب الوطن" و"دكتاتور" يعني أن هذه السلطة العسكرية طالت أساساً كل المجتمع المدني وأن الجمهورية تحولت إلى الأبد إلى ملكية عسكرية.

كانت الدكتاتورية العسكرية المظفرة التي يمارسها قائدها، في الأربعينيات، ذات طابع ليس أقل رجعية ومعاداة للشعب من دكتاتورية سيللا، قبل خمس وثلاثين سنة. رغم أنهم كانوا يقيمون صلات مع الديمقراطية. وبالفعل، كان قيصر لمدة طويلة القائد المعترف به من الديمقراطية وحزبها، وكان ينتظر منه انقلاب مستوحى من برنامج كتلينا: الأمر الذي يعزل الذعر الذي تلبس في العام ٤٩ كل العناصر المحافظة وكبار الملاكين، الهاربين من إيطاليا مع بومبيه.

لكن تطلعات وآمال الشعب انهارت. ورغم الأزمة الاقتصادية الخانقة التي عمت روما، بنتيجة الحرب الأهلية، اكتفى قيصر بتخفيض فوائد الديون جداً وتقييم الرهونات بنفس القيم كما في الماضي. وقمع الإضرابات على الفور وبقسوة نموذجية. وفي العام ٤٨، أقيل الحاكم روفوس وأبعد عن روما، لأنه اقترح على مجلس الشيوخ إلغاء الديون. وأعلن الحصار على المدينة لخلق حركة المتعاطفين مع روفوس؛ وخلق التمرد الذي حاول هذا الأخير بعثه في جنوب إيطاليا، بمساعدة ميلون الذي كان قد عرف منذ أعوام سابقة بديماغوجيته، خنق بالحديد والنار؛ وهلك هذان القائدان في أثناء حملة القمع. وفي العام التالي، ٤٧، حين قدم محامي الشعب ب. كورنيس دولابيل المطالب ذاتها، التي دعمها بكل حزم العوام الرومان، الذين أقاموا متاريس في كل الدروب المؤدية إلى الفوروم Forum، لمنع مقاطعة الاقتراع، ارتكب معاون قيصر الأول، قائد خيالته، مارك أنطون وحاكم روما

في غياب الدكتاتور، مذبحه حقيقية في شوارع العاصمة. حطمت قواته المتاريس وشنتت مجلس الشعب، وسقط حتى ٨٠٠ قتيل وقذف بالعديد من الناس من أعلى صخرة تربيين *Tarpienne*. عاد قيصر على عجل، ودلل على عدم الموافقة على ما ارتكب مارك انطوان، وكف عن مطاردة دولابيل، وأعلن تأجيل الأجور المنخفضة لمدة عام، لكنه بنفس الوقت أغلق كل النوادي والتجمعات الشعبية.

إذ كان يحاول بكل السبل صرف الشعب عن الحياة الاجتماعية والسياسية، بالأعياد والاحتفالات الباذخة المنقطة النظير، وشد متعاطفيه بكرم بتوزيع المال، القمح، اللحم، اللوازم العامة (في إحدى هذه المناسبات، أقيمت ٢٢ ألف مائدة في الهواء الطلق). ولم تعد مجالس الشعب والانتخابات سوى شكلية عابثة؛ أو يسمي قيصر نفسه الحكام، أحيانا لعدة سنين، أو يخاطب القبائل بالرسائل، طالبا منهم -وهذه الطلبات هي أوامر- أن ينتخبوا مرشحيه. ويبحث فضلا عن هذا عن تحويل الرأي العام عن القضايا السياسية الكبرى مركزا اهتمامه على الشؤون المحلية، وبهذا الهدف نبح قانونا حول الإدارة البلدية للحاضرات الرومانية، التي توسع حقوقها.

بسط قيصر، ملتصقا الشعبية في الأقاليم حق الحاضرة الرومانية، الذي وهبه دفعة واحدة لسكان غول غرب الألب، بينما تلقى غول شرق الألب، القانون اللاتيني؛ من هنا كانت المستعمرات القديمة العسكرية التي شيدت في المحميات، تحكم نفسها هي الأخرى، لكن الهيمنة بقيت معطاة للشريحة المرتاحة والـ"هادئة" من الناس. على ذلك، لم يتعد قيصر أبدا عن الفئات السفلى، واستمر يعتبر نفسه قائد الحزب الشعبي.

كان ترسيخ السلطة الملكية يترافق طبعا مع الميل إلى المركزية والبيروقراطية الإدارية. صرح قيصر قائلا: الجمهورية ليست سوى اسم بدون معنى... ليؤخذ كلامي "قوانين". (سويتون، قيصر، ٧٧)، كان يهدف أيضا أن يجعل كل مؤسسات الدولة دواليب بسيطة إدارية. ومجلس الشيوخ، المتقلص إلى دور تجمع استشاري -ضم إليه كثيرا من قادة المائة عند انتهاء خدمتهم- نهض إلى ٩٠٠ عضو. وزاد عدد الحكام إلى ١٦، ووزراء المالية إلى ٤٠، و٦ قضاة بلدية؛ وكان المحافظون الخاصون المختارون من بين ضباطه، يسهرون على حفظ النظام في روما. وفي الوقت ذاته، لتوحيد المحاسبة وتسهيل الأعمال الإدارية صك نقد جديد من الذهب وصار العملة المتداولة الوحيدة، ووضع تقويم

جديد، يلامح المرحلة، لإتمامه شكلت لجنة من الفلكيين الدائمين. تألفت السنة الشمسية، وهي الأساس، من ٣٦٥ يوما وربع اليوم، والأشهر، عدا شباط الذي حافظ على ٢٨ يوما كما الأمر في الدورة القمرية، تكون من الآن، دوريا، ٣٠ و ٣١ يوما.

كان قيصر معجبا جدا بأشكال الحكم التي وجدها في الشرق، وبخاصة الملكية الهلنستينية، كالتي كانت في مصر، بملوكها المؤهلين، بسلطة غير محدودة، وعظمة البلاط والجهاز البيروقراطي الضخم. جلس في مجلس الشيوخ على عرش من ذهب، وارتنى بزة النصر، والجببة محاطة بأكاليل من غار، ومعطفا وحذاء أحمر أرجوانيا كمداش ملوك روما السابقين؛ وراح يتذكر باستمرار أصله الإلهي، لأن أسرته تتباهى بانحدارها من فينوس. وبني معبد، أهدي "للمعبود جوليس" أو "جوبتير جوليس"، وخلقت هيئة من الأحرار لتعبده. وملكة مصر، كليوباترا، أتت إلى روما بدعوة منه؛ وتوقع الناس زواجهما الذي يخول قيصر حمل لقب ملك. ولا يعود أنصار قيصر يقلقون إن هم توجوا أنصابه بالذهب أو قدموا له الإكليل أمام الملأ. لكن الوقت لم يأت: كان الشعب يتململ من هذه المظاهر العاهلية، وكان على قيصر أن يعزف عن إعلان نفسه ملكا، ريثما يتم إعداد السراي العام لتقبل هذه البيعة.

وفي العام ٤٥، شرع قيصر الإعداد "لحملة ضخمة إلى الشرق" ضد البارث، الذين كانوا يهددون بدخول أو غزو الأقاليم الرومانية الواقعة على تخومهم. ارتأى، والدرب مشرع، إخضاع الجيت، الذين أسس ملكهم، آنثذ، مملكة جبارة في أسفل الدانوب. بهذه المناسبة، كان أتباعه ينشرون بإلحاح ضجة وإشاعة تقول إن النبوءات القديمة تسند لملك قهر ملوك الشرق. فقط لكن قبل أربعة أيام من قيادة قواته (١٤٥ مارس) ٤٤، قتل قيصر، في مجلس الشيوخ، بأيدي زمرة من المتأمرين الجمهوريين.

وهكذا لم يستطع قيصر إنجاز مهمته وتوطيد النظام "الإمبريالي" العاهلي والعسكري، الذي فرضه على روما، كما أنه كان قد دمر الجمهورية تدميرا كاملا لا عودة له، كما كان الأمر بعد موت سيللا.

انطفاء آخر حركة جمهورية. الثلاثية الثانية، تحريم وإبطال الملكية العقارية الواسعة في إيطاليا

كان منفذو المؤامرة وجوه أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين، وشاغلو أرفع المراكز في الجيش وأقرب المقربين من البومبيين السابقين، ومن عفى عنهم. وكان على رأس

المؤامرة عضوان من أسرة جوليان بروتس الرومانية الثرية: الحاكم ماركوس جوليان بروتس، الجمهوري المتعصب وبنفس الوقت محظي قيصر، حمو ديسموس جونيس بروتس، الذي ولاه الدكتاتور حكومة الغول غرب الألب، والثاني، الحاكم كايوس كاسيس لونجنس، إذا ما أهملنا الحديث عن غيرهما. وكانوا كلهم ٦٠.

لكن موجيهم كانوا في الصفوف الغفيرة لكبار النبلاء، الذين كانوا يكرهون قيصر. لذا اختاروا، لهلاك هذا الأخير، سور مجلس الشيوخ الذي، كما أملوا، يجب أن يحقق مخططهم في قتل "الطاغية" وإعادة الجمهورية. وبالفعل، لم يبق أي عضو في مجلس الشيوخ بأي حركة للدفاع عن قيصر عندما طوقه القنلة. نجح الاغتيال، ساند أغلب أعضاء مجلس الشيوخ المتأمرين وأعلنوا إلغاء كل القرارات والأوامر التي اتخذها قيصر. ورغب البعض في منع دفن "الطاغية" وطلبوا أن ترمى جثته في التبر، وفق العادة القديمة. كان خوف المتأمرين الوحيد وأنصارهم الأرستقراطيين الرومان، قيام عمل حربي بقيادة معاوني قيصر الأقرب، القنصل مارك-أنطون وقائد الخيالة، م. أمليوس، اللذين كانا يقودان كل قوات حامية روما. وللتصدي لهذا الخطر، احتل الجمهوريون الكابيتول وجندوا لحمايته زمراً من المصارعين.

لم يكن "الشعب مهيباً لمتابعة المتأمرين" (أبيان، الحروب الأهلية، ٢، ١١٩). بالعكس طارد القنلة ورجمهم. وبعد عدة أيام من موت قيصر، عندما حمل جثته إلى الفورم، وتليت على الجمهور وصية الميت، التي تخص كل مواطن بإرث محترم، هجم الشعب المنتفض ودمر بيوت أعضاء مجلس الشيوخ والنبلاء. كان يقود المتمردين محرض ماهر، معتق طبعاً اسمه هروفييل (ونقول بعض المراجع أن اسمه أماتيسوس)، المعتبر حفيد ماريوس. كان يعتبر قيصر محامي الفقراء، هلك تحت طعن الأغنياء، بعد أن حض الشعب على ذبح كل أولئك الذين ولغوا في هذه الجريمة وأعضاء مجلس الشيوخ جميعاً. التحق العبيد والمنتفضون بالحركة، التي تعاطف معها أعوان قيصر، المجتمعون في روما بعدد ضخم.

إن الخوف الذي أشاعته هذه الاضطرابات الشعبية قرب لفترة ما قسادة قيصر من الحزب المشيخي وحتى من مغتالي قيصر. وفي جلسة مجلس الشيوخ الأولى، رضي أنطون وليبيد بعودة الوضع الجمهوري؛ كانت السلطة العليا بيد مجلس الشيوخ والعاهلية بيد الهيئات الانتخابية. وكدليل على الوفاق بين القادة والمتأمرين، سلمهم أنطون وليبيد أولادهما رهائن. وتخلّى القيصريون ليس فقط عن العفو عن القنلة بل سمحوا لهم بالاحتفاظ

بالحاكميات والاقاليم، وضمن مجلس الشيوخ من جهته الصلح التالي: يتخلى الجمهوريون عن رغبتهم في فضح ذكرى قيصر كطاغية، وعن مصادرة أملاكه، وكذلك عن إلغاء كل أعماله وتعييناته. وبعيد هذا، بناء على اقتراح أنطوان، سُن قانون يلغي إلى الأبد الدكتاتورية ويعترف لكل الناس بحق قتل كل مراب جديد.

بعد هذا الوفاق الوقتي والخبيث، انطلقوا إلى قمع الحركة الشعبية. وبأمر من أنطوان، أعدم هروفيل بدون محاكمة. وعندما احتشد أنصاره في ميدان الفورم، أمر أنطوان ودولابيل، زميله في القنصلية، بتسيير القوات ضدهم. قتل البعض وهم يدافعون عن أنفسهم، وسجن البعض وأعدم (منتصف نيسان ٤٤).

على هذا، أعطى أنطوان مجلس الشيوخ بعض الامتيازات ونفسيه كقنصل حق الإعداد لعودة القيصرية وتسوية الأمور مع خصومه. بناء على طلبه، وعدم رضى مجلس الشيوخ، سماه مجلس الشعب محافظا لغول غرب الألب محل دسموس بروتس، أحد قتلة قيصر. وبذريعة تحويله إلى إقليمه، دعا إليه أربعة جحافل كانت في مقدونيا. فضلا عن وضع اليد على ثروة قيصر الطائلة، بدأ بتجنيد حملات قوية من قادة المائة، تحت ستار الحماية من الديموقراطيين الغاضبين من إعدام أماتيوس. لكن انشاقا بعث في بنية الحزب القيصري: كان بعض، المحنكين المزودين بأراض، يساندون سياسة عودة الوفاق الوقتي مع مجلس الشيوخ، يؤيدهم أنطوان، ويريد الآخرون عملا أكثر حزما ضد قتلة قيصر ومحرضيهم. وسرعان ما رأى أنطوان خصما خطرا في شخص شاب في ربيعته الثامن عشر، هو أوكتاف، حفيد إحدى أخوات قيصر، كان مقربا إليه قبيل موته، ولهذا السبب سمي كايوس يوليس كيزر أوكتافيانس. كانت ثروته ضخمة، خلاف ما أوصى له به قيصر، أسرة ثرية.

لقد وطد الشقاق بين القيصريين والحرب بين قادتهم وضع الحزب المشيخي. كان شيشرون في مجلس الشيوخ ومجلس الشعب ينفجر ضد أنطوان (*Ses 14 philippiques*). كان التسليح ينشط وضريبة الحرب ترتفع، التي لم تجب منذ ١٢٥ سنة. كلف بروتس وكاسيوس بتجهيز الجيش والأسطول للذود عن الجمهورية، ووضع بإمرتهما كل الحكام الرومان في شرق البحر الأيوني. وكان ينتظر وصول إلى روما آخر أبناء بومبييه، سكتس، والعودة التامة للنظام البومبوي. واتخذ مجلس الشيوخ، حتى تجاه أوكتاف، موقفا مهينا ومعاديا. واستدعى الخوف من بعث الاولغارشية المشيخية تدخل القوة الحاسمة يومئذ،

الجيش. كان الجنود يحاولون منذ زمن، لكن عبثاً، التوفيق بين أنطوان وأوكتاف، المفروض عليهم، بنشر سخائنه الأريحي ووعوده الحاسمة بمعاينة قتلة قيصر. وبعد معركة متينا، قرر الجنود أخذ القضية بأيديهم وبعثوا وفداً إلى مجلس الشيوخ: شهر الوفد السيف، وطلب القنصلية لقائده، الذي لم يتم بعد العشرين ربيعاً. غضبوا من الرفض وسيروا القوات إلى روما وبدأ القتال في ميدان مارس، فأكره مجلس الشيوخ على الإذعان لرغبتهم. ولإرضائهم، ألغى القنصل الجديد العفو الممنوح لقتله قيصر، وبدأ سلسلة من الاعتقالات والإعدامات بين الجمهوريين ووزع بيد سخية على الجند (٢٥٠٠ دراهماً لكل منهم) من مال الخزينة.

في هذا الوقت، تمركز جيش آخر جيش لبيد، في الغول غرب الألب، وأجبر قائده، المحايد، أن يقف صراحة إلى جانب أنطوان، وهكذا ضم السبعة عشرة جحفاً بقيادة أوكتاف، الذين رفعوا القناع عن مطلبهم من مجلس الشيوخ.

وفي خريف العام ٤٣، اجتمع القادة القيصريون الثلاثة الكبار في جزيرة رينوس الصغيرة، قرب بونونيا، وبعد مؤتمر لثلاثة أيام، عقدوا فيما بينهم اتفاقاً قرئ على القوات. قرروا عودة الدكتاتورية العسكرية، ويستلمها أنطوان، لبيد وأوكتاف. وقد منحهم هذه الدكتاتورية التعاونية، التي تستر باسم الثلاثية مراعاة لدستور الجمهورية، ممارسة السلطة المطلقة لخمس سنين، حتى أول كانوا الثاني ٣٧. ثم وعلى الفور احتل الثلاثة روما وبعد إعفاء الحكومة، ولتغطيهم مادة شرعية، ضمنوا اتفاقهم بالاقتراع على "قانون"، فرضوه على مجلس الشعب بعد أن أحاطوه بقواتهم. هوذا أصل "الثلاثية الثانية" التي، بخلاف الأولى، كانت ذات طابع رسمي بمعنى الكلمة.

وبعيد هذا، بحجة الانتقام لموت قيصر وإرضاء للجنود، أهرق الدم في أرجاء إيطاليا، ونهبت خيراتها بأمر من الثلاثة الكبار. وعلى مثال سيللا، دبجوا لوائح بالابعاد. وهلك ٣٠٠ عضو من مجلس الشيوخ و٢٠٠٠ فارس، وجمهرة من الأغنياء، منهم شيشرون، هلكوا دون محاكمة وصودرت أرزاقهم. كان الجند يقتلون المبعدين حيثما وجدوهم ويحملون رؤوسهم إلى روما، ليحفظوا بالثمن ٢٥٠٠٠ دراهماً ويعتق العبد الذابح. ولمكافأة القوات، سلمت لهم ١٨ مدينة الأروغ في إيطاليا (كابوا، فينيسيا، بنفانت، أرمنيوم وغيرها: يطرد السكان، ووزعت البيوت، والأثاث، والأرض والعبيد على جنود الجيش القيصر. وبيعت الأراضي المصادرة بالمزاد وهكذا أغنت هذه العمليات المجزية جسداً جمهرة من المضاربين،

والموظفين والضباط القيصريين. ووسع الثلاثة الكبار أنفسهم ثرواتهم، بتسجيل ذويهم في لوائح المنفيين، ليستولوا على أرزاقهم. كان هذا نهبا غريبا، بفضلته وزعت أوسع الأسلاك وغير شطر كبير من الأرض والأرزاق اسم ماله (انظر، في الحروب الأهلية، ٤، ٥-١٥، التفصيلات المربعة التي يعطيها أبيان لهذا الموضوع).

على ذلك، لم يجد الثلاثة الكبار، في نهب إيطاليا، المناهل الكافية لتغطية التزاماتهم تجاه الجنود. فسارعوا بالتالي لبسط نفوذهم على أغنى أقاليم الشرق، التي كان قد سرقها هي الأخرى آخر الجمهوريين الذين كانوا سادة آنفذا. وأعد بروتس وكاسيس، اللذان كانا في مقدونيا جيشا جرارا (١٨ جحفا)، وسار إلى روما. وبالمقابل مشى أنطوان وأوكتاف على رأس ٢٠ جحفا، إلى اليونان، وفي خريف العام ٤٢، اصطدموا بقوات بروتس وكاسيس، ليس بعيدا عن أمفبولي، قرب فيليب. دام القتال شهرا كاملا، بشيء من الغلبة للجمهوريين، الأوفر مؤونة والأفضل تسليحا وتنظيما. لكن انتحار كاسيس، الناجم عن فشل جزئي، زعزع القيادة الجمهورية، وفي نهاية تشرين الثاني ٤٢، هزم جيش بروتس شر هزيمة، وخرق بروتس اليانس، جسده بسيفه، وانضمت قواته إلى أنطوان (اقرأ بلوتارك، بروتس، ٣٨-٥٣، وأبيان، ٤، ٥٧-١٣٦).

سجلت معركة فيليب أفول الجمهورية إلى الأبد وترسيخ الدكتاتورية القيصرية. لكن الثلاثية، الباقية الجهاز الأعلى التعاوني في الحكومة الرومانية، وزعت على أعضائها الأقاليم. كسب أنطوان، الذي اعترف له زميلاه بأسبقيته حكومة أغنياء الأقاليم الشرقية، كما ادعى. لإرضاء أطماع الجند، قرابة ٤٠ جحفا. وتكفل بتنفيذ المشروع الذي بدأه قيصر: الحرب ضد البارث. ووقع الغرب (إيطاليا، غول، اسبانيا) بين يدي أوكتاف، مع مهمة توزيع الأرض على الجنود المحتكين (٢٠٠ سهما، أي ٥٠ هكتارا للرأس). وبدأ أيضا الحرب ضد سكتس بومبييه، الذس احتل سيسيليا، وساد البحر. وأخذ ليبيد أفريقيا وثلاثة جحافل.

هذا، وفي نهاية العام ٤٢، لم تكن الدكتاتورية التي أنشأها قيصر قد عادت فقط، بل توطدت بوضوح، بشكل تعاوني، صحيح، وليس بين يدي شخص واحد. كانت الثلاثية الثانية فعلا الدكتاتورية المفتوحة للجحافل، بوساطة حكومة مؤلفة من ٣ جنرالات يتمتعون بأوسع نفوذ وأعمق ثقة لدى الجنود، وبضغط منهم جنوا "تأييد الشعب".

الفصل الثامن والخمسون

أمارة أوغوستن

انهلال الثلاثية الثانية. أوكتاف يحتل السلطة العليا

مع ذلك، على مثال الأولى لم تتأخر الثلاثية عن إفساح المجال تدريجياً لدكتاتورية أحد أعضائها. وهذه المرة أيضاً، فرض أحد الثلاثية نفسه، والذي كان يبدو الأقل أهمية وصدارة، لكنه دل على أنه الأمهر، الأكثر تشبهاً والأنفذ بصيرة، والذي عرف كيف يخلق أجود وأصمد سند.

بعد انتصار فيليب، تابع أوكتاف دون توان سياسة النفي والمصادرة ليغمر الجنود بالمكافآت؛ عدا أملاك المبعدين وزرع على الجنود أرزاق سكان ست عشرة مدينة من أهم مدن إيطالية، كما رأينا أعلاه كانت (اثنتان من الثماني عشرة حاضرة كانت قد وقعت بين يدي سكستس بومبييه). وأسفرت هذه التدابير عن أزمة اقتصادية رهيبة وفوضى غريبة في إيطاليا. لم يكن المالكون يخفون كرههم "للجلاد" أوكتافيو. وتجلّى غضبهم بتمرد واسع نشب في العام ٤١، حرب بيروس (اشتقاق من مدينة أتروريا الواقعة على هضبة صخرية جيدة التحصين أضحت مركز الانتفاضة). كان على رأس الحركة لوسيوس أنطونيس، أخذ أخو أحد الثلاثة الكبار وفولفيا، زوجة هذا الأخير، التي كانت تسعى لنزع الثقة من أوكتاف وتأمين السلطة كلها لأنطوان. لكن أوكتاف أخذ بورس، المحاصرة بثلاثة جيوش؛ وسلمت المدينة للنهب وأحرقت. وهلك ٣٠٠ عضو من مجلس الشيوخ ووجوه أخرى معروفة من النبلاء أمام معبد "الإله قيصر".

لن يكتب لنظام إرهابي عسكري كهذا طول البقاء. لكن أوكتاف لتوطيد وضعه سعى إلى التصالح مع الطبقة المالكة وأصحاب العبيد في إيطاليا، فقد أصبح هو نفسه مالكاً عقارياً كبيراً، بحياسة الأراضي بسعر بخس، في أيام الإبعادات. فمنذ الثلاثينات، أخذت سياسته وجهة جديدة: بدعم من النواة القيصريّة الهامة التي اغتنمت مثله، هدف التقارب مع

من بقي من النبلاء الأغنياء الكبار والشرائح المالكة من البلدان الإيطالية. وترجمت هذه السياسة بالهدوء، ثم بإنهاء الإبعادات والمصادرات، والإعفاء عن المنفيين والهاربين، وعودة الاستقلال البلدي للحاضرات الإيطالية، الخاضعة حتى آنذ للحكومة العسكرية (سفراء يمثلون السلطة الحاكمة).

وبدئ بنفس الوقت، في الأوساط المنعمة من المجتمع الإيطالي، بعد فشل حرب بروس، بسياسة سلبية معينة، اتجاهات لامبالية، الاعتكاف في الحياة من أجل التمتع بهدوء بما تبقى من الثروة، والتلائم مع نظام أوكتاف الذي راح يمارس أكثر فأكثر شيئاً من الرحمة والحلم. ساهم بهذا الضباط الذين ارتقوا إلى صفوف مالكي الأطلان والعبيد، والجنود القدماء الذين صاروا معمرين (مستعمرين). كانت السلطة الثلاثية فقط قادرة على حماية حيازات هذه الفئة الجديدة من مالكي الأرض.

لكن واحداً من أسباب التغيير الهامة لصالح أوكتاف انتصر على سكستس بومبييه الذي، من مركزه في سيسيليا، طال إيطاليا الجائعة والمهددة بتمرد العبيد مجدداً. ضم بومبييه، المفتقر إلى الرجال، طوعاً، المبعدين الهاربين والعبيد الذين يشكلون بوضوح عناصر قواته البرية والبحرية. بل كان القائد العام للقوات البومبية المعتق منودور. والثلاثة الكبار الذين كانوا عاجزين عن إنهاء بومبييه اضطروا لعقد اتفاق معه. وفي العام ٣٦ استطاع أسطول أوكتاف بقيادة أغريبا، جنراله البطل، أن يبيد نهائياً أسطول ملك القراصنة هذا، على الساحل الشمالي لسيشيليا. فقد أزر تحالف أوكتاف مع المبعدين المهاجرين إلى هذا الإقليم، ساعد أغريبا على احتلال كل سيسيليا. وكما كتب أوكتاف في سيرته الخاصة، "أعادهم إلى سادتهم، تاركاً لهم الاهتمام بمعاقبتهم"، فقد سجن خلال هذه العملية ثلاثين ألف عبد. وصلب ستة آلاف لم يعثر على سادتهم. واحتفاء بهذا النصر المؤزر في "حرب العبيد"، رفع مجلس الشيوخ لأوكتاف نصباً من ذهب في ميدان الفورم ومنحه منصب المحامي الشعبي إلى الأبد.

بفعل دعم الشرائح المنعمة في المجتمع الإيطالي والجنود المحنكين المغتربين، أخذ أوكتاف المنصب الأول في الثلاثية.

في العام ٣٦، أبعد منها ليبيد، تاركاً له المهمة الفخرية، كبير الأبحار. وبسوءاً من هذا العام، وضع غرب الامبراطورية الرومانية كله مع الجحافل المعسكرة فيه، بين يدي أوكتاف. كانت العلاقات بين رئيسي الثلاثية، أوكتاف وأنطون، قد توترت منذ حرب سيروس. مع ذلك اضطر أنطون أن يقبل الاتفاق المؤقت والصلح مع أوكتاف، لأن ابن ممالك

البارث، باكورس، كان، في العام ٤٠، قد خرب الأقاليم الرومانية الغنية في آسيا: سوريا وفينيقيا، فوجدت روما نفسها مهددة بضياح الشرق. انتهى هذا الاتفاق إلى معاهدة وقعت في العام ٤٠ عرفت بمعاهدة برونديزيوم التي اكدت في العام ٣٧ اتفاق تارانت الذي مدد خمس سنوات للثلاثية.

كان الإعداد لحرب قاسية وخطرة ضد البارث قد أجبر أنطوان على البحث عن تحالف متين مع أغنى بلدان الشرق، مصر. لابل تزوج ملكة مصر كليوباترا، وأعطاهما لقب "ملكة الملوك"، وأقطع أبناء هذه العائلة أملاكاً من أقاليم الشرق الرومانية. لكن حملة أنطوان على البارث آلت إلى الفشل: لكنه نجح بعد جهد جهيد في تجنب ما أصاب كراسوس ونقل عبر أرمينيا من تبقى من جيشه (العام ٣٦ ق.م). أفاد أنصار أوكتاف من الوضع بهمارة لمهاجمة أنطوان. وتمت القطيعة في العام ٣٢ ق.م. بدأ أوكتاف بانقلاب حقيقي في روما: تقدم من مجلس الشيوخ مع مرافقة ضخمة من جيشه، عزل ٤٠٠ من أعضائه، أنصار أنطوان وأكره القنصلين على اللجوء إلى هذا الأخير. وبخرق العادة الدهرية، ألزم الراهبات على تسليمه وصية أنطوان (فيما يخص كليوباترا وأولادها)، وتلاها على مجلس الشعب، الذي أقال أنطوان من سلطاته في الثلاثية. وأعلنت الحرب على كليوباترا لأنها استلمت أملاك الشعب الروماني.

بدأ القتال بين جيشي الخصمين عند الشط الشرقي لبحر الأدرياتيك، حيث هيا أنطوان، في خليج أمبراسيا، قاعدة نزول في إيطاليا، قصد انتزاعها من أوكتاف. من الزاوية القتالية، كان أنطوان أقوى، لكن أوكتاف كان يتمتع بدعم كل المجتمع العبودي الإيطالي-الروماني وحتى اليوناني، والذي وقف إلى جانبه. فضلاً عن هذا كان جنود أنطوان يعانون الجوع، لأن السكان المحليين رفضوا تزويدهم بالمؤن؛ فبدأت الاضطرابات في الجيش. استغلالاً لهذه الظروف، رغم أنه أقل عدداً، أنزل أسطول أوكتاف، بقيادة أغريبا، في الثاني من أيلول ٣١، وفي رأس أكتيوم، هزيمة ساحقة بأسطول أنطوان. هرب هذا الأخير إلى مصر، تاركاً جيشه البري، الذي استسلم، بدون قتال، إلى أوكتاف. وفي العام ٣٠، استلم أوكتاف آسيا، سوريا، فينيقيا، فلسطين وغزا مصر، آخر بلد شرقي مستقل. انتحر أنطوان وكليوباترا، وتراجعت مصر إلى محمية رومانية، لكن بوضع خاص، جعل منها بشكل ما ملكية خاصة لأوكتاف وأسرته.

وفي العام ٣٠، التأم شمل الدولة الرومانية، بعد ١٢ عاماً من التفكك، وأخلت الدكتاتورية العسكرية المكان للملكية التي استلمها أوكتاف. وانفتح عهد جديد، عهد

الإمبراطورية الرومانية.

أوكتاف يجدد تنظيم القاعدة الاجتماعية لحكومته، آخر عشرين سنة من القرن

الأول ق.م.

ساد أوكتاف وحده الإمبراطورية الرومانية، لكنه لم يقتف خطى قيصر بل تجنب العودة التامة إلى نظام الدكتاتورية العسكرية أو يختار نظام الملكية المطلقة من النمط الهلنستي. اتبعت سياسته الداخلية ترسيخ دكتاتورية الجيش ومالكي العبيد، دكتاتورية محافظة في إيعادها وأهدافها، لكنها بقي وتصون مراسم الجمهورية. وكانت تستند إلى تحالف كل الفئات المالكة والمستعبدة، ولم يكن العامل العسكري مدعوا لأن يلعب فيها دورا ضد الثواب المناسب، لأجل الدفاع عن مصادر الرفاهية وتوسيعها.

تشكل سيرة أوكتاف الذاتية المنشورة بعنوان "أعمال أوغست المقدسة" مرجعا في غاية الأهمية، للتعرف إلى الخط العام في سياسته الداخلية. وهذه الألواح، المنقوشة في مدخل ضريحه، وصلتنا بشكل نسخ. أتمها نسخة أنسير، ولذا تسمى الوثيقة نفسها غالبا "منحوتة أنسير". والأنسب الرجوع إلى هذا السند بكل حذر، لأن أوغست لا يضمنه سوى أعماله الحسنة، بل يبالغ غالبا، وليس بدون تشويه الأحداث.

إن أهم الاستحقاقات التي ينسبها لنفسه، منذ السطور الأولى (الفقرة ٣)، وإليها يعود كثيرا، هو أنه حرر وكافأ جنوده، ويشير بخاصة إلى توزيع حوالي ٣٠٠ ألف سهم من الأرض، وأنفق دراهمه وأسس عددا كبيرا من المستعمرات العسكرية (٢٨) في إيطاليا وفي أرجاء الامبراطورية.

لكن أوكتاف لم يكافئ بكرم فقط، بل عرف كيف يخضع لسلطته كل القوات العسكرية في الدولة. وبعد أكتيوم، قلص أوكتاف في اليونان أيضا عدد الجيش العام، ولم يبق تحت السلاح سوى ٢٨ جحفلا هم الجنود الأقل خطرا والأكثر انضباطا (١٥٠ ألف تقريبا). استمر هذا العدد وما يناسبه من الكتائب المساعدة طيلة عهد أوغست. كان يجب على كل عسكري أن يخدم عشرين سنة، خلالها يكون كل وقته في خدمة الدولة. كان ذهاب أول جيش دائم مرتزق في الدولة الرومانية. يتقاضى الجندي مرتبا سنويا ومخصصات تقاعد (سهم من الأرض أو مبلغ من المال ليؤمن أيامه الأخيرة). كان الجيش يربط على الحدود، بعيدا عن العاصمة. يعيش الجندي في الثكنة وليس له حق تأسيس أسرة.

كانت هذه القوات خاضعة لانضباط صارم. لم يترك أوكتاف في روما سوى حرسه

الخاص، "قيادية"، أي تسع كتائب في كل منها ١٠٠٠ عسكري، وأفواج من الشرطة ("كتائب المدينة")، غير قادرة على ممارسة أي ضغط في الشؤون السياسية. ويمسك أوكتاف بيديه كل إدارة الجيش ويتدخل بكل شاردة وواردة حتى تسمية قادة المائة. ويوقع دوماً بلقب: امبراطور"، جاعلاً هذا اللقب مثل قبصر اسمه الخاص.

في نفس الوقت انفصل فجأة عن الفئات الديمقراطية في المجتمع الروماني، التي بحث أوكتاف لديها عن دعم وسند في العامين ٤٤ و ٤٣. وفي أعمال شعراء القصر، التي تعكس الأوضاع الجديدة لحاميتهم، ظهر في حوالي العام ٢٧، تعبير مهين للشعب هو "النذل الخسيس"، "حري بالاحتقار والمقت" (هوراس، أناشيد، ٢، ١٦، ٣، ١، ٢). وبعد هذا، تراجع الاقتراح على القوانين وانتخاب الحكام في الهيئات الانتخابية إلى شكلية عابثة، ومن هنا، لم تتأخر الحياة الاجتماعية والسياسية النشطة حتى آنذ، عن السقوط إلى البلادة. ولحق أي نشاط، سم الشعب بترو بكل أنواع النزوات، موفراً له فقط 'الخبز والأفراح'. وارتفعت جناية الجندي اليومية من القمح من جديد إلى ٣٠٠ ألف، أي خميس موديس^١ للجندي. واستلم أوكتاف بيديه شخصياً تنظيم وصول القمح من الأقاليم. فضلاً عن هذا، في الفصل الخامس عشر من "أعماله" يعدد ليس بدون تمليل توزيع الدراهم على الشعب. ومن الطبيعي جداً، أن يشرع الجمهور الروماني بتفضيل الحظوات والمسرحيات وهي التعبير الرهيب عن إرادة العاهل في الهيئات الانتخابية. ومن بين التدابير الهامة الأخرى المتخذة لتوطيد النظام العبودي، التقييد الذي أضيف إلى حق عتق العبيد. وفي العام ١٠، أعيد العمل بالقانون القديم الذي يحكم بالموت على كل العبيد-الخدم، في حال قتل أو ذبح أي من ساداتهم.

تابع أوكتاف تدريجياً سياسته في التقرب من الشرائح العليا في المجتمع العبودي. ظهر مجلس الشيوخ، في عدة مناسبات، من عناصر الصدفة، الذين تغلغلوا فيه في أثناء الحرب الأهلية. ورفعت ضريبة عضوية مجلس الشيوخ إلى مليون سسترس، منها مائة ألف فقط على الأقل نعوض بعقار. وصار عدد أعضاء مجلس الشيوخ ٦٠٠ عضواً، يجب أن يكونوا جميعاً قد مروا في واحد من المناصب الحكومية ذات الكرسي العاجي، وازداد عدد هؤلاء الآخرين، بحيث يزداد عدد المتمتعين بامتيازات قنصلية، حكومية، إلخ. أمجاد عظيمة وحقوق هامة (صدرية مطرزة ببند عريض من الأحمر الأرجواني، أمكنه شرف

^١ - عبوة أو وزن روماني.

في المسرح والسيرك، أعلى مقامات الجيش والإدارة الإقليمية) مصانة كلها لهذه النواة الصغيرة العليا والغنية في مجلس الشيوخ. وحددت الطبقة الثانية، الفرسان، بـ ٤٠ ألف سستراس. فقد لبسوا الصدر المزركشة بشرائط ضيق من الأرجوان، والحلقة الذهبية، مكانهم في المسرح، يلي مقعد مجلس الشيوخ، والوظائف الهامة الإدارية وفي الجيش محفوظة لهم. منهم يختار قادة الحرس الحكومي، والولاة، أي كبار الموظفين المكلفين بإدارة الشؤون الاقتصادية والمالية في المحميات (في الإيالات الصغيرة، يستلمون مهمة الحكام الفعليين)، إلخ. وكان ممثلو النبلاء الأغنياء في البلديات يخضعون من الآن للحاكمية الرومانية، الأمر الذي يفتح لهم باب مجلس الشيوخ.

النقوش الضخمة المهداة لأوغست "المنسق والمحسن" تثبت رضى أوساط هذا النظام الجديد. وكانت النخبة المثقفة آنئذ (هوراس وفرجيل مثلاً) تظاهر أوكتاف وتسانده أيضاً. وهكذا طلق هذا الأخير القوى التي ساهمت باستلامه سيادة الامبراطورية الرومانية: فمن ديموقراطية قيصر السالفة، التي استمرت كاملة تحت الرماد، في أثناء دكتاتورية قيصر، والتي علا اشتعالها لفترة بعد أفكار آزار ٤٤، لم يبق أي أثر لها خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن. وبعد اكتيوم، كان أوكتاف قد صار ممثلاً ورئيس كل طبقة ومتوسطي مالكي العبيد في إيطاليا، وعلى هذه القاعدة الجديدة، راح يرتفع، ببطء محسوب، صرح عاهلي جديد من نموذج جديد-الامبراطورية.

الإمارة

أدرك أوغست جيداً، بعد قيصر، أهمية التقاليد والعادات لدى الشرائح العليا من المجتمع الروماني، فعرف كيف يدبر نوعاً من الصلح، "يتستر فيه العاهل حسب تعبير سنيك، بعباءة الجمهورية". أخذ هذا النظام، وهو ليس إلا ملكية متكررة، الاسم المقبول ظاهرياً حتى لدى الجمهوريين، "الإمارة"، الذي يعطي الدور الأول في الجمهورية "للمبدي"، أي المواطن الأول، "بسبب يقظته، حلمه، عدالته ورحمته"، كما يعلن النقش المدهن على شرف أوكتاف، المحفور على ترس ذهبي في مجلس مشيخة جوليان، الصرح الحكومي الأول.

بعامة، يعتبر ١٣ كانون ثاني من عام ٢٧ يوم بداية الإمارة. ففي جلسة رسمية لمجلس الشيوخ ألقى أوكتاف في هذا اليوم خطاباً أعلن فيه، أن استقرار النظام يجعله يتخلى عن كل سلطاته ويعود إلى حياته الخاصة. وبالتالي، بالفعل، طرح كل استحقاقات الملكية الهلنستية، راغباً عن تسمية "إلها"، مبعداً عن حاشيته كل المظاهر الشرقية في القصور

الإغريقية وقال، على الأقل بالكلام، ليس راعيا بالتخريب، بل بإقامة وتوطيد المؤسسات الجمهورية ثانية.

لكن هذا ليس إلا ملهة سياسية، حيث يضاف المكر إلى النفاق، لأنه في الجلسة نفسها، "خاضعا" لرغبات مجلس الشيوخ والشعب، رضي بتسليم حكم كل المحميات الحدودية، حيث لم يستتب الأمن بعد، وبشكل عام، كل الأراضي التي تحشد قوات مقاتلة. فحافظ بهذا على سلطاته العامة، مع لقب امبراطور. ورضي مجلس الشيوخ، وهذا صحيح، إعفاءه من حمل إدارة "الممتلكات السابقة الخاضعة" (كورسن سدينيا، سيسيليا، أفريقيا وآسيا، برغام)، التي بقيت محميات "مشيخة"، يحكمها محافظون يسميهم مجلس الشيوخ. لكن إلى هذه المحميات أيضا يرسل الإمبراطور وفوده، الحكام، المكلفين بتجنييد القوات، بوضع ضريبة الحرب، وإدارة أرزاقه، وغيرها، إن هذا الازدواج الظاهري بالسلطة، الموزعة بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ، خولت أنصار أوكتاف الزهو باحترام المؤسسات الجمهورية.

قد أضيفت فيما بعد إلى هذه السلطات الأساسية امتيازات عديدة أخرى. ففي العام ١٩، استلم أوكتاف "القنصلية الدائمة": الحق باسم عشر فائس (حامل فأس) و، في مجلس الشيوخ الذي يرأسه، الحق بكرسي عاجي بين كرسيي القنصلية لسنة واحدة، حق دعوة مجلس الشعب، إدارة الانتخابات، إصدار الأوامر التي تبدو له ضرورية، إلخ. ومنذ العام ٣٦، صار أوكتاف محامي الشعب الأبدي، وأكد لهذه السلطات لنفسه في العام ٢٣، ضمانا هكذا تستره وحقه في الاعتراض على أوامر مجلس الشيوخ ومجلس الشعب. وبدءا من العام ١٢، أضفى كبير الأخبار ومحافظا على الإشراف على المون، منظما خزنته الخاصة الأغنى من خزينة الدولة السابقة، المتروكة لتوجيه مجلس الشيوخ. وكان أوكتاف يضطلع دوريا بالسلطات الضرورية لإنجاز الإحصاء، وتطهير مجلس الشيوخ، إلخ. إن تركيز كل الاستحقاقات بيد واحدة جعله عمليا عاجلا وحده. ولقد جهد أنصار النظام الجديد في خلق انطباع مؤداه أن هذه السلطات لن تمكن أوكتاف من ممارسة التحكم الملكي، بل تمنحه فقط "سلطة" لا تناقش وتجعله "المواطن الأول" في الجمهورية، -مبادئ. وهكذا اعتاد أوكتاف أن يسمى رسميا منذ العام ٢٧. وألحق بهذا اللقب لقبان ساميان آخران: أوغست أي الجليل و"أب الوطن".

سياسة أوغست، المحافظة في الداخل والعدوانية في الخارج

إن الرغبة في الإشارة إلى أنه، في سياسته الداخلية، كان يهدف فقط إلى ترسيخ أسس

المجتمع الاستيعادي وبعث أيام الجمهورية السالفة، تظهر وغيرها بتشجيع أوكتاف على دراسة هذا الماضي، وتاريخه. وهو نفسه يطلع تيت-لايف على اكتشاف الأوابد ووثائق التاريخية. وكان فرجيل مفعما بالأمجاد والمكفآت لملمته إنياهه^١ *Eneide*. وأوفديوس نازو المنكوب اعتمد على قصيدته *Fastes* ليحظى مجددا برضى أوكتاف. وحوالي العلم ٩ق.م. ظهر "علم الآثار الروماني لدينيس ابن هلكارناس.

إن تعظيم الماضي، الذي وجد تعبيره في هذه الأعمال التاريخية شبه-الرسمية، انعكس في الاهتمام الذي أبدته حكومة أوغست، بالحفاظ على دور مهيم "للشعب الروماني القديم". بعكس قيصر، الذي وسع كثيرا دور الحاضرة، نادرا ما ظهر هذا الحق في أيام أوغست، بل فقط بلقب شخصي، لخدمات استثنائية. كان المعتقون مسجلين بين (الأجانب) أو كانوا أشخاصا متمتعين بالحق اللاتيني. فثمة خط فاصل حاسم بين الرومان واللا-رومان، هو إبراز الحق الروماني بالسيطرة واستثمار الشعوب الأخرى.

كما واهتمت الإمارة أيضا بإحياء "الأخلاق القديمة". وسنت سلسلة من القوانين بغية توقيف الأسرة الرومانية، التي تعاني التفسخ، بإعادة الاعتبار للسلطة القديمة في الحياة والموت لأب كل أفراد البيت الروماني والعبيد. وإعمالا لـ"قوانين إيبوليا"، يستفيد المواطنون الذين أنجبوا ثلاثة أولاد من وضع متميز، في العمل الإداري؛ وتقلصت حقوق العازب: وكانت أرزاق الزوجات الشائنات معرضة للمصادرة (كالعقوبة التي طالت ابنة أوحفيدة أوغست).

كما سعى أوغست لإحياء الروح الدينية، وهي الأساس الآخر للحياة الرومانية السالفة. ويعتبر الورع أساس الفضائل المدنية. رمت المعابد القديمة، وبنيت معابد جديدة في كل مكان، منها "ضريح قيصر المقدس"، في مكان محرقة المأتمية. وأوليت عبادة الامبراطور الحديثة عناية خاصة، لانتشارها بخاصة في المحميات، والمعبر عنها بإقامة معابد لأوغست وأنصاب للإلهة روما.

لم تكن سياسة أوغست الخارجية هي الأخرى سوى تنمة لسياسته روما العدوانية التقليدية. ولقد تم إلحاق روما والغول في عهده. فضلا عن هذا، ساد الرومان، بعد أن

^١ - ملحمة لفرجيل بـ ١٢ نشيدا (٢٩-١٩ق.م) تأخذ هذه الملحمة نفس المقام لدى الرومان الذي تأخذه الأوديسة والإلياذة لدى اليونان - المترجم.

^٢ - قصيدة أسطورية لأوفديوس (بين عامي ٣ و ٨ بعد الميلاد) - المترجم.

سحقوا السالاس، الذين كانوا يعيشون في سفوح الألب الجنوبي، الممرات الرئيسية لهذه السلسلة الجبلية (سمبلون وسان-برنار في العام ٢٥). ثم في عهد أبناء أوغست المتبنين، دوروسس وتبريس، غزيت الألب الوسطى والشرقية وأسست محميتان جديدتان، في أعالي وادي الرين والدانوب-الريتيا والفاندلسي^١ (العام ١٥ ق.م). وقبيل هذا، بلغ الرومان السرير الأوسط للدانوب، الذي كان قد صار محمية ببونيا^٢ (العام ٩ ق.م). وفي ذات الوقت، بعد صراع ضار ضد الجيت والميسيين، وتدمير قواهم المنيعنة نجح الجنرال الرومان بتأسيس مخفر مسيتين في أسفل الدانوب، حيث أسوا مستعمرة ميسيا^٣، التي ضمت المستعمرات اليونانية استرس، تومس وغيرهما. وقد بدأ نفوذ روما ينتشر في كل الشاطئ الشمالي للبحر الأسود، فاضطرت ديناميا، ملكة اليوسفور السابقة الجبارة أن تتزوج، ملك البونب بولمون، وأن ترفع أنصاها لأوغست، نقش عليها: أوغست سيد الكون، منقذه والمجسن إليه".

إن هذا النجاح العسكري، على طول الرين والدانوب، لا ينسب فقط للرغبة في "وجود الحدود الطبيعية" ضد العالم البربري، في الشمال كما يقدمه غالبا المؤرخون البورجوازيون المعاصرون، وسعيا وراء تمجيد وتبريد "قضية أوغست". إن نشوب أقصى صراع وأعنفه على الطرف الآخر من هذه الحدود الطبيعية، وراء الدانوب والرين، (على أرض ألمانيا الغربية الحالية)، يدحض هذه الفرضية. ولقد بدأت العمليات الهجومية في هذه المنطقة، العام ٢، بقيادة دراسس، الذي هزم خلال أربع سنوات كل الأمم الجرمانية بين الرين والألب. وبعد موت دروسس، ابن أوغست المتبنى المحبوب (نتيجة سقوطه عن الحصان، عند العودة من إحدى الحملات)، خلفه تيبير، ابن الامبراطور المتبنى الثاني، وبفضل حملاته في العام ٥ ق.م. أمسى كل شمال غرب ألمانيا حتى مصب الألب محمية رومانية، باسم جرمانيا. ولم يبق إلا هزم مملكة الماركومانس العظيمة، الذين يعيشون على روافد الألب، ولهذه الغاية جهز الرومان جيشين جرارين.

لكن هذا التوسع أوقفه التمرد الرهيب الذي شنته شعوب بنونيا ودلماسيا في جنوب بنونيا التي أرسلت إليها كل قوات جيش الدانوب بما فيها جحافل ميسيا. وفي روما، فريسة

^١ - شمال سويسرا وبلغاريا الحاليتان.

^٢ - في هنغاريا والنمسا الحاليتان.

^٣ - في صربيا وشمال بلغاريا الراهنتان.

الرعب، كان ينتظر غزو إيطاليا، فدعى كل الناس القادرين على حمل السلاح لخدمة الوطن، وشكلت أفواج من العبيد، المتطوعين. انصرمت ثلاثة أعوام (٦-٩ ب.م) من القتال حتى استطاعت القوات الرومانية، بقيادة تيبير، قمع هذا التمرد.

لكن بعد ثلاثة أيام من إعلان النصر على البانونيان والدلماس، علمت روما بانتفاضة جديدة حازمة حاسمة هي الأخرى انطلقت في جرمانيا. كان أومنيوس، قائد الشيروسك الشاب، قد أباد حتى آخر رجل، بما فيهم جنراله العام ب. كنتليس فاروس، أي جيشا رومانيا من ثلاثة ألوية وتسع تجريدات مساعدة، جارا إياهم كلهم بحيلة حربية إلى غابة توتبرغ-الكارثة^١ (في العام ٩ ق.م). ومن جديد أغرق هذا الداهية الدهياء روما في ذهول وإرهاق لا يوصف. وأوغست، اليائس، ترك شعره ولحيته أشهرا بدون تزيين، و"كان يضرب من وقت إلى آخر رأسه بالبواب، وهو يصرخ: كنتليس فاروس، أعد لي قوائسي". (سويتون، أوغست، ٢٣).

لقد ضاعت كل ألمانيا ما وراء الرين، ولم تستطع روما استعادة نفوذها فيها، رغم حملات تيبير وجرمنكوس، ابن دروسس، خلال عامين ١٢ و ١٣. بل اكنفوا بالدفاع عن ضفة الرين اليسرى، بحوالي ٨٠ ألف رجل (٨ جحافل)، وسلسلة من المواقع المنيعه، التي أحدثت لحماية الإقليمين الجديدين في جرمانيا العليا والسفلى.

كانت هاتان الضربتان القاصمتان اللتان وجهتهما طليعة العالم البربري إمارات إنذار للصراع القادم، يوم يتحتم زوال امبراطورية روما العبودية.

عندما مات أوغست، في العام ١٤ ب.م. صدر قرار صنفه في صف الآلهة، وسجي جسده مع الأماجد الاستثنائيين في الضريح الذي أعد مسبقاً. وسمي شهر وفاته منذئذ "أوغست" -آب- على ذكره. لكن كان مستحيلاً توقع عودة هذا النظام السياسي الذي أسس ليبقى أبداً. في كل حال، وفي وصيته، طلب أوغست من أحفاده توفير نفقات السلاح والتسلح واتباع سياسة خارجية مسالمة.

^١ - قرب مدينة أوسنابروك الحالية في وستفاليا.

الفصل التاسع والخمسون

الحضارة الرومانية في أيام نهاية الجمهورية وإمارة أوغست

أن نظام الدكتاتورية العسكرية الموضوع بخدمة الدولة العبودية، بإبعاد وبعثرة نشاط الجماهير الاجتماعي والسياسي، مارس تأثيراً سيئاً على الحياة الثقافية، الناشطة جداً في أثناء العصر العاصف في القرن الثاني والنصف الأول من القرن الأول ق.م. فقد ساهمت نقاشات الفورم الحامية، والدعاوى السياسية، ونشاط المعاهد والجمعيات الشعبية قبل كل شيء بفتح فن الخطابة. كان الأخوان غراسك خطيبين كبيرين؛ وفي أيام ماريوس اشتهر م. أنطونيس (جد المثلث، قنصل العام ٩٩) ول. لسنيوس كراسس، ببلاغتهم. وبعد هذا سمي كوانتس ورتنيس هورتلس (قنصل العام ٦٩)، نصير النبلاء، "ملك المنصة"، لكن بتأثير مدرسي البيان في القصور الهلينية، كانت خطاباتهم مدحية، متكلفة، مصطنعة، بينما امتازت خطابات يوليس قيصر، قائد الديموقراطية المعروف، بالعكس، بانسجام مبسط وكانت تشد الجمهور بحماسيتها. لكن الخطيب الأشهر هو ماركوس توليس شيشرون (١٠٦-٤٣ ق.م)، الذي تأخذ بلاغته الحضور بين منحيين. كان قد تعلم الخطابة على مدرسي البيان في رودس وأثينا. وكان يعد العدة كلما اضطر للظهور أمام الملأ، ناسجاً خطابه حسب خط صارم، ماهر يأسر الحضور بنبراته المؤثرة. وأغلب خطابه محفوظ لأنه كان يلقيها مأن يكتبها. وعرفت عنه إتهاماته ضد فيرس، حاكم سيسيليا الجلاء، وخطابه إعطاء كل السلطات لبومبيه، وتلك التي أعدها وتلاها في القانون الزراعي، و *ses cati linaires et ses philippiques* ضد أنطوان. عرض المباديء

١ - اسم أعطى لأربعة خطابات لشيشرون كتلياً في العام ٦٣ ق.م المترجم.

٢ - خطابات سياسية لشيشرون ضد أنطوان. المترجم.

العظمى لفته في أبحاثه أوراتور، برتس وغيرهما.

وفي أيام الأخوين غراسك، ولد الهجاء والهزء^١، كنوع من القصيد الروماني البحت، كنوع من استعراض الأحداث الراهنة، الذي يقدم الفوضى وعيوب الحياة الاجتماعية. بسخرية في روما، يرون أن "مبتكر الهجاء" الشاعر كايوس لوسيليوس (توفي في العام ١٠٢)، هو ابن المستعمرة اللاتينية سويسا. كان يكتب بلغة بسيطة، "للشعب"، بشكل سداسي المقاطع، الشعر الأكثر حرية يومئذ، ولم يوفر في أماجيه الأشخاص الأكثر نفوذا.

في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول ق.م. كان المسرح أيضا قد تحرر من منع معالجة القضايا الراهنة. كان الباحثون الجدد، تيتيوس، معاصر الأخوان غراسك، ت. كينتوي أتا، الذي كان في أيام ماريوس وسينا، ول. أفرائيوس، يطرقون بجرأة الموضوعات التي تحرك المجتمع الروماني ويلبسون أشخاصها أثوابا رومانية، ولذا سميت أعمالهم "ملهاة بثوب قاضي أو محامي أو أساذ. يقدمون للمسرح صغار الناس-صناعيين، فلاحين، -وأحيانا- يسخرون أيضا من طيش وعيب النبلاء. وكان ممثلو الطبقات المتنفذة يتحدثون بكره عن هذا النوع من المسرح.

وكانت الحكايات الشعبية القديمة قد صارت المسرح المفضل لدى الرومان.

وأخيرا حفظت التراجيديات خطوات هامة. كتب أكسيس (المتوفى حوالي العام ٨٥) حتى ٥٠ تراجيديات، في موضوعات مقتبسة من التاريخ والأسطورة اليونانيين لكنها معالجة بشكل مبدع؛ وكان النضال ضد المستبدين، طرد الملوك (بروتس)، والانتفاضات الشعبية، موضوعاته الأثيرة. وكما يقص شيشرون، كانت الجلسات الأهم والسماح الأصح في هذا الفكر الحر، تثير، حتى في عهد الثلاثية الأولى، عاصفة من التصفيق على مقاعد المسرح كلها.

قد جعلت الشروط الجديدة التعلم في غاية الضرورة. وكانت الآداب التي تنشر العلم بقسوة، كانت تعلم في الشوارع، بمبلغ رمزي ٨ أس في الشهر، مبادئ القراءة والكتابة والحساب. وكان تعليم الحلقة الثانية يدرس في مدارس "أساتذة القواعد" (الأدب اللاتيني

^١ - منذ أبعد الأزمان، سمي الهزء نوعا من القديد المستخدم في القرى، بمناسبة أعياد الحصاد، وتبيل الأغاني المرححة بالفكاهات.

واليوناني، ومبديء في الهندسة والموسيقى). وكان التعليم العالي من اختصاص أساتذة البلاغة، -أغلبهم يونان مقيمون في روما (يعلمون فن الكتابة والفلسفة). كانت هذه المدارس، وبخاصة "مدارس القواعد"، موجودة أيضا في مدن إيطاليا الأخرى، ومفتوحة أيضا، كما يقول هوراس، للأطفال المعنفين والجنود.

مع بث العلم، كانت مؤلفات الشعر والنثر تكبر باستمرار، وقد ولدت حلقات أدبية، حيث يتلو الكتاب من مؤلفاتهم، قبل أن ينسخوها بعشرات النسخ بواسطة ناسخ عبد لدى الناشرين وتباع في حوانيت كتب الفورم والشوراع المجاورة. وقد قدمت عشرات بل مئات الكتب على المسارح في عهد أوغست، لأنها لاتلائم توجه سياسته الجديدة. ومعلقات قيصر الشهيرة في حرب الغول (٨ كتب) وفي الحرب الأهلية في العامين ٤٩-٤٨ (٣ كتب) هي نموذج هذا النوع من الأعمال الأدبية، مكتوبة للطبقات المنعمة من المجتمع المنقّف.

كانت القصيدة الرومانية هي الأخرى في قمة ازدهارها. ومع انحطاط التقاليد القديمة، رفعت الفردية رأسها في المجتمع الروماني، والغنائية، -التعبير عن الأحاسيس الشخصية، ازدهرت. كان الغنائيون الرومان يأخذون القصيدة الهلينية مثلا لتلك الأيام، المنقّاة، المفخمة، التعليمية، المشبعة بالمقارنات والصور الأسطورية. من أعمال هؤلاء الشعراء لم يصلنا سوى شعر لك. فالريس مكتلوس (مات حوالي العام ٥٤)، الذي نجح جزئيا في التحرر من الأسلوب المنمق (الاسكندري)، لغناء أشعار إيقاعية، بدون تزويق أو زخرفة، في الأحاسيس والأفكار الأثيرة، حبه للسبيا (كلوديا) والألم الذي تركته في جوارحه خيانتها. وكان كتول، نصير الجمهورية، يعبر بقصائد ساخرة عن كرمه لقيصر وحاشيته. وإنجاز آخر لكتول هو أنه أول من أدخل إلى القصيدة اللاتينية تناسق الوزن الشعري الأيوالي *eolien*، المقتبس من اليونان. ويمكن، بكلمة، اعتباره مؤسس القصيدة الغنائية الرومانية.

وقدم العلم الروماني أيضا إنجازات هامة. كانت البذور قد انتقلت على يد اليونان الذين راحوا يزورون أكثر فأكثر العاصمة وقيمون فيها أحيانا. والفيلسوف اليوناني الكبير باناتيس (١٨٠-١١٠)، كاتب أهم بحث في "الواجب"، كان يعيش في كنف سيبليون إميلان. وتلميذه، العالم الشهير بوزدونيوس (١٣٥-٥٠)، فيلسوف، مؤرخ، جغرافي وفلكي، زار روما مرارا. وكان أستاذ بومبييه، شيشرون وفارون. ولفيف من أساتذة البيان، الفلاسفة،

الشعراء من درجة أقل كانوا مستقرين في روما، حيث يعلمون الشباب الرومان. م. ترانتوس فارو (١١٦-٢٧) واحد من أكبر العلماء الرومان في أواخر أيام الجمهورية. جمهوري مقنع، كان يسمى الثلاثية الأولى "وحش بثلاثة رؤوس" ويشهر سلاحه بيده ضد قيصر. أكره على الانسحاب من الحياة العامة، أوقف ما بقي له من العموم في جمع وثائق حول الماضي الذي كان غالبا عليه. سوانف الشعب الروماني، أعمال الترجمة، وتسجيلات لمواقع معروفة، للعادات والتقاليد القديمة والدين القديم، أهم أعماله السبعين. وهو الذي حدد "تاريخ تأسيس روما" بين عامي ٧٥٤ و ٧٥٣ ق.م. في نهاية حياته ألف أيضا موسوعة، يعرض فيها أسس كل العلوم المعروفة حتى عهده. لم يصلنا منها للأسف سوى شطر صغير (الربع تقريبا دراسة اللغة اللاتينية وبحث في الزراعة).

شيشرون هو الآخر وضع بصمته في العلم بعدد من المؤلفات، حيث يبسط أفكار اليونان الفلسفية. يكتب بالمعينة بشكل حوار، ليخلق فكرته المجردة أكثر قبولا لدى القارئ. وألف أبحاثه "في الجمهورية" *les Tusealanes*، في الواجبات، إلخ. منعت انتقائيته تبني إحدى النظريات الفلسفية. ورغم طابعها السطحي، مارست أعماله نفوذا واسعا في ارتقاء الأفكار الفلسفية في روما، خلال قرون. وشيشرون هو واضع علم المصطلحات الفلسفية الرومانية.

لكن ألمع ممثلي الفكر العلمي الروماني في النصف الأول من القرن الأول ق.م، هو الشاعر الكبير تيتوس لوكرتيوس كاروس (لوكريس) (٩٨-٥٥) كاتب أهم وأشهر قصيدة فلسفية "في الطبيعة". حياته مجهولة تقريبا، لكن يفترض أنه ينتمي للفرسان وأنه كان الأقرب إلى الحاكم ميمبوس الذي أوصى له بقصيدة، الذي نشره شيشرون بعد وفاة الكاتب. كان لوكروس واحدا من التلامذة النجيبين لنظرية أبيقور المادية. شعره، وهو في ثلاثة أجزاء، مؤلف من ٦ كتب. الاثنان الأولان يعرضان النظريات المستوحاة من نظريات ديموكريت وأبيقور، في الذرة والفراغ غير المحدود التي يراها مباديء الكون الواقعي الوحيدة. ومن حركة هذه الذرات في الفضاء تولد كل الظواهر وكل حالات

^١ - من مدينة توسكلوم، حيث كتب شيشرون كتابا بهذا العنوان (٤٥ ق.م) - المترجم.

الطبيعة. ويعالج الجزء الثاني (الكتابان الثالث والرابع) طبيعة "النفس" التي، هي الأخرى، مادة كباقي أجزاء الجسم وتموت معه؛ ويدرس لوكريس في هذا الجزء مختلف ظاهرات الحياة الفيزيائية، التي تعود هي أيضا إلى مبدئها المادي. أخيرا، في الجزء الثالث (الكتابان الخامس والسادس) يعطي لوحة ضخمة لأصل العالم، ولادة الحضارة ووصفا لبعض ظاهرات الطبيعة المريبة أو المخيفة. ومن الشرط الحيواني، ارتقى الإنسان بجهوده الخاصة، ودون أي مساعدة من الآلهة، إلى الحياة الحضارية، رغم أنه مازال يعيش شر وخير عيوب المجتمع البشري، وبخاصة يعيش جشعا لحدود له، "النحاس مرذول والذهب ممجدا" (البيت ١٢٧٥). ولوكريس، رائد أبيقور ومتبنيه، يقرظه بخاصة لأنه تجاوز إنسانية الخرافات القديمة، وصايا العصور المظلمة، الآراء الدينية المسبقة، خوفا من الموت، التي يعالجها الكهنة والأفكار الخائفة حول الحياة بعد القبر. الدين يلد الجرائم، والضحايا البشرية، ولهذا السبب هو شائن ومقزز في عيني لوكريس.

لكي يتناول نظريته أكبر عدد من الناس، عرضها شعرا، ليحلي عسل القصيد اللذيذ "الحقائق المجردة. إن عمل لوكريس، الشاهد على الصراع الاجتماعي الضاري الدائر في روما، مقعم بإلحاد مناضل، غريب عن روح نظرية أبيقور، التي تطالب "بطمأنينة النفس". لم يكن لوكريس وحيدا في نشر مفاهيم مادية. فقد كان قيصر أيضا (رغم أنه كبير الأحرار) غير غريب على الآراء الإلحادية والمادية. فمن المحتمل أن تكون تلك الحقبة عرفت الكلمة الشهيرة: "لن يستطيع عرافان أن يراقبا بعضيهما دون أن يسخرا".

فانطلاقة الحضارة، في السنين الأخيرة من عهد الجمهورية، حددها طيش الحركة الاجتماعية التي كانت تدعو إلى الحياة الثقافية للفئات العديدة جدا في المجتمع الروماني والإيطالي. وفي أيام إمارة أوغست، ساهمت العناصر الإيطالية المندمجة في المجتمع الروماني في إدخالها إلى "العصر الذهبي" لحضارتها. لكن "العصر الذهبي" هذا أوصلها إلى نقطة الأوج. وعندها هوت حياة الناس الاجتماعية، في عهد الدكتاتورية العسكرية، إلى جحيم البلادة، لم يبق للحياة الثقافية الرومانية سوى موضوع خدمة مصالح الفئات العليا، المنتصرة، والمساهمة بتنفيذ خططهم. التي أخذت ألقا مبهر خارجيا وهي تعيش انحدارها الداخلي.

لقد ارتدى أوغست أبهة لأنه كسى بالرخام مدينة وجدها أجرا "والمعابد العديدة

والصروح الأخرى، التي شيدت في عهد أوغست، كانت تقصد تمجيد الحكومة الجديدة وترسيخ جبروت روما العبودية، وكثير منها نسب إلى هذا الحدث أو ذلك من حياة الأمير نفسه. ولقد شيد معبد أوبولون الفخم، مثلا في ذكرى انتصار أكتيوم، الذي اعتبر هذا الإله مساهما فيه؛ ومعبد جوبيتر تونانت، في الكابول، لتذكير أن الصاعقة وفرت أوغست وقتلت عبدا أمامه. ويحمل بعض الصروح أسماء أعضاء من أسرته: رواق ليفيا، زوجة الأمير، وبازليك جوليا، ابنته، إلخ. وفورم أوغست الجديد، المبني بالرخام الثمين، يتميز ببذخه وروعته؛ ولم يكن مع ذلك مخصصا للشعب، بل للمحاكم ومؤسسات الدولة الأخرى. وفضلا عن حمامات الحمة الفخمة، بنى اغريبا، صديق أوغست، بانتيون، معبدا دائريا واسعا، وفقا على آلهة كل شعوب الامبراطورية الرومانية الجديدة. شيدت كل هذه الصروح بالأسلوب الهليني، الفخم والمصطنع، والذي يعطيها مشهدا متعاطفا، باردا ورسميا.

يمتاز النحت في ذلك الزمن بالأكاديمية ذاتها. وكانت الشوارع، الساحات العامة والمعابد المزدانة بأنصاب للأبطال الرومان، قد بدأت برومبس. وكانت تماثيل الأمير كثيرة جدا. أشهر نصب أوغست، هو الذي اكتشفت قرب بريما بورتا، والذي يمثل مزرعا، بوضعية جنرال منتصر، بينما يعرف الجميع انه لم يكن رجل حرب. وعلى شرف أوغست "المسالمة"، أقام مجلس الشيوخ "معبد السلام" الضخم، مزدانا بمقرنصات أثرية تقدم الامبراطور وأسرته سائرين على رأس مجلس الشيوخ والشعب. على الآثار الفنية، كالقطع، الحجارة المنحوتة، إلخ، نرى أوغست جالسا بين الآلهة، يستلم وثائق خضوع المحميات. واقعية الفن الديموقراطي الروماني إلا في معالجة الثياب والديكور. الوجوه والسمات مودلجة *idealises*: الفنانون يفقدون مع الزمن، حريتهم، وعفويتهم الأخاذة: بل كانوا ملتزمين بالخضوع إلى القانون المفروض من فوق.

حرية التعبير، إبان إمارة أوغست، لم تعد مقبولة في باقي المجالات الثقافية. وتقلص فن الخطابة إلى تمارين عابثة بلاغية. وكان المؤرخون يتحملون مضايقات الرقابة. والقيصري أرنوبوس بولليون، الذي لم يستحسن سياسة أوغست تجاه أنطون، اضطر أن يترك عمله في تاريخ الحروب الأهلية ناقصا. والمؤرخ والخطيب كاسيس سقرس نفي إلى جزيرة كريت، لأنه انتقد بشكل لاذع أعمال أوغست وأتباعه. وأحرقت أعمال ت.ابنوي بأمر من مجلس الشيوخ، لأن مؤلفها من رواد الجمهورية. وتيت-لايف نفسه، لأنه قرظ

يومئذيه وسماء أوغست "يومي". في هذه الشروط، يأخذ التاريخ، مع تيت-لايف ودينيس بن هلكرياس طابعاً رسمياً. إذ بدأ يشيد بدون حدود بأعمال روما العظيمة وينكر على المكشوف الحركات الشعبية وقادتها (قدم تيت-لايف، مثلاً، كل قادة العوام في القرن الخامس والرابع، كصانعي اضطرابات وديماغوجيين).

فقط العلوم البعيدة عن السياسة، مثل الفلسفة والقضاء (القانون المدني)، استطاعت أن تتطور دون عوائق، في عهد إمارة أوغست. وشيوخ علم القواعد اللغوية جوليس هجوس وفريس فلاكس (مؤلف القاموس) عاشوا في هذا العهد. وفي ذلك العصر تشكلت مدرستان متنازعتان في شؤون القضاء، هما مدرستا أنتستوس لابيرو وأتيوس كيبوتو، اللتان انكبنا على تفسير ومنهجة الحق. وبدأت الشريحة المتميزة في المجتمع تتحمس وتنزع إلى الفلسفة. ولم يكن هذا الحماس وبالتالي الشهرة لنظرية لوكريس، بل إلى المدرسة الرواقية، الأكثر انسجاماً مع فكر النبلاء الرومان، فاقد جبروتهم السالف، لأنها كانت تعلم تلاميذها أن يسلكوا سلوكاً شخصياً يجعل أرواحهم خالدة، هادئة وغير مبالية بالظروف الخارجية.

النشاط الاجتماعي، الذي لا توظفه الحياة السياسية، تابع نموه في روابط أدبية عديدة التيارات. وصارت المطالعات العامة لأعمال رجال الأدب والمناقشة الأدبية هي الموضة أو الدارجة. وأسمعتنا المعارضة صوتها. وحفظت مثلاً قصيدة بعنوان "اللعنة"، التي ربما كان ناظمها فالريس كاتون، صديق كاتون، ينذر بعقوبات السماء الـ"محارب الملحد" الذي احتل له أرزاقه.

ولما وعت حكومة أوغست أهمية الأدب كقوة اجتماعية راحت تسعى إلى سنيادتها أيضاً. فتشكلت روابط أدبية شبه رسمية، حول شخصيات من حاشية النظام. تمتلك فيما تمتلك مصادر هامة لتأمين الحياة المادية لمؤلفين كبار تشدهم إليها. هكذا ولد منتدئ ش. سلنيوس ماسناس، محافظ روما. وجمع ميسن حوله أشهر شعراء العصر، مثل فرجيل، هوراس، وبوربرس. ونشبت بينهم وبين شعراء المعارضة مجادلة حامية، ويفعل حماتهم الأعلين، نجح الأولون أخيراً بإبعاد خصومهم.

أهم شاعر في عهد أوغست هو ب. فرجليوس مارو (٧٠-١٩)، الذي مارس تأثيراً واسعاً ليس فقط على الأدب الروماني بل على الآداب العالمية. ولد فرجيل في ضواحي مانتو، حيث كان يملك عقاراً صغيراً. ورغم أنه تلقى تربية ألفة، حافظ طيلة حياته على

شيء من "الريف"، في مظهره الخارجي، كما في عواطفه ومصالحه. وفي أعماله الأولى، "العرويات"، غنى سحر الريف، مقلداً غزلية تيوكريت المرفهة. وفي أيام الإبعاد، خسر فرجيل حقله، والمسعى التي بذلها لاستعادة حقوقه قربته من بعض الأعضاء المتنفذين في حزب القيصر. وفي بداية الثلاثينات صار صديقاً لرابطة ميسين وبعد سنوات، بناء على طلب ميسين وربما أوكتاف نفسه القلق من اندثار الزراعة الإيطالية، كتب "زراعياته". إنها قصيدة زراعية في تناول العامة، أوقفت كتبها الأربعة الأولى على الزرع والضرع، زراعة الكرمة، وتربية الطيور والنحل. ونما المشروع وغزرت خيراتته في طبيعة زراعية. لكن في هذا العمل، واضح نفوذ حماء الشاعر. وفي مقدمة الكتاب الأول، اهتم فرجيل بإعلان أن قيصر أوكتاف عبادة جديدة تألفت بسرعة في السماء كنجم ساطع. وبالتالي أظهر رغبته في تشييد معبد من مرمر ليوضع فيه نصب للإله الجديد.

كان الطلب الثاني من فرجيل هو نظم القصيدة الملحمة *Eneide*، التي كتبت لتمجيد ماضي روما والجد الأسطوري لأوغست، تروايان إيني *Troyen Enee*. في ١٢ نشيداً من إينيد، يقص فرجيل استناداً إلى التقاليد القديمة وتخيلاته الشخصية، كيف وصل إيني بعد تطواف طويل إلى ضفاف لاتيوم مع ولده إيول *Iule* وجمهرة من المحاربين التروايين، وهو جد أسرة الملوك اللاتان، ومنهم روملس وريموس، مؤسسو روما، معتبرون من نفس الأرومة، وفي "نبوءات" يدخل فرجيل الفصول الماجدة من تاريخ روما الحديث، وأحداثاً تخص أوغست وأسرته. لا ينسجم الموضوع كثيراً مع الموهبة المسالمة والدمثة للشاعر، غير القدرة على تصور التقوى والنورع، والمآثر البطولية، والحروب والمعارك. فضلاً عن استمرار تملق وإطراء أوغست وأقاربه بدون حدود ويشكل محقق. يقال إن فرجيل، بعد عمل ١١ سنة في هذه الملحمة، ولم يتمها، أراد، قبل أن يموت، حرق هذا العمل الذي يعتبره شائناً. نشرت إينيد بأمر من أوغست، درست، وكان لها الكأس المعلى في القرن الوسيط والأزمة الحديثة. لكن العلم المعاصر يرى أن الشاعر الكبير كان قادراً على إعطاء عمل أوفى وأروع لو لم يلزم بمعارضة عبقريته. وقد سمي بلنسكى الناقد الروسي المعروف فرجيل "هوميرس الكابي".^١

^١ - ف. بلنسكى، أعمال مختارة، منشورات ياسية، ١٩٤٨، مجلد ٢، ص ٥١١ (منشورات روسية).

بعد موت فرجيل، خلفه كوينتي هورايوس فلاكوس (٦٥-٨)، كبير مغني روما، أميراً للشعراء. كان أبوه، المعنق، قد أعدّه للأعمال الإدارية، وبعثه ليتم تربيته في أثينا. ولقد فوجيء هوراس فيها بالحرب الأهلية ٤٤-٤٣ وخدم في جيش بروتس وكاسيس. ولما عاد إلى روما بعد العفو الشامل للعام ٤٠، وجد وظيفة ناسخ لدى وزير المال، لأن جنود الثلاثية احتلوا بستان أبيه، و"الفقر الجريء"، حسب تعبيره هو، جعله يهتم بالشعر. وفي أعماله الأولى، الإيبود^١ والهجاء، نحس آثار مثالياته القديمة للجمهورية.

قد خولت محاولات هوراس الأولى الارتباط بفرجيل الذي ضمه إلى رابطة ميسين. وفي الأيام الأولى، مع ذلك، استقبل هذا الأخير ببرودة الشاعر المنشق عن المعارضة. لكنهما شيئاً فشيئاً عقدا صداقة؛ وتلقى هوراس هدية من ميسين حقلاً معطاء، وهكذا انضموا في وسط سادة روما الجدد. وطرح عليه أوكتاف أن يصير أمين سره الخاص. وفي أناشيده، يدعو هوراس إلى التمتع بالحياة، وكتب أشعاراً في الغزل؛ ناسياً ولعمري بالجمهورية، فرح بنصر أكتيوم وابتهل أن يعود "قيصر" سالماً معافى من هذه الحملة. وفي العام ١٧ قرظ هوراس، بناء على طلب أوغست ومدحه "نشيده الدهري"، وفي كتابه الرابع من الأناسيد، يطنب ويختال بمآثر أبناء أوغست المختارين، تيبير ودرويس. وفي آخر سنة من عمره، كتب هوراس رسائل شعرية إهداء لأوغست، ييزون وأصدقائه الآخرين، فسي موضوعات في الحياة العادية، أو بالأصح فلسفية وأدبية. وفيما يخص الشكل، كانت أناشيد هوراس، قمة القصيدة الغنائية الرومانية، لكننا لانتقى فيها نبرة الحرية الفخور؛ ولا هذه الأفكار المتقدمة التي كانت تخصب أعمال الشاعر في عهد الجمهورية. إن كارل ماركس يرى هوراس شاعراً "فرحاً جداً"، رغم نزقه، لكنه يلومه لـ "زحفه أمام أوغست".

أما مصير الشاعر الثالث الكبير في أيام أوغست، ب. أوفديس نازو (٤٣ ق.م. - ١٨ م). كان مأساوياً بشكل فريد. هو ابن فارس ثري من سولنوم، في بلاد البليانيان، خضع لنفوذ وبيل من عليّة المجتمع الروماني المنهارة، التي، تخلت عن الحياة العامة وعن شؤون الدولة، راحت تيزر وتسرف بالإنفاق، وكان أوفيد شاعر الحسب الطائش المبتذل. في العشرين من عمره، نشر بعنوان "فخريات" مجموعة من الرسائل المفترض أن ثلاث

^١ - قصيدة من أبيات متعاقبة قصيرة وطويلة.

بطلات أسطوريات كتبها لعشاقهن، هن: بريزديس، ديدونيا وميديا. وصاروا فيما بعد أحبابهن، حيث نشر بصدق فريد حبهم لكورين. لكن ظهور "فنه الغرامي" أثار فضيحة مجلة في أروقة القصر والحاشية: ففي هذا الشعر الماجن، المحاكي بسخرية الأعمال التعليمية، يعلم الرجال والنساء مختلف أساليب الافتتان والتعلق بالحبيب. وفي العام ٨م، نفي أوفيد إلى مدينة تومس النائية، على الضفاف الغربية، الموحشة يومئذ، للبحر الأسود. وهنا كتب أوفيد "المراثي" والـ *Pontiques*، فيها يتلمس عفو أوغست. في هذه الأعمال يفيض الصدق والوصف الريفى المحزن المنأني عن شظف حياة الشاعر المبعد.

. وبوشكين، الذي قدم أوفيد في المنفى بطريقة مؤثرة في قصائده "العجريات"، رأى بحق أن هذه المراثي البوننتية تتقدم كل أعمال الشاعر الأخرى. ولقد ترك لنا أوفيد عمليتين هامتين آخرين، التقاويم (وصف شاعري للطقوس والتقاليد المتعلقة بالروزمة الرومانية)، والتحويلات، حيث يتحدث عن أناس تحولوا إلى حيوانات أو نباتات بإرادة الآلهة، غالباً في أثناء مغامرات غرامية.

لقد أفاد شعراء مشهورون آخرون، معاصرون لأوفيد، مثل تيبول وبرويري، وحتى الشعراء، مثل سولبسيا، أفادوا لدى دراستهم هذا النوع من الشعر الغزلي، الفضائحي، حيث يضيق الإنسان في شقوق الحياة الخاصة والمشاعر الشخصية.

^١ - قصائد كتبها أوفيد في مملكة البونت القديمة المعروفة بمقاومتها للغزو الروماني.

الفصل الستون

توطيد النظام الملكي. أسرة يوليو-كلوديين الخلفاء المباشرون لأوغست ونضالهم ضد المخلفات الجمهورية. تيبر (١٤-٣٧)

لدى موت أوغست أعيد طرح قضية الملكية، التي لم تتمكن بعد في روما، لأن مبدأ الوراثة، وهو هذا المحول الأساسي، لم يكن قد حسم بعد. فمن حيث الأخلاق والتقاليد الجمهورية في روما، كان هذا جديدا تماما، لا بل يبدو غريبا كليا، غير شرعي، أخرق. لذا اصطدم أول خليفة لأوغست، ابنه المفضل تيبر، منذ بداية أمارته بعداء وحتى بمعارضة حاسمة، في الجيش وبين أهم أسر المجتمع العبودي، الممثلة، في مجلس الشيوخ، الأمر الذي كان السبب الهام في الفصول الدرامية التي تكاثفت في عهد ملكه الذي دام ثلاثا وعشرين سنة (١٤-٣٧). (اقرأ تاسيت، حوليات، ١، ١-٦؛ سوتيون، تيبر؛ ديون كاسيس؛ ١، ٥٧-٥٨).

الذي مجيء أمير جديد إلى السلطة، شبب تمرد في أضخم جيشين، بنونيا والرين. عامل الجنود الضباط غير الشعبيين معاملة سيئة، وطلبوا في اجتماعاتهم تقليص مدة الخدمة إلى ١٦ سنة، وقضية الحكم، والراتب الذي ينقضاء هؤلاء الأخيرون وطلبات أخرى من هذا النوع. لكن الأساسي، كما يلاحظ سوتيون، هو رفض الجيش الجرمانى الاعتراف بأمير لم ينتخبه، وضغطه العنيف على جرمنكوس الذي كان يفوده ليحتل العرش؛ لكنه رد بحزم". (تيبر، ٢٥). وهكذا كشفت تمردات الجند "سر الامبراطورية" الأكبر (تاسيت)، أي أن الجند كانوا في هذا الأمر هم السادة الحقيقيين، وموجهي قدرهم، بل الذين يقررون بخاصة قضية من هو سيدهم. اضطر تيبر أن يرسل إلى بانونيا دروسس، ابنه، الذي نجح بمختلف الامتيازات أن يهديه ويخضع الجمهرة الهائجة من الجنود. لكن هذا لم يحل دون

ذبح القادة الأنشط والأكفأ سرا. وعلى الرين أيضا، بفعل التدابير الحاسمة وبعض الامتيازات أيضا، هذا الوضع جرمانكوس الذي، بمخاطرة شخصية، حافظ حتى النهاية على وضع مشروع بالنسبة لتيبر، خاله (انظر تاسيت، حوليات، ٣٣-٥٢).

لكن مجلس الشيوخ سبب لتيبر موضوعات حادة تنذر بالخطر. خارجيا، نشر أعضاء مجلس الشيوخ شائعات مبالغ فيها ومفادها "أن تيبر نفسه، حسب قول تاسيس، كان لا يستسيغ هذا الزحف الخادع أمامه"، وأنه اعتاد لدى خروجه من مجلس المشيخة أن يدلي بهذه الأقوال المليئة احتقارا: "الله، كم هي هؤلاء الناس للذل والمهانة!" (حوليات، ٣، ٦٥). وأمام عدم رضا عن منحه لقب "أب الوطن"، اقترح مجلس الشيوخ أن يسمى شهر أيلول "تيبريس" تمجيدا للأمير، وشهر تشرين أول "ليفوس"، تمجيدا لوالدته، الأمر الذي رفضه تيبر بحزم. لكن هؤلاء الشيوخ أنفسهم كانوا يغتابون الأمير ويفترون عليه، وينشرون شائعات تحريضية، ويدجون أهالي لاذعة بل سامة. تفاقمتم الأمور وحيكمت مؤامرات خطيرة في أوساط مجلس الشيوخ: وتعاطف لقيف واسع من نبلاء الدم حتى مع دجال ماكر، العبد كلمنتوس، الذي روج أنه حفيد أوغست.

كان تيبر يعيش وضعاً خطراً جداً، يشعره بإندار مستمر، لاسيما أنه كان ذا طبع قاتم، غير اجتماعي ومرتاب أو اتهامي. بداية حاول أن يرى الجميع احترامه للسلطات والمؤسسات الاجتماعية. وصرح أنه خادم مجلس الشيوخ وكل المواطنين، ينهض لدى استقبال القناصل، ويقبل حرية النقاش. بل منع أحداً يناديه بلقب "سيد": فهو سيد العبيد فقط، كما يقول، وكان امبراطور الجنود، وأمام مجلس الشيوخ والشعب فهو أمير فقط.

لكن هذا السلوك لم يعد له شعبيته. ورأى مجلس الشيوخ في هذا العمل جبناً وخداعاً، بل مكرأ يكشف الحاقدين. كان يخشى القيام بأي مبادرة، بل راح يعتاد أكثر فأكثر تسليم الشؤون الهامة إلى مجلسه الخاص، المكوّن بقسمه الأكبر من رجال لا يشغلون أي وظيفة عامة، إنما اختارهم لجدارتهم وحنكتهم. وفي الوقت ذاته، كان يغذي في المدينة كرهاً ضد العوام، الذين كانوا يتململون من إلغاء توزيع القمح وإقامة المهرجانات، وأيضاً ضد زيادة الضرائب، التدابير التي اتخذها تيبر مضطراً، بسبب عجز الميزانية. وقد أقضى به هذا الوضع إلى إلغاء كلياً التجمعات الشعبية وأعاد كل الوظائف الانتخابية إلى مجلس الشيوخ. وقد تسارع أيضاً ابتعاد الأمير عن مواطني ونبلاء العاصمة. بعد موت جرمانيوس

الشعبي جدا في روما، وقد حدث الموت في العام ١٩: وقيل إنه مات مسموما على يد بيزون ، حاكم سوريا من ذوي تيبر. ومنذ تحول تيبر، متخليا أكثر فأكثر عن دمايته، في بداية ملكه، إلى طاغية شرس وغريب الأطوار. ليكرهوني، عوض أن يحترموني" (سويتون، تيبر، ٥٩)، كان هذا مبدأه الذي أسند إليه نظاما إرهابيا فعليا. ودعيت الكتاب الحكومية التسع، وهي حاميات في مدن إيطالية عديدة، إلى روما، وتحشدوا في معسكر منيع قائم على أبواب العاصمة (في العام ٢٣م)، وراحوا يهددون السكان المدنيين، وصار قائدهم، محافظ الحاكمية، الشخصية الثانية في الدولة، بعد الأمير.

هذا هو الدور الذي لعبه، من العام ١٧-٣١، ل. إيليس سيجن، الفارس البسيط، الذي عرفه كيف يكسب الثقة غير المحددة لتيبر. فقد صار يد الأمير الضاربة، وروما كلها ترتعش تركع أمامه. ويبعث القانون الجمهوري السالف الذي يعاقب على كل إهانة تلحق بعظمة الشعب الروماني"، كان سيجن أحد أولئك الذين خنقوا بالحديد والنار أضر آثار الحرية الجمهورية. اعتقل الناس ، عذبهم وأعدم بعضهم لاتهامات عابثة أو وشايات كاذبة ومغرضة.

كان تيبر يعيش خوفا دائما، فترك المدينة نهبا للذعر والضيق. وفي العام ٢٦، سافر بداية إلى كامبانيا، ثم استقر نهائيا في جزيرة كابري الرائعة، التي يحميها شاطئها الصخري الشاقولي. "بنى فيها ١٢ قصرا، بأسماء وأشكال معمارية مختلفة؛ كان منهمكا كليا بشؤون تستهلك كل وقته، لكنه بعدئذ، استسلم للبطالة المقيتة" (تاسيت، حويات، ٤، ٦٧). وفي هذا الوقت استدعى تيبر الناس الذين كان قد اتهمهم وعرضهم للموت تحت العذاب الرهيب. وفي العام ٣١، نزلت عقوبة ظالمة بالجبار سيجون، الذي ارتاب تيبر لرغبته في احتلال السلطة العليا. وبحذر دائم، قدم سيجن القيادي الكبير في الحاكمية، للمحاكمة وأدانته مجلس الشيوخ، الذي كان يمنحه حتى أمس القريب، ثم نفذ الحكم بوحشية، به وبأسرته دون رافة بطفل أو مراهق أو امرأة.

أخيرا، في العام ٣٧، صرعه مقربوه ومحظيوه والمحافظ الجديد ماركرون، روح المؤامرة، بخنقه تحت وسائده، بينما كان في دور النقاهاة من مرض خطر. لكن الغضب لم يطل إلا شخص الأمير وليس الأمانة. فقد اعتاد الناس هذا النهج حتى أن الذين كانوا غاضبين من الملك ما عادوا يفكرون إلا باحلال شخص محله. أما الأمانة فقد أخذت طابعا

عاهليا مكشوفاً، بفعل استبدادية تيبير، بتجميد الاجتماعات الشعبية، والمركزية والبيروقراطية المتنامية، وسوى ذلك. فالنظام الذي رسخه تيبير لم يكن يخص إلا أوساطا محدودة من طواغيت الحاشية، النبلاء، وجزء فقط من سكان العاصمة. أما المحميات، التي كانت تشكل أساس الإمبراطورية الرومانية، ارتاحت من المعاناة، وعرفت إدارة خيرا من السالفة. كان مبدأ تيبير يقول إن "الراعي الجيد هو من يجب أن يجز أنعامه وليس اللحم" (سويتون، تيبير، ٣٢). ولقد وطد نهج إدارة المحميات بواسطة السفراء والجبلة الذين يعينهم الأمير ويخضعهم لمراقبة اللجان الإمبريالية الحاسمة. كان يبدل على عجل الحكام الفاسدين ويترك الجديدين في مقاماتهم مددا طويلة. غير أن التفكك السريع للمجتمع البدائي واتساع النهج العبودي في المحميات الغربية أثارا أحيانا انفجارات عنيفة من الغضب الشعبي. ففي نوميديا، اضطر الرومان أن يحاربوا ثماني سنوات كاملة ضد الموريين *les Maures*، والشعوب الأخرى الأصيلة، المنتفضة بقيادة نوميد تكفروناس (١٧-٢٤). وفي الغول، ففي العام ٢٤، دعا جوليس فلورس وجوليس سكروفير، الترفير والأديين إلى التمرد. وصف ناسيت في (الحوليات، ٣، ٤٢) المتمردين "بجماعة بؤساء دمرتهم الديون"، العزل سوى من سلاح الصيد، فقمعوا بسهولة. لكن نبلاء المحميات كانوا إجمالا راضين عن نظام تيبير. كانوا يرسلون وفودا إلى الإمبراطور تحمل له آيات التعظيم الكبير، يقيمون لهم الأنصاب التي تحمل مدائحهم، ليس بالإطراء البحث والاستجداء، بل خوفا من الحركات الشعبية.

أما سياسته الخارجية، السلمية والحازمة، خلقت الإحساس بسلم دائم، ففي مصلحة النشاطات الاقتصادية، وساهمت كثيرا، أيضا، بشعبية تيبير في المحميات. خمدت نار الحروب، بخاصة مع الجرمان، والنزاعات مع الجيران (أرمينيا، البارث، إلخ). سموت بالطريق الدبلوماسية. ويكمننا أن نعتبر أن العلاقات بين المحميات وروما، تحولت، انطلاقا من تيبير، إلى وشيجة أكثر عضوية، على المستوى الداخلي، وصارت الإمبراطورية الرومانية وحدة سياسية أكثر انسجاما والتزاما.

كالغولا (٣٧-٤١) وكلود (٤١-٥٤).

إلى أي مدى تطورت الأفكار والعادات الملكية في روما، في عهد تيبير، وفي الوقت ذاته كم حمل توطيد النظام الجديد من معاناة المجتمع، نقرأ هذا لدى خليفتي تيبير المباشرين. كانت روما قد استقبلت خبر موت هذا الأخير باستبشار وحبور. أراد الشعب

حرمائه من الضريح ورمى جثته في نهر التيبر. تلقى بكل مظاهر الحماس، ابن جرمكس، كايوس، شابا في الثالثة والعشرين ربيعا، الذي تلقى لقب قيصر، الذي ربطه تيبر بشخصه في أواخر عهده، كواحدة من نزواته. دخلت الجماهير مجلس الشيوخ وأكرهوه على تسمية الشاب كايوس أميرا قيصرا. وقدموا الضحايا كل يوم ابتهاالا لصحته وازدهاره، وسموه "شمسا". ولقبه الجنود كالغولا (من *caliga* - المداس العسكري)، إشارة إلى أنه، وقد ولد في المعسكر، فهو قريب من الجنود. لا يفكر بإعادة الجمهورية.

وأكد كالغولا، بتوجيه من مشنثاريه المحنكين، ادهم مأكرون، سلطته وشعبيته بمهارته، في بداية إمارته: أعلن عفوا عاما، وصرح أن ليس ثمة "أذان تستمع للوشاة، وأسرف بتوزيع القمح والاحتفالات، وقدم كل الاحترام لمجلس الشيوخ؛ وأعاد نشر الكتيبات عارضا وضع الدولة وقام بمحاولة لبعث التجمعات الشعبية. وأثبت أيضا بالغ اهتمامه بحاجات المحميات.

لكن كالغولا، المحروم من الخبرة والائزان (يعتبره البعض مجنونا)، لم يتخلف عن تعظيم نجاحاته الأولى، المحققة بسرعة وسهولة. لم يعتبر أركتاف أوغست مثالا يقتدى، بل سلفه الأجرأ الدكتاتور يوليس قيصر، وبخاصة التلميذ المخلص لهذا الأخير، مارك-أنطون. ومثل قيصر وأنطون، كان مثاله السياسي الملكية المطلقة من النموذج الهليني، بشكله الأمثل: فراغة مصر. أحاط كالغولا نفسه بلفيف من القيصريين والأنطونييين الحازمين، الذين لم يرتدوا قناعا جمهوريا مثل أوغست وذبذباته المحترسة، وأرادوا أيضا سياسة خارجية أكثر فاعلية وإضاء، وبخاصة في الشرق. وقد فكر كالغولا نقل العاصمة إلى الإسكندرية.

لم يتأخر هذا التمسير عن الظهور، لدى كالغولا، بالشكل الأكثر إثارة. فعبادة إيزيس، المحرمة في عهد تيبر، عادت. وعلى متن باخرة جبارة عمرت لهذه الغاية، أتت من مصر المسلة الهائلة، القائمة أبدا أمام كاتدرائية القديس بطرس في روما. وعلى نمط فراغة مصر، قرر كالغولا تزويج أخته بروزيلا، ولما ماتت هذه الأخيرة فجأة، قرر تأليها باسم بانثيه (الإلهة الشاملة). وكقيصر، رفع إلى مصاف الآلهة. ارتدى أمام الناس ثوب جوبيتر واحتفى بعثون ذهبي وحمل الصاعقة. وحافظ على قصر فخم، على الطريقة الشرقية، وملاهيها الباذخة. كان هذا يتطلب مبالغ طائلة، أمنتها حكومة كالغولا، بلا حشمة، بمصادرة بلا رحمة كل ما هنالك، بما فيها اغتصاب أموال الأغنياء.

دمرت هذه السبل بسرعة شعبيته العريضة وكل مظهر خارجي. وقد لجأ كالغولا ورواده، هم أيضا، إلى تدابير القمع الكاوية لخلق تملل وغضب العاصمة. وأعيد إلى العمل قانون قدح بالذات الملكية. جلب بعض الضباط المشتبه بهم إلى القضاء أو الذين فقدوا الحظوة وفقدوا معها الحياة. ودارت شائعة تقول: إن الامبراطور المعتوه قرر إعدام كل جنود الجحفل الجرمانى الذين اشتركوا، قبل ٥٢ عاما، بالتمرد الذى قمعه والده جرمكس.

تمادى كالغولا كثيرا. وفي ٦ كانون ثانى ٤١ ب.م، بعد أربع سنوات من الحكم، قتله ضباط حرسه، الذين انقضوا عليه، في أحد أروقة القصر المعتمة. كان الراى العام قد عبيء ضده، حتى قتلوا زوجته وابنته وهى فى سننها الأولى.

مع ذلك، رغم نهايتين دمويتين لمحاولتين هامتين لإدخال العاهلية الإغريقية إلى روما، كانت مخلفات التقاليد الجمهورية ضعيفة جدا فى روما عند موت كالغولا، ومنذئذ يجب النظر إلى "الإمارة" كمرحلة أقل نجمها نهائيا واتجه الوضع إلى المذهب الامبريالى المطلق. ولم يكن الصراع يتجه نحو توسيع السلطة، بل نحو أشكال الميراث، ومعرفة من هو الامبراطور الجديد ومن سيسميه.

على الأرجح، أقيمت فى مجلس الشيوخ الملتئم بعد موت كالغولا خطبة ملتهبة ضد "الاستبداد. اقترح بعض الخطباء هدم كل المعابد المكرسة لقيصر وأوغست، والعودة إلى المؤسسة الجمهورية. كان أغلبهم يميل إلى الحفاظ على الإمارة، بشرط أن يتولاهما شخص خلاق بها. لكن عجز مجلس الشيوخ عجزا تاما لم يتأخر الكشف عن نفسه: "... فى الغد، تحرك مجلس الشيوخ، العامر بالانقسامات ومختلف الآراء، بلا حزم ولا حسم. طلب الناس المحيطون به بصوت عال سيدا واحدا وسموا كلود" (سويتون، كلود).

كان مرشح "الشعب" آخر ذرية بيت جوليان، الأخ الأصغر اجرمكس وعم كالغولا؛ اكتشفه رجال الحكم، قتلة هذا الأخير، بينما كان مختبئا مروعا فى واحدة من زوايا القصور المهملة، اقتاده الجنود عنوة إلى معسكرهم وأعلنوه امبراطورا رغما عنسه. أخذا بعين الاعتبار أوضاع الشعب والجنود، سلم مجلس الشيوخ بطوعية الأمير الجديد كل السلطات الامبراطورية. وهكذا رغم إرادته، وعملا بمبدأ الوراثة العائلى، صار كلود سيد الامبراطورية الرومانية، بصفته حفيد أوغست.

حسب رأي كباردارسي ذلك العهد، كان كلود أقل الناس جدارة بهذا المنصب، فقد عرف بطبعه الغريب وتواضع عقله؛ فحتى وصوله إلى كرسي العرش، في الرابعة والخمسين من عمره، كان يعيش حياة بسيطة وبالغة الاعتزال، غير مبال بسوى بدراسة التاريخ (كان تيت-لايف معلمه لبعض الوقت).

لكن عهده الذي دام ثلاثة عشر عاما، لم يكن العهد الذي أفضى إلى توطيد النظام العالمي. كان كلود يهتم كثيرا بالقضاء، مبدئا أحيانا في هذا المجال "طبعاً كلي التقلب" (سويتون، كلود، ١٥). وكان تموين روما أهم اهتماماته، فأسرف في تمييز التجار الذين زودوا العاصمة بأسباب غذائها؛ وتم إنشاء مرفأ جديد في أوستي، عند مصب التيبر. وشيد خزان ضخمة لجر المياه إلى روما؛ كانت أقواسه ذات الثلاثة طوابق تدهش بضخامتها زوار الريف الروماني، وخلال ١١ عاما حفروا قناة لإخلاء بحيرة فوسن التي سمحت بردم المستنقعات وري وحرث آلاف الهكتارات.

في الشؤون الإدارية العامة، العسكرية والمالية، التي لا يفقهها كلود أبداً، فسلمها كلها إلى رجال أكفاء، اختيروا بالأفضلية من بين عبيده الأرفع معرفة وثقافة ومن أعشق اليونان والسوريين. وأوكل إليهم مختلف فروع الإدارة، دون أن ينبهر بعلامات السخرية التي يضعها البعض حول هذا الموضوع، قائلين: "كان الأمير صنيعاً عبيده". لقد رمى هؤلاء المعتقن، وهم بدون أصل ولاوطن لهم، لم ينسوا أبداً أن يكسبوا من غنائمهم ثروات ضخمة، رموا بالتدريج مجلس الشيوخ وكل الحكام السابقين إلى الصف الخلفي، وفي هذا العهد وضعوا أسس نهج المركزية الإدارية للحكومة الامبريالية.

ينهل هذا النهج أصله من ولاية أرزاق الأمير الخاصة. لكن الولاية الإمبراطورية بتدمير أمور الثروة الخاصة والدولة، قدرت بسهولة أن تتحول إلى مستشارية حكومية فعلية بمختلف فروعها وخدماتها في المؤسسات الإدارية.

وكان مكتب المحاسبة قد صار وزارة فعلية، وزيرها بالاس؛ يوناني ماهر وموسوعي المعرفة. وكان رئيس مكتب المراسلات سكرتير كلود الشخصي، الذكي والمحنك المعثق نرسيس؛ كان هذا المكتب مسؤولاً عن وزارة الداخلية والخارجية والدفاع، الأمر الذي جعل من نرسيس الرجل الأبعد نفوذاً في الإمبراطورية، وهو الذي يحدد سياستها الداخلية والخارجية. وكان العالم اليوناني بوليب يدير "مكتب الدراسات، وكالسييت يدير مكتب

الغزو، المتعلقين بالمحكمة العليا، المكلفة بالنظر في الشؤون ذات الأهمية الاستثنائية ومحكمة النقض. ونذكر أيضا مكتب المنشورات الهجائية" الموجهة إلى الإمبراطور، الذي يشكل، إن صح القول، مستشارية شخصية للأمير. وكان لكل من هذه الخدمات جهاز من كل المراتب، والمعارف، وغيرها، من الرئيس حتى آخر مستخدم، مجندين من المعنقين وينطبق هذا على عبيد الإمبراطور.

كان من الطبيعي تماما أن يضع هؤلاء الرجال الجدد السياسة الرومانية فسي دروب جديدة. ولقد وزعوا بسعة حق المواطنة، الذي سرعان ما منح لشعوب ومدن بدون تمييز. كان المحميون الأولون الذين اضطروا لقبولهم في بلدانهم هم الأدوبيين، الغولوا، ممثلي المحمية التي يشملها كلود برعاية خاصة (ولقد اطلعنا على خطابه في مجلس الشيوخ بهذه المناسبة عن طريق منحوتة محفوظة في ليون). ولتسوية الأمر المشيخي، عززت حكومة كلود تقدم الفرسان وفتحت أمامهم المهمة العسكرية على مداها الأوسع: إذ شغلوا منذئذ كل الملاكات المتوسطة في الجيش-أخذ منهم قادة الكنائس المساعدة وكواكب الخيالة، وحكام الوحدات. وهكذا بدأ تطور التسوية العامة لشعبيته الإمبراطورية: اقتراب أبناء المحميات من الرومان، واختفاء عوائق تحسين شروط الحياة داخل المجتمع.

في عهد كلود، دخلت السياسة الخارجية الرومانية في حقبة من النشاط العارم. وتوسعت الامبراطورية كثيرا. وفي العام ٤٣، شرع جيش جرار (حوالي ٥٠ ألف رجل) بقيادة جنرال محنك، أولوس بلوتوس، فتح بريطانيا، محاولة كررت مرتين على يد يوليوس قيصر. وأبحر الرومان إلى مصب التاميز، ومن هنا انتشروا في الشطر الجنوبي من الجزيرة. دارت هنا معركة طاحنة، بحضور الإمبراطور، قرب كملودنوم (كولشستر)، المنطقة الغاصة بالبريطانيين. وبعد انتصارهم، جعلها الرومان مركز تحشدهم العسكري وعاصمة محمية بريطانيا الجديدة. وصارت لندن أيضا مدينة رومانية ضخمة (اقرأ في موضوع فتح بريطانيا: سوتيون، كلود، ١٧؛ تاسيت، حوليات، ١١، ٣١-٤٠؛ ديون كاسيس، ١، ٤٠، ١٩-٢٢).

وحقق الرومان نجاحا مؤزرا على الدانوب والبوننت. وسيطرت الجيوش الرومانية، بقوة وهي تتقدم في بانونيا، على مجرى الدانوب الأوسط كله، أي المسافة التي شكلت سلسلة من المواقع المنيعه ومخيمات القوات، -لوريكوم، فندوبونا (فيينا)، كارنتنوم -موقع

حصين جدا حيث تتحشد حامية كاملة)، وغيرها. وعلى أسفل الدانوب، أقيمت مملكة ثراسيا في العام ٤٦، ونقل جنوب البلقان إلى محمية، يحكمها والي روماني، واجتمعت كل الأراضي الواقعة على مصبات الدانوب (دوبروشيا) في ميزيا *Mesie*. وصارت هذه المحمية الأخيرة حصن روما عند مفرق طرق غزوات شعوب شرق الدانوب (داشيا، جيت، بسترن، سرمات، غيرها). وأقيمت تحصينات منيعة أيضا على مجرى الدانوب الأسفل سنجدونم (بلغراد)، أوكس، نوفى، وغيرها.

وصلت روما أخيرا إلى ضفاف البحر الأسود القصية. وفي العام ٤٦م، خلع جيش روماني غازي كبير، بقيادة ديديس غالوس، واصلا إلى بانتيكايه طبعاً عن طريق البحر، خلع وأسر وأرسل إلى روما ملك البوسفور مثريدات الثالث، عدو الرومان اللدود. وتزوج هؤلاء الأخيرون أحد أنصارهم، كوتس، الذي دعا في رقيماته إمبراطور روما "المحسن إليه" ودفع تزلفه حتى سمي تيبيريوس يوليس كوتيس، وكأنه أحد أتباعه. وتلفت البوسفور حامية رومانية، لتحافظ على خضوع هذه المملكة.

في ذات الحقبة، نصب الرومان على عرش أرمينيا أحد أتباعهم، الأمير مثريدات الإبيرى، وتمركز في هذا البلد فوج روماني للمراقبة قرب إيريفان. وعادت يهودا *Judee* من جديد محمية رومانية. وأخذوا من مورتانيا محميتين أخريتين. وهكذا عرفت روما عهداً توسعياً جديداً قادها بعيداً عن حدود عالم البحر الأبيض المتوسط.

لم تكف فضائح مجلجلة وألغاز أرسنقراطية نقض مضاجع القصر، طيلة حكم كلود. فالمشايخ والنبلاء، غير الفرخين يهمسون ضد الإمبراطور ومعاونيه كانوا يحكون أحياناً المؤامرات. ففي العام ٤٢، مثلاً، حاول سفير دلماسيا، فوريس كميليس سكرابونيانس، تحريض محميته على التمرد، لكن بعد أيام قتله جنده، لأن "إحياء الجمهورية"، وهو هدفه الأول، لم يثر أي صدى عاطفي أو حماسي في الجيش.

كما سبب سلوك زوجات كلود المتواليات -بداية فالاريا ميسالينا، التي اشتهرت بعيوبها، ثم بعد إعدامها (في العام ٤٩)، أنت المتعجرفة الجشعة الشابة *la Jeune* أغريبين، ابنة جرمنكس، أحداثاً فضائحية، وعقوبات دامية. دعم باللاس، المعتق اليوناني الذي يدير الأموال، بعد أن سيطر كلياً على الضعيف كلود، دعم أغريبين كثيراً فتبادلت ولقيت "أوغستا". وبعد أن وضعت على رأس الحرس الإمبراطوري أحد تابعيها، أفرانيس

بورس، أهلكت عددا كبيرا من خصومها ومناقسيها، وأجبرت كلود على تبني ابنها من أول زوج لها، سنيس دمتيس أنهباريس، نيرون، ابن الخامسة عشر (في العام ٥١). وسمي "أمير الشباب" وتلقى سلطات المحافظ. وإعدادا لتتصيب ابنها هذا سميت الإمبراطور (في العام ٥٤).

تثبت كل هذه الأحداث، المألوفة في القصور الشرقية والإغريقية، أن روما أيضا، انطبعت في حوالي أواسط القرن الأول الميلادي بطابع العاهلية، رغم استمرار الحاكم الأعلى باسم "أمير" والنظام بـ "الجمهوري".

نيرون (٥٤-٦٨) ونهاية الأسرة الحاكمة يوليوس-كلودية.

يشكل حكم نيرون، آخر أمير من أسرة يوليوس كلودية، الشاهد الأبلغ والأتم على تحول الإمارة إلى عاهلية. ولأول مرة يستلم قاصر تاج روما، ولإثنين ابن أغريين بترفيعه إلى الإمارة إلى الثورة في القصر، لأنه بالفعل ليس صاحب ذرة حق بهذا المنصب. شنات أغريين معارضة الأوساط العسكرية المتنفذة بإعدامها على الفور نرسييس، أمين سر كلود، وأعادت الإدارة الدفاعية إلى ديد بورس؛ فأمنت التدابير الأمنية الانتهازية الهدوء بين جماهير العاصمة.

على غرار العاهليات الشرقية، كانت السلطة الفعلية، في عهد أمير شاب عديم الخبرة، بين يدي امرأة، أغريين أوغستا، أمه، وأنصارها (باللاس، بورس، سيناك وشركائهم). كان عليهم أن يتملقوا الكبار بعض الشيء، كما ورد في الخطاب-البرنامج الذي ديجيه سيناك وألقاه الشاب نيرون أمام مجلس الشيوخ؛ ولقد توطدت قسمة البلد إلى أقاليم، مشيخية وإمبراطورية؛ وكان حكم المحظيين وتدخل أهل الأمير بشؤون الدولة قد أدبنا. ومع ذلك كان مجلس الشيوخ يعقد جلساته في قصر الأمير لكي تتمكن أغريين، المختبئة خلف ستارة، متابعة المناقشات، وكانت تحضر استقبال السفراء الأجانب.

على ذلك، وبسبب التوظيف الجيد للجهاز الحكومي وبواقع أن نيرون لا يزال أبدا بشؤون الدولة، سميت الخمس السنوات الأولى من حكمه "عهد نيرون السعيد" (٥٤-٥٩). وكان نجاح السياسة الخارجية يترجم حسب تطورات جديدة في التوسع العسكري للإمبراطورية الرومانية، في الشرق، منذ زمن بعيد، يترجم غرض أوساط روما العسكرية والمالية. وهجوم البارث على أرمينيا، التي تعتبرها روما بلدا تابعا، دفع "حملة نيرون

الشرقية"، التي بدأت في العام ٥٧. وبعد ثلاث سنوات من الإعداد الجاد، ولج أرمينيا العام ٥٨، عن طريق كبادوس، جيش روماني لجب، بقيادة قائد محنك، هو دومتيس كوربلون. وبدعم ملك إيبيريا (جورجيا) فاراسمان، استولى وأحرق عاصمة أرمينيا السالفة، أرتكسلتا. وانتزعت تغرنسرت، العاصمة الجديدة، على دجلة في العام التالي (٥٩). وطرد الملك تردات (أخ ملك البارث فولوجيز)، ووضع الرومان على عرش أرمينيا تبگران الخامس، الذي عاش ردحا من الزمن رهينة الرومان والذي كان قد هضم وتمثل تماما الثقافة الرومانية. وترك جيش ضخم في أرمينيا لدعمه وحمايته. وارتبطت إيبيريا وشعوب الساحل القفقاسي (موسك) بروما. وفي العام ٦٣، تقلصت مملكة البونت إلى محمية أو إقليم.

وفي وقت واحد، كان جيش كبير، بقيادة سفير ميزيا تيبريس بلوتيس سلفاتس، يعمل متبعا ضفة البحر الأسود الشمالية. وبعد إخضاع الحديد من الشعوب القاطنة في شمال الدانوب الأسفل (جزء من الدارسيين، السارمات، الروكسلان)، احتلت الجحافل الرومانية تيراس (العام ٥٧)، أولبيا ووصلت شرسونيز، وأنقذت هذه المدينة التي يحاصرها السيث. تمركز الرومان بمنعة في القرم. وثقلت شرسونيز حامية وصارت قاعدة للقواعد الروماني. وبعد هزيمة التوريين الأصليين، غطي الشاطيء الجنوبي لشبه الجزيرة بمخافر رومانية منيعة، كان أهمها شاراكس (على بعد ٥ كم من المدينة الحالية بالطا). وكانت البونت قد أصبحت بحرا داخليا رومانيا، وحوالي العام ٦٠ خضع كل ساحلها لروما. لكن مجد نيرون أقل في هذه الحقبة من الزمن تقريبا، ليترك مكانه لبرهة ثمانية سنوات من التحكم والفوضى الإدارية. كان نيرون فاسقا منذ طفولته بسبب تربيته في وسط فاسد كقصر كلود. فما كاد يشب في الإمارة، حتى أعطى نزواته كلها الحرية كاملة وجعل من البلاط وشوارع روما مسرحا لقصفه وعربدته، وكل أنواع الفضائح. وتبنى القيصصر الشاب المذهب الكلي لمطوك الشرق: كل شيء مباح للعامل. كان هذا هو مبعث الخلاف بين نيرون وأمه، فثمة حظية الامبراطور، الفاجرة والفضلة بوبي Popee، تدفعه للتخلص من أمه أغربين: ولقد أرسل نيرون لفيفا من الحكام لقتل أمه (العام ٥٩). وأعلن رسميا أنها تأمرت على سلطته بل على حياته؛ وصدر قرار خسيس سيجيز تحطيم أنصاب أغربين وسحب نقدها من التداول.

بعيد جيشان القصر هذا، مات بورس (ربما مسسوما) وأبعد سنيك وكثير غيره ممن اعتقهم كلود وسلمهم مختلف مواقع المسؤولية ليحل محلهم محظيون أطوع وأكثر زلفى. سلمت الشؤون الحربية للمحافظ الجديد تجلان، الرجل الماجن المنحط، الذي صار حظي نيرون العاتي، كما كان سجلان لدى تيبر. ثم أرسلت زوجة الإمبراطور، أوكتافيا، ابنة كلود، إلى المنفى، ومنه إلى القبر، وتسنى لنيرون أن يتزوج بوبي التسي، حسب عبارة تاسيت "عدا القلب النقي، كان عندها كل شيء: الجمال، الذكاء والثروة".

انطلاقاً من العام ٦٠ يبدأ عهد الإنفاق الذي السابق له لتأمين ملاهي البلاط الشاذة، الأمر الذي سماه سويتون بكل حق "جنون التبذير". تتالت الاحتفالات والقصف من كل نوع بهرجة لانظير لها. كان خدم القصر يرتدون أعلى الثياب، وانتعلت البغال الفضة، لكن الأمر الذي حفر كهفاً للخزينة هو المنشآت الصناعية الضخمة الباذخة، وبخاصة، "البيت الذهبي". هكذا كان يسمى القصر المنيف الذي، بأروقته، حدائقه، غدرانه، ومعارض الوحوش، كان يشغل عدة أحياء في مركز روما بين البالاتان والاسكلان. وبعد أن تم كل شيء، زاره نيرون وقال: "أخيراً تيسر لي أن أسكن كرجل". (سويتون، نيرون، ٣١).

لقد أفضى هذا التبذير إلى فوضى مالية وعجز متواصل ودائم. حتى اضطروا إلى تعليق دفع رواتب القوات وتعويضات تقاعد المحنكين. ولتعبئة صناديق الدولة، بدلوا النقد: لليرة فضية صكوا ٩٦ فلساً عوضاً عن ٨٤. وسعوا في الغالب إلى تمويلات وقتية في المصادرات الضخمة لأرزاق الأغنياء، واتهموا بدم السلطة العليا، بذرائع وهمية وعابثة. وصادروا أيضاً تركات الموتى، الذين "برهنوا على الجحود بالإمساك عن ترك وصية هامة للأمير".

كان سلوك نيرون المخجل موصوفاً من الناحية الأخلاقية لدى عليّة مجتمع إمبراطورية الاستعباد الرومانية. كما أن الإمبراطور لم يعد يبالى بشؤون الدولة إلا حسب نزواته، كذلك فقد النبلاء الرومان أي اهتمام بالسياسة. فاستسلمت هذه الطبقة المنحلة نهائياً للشهوات الجسدية، إلى ألعاب السيرك والمسرح. "في الملاهي والمسارح، ويذكر سويتون: يقوم أشخاص من الجنسين بأدوار مسلية... ولقد أسس (نيرون) مدرجاً خشبياً يقدم فيه مشهد المصارعين. وجعل ٤٠٠ عضواً من مجلس الشيوخ يصارعون ٦٠٠ خيال... واختار مصارعين ضد الحيوانات" (نيرون، ١١-١٢، تاسيت، حوليات، ١٥، ٣٢). وكان نيرون،

رأس هذه الصفوة الرومانية الفاسقة والمنحطة، يهتم بأكاليل غار الرياضة والمسرح أكثر بكثير من اهتمامه بمملكته. وليس بدون مواهب أدبية وموسيقية اعتبر نفسه طاقة فنية وظهر على المسرح منشداً، مغنياً، موسيقاراً، ومعلماً فروسية وحتى مصارعاً. وأوقف العام ٦٧ كله لدورة فنية في اليونان، حيث اشترك في الألعاب الأولمبية والبرزخية. ولكي يكافئ اليونان الذين قوموا مواهبه جيداً، أعطاهم استقلالهم، وما يزال محفوظاً الخطاب الذي ألقى بهذه المناسبة.

لقد أسفرت الفوضى الإدارية والمالية عن سلسلة من النتائج المدمرة في السياسة الخارجية وفي حياة العاصمة والأقاليم. وانتهت حرب الشرق بشكل معيب للرومان. فقد غزا البارث أرمنيا وطردها ممثل الرومان، الملك تيغران الخامس. والجيش الذي أرسل لمؤازرته بقيادة ل. كزنيوس باتوس، الممالك وعديم الخبرة القتالية، حاصره فرسان البارث قرب رونديا على رافد شرقي الفرات الأعلى ولم ينج إلا باستسلام مذل، متنازلاً للبارث عن أسلحته وكل عدده الحربية (العام ٦٢). ولم ينجح كوربلون إلا بتهدئة الوضع جزئياً؛ إذ تخلت روما عن عرش أرمنيا لمثريدات، أخ ملك البارث فولوجيز.

إن إهمال وقصور معاوني كان سبب كارثة لا سابق لها فتكت بروما في العلم ٦٤: اشترأت السنة الحريق ثمانية أيام والتهمت قرابة عشرة أحياء من ١٤ حياً في المدينة. وأهلك النار العديد من السكان؛ استغل اللصوص الذعر والهلع وعجز السلطات، فهبوا البيوت المحترقة. أما نيرون، كان يتأمل من أعلى برج مشهد الداهية الرهيبة، وحسب الشائعات التي دارت آنذاك، قال أبياتا من الشعر في سقوط طروادة. لكنه وقد كان مهتما بتأمين الأراضي الواسعة التي التهمها الحريق، لبناء "بيته الذهبي"، راح الناس يعتبرونه فاعل هذه النكبة المروعة وسموه "مشعل الحريق". الأمر الذي فرض على الحكومة تصعيد قضية "مشعل الحريق الفعليين". وكان المتهمون الكثر قد أوقفوا ولقوا مصرعهم تحت التعذيب الوحشي. "اللبسوا جلود دواب لجعل الكلاب تفترسهم (في ميدان المصارعة)؛ وربطوا إلى صليبان، أو دهنت أجسادهم بالراتنج اللزج القابل للاحتراق، فصاروا مشاعل نضياء ظلمة الليل". (تاسيت، حويات، ١٥، ٤٤).

وفيما بعد اعتز مفسرو الكتاب المقدس المسيحيون بمقطع من حويات شرح بمهارة حيث طرحت مسألة "مشاعل نيرون"، ليقدموا هذه العذابات كـ "أول اضطهاد للمسيحيين".

استغل فلول النبلاء غضب الشعب، وحاكوا مؤامرة في العام ٦٥: اقترح المتآمرون قتل نيرون، في ملعب البهلوانيات أو المصارعة، يوم يأتي لأمر ما، ويرفعون إلى الإمارة النبيل، الغني والشعبي لك. كلبوزنيس بيزون. كان بينهم الكثير من الرجال المعروفين، مثل لوسان، مؤلف 'Pharsale' وأيضاً، كما يبدو مرجحاً وجود عمه سنيك. لكن بيزون وقادة الحركة الآخرين، بدوا جبناء، مترددين وكشفت المؤامرة. وكانت الاعتقالات، التعذيب، والإعدامات التالية لاتحصى. بيزون، لوسان وسنيك ذبحوا بأمر من نيرون. كان هذا الأخير يحلم منذ زمن بمصادرة الثروة الطائلة التي يكدها مربيه سنيك، الذي لم يكن فقط أكبر باحث في زمنه، بل فضلاً عن هذا، مراييا جشعا. هكذا أثبتت عليه مجتمع روما بكل وضوح تفككها التام وعجزها الكامل عن لعب دور سياسي كبير.

لقد حملت الحركات التي نشبت في الأقاليم ضربة قاصمة لحكومة نيرون المتفسخة. ففي كثير من حالات الابتزاز والعنف المتماذي من قبل الموظفين الرومان على معاوئي نيرون الذين، في عجزهم وقصورهم، وعدم ممارستهم سوى المراقبة الباهتة، أثاروا اضطرابات شعبية أخذت شكل انتفاضات خطيرة، لأن الأرستقراطية المحلية، الغاضبة من مجرى الأحداث في روما، حاولت تجير هذه الفوضى لمصلحتها. وفي العام ٦٠، تمردت غالبية الأمم البريطانية الخاضعة حديثاً مثل إيسينيان، ترينويانت وغيرها. كانت ملكة الإيسينيان، بواديسي، على رأسهم. استولوا وعلى كملودنم، عاصمة بريطانيا الرومانية ودمروها، ثم لندنيوم (لندن)، ثاني مدينة. ذبح المعمرون والتجار الرومان، مع نساءهم وأطفالهم، بعدد ٨٠ ألفاً.

وقد نجح محافظ بريطانيا، سوتنيس بولنس، بجهود مضنية، بعد عودة كل ما لديه من احتياط، بجذب جيش المتمردين إلى أحد المضائق، حيث اضطروا أن يقاتلوا بشروط غير مواتية، وأنزل بهم هزيمة رهيبة. وذبح الرومان بدورهم قرابة ٨٠ ألف بريطاني. ومع هذا ولعشر سنين، كانت تهاجم قواتهم شطر الجزيرة المحتل، لأن بريطانيا بقيت في هياج وغليان دائمين.

^١ - قصيدة ملحمة للوسان، ترسم الصراع بين قيصر وبومبيه؛ عمل متألق من الرواية السامية لكنه كثير التفخيم والتعظيم (القرن الأول الميلادي)- المترجم.

كان الاحتجاج في قمته في يهودا، في بداية الستينات. كان الشعب يعيش هنا تحت نير مزدوج: نير الفاتحين الرومان، ونير مستغليهم المحليين، الكهنة والأغنياء؛ انتشرت بين هؤلاء الأخيرين نظرية الفريسيين "دكاترو في القانون"، وهم مفسرو الكتب المقدسة وهم الذين وضعوا الأساس الأيدولوجي للتيوقراطية اليهودية. فضلا عن العشر، كان يتوجب على الشعب بموجبها أن يؤدوا للمعابد بواكير محصولهم من القمح، والثمار، والعسل والدواب للأصاحي.

هربا من الدمار واليأس، لجأت طلائعهم إلى الشمال، الجليل، حيث تمتد مساحات واسعة غير محروثة على ضفاف بحيرة طبريا. كان أكثرهم ينتسب إلى طائفة الـ"زيلوت *Zelotes*" (أنصار الحرية المتحمسون). وقد صار أجراهم وطيبتهم "قتلة مستأجرون *sicaires*" (من *sica* = خنجر)، كانوا يزرعون الرعب، بذبح أبغض مستثمري الشعب. كلن هذا، في بداية النصف الثاني من القرن الأول ق.م. مصير الكاهن الكبير جوناثان الذي كان مكروها بشكل فريد. وكان الإيمان بمجيء قريب لملك محرر أو "مسيح *mvssie*"، رسول يهودة، واسع الانتشار بين الزيلوت. ومنذ العام ٦م، أعلن يهودي جليلي نفسه "ملكا لليهود"، وشهر السلاح في الجليل؛ وقد كثر هؤلاء المتمردون بالتتابع.

وفي العام ٦٦ شبت انتفاضة دامية متفردة، كانت نقطة انطلاق حرب اليهودية (٦٦-٧٣). كان الوالي الروماني جيسيس فلورنس، باغتصاباته وابتزازاته اللا-مثيل ليهان هو من أوقد نارها؛ تمادى كثيرا بل أرسل وحدة من القوات الرومانية إلى القدس وترك أشقى عناصره يتسابقون إلى النهب الوحشي. فمشى الحاكم السوري ك. سستيس غالوس لمد يد المساعدة لفلورنس، مع قوات ضخمة. لكنه لم يستطع أن يحتل المعبد، الذي اتخذته المنتفضون حصنا منيعا لهم. وبمشقة وجهود جبارة أخرج من القدس قواته المحنكة جدا وقد كانت قاب قوسين من التطويق والإبادة.

التهبت نقطة أخرى في نفس الوقت في الجليل حيث يسيطر القتلة والزيلوت، ووجد الشعب البسيط في هنا الجليلي قائدا فذا بطلا. وكان متمرديو القدس والجليل على اتصال دائم بوساطة جماعات مسلحة.

^١ - حكومة إلهية يشرف عليها رجال الدين- المترجم.

ببلت هذه الحركة الشعبية الأوساط الحاكمة في القدس فاضطرت بداية أن تظهر تعاطفا معها. لكن القطيعة كانت سريعة جدا، لأن التيقراطية في السلطة تخشى قبل كل شيء شعبها. ولقد وقف الكاهن الكبير ووجوه الفريسيين ضد قرار إلغاء التضحية اليومية للإمبراطور، معلنا التفاهم مع روما؛ وسال الدم غزيرا في شوارع القدس، التي طرد منها أنصار روما نهائيا؛ وأحرق المتمردون بيت كبير الكهنة وبيوت أعيان ممثلي الإكليروس والفريسيين.

انتقلت قيادة الحركة كليا إلى أيدي الفصيل المتطرف من الزيلوت، وعلى رأسهم جان، سيمون وألعاذر، المستندون إلى الفلاحين، الصناع والعبيد المعتقدين. وأعلن التجمع الشعبي الملتئم في المعبد نفسه السلطة العليا. وقسم يهودا إلى ١٢ دائرة، ونظم الإدارة العامة للتمرد، وأرسل ممثليه إلى الجليل والمناطق اليهودية الأخرى.

رغم وجوده على رأس قوات ضخمة، أجبر فلافيوس فسبازيانس، المكلف بقمع التمرد، أن يقود العمليات ببطء شديد، متقدما تقديما تدريجيا، مدمرا كل البلدات في طريقه، ومعلقا على الصليب كل من وقع بين يديه. وهكذا احتل الجليل، واستولى على مركزي المقاومة الهامين، طبريا وجوتاباتا. وفي الجليل، انتقل أحد وجوه الفريسيين، يوسف، إلى صفوف الرومان، وصار تابعا لفسبازيان، وسمي فلافيوس يوسف، واهتم فيما بعد اهتماما كبيرا بالأحداث في كتابه "تاريخ حرب اليهود ضد الرومان". على ذلك، استمرت المقاومة في كل يهودا تقريبا، ودافعت القدس المحاصرة بتشبه استثنائي.

لم يكن الموقف قد اتضح نهائيا في يهودا، حتى نشب في ربيع العام ٦٨ تمرد أخطر أيضا في غول. كان الأدريون، السكانس، والأرفيرن وغيرهم، من بين هذه الأمم الأقوى والأكبر عددا، قد حملوا السلاح، وكان الأدهي لدى حكومة نيرون وجنود على رأسي المتمردين السفير الإمبراطوري في الغول، يوليوس فاندكس، الغولوا الأصل. فقد جمع على عجل آلاف الناس. وفي خطاباته وتصريحاته، كان فاندكس يعلن تحت القسم أن هدف التمرد الوحيد هو تحرير الإمبراطورية الرومانية من نير الطاغية وقلب نيرون هذا البهلوان المتوج.

لاقى نداء فاندكس في الحال صدى مشجعا لدى حكومات وقوات الأقاليم الغربية الرومانية الأخرى. ماكان الجنود يعرفون نيرون ولاحبونه. كانوا يغارون من مرافقة الحكام المتمتعين بأناقة السيد الصغير، التي تجربها خدمة الحرس في البلاط واستعراضات

العاصمة. وكانت قيادة الجيش العليا، السفراء والمحافظون يتوقعون التعرض، هم أيضا، لمصير كوربلون، مصلح البونت، الذي دعاه نيرون، للانتحار لأنه يحسده على مجده. وعلى الفور مشى اقتداء بفاندكس سفراء أسبانيا الأقرب وأسبانيا الأبعد، سرفيس سلبسيوس غالبا، وم. سلفيوس أوتون، وكذلك محافظ أفريقيا ل. كلوديس ماسر، الذي دعا الجميع للانتفاض والسير إلى روما. كانت قوات الرين تشكل أنفذ أقوى جيوش روما، التي سحقت ميليشيات الغولوا وقتل فاندكس بسيفه، مقدرا مسبقا قضيته الخاسرة، لكن هذه القوات سرعان ما انتفضت هي الأخرى، ضد نيرون، مطالبة بإلحاح بتنصيب قائدهما فرجنس روفس إمبراطورا. وكانت كل المحميات الغربية والقوات المتمركزة فيها، في العام ٦٨، في حالة تمرد مكشوف.

كانت حكومة نيرون في حالة فوضى وتفكك كاملين. أما هو، كان يرسم الخطط الأكثر وهمية: كان يفكر، مثلا، بالمثل أمام المتمردين، يفتنهم بغناؤه وقيثارته. وأعطى الأمر بإعداد الديكورات ودعوة لفيغ من الممثلين. لكن مساعديه ذاتهم خانوه: وقف تجللان، بأمل إنقاذ وضعه وحياته، إلى جانب غالبا، وبالوعد بدوام العطايا، ألزم الجنود الحكوميين على إعلان هذا الأخير إمبراطورا. ولم يبق إلا مجلس الشيوخ ليوافق على الانقلاب: أعلن نيرون عدوا للشعب وأدين بالموت. الكل هجر نيرون، فضاع، ولم يبق أمامه إلا الانتحار، بعد أن فشلت محاولات الهرب. وصرح وهو يموت: "أي فنان يموت في جانحي!".

إن موت نيرون لم يعن فقط نهاية حكم أسرة جوليو-كلوديين التي حكمت روما منذ حوالي قرن. بل يعني، فضلا عن هذا، نهاية السيطرة التي مارستها روما وشرائع المجتمع الروماني-إيطالي العليا، على الأقاليم. وكان على الإدارة الإمبراطورية، التي خلقها هذا الحكم، من الآن فصاعدا أن تخدم مالكي العبيد في عالم البحر الأبيض المتوسط قاطبة.



الفصل الواحد والستون

الحرب الأهلية للعام ٦٨-٦٩ وتوسع القاعدة الاجتماعية للإمبراطورية. حكم أسرة فلافيان

الحرب الأهلية للعام ٦٨-٦٩

كما تم الأمر منذ مائة عام، كذلك اليوم: العنصر الأساسي في الانقلاب هو الجيش. يلاحظ تاسيت بكل حق في هذا الصدد أن "نهاية نيرون... أسفرت عن انفصالات عدة لدى القوات وقادتها؛ لأن أحد أسرار الدولة أذيع: لا يمكن إقامة إمبراطور إلا في روما" (التاريخ، ١، ٤).

لكن تركيبة الجيش، في العام ٦٨، لم تعد أبدا كما كانت في أيام قيصر وأوكتاف. كانت إلى حد بعيد إقليمية. وانطلاقاً من النصف الثاني للقرن، لم يعد سكان روما والطيان بعمامة يخدمون إلا في الحرس الإمبراطوري أو في الوحدات المقيمة في المدن. وتتحدث الفيلق أساساً بين سكان المدن الإقليمية. وكانت القوات المساعدة تمثل طابعا غير روماني ومن أصول عرقية أخرى واضحة المنشأ: تتألف من ممثلي مختلف الأعراق المعادية الشرسة، التي تصون عادة مصالحها القومية؛ كان ثمة وحدات بتافية، أسبانية، ثراس، سيسيليين وغيرها. ومن جهة أخرى، كانت تقوم وشائج متينة بين الجنود والسكان المحليين بفعل التجمعات التي تولد في جوار المواقع المنيع والمعسكرات، وحيث كان يعيش صناعيون، حانونيون، خمارون وأعمال أخرى لتأمين حاجات الجند. وكانت مستعمرات المحاربين القدماء، المحنكين، تساهم كثيراً بتقريب الجيش من الأهالي المحليين. وهكذا كان لكل جيش روماني شكله الأثني-العربي وسيماءه الإقليمية، مع محافظة القادة الرومان على الانضباط الحربي الروماني. وكانت اللاتينية هي اللغة الرسمية، وعبادة الإمبراطور الذي يقام له نصب في مدخل المعسكر الرئيسي وبكلمة أسلوب الحياة الرومانية.

يمكن إجمالاً تقسيم الجيش الروماني إلى ثلاثة تجمعات ضخمة ذات خاصيات ومضالاح شديدة الوضوح. بداية تجمع جيش الرين، الأقوى قتالياً، مع ثمانى تجريدات محتشدة بخاصة فى مناطق الغول، والعديد من ملحقاته الجرمانية. حسب الأصول الجرمانية، تغطي الفيالق عمراتها وبواخرها بجلود الدببة والأوس. ثم يأتي جيش الشرق (ثلاثة فيالق فى سوريا، ثلاثة فى فلسطين واثنان فى مصر)، حيث يخدم فى الأغلب رجال من آسيا الصغرى، وغالباً، غاللات وكبادشيين شبه إغريقين. كان جنوده يرتدون الخيتون ويبتهلون لآلهة الشرق: "الشمس غير المرئية" ومثرا *Mithra*. أخيراً، جيش الدانوب، - الذي يضم فيالق ميزيا وبانونيا، بشكل التجمع الثالث. كانت تركيبته الأثنية أصلاً من أبناء البلد: بين جنوده الكثير من الغولوا والإسبان، بينما كان الثراس، والإغريق هم الأكثر عدداً. كان جيش الدانوب على علاقات طيبة مع جيش الشرق، وكثيراً ما مد له يد المساعدة.

كان كل جيش يتشبه برباط جمعي؛ لكل جيش تقاليد، وأعياده واحتفالات انتصاراته السنوية. ويهدف كل جيش الآن لتصيب قائده إمبراطوراً، لكي يخذق عطاياه على مساعديه ومخطييه لقد خلف نىرون مباشرة سرفيس سلبسيس غالباً، سفير إسبانيا القريبة، الذي كان أول من انضم إلى تمرد فاندكس والذي نصبته الحاشية الإمبراطورية إمبراطوراً لروما. كان أحد الأعضاء الأكثر تميزاً فى مجلس الشيوخ بالدم والثروة، قائداً فذا ومديراً مجرباً (كان فى ٧٢ من عمره). منذ قدومه إلى روما، أعلن غالباً نفوذه لدى النظام التحكمى، وأنه "سفير مجلس الشيوخ والشعب". وضرب كلمة "حرية" على النقود. كان غالباً يسعى بوضوح لإرضاء تطلعات الشرائح العليا من المجتمع الروماني والإيطالي، بينما كان قاسياً تجاه الجنود لا بل هدد بإصلاح انضباط الحرس الإمبراطوري المتهاون.

لهذا بالذات لم يتسن له أن يحافظ على السلطة سوى سبعة أشهر. اشترى أحد مقربيه، الطموح م. سالفيس أوتون، الحاشية الملكية التي أعلنته إمبراطوراً فى ١٥ كانون الثاني ٦٩؛ وذهب العجوز غالباً ومستشاريه وخليفته المسمى، بيزون، سليل واحدة من أهم الأرومات الأرستقراطية.

لكن أوتون نفسه لم يحكم سوى ثلاثة أشهر رغم الدعم المسعور من الحاشية والعوام الرومان الذين أعقد عليهم بسعة. فقد رفض تجمع الرين طاعته منذ مجيئه، وسمى إمبراطوراً أحد قادته، سفير جرمانيا السفلى، أولس فتيليس. كان الأمير القادم سيناً بأوسع

معنى، واحداً من أبرع وأحط متملقي بلاط كلود ونيرون، مشهوراً فقط بجشعه، وقد نجح بشد اهتمام الجند بمحاولاته غير المحدودة. ترك الحدود مكشوفة تماماً، فمشى إليه طابوران من جيش الرين. دارت معركة ضارية في ٤ نيسان ٦٩، في بيدريك، قرب كريمونا، بين الفيالق الجرمانية التي اجتازت الألب وقوات أوتون الإيطالية: ذاق هؤلاء هزيمة منكرة. وتركوا وراءهم ٤٠ ألف قتيل. وقتل أوتون بسيفه. ودون أن يهتم المنتصرون بدفن قتلاهم انتشروا في أنحاء إيطاليا الأربعة لتنهب كما لو كانت بلداً معادياً. وفرضت التعويضات على من نجى من الدمار. دمرت هذه اللصوصية والمجون الانضباط الذين كان يفخر به جيش الرين. فتن نجاح الفيالق الجرمانية الجيشين الرومانيين الآخرين الجرارين، المقيمين في الدانوب وسوريا. فتمردوا وأعلنوا تيتس فسبازيانس إمبراطوراً. ودون انتظار قوات الشرق، خاضت فيالق ميزيا وبانونيا ودلماسيا معركة بقيادة رائد بسيط، سفير الفيالق السابع م. أنطونيس يريمس. وفي صولة ليلية عاصفة، حققت فيالق الدانوب أمام كريمونا نصراً تاماً على قوات الرين التي تخلت عن مجدها الغابر. وبعد شهرين في كانون الأول ٦٩ أخذت روما من الهجوم، بعد معركة دامية في الشوارع، خلالها لم ينزدد أنصار الإمبراطور فيتيلوس عن حرق معبد "جوبيتر أوبتمس مكسموس" الشهير، في الكابيتول، حيث كدس الأرشيف الروماني. قبض الجند على فيتاليس، في أحد أروقة القصر، حيث لجأ، وذبحوه بوحشية.

منح مجلس الشيوخ، خوفاً من نفس المصير، فسبازيان، الغائب، موافقته. أرجأ هبنا الأخير دخوله ستة أشهر إلى العاصمة، التي كان حكمها تلك الفترة ضباطه، أنطونيس يريمس ولسنيس فريانس، بينما كان هو سفيراً في سوريا. انتهى التمرد العسكري الكبير لعامي ٦٨-٦٩ بنصر مؤزر لجيوش الشرق على العاصمة والحكومة المركزية الرومانية.

الإمبراطورية في عهد الفلافيين

أفضت أزمة العامين ٦٨-٦٩ إلى تنظيم جديد عميق لكل نهج الدكتاتورية العسكرية لدولة العبودية. فقد قدم انتصار جيوش الأقاليم ظفراً لعنصر العبد على العنصر الروماني والاطلياني، وانتقلت روما إلى مرحلة جديدة وأرقى في الملكية القديمة، استناداً إلى مجتمع العبودية في حوض البحر المتوسط كله، وبخاصة في المدن والعائلات الكبرى الإقليمية. ولم يتخلف عالم العبودية عن الدخول في مرحلته النهائية المتفتحة، الأمر الذي يمكن أن

يسمى "العصر الذهبي" لإمبراطورية (القرن الثاني الميلادي).

تبدى هذا التطور إلى هذا الحد أو ذاك في عهد الفلافيين، الأسرة الحاكمة الأولى التي خلقت أسرة يوليوس-كلودين، والتي مع ذلك لم تحكم روما سوى ٢٧ عاماً (٦٩-٩٦). كانت هذه الأسرة غامضة المنشأ والموقع حتى آنذ سليلة شرائح وسطى من المجتمع الإيطالي. كان الجد المؤسس لأسرة تيتس فلافيوس سبازيانس فلاحاً من بلاد السابان وصار قائد مائة؛ وكان أبوه جابي ضرائب. ولم يرب فسبازيان، في المهنة الإدارية والعسكرية الإقليمية إلا بدافع الحماس والنشاط والدهاء القروي. امتاز عهده (٦٩-٩٦). بروح التكتيك والادب. مع هذا، لم يكن فسبازيان يهدف أبداً أن يحكم بيد صارمة، ولم يرض أن يتدخل أحد في قراراته، وأكره مجلس الشيوخ أن يمنحه سلطات واسعة جداً، متمتعاً بحق إنجاز كل الأعمال التي يراها ضرورية لخير الدولة.

كقائد مجرب، كان أول همومه القضاء على الفوضى في الجيش وإرسال القوات الإيطالية إلى الحدود. وأمن لوحده المخلصة خير المعسكرات. بخاصة في سوريا، وأرسلت "الفيالق المنهزمة" إلى تخوم الدانوب الخطر: والحاميات الأبعد في الشمال الشرقي ألت إلى حرس نيرون الشخصي، رفعها هو خاصة باسم الفيالق الإيطالية، التي كان جزء منها حامية في قصور توريد المنبعة (في شاراكس قرب بالطا).

ثم لقاء جهد جهيد، قمعت الإمبراطورية الرومانية كل الحركات الانفصالية في الأقاليم وقبل الكل تمرد يهودا. ولقد أفاد متمردو هذه المنطقة من الهدنة ليلموا شملهم ويعززوا موقعهم. كان حنا جسكال الذي نجح في العبور من الخليل إلى القدس على رأسهم منذ ٦٧، كانت هذه المدينة الضخمة ذات الـ ٦ آلاف ساكن، المنبعة فقط بموقعها في وسط ممرات ووديان ضيقة وعميقة (وادي يوشافات، مثلاً) ومحمية بسور مزدوج مزود بـ ١٦ برج، كانت مركز المتمردين الرئيسي.

جيش من أربعة فيالق وتجريدة مساعدة بقيادة تيتس: بن فازبازيان، شرع بداية بأعمال الحصار الطويلة والمرهقة التي دامت عدة أشهر، وفي آب من العام ٧٠ تيسر للرومان الهجوم. لقد تجدد المشهد المأساوي لسقوط قرطاجة، أخذت أولا المدينة السفلى، ثم المدينة الوسطى بقصرها، وأخيرا المعبد، في قمة جبل مورياح الذي ينهض في وسط المدينة. هلك القسم الأكبر من السكان في أثناء معركة شوارع رهيبة ومن فاته الموت بيع

عبدا أحرق المعبد وقت الهجوم، نهبت المدينة، وعلى أنقاضها أقام الفيلىق. العاشر الروماني مغسكه. ورغم أن النضال استمر في يهودا حتى العام ٧٣، حقق تيتس الذي عاد إلى روما ٧١ نصرا كاسحا، وأقيم أيضا في ميدان فورم قوس المجد لقاهر اليهود، تمثل أفاريزه جنودا يحملون إلى الكابيتول أشياء القدس المقدسة، الهيكل، الأبواق الضخمة، والشمعدان ذا الأغصان السبعة.

قمع التمرد في الغول وعلى الرين ليس بأقل قسوة. نشب هذا العصيان بين أمة الباتاف المحاربة المقيمة في نهر الرين وقد ضمت سابقا جيرانها من الغريزون والكانينغات، كان على رأسي المتمردين يوليس سفلوس، أمير باتافيا، الذي خدم طويلا في الجيش الروماني. احتلت قوات فتليس (حسب تعبير تاسيت) لم يبق على الرين إلا أشباه فيالق) على عجل كل مواقع الرين الحصينة تقريبا. ثم امتدت الحركة إلى الغول حيث أعلن ر جلان من كبار عائلات تريفير هما يوليس كلاسكس ويوليس تيرور إمبراطورية الغول المستقلة. اضطر فاسبازيان أن يرسل إلى الرين قائده الفذ بتليس سريانس على رأس قوة ضخمة، ليخنق هذا اللهيب المتأجج، وخوفا من القوات الشعبية وقف النبلاء الغوليون إلى جانب الرومان. "بعد عدة معارك نجح سريانس في إخضاع جرمانيا: أسفرت إحداها عن عدد ضخم من القتلى من الجانبين، وازدحمت الجثث في النهر المار في تلك المحلات"، هذا ما قاله باختصار ديون كاسيس بصدد نهاية هذا التمرد (٣،٦٦).

في العام ذاته قمعت فتنة البونت، التي نجح قائدها المعتق أنيسيت بداية أن نقل جزءا من تجهيزات أسطول البونت إلى منطقته.

انكبت حكومة فاسبازيان على تسوية شؤون أموال الدولة، التي دمرها تذيير نيرون وإسرافه وحروبه الأهلية، وأثار فاسبازيان الذي سعى بالبساطة والتواضع إعطاء المثل بالادخار، أثار غضب وسخرية المتملقين الفاسقين، وهزأهم أيضا من الضرائب الجديدة لتغطية الميزانية الهالكة: ضوعفت بعض الضرائب القديمة، ووضعت الرسوم حتى على المقابر والقبور وعلى آبار المراحيض وعلى المراحيض، ووضع أمام أنف ابنه تيتس كاره هذا التدبير قبضة من النقود وقال: "النقود لاراحة لها"، لكنها في نفس الوقت أزرت المدن والناس الذين دمرتهم الزلازل والحرائق، ففي روما لإيجاد عمل للشعب قامت أعمال الترميم لإتجاز الكابيتول وبدئ ببناء مدرج فلاقيان في مركز المدينة، يتسع لخمس وثمانين ألف مشاهد.

بهذا الصدد، اقتفى فسبازيان سياسة قيصر وكلود، وتوسع بإعطاء حق المواطنة لأبناء المحميات. وبعد منح ابنه الرقابة، أخذ لوائح بأعضاء مجلس الشيوخ والفرسان، وأضاف إليها عددا كبيرا من ممثلي الأسر الكبيرة الإقليمية.

وفي أثناء حكمه القصير الذي دام سنتين فقط (٧٩-٨١)، تابع تيتس سياسة أبيه. شقت الطرق من الأقاليم إلى روما، واستمرت الأعمال الكبرى العامة (أنجز الكولزيه)، وقدمت مساعدات واسعة لسكان الريف، الذين عانوا الكثير من ثوران بركان فيزوف الرهيب، الذي دمر بومبيه وكثيرا من المدن، في ٢٤ آب ٧٩.

وثالث الفلافيين، ابن فاسبازيان الأصغر دوميتيان، الذي حكم مدة أطول من مدة حكم ذويه، (٨١-٩٦)، مارس بحزم وجسارة السلطة المطلقة بفعل الدعم الواسع الذي لاقاه خارج إيطاليا. لكنه، بالمقابل، كان أكثر منهم تعرضا لعداء أصدقاء الماضي والوشاية، بعد موته المأساوي.

إكان طبع دوميتيان صعبا، تسلطيا وحذرا؛ اعتلى العرش بعد موت تيتس المبكر، اتخذ موقف التعاطف والإثارة بخاصة تجاه مجلس الشيوخ، طالبا أيضا أن يسمى "سيدا". وأبعد مجلس الشيوخ إلى الصف الخلفي تماما. واستبعد الفرسان، المتزايدون أكثر فأكثر في مجلس الشورى الإمبراطوري. ولتأمين نفقات الدولة الضخمة، استمرت جباية الضرائب بدون رحمة، باستيفاء الضرائب المتخلفة من كبار السادة وعلية الموظفين المعتادين على الإعفاء من أداء مستحقاتهم، وأنذروا إن لم يؤدوها تصادر ممتلكاتهم دون صخب؛ فراحوا ينادون "دوميتيان حيوان جارح" و"مبتز مغتصب". كانت أعمال حكام الإقليم خاضعة لمراقبة في غاية الحزم والحسم. وأظهر دوميتيان، هو أيضا، تسامحه الكبير في منح حق المواطنة لأبناء الأقاليم؛ إسبانيا كلها تلقت الحق اللاتيني. ولأول مرة، أرسلت الحكومة إلى مدن الإقليم "قيمين"، كان دورهم رعاية سعادة الناس في هذه المدن وتنظيم أموالها، كما كان الأمر في القرن الثاني.

كانت حكومة دوميتيان تسهر بكل عناية على حماية الإقليم من العدو الخارجي. فكسل القوايل المقاتلة محتشدة على حدود الإمبراطورية الأخطر، إلى الرين والدانوب، المعرضة أبداً لتهديد الغارات البربرية.

على الرين، دل الكات أنهم خطرون بشكل استثنائي. ففي العام ٨٣، أنزل دوميتيان،

على رأس ٤ فيالق، هزيمة قاصمة بالشعب الجرمانى، خلف معصمة قاسية جدا، في منطقة غابية ومستنقعية البلد الذي احتل هكذا بين الرين والمان مع "الحقول الدكمت" في أعلى الرين، الذي احتله فسبازيان، مساحة واسعة دفاعية، على ضفة الرين اليمنى. وعلى طول ٣٠٠ كم، جهزت هذه البقعة بأعمال تحصين مترابطة مع شبكة دروب قتالية وميادين المؤخرة المنيعه. هوذا أصل "المبادر" الجرمانوس-رتيان، الخط الدفاعي العظيم، الذي يغلق كل الحدود.

كان الدفاع عن الدانوب الأدنى يتطلب جهودا ضخمة جدا. ونتيجة اضطرابات ٦٨ و ٦٩، اعتادت أسراب من الخيالة الروكسالان أن تشن غارات خلف الدانوب. تضاف إلى هذه غزوات الداس *Daces* المتزايدة الآتية من ترانسلفانيا، منذ أن جمع أحد قادتهم، دكابل، تحت سلطته عددا كبيرا من القبائل. وفي العام ٨٧، أنزل الداس هزيمة نكراء بمحافظ الحاكمية كورنليس فوسكس الذي، على رأس جيش جرار، حاول التغلغل في بلادهم الجبلية والغابية، حتى سمرجنوذا، عاصمتهم. لقي الجنرال الروماني الهلاك على يد هذا الداهية، مع الشطر الأكبر من قواته. وقعت كل الأمتعة والأعتدة بين يدي الداس. وذاق الإمبراطور نفسه، الذي كان على الحدود، فشلا مرا، على يدي الداس وحلفائهم الكواد والمركومان. "كان هذا أول هجوم موفق للبرابرة على الإمبراطورية"، كما لاحظ ماركس في عمله "ملاحظات تاريخية" ^١ وأكره دوميتيان على عقد مع دكابل معاهدة تنال من مجد روما، إذ اشترى انسجامه بالمال والتزم بتزويد الداس بالسلاح، والمهندسين لتعليهم صنع أجهزة وإقامة استحكامات، مخصصة للعمل ضد الرومان أنفسهم.

إنما في الوقت ذاته بدئ، من الجانب الروماني، ببناء وعلى عجل، على مجرى الدانوب الأسفل، نهج استحكامات دفاعية ليست أقل مناعة مما على الرين. إن هذه الخطوط الحصينة (٦٠ قصرا شامخا مرتبطة بتكنة على اليابسة) هي ما يسمى اليوم "سور تراجان". ولتأمين أصلب دفاع، قسم إقليم ميزي إلى شطرين: الأعلى (صربيا الحالية) والأسفل (شمال بلغاريا ودوبوشجا). وخلق أسطول محارب على الدانوب.

لقد أسهمت هذه الأحداث بتسكير النزاع بين حكومة دوميتيان من جهة والأرسقراطية

^١ - ك. ماركس. ملخصات تاريخية. أرشيف كارل ماركس وف. إنجلز، المجلد الخامس، ص ٦.

المشيخية والأوساط الثقافية التي ارتبطت بها (الـ"فلاسفة") من جهة أخرى. وترجم غضبهم بداية إلى طوفان الخنازير البرية، والنكت والقصائد الهجائية الساخطة على الإمبراطور، والتي تذخر بها أعمال كتاب ذلك الزمن، تاسيت، مارتال وجوفنال. وانطلاقاً من العام ٨٠، شرع الغاضبون بحبك المؤامرات؛ رد دوميتيان على هذه التصرفات بنفسه العديد من كبار الموظفين، ثم بدأ قطع الرؤوس.

وفي العام ٨٨، وجدت المعارضة ضالتها في شخص شديد الخطورة هو أنطونيوس سارتوننس، سفير جرمانيا العليا، الذي أعلن نفسه إمبراطوراً، وحرص على التمرد فيلقين من حامية موغونتاكوم (ميانس)، وعقد حلفاً مع الكات، الذين أخضعوا حديثاً، وشعوب جرمانية أخرى، واقترح تجديد محاربة روما. ولمنعه من نهب إيطاليا من جديد، اضططر دوميتيان أن يوجه إلى الرين قوات من أسبانيا ذاتها والدخول شخصياً في عراك مع ساتورننس. ولقد حالت كارثة الرين دون انضمام هذا الأخير إلى الجرمان. وهنا وقعت صدمة دامية، قتل ساتورننس، وبدد جيشه فلولا، وتناقلت المذابح والإعدامات؛ وتلقى المتآمرون الكثير من مجلس الشيوخ الأظناء بتعاطفهم مع قضية سارتوننس.

انطلاقاً من العام ٩٠، تناقلت المؤامرات، ولجأت حكومة دوميتيان إلى الإرهاب. كانت علاقات الدساسين، الجبناء والمبتزين، تمكن من فبركة دعاوى غريبة، أفضت إلى زج كثير من الأبرياء. كان دوميتيان قاسياً جداً مع "الفلاسفة"، لأنه رأى فيهم إيدولوجيي أعدائه: فنفي من روما الأديب الكبير ديون كرزستوم والأبيقوري أبيكتير. واضطهد أيضاً اليهود "والمسيحيين" الذين بدأوا ينفصلون عن تجمعاتهم، لأن نظرياتهم أفضت إلى تهويد العديد من الوثنيين من أسر المعارضة النبيلة وحتى البلاط.

في العامين ٩٥ و٩٦، ارتدى الصراع عنفاً جعل دوميتيان يشعر بأنه وحش مطارد. فلم يعد في طمأنينة حتى في قصره؛ فأمر بإقامة سقوف وجدران زجاجية في الغرف التي يعيش فيها، ليتسنى له أن يلاحظ دوماً ما يحدث حوله وخلفه. وفعلاً حكت المكيدة في محيطه المباشر، والإمبراطورة ذاتها، دومتيا لونجينا، ابنة كوربلون، اشتركت فيها، مع محافظي الإمبراطورية وكبار موظفي البلاط. وفي أيلول ٩٦، قتل دوميتيان في غرفة نومه.

كتب سويتون "إن مجلس الشيوخ، كان في قمة الغبطة. واجتمع زمراً ومزق ذكري الأمير الميت بحقد لا مثيل له. ونزع شعاراته وصوره" (دوميتيان، ٢٣).

الفصل الثاني والستون

الإمبراطورية في عهد الأنطونيين

"العصر الذهبي" للإمبراطورية الرومانية؛ الأنطونيون الأوائل.

إن العمل الذي بدأه الفلافيون لإعادة تنظيم الدولة لتكون ملكية مطلقة من نمط جديد، مستندة إلى كل شرائح مجتمع العبودية في عالم البحر المتوسط، استعاده خلفاؤهم الأنطونيون (٩٦-١٩٢). فكانت العصور الأكثر تألقاً في تاريخ الإمبراطورية الرومانية والمسماة "العصر الذهبي".

والتعبير نفسه لحكم أسرة الأنطونيين اصطلاحاً تماماً: فقد اعتادوا هذه التسمية لسلسلة من الأباطرة الرومان للقرن الثاني، الذين حكموا بالتتابع المباشر: نيرفا (٩٦-٩٨)، تراجان (٩٨-١١٧)، أدريان (١١٧-١٣٨)، أنطونين (١٣٨-١٦١) مارك أوريل (١٦١-١٨٠) وكومود (١٨٠-١٩٢). باستثناء الأخيرين (كان كومود ابن مارك أوريل)؛ كانوا قد سموا باسم جدودهم، الذين اختاروهم من الأشخاص الأشهر والأقدر في محيطهم، وتبنوهم في حياتهم، فخلفوه في السلطة، وحتى هذا الاسم الجماعي أنطونين، تلقوه بعدئذ، ليس نسبة لأولهم، بل نسبة إلى رابعهم، الذي رأت السلالة أنه الأشهر ولقب أنطوان التقى. وعدا نيرفا، الذي ينتسب إلى أسرة قديمة مشيخية رومانية، يمثلون جميعاً هذه السمة المشتركة أي النبل الإقليمي، وكانوا جميعاً (عدا الأخير، كومود) رجالاً من خارج الذرية، منظمين وإداريين رائعين، في مقامهم السني، يحسبون أنفسهم في خدمة الدولة في التفضيل الواسع الذي أخذه هذا التعبير منذئذ. وبمراقبة الأشكال الخارجية للاحترام تجاه المؤسسات الحكومية الرومانية القديمة ومجلس الشيوخ بخاصة، كانوا ملتزمين بوضوح في درب التسلسل، الذي كانت الأقاليم قد اعتادته منذ زمن، وحكموا "حكماً استبدادياً" فعلياً، على هواهم. ففي مجال السياسة الداخلية والخارجية، كانوا يسلكون نوعاً ما كمؤسسي سلطة طبقة مالكي العبيد في حوض المتوسط كله، وهي السيد الجديد للإمبراطورية الرومانية منذ الحرب الأهلية ٦٨-٦٩.

كان أول هذه الأسرة الحاكمة م.كوسيس نيرفا، الشيخ المسن ابن السبعين سنة، استثناء بينهم لقبه الرئيسي في عين أقرانه الذين رفعوا إلى سدة الحكم يأتيه من اشتراكه في ثورة القصر للعام ٩٦، الذي انتهى بدوميتيان. ونيرفا حسب تعبير تاسيت، "وفق ما بدا محالاً منذ زمن؛ بين امتيازات الأمير وحقوق الشعب الحر" (حياة أغركولا، ٣). أقسم رسمياً أن لايعدم أي شيخ. توقفت دعاوى الطعن أو القذح برأس السلطة، واستمر النمامون وكانت ضحاياهم لاتعوض. واستعادت المنتديات الأدبية نشاطها؛ وفي هذا العصر كتب تاسيت عمله الأول "حياة أغركولا"، حيث يحيي "فجر هذا القرن السهني". وقد غمر الشاعر مارتيا نيرفا بالمديح: "هو ليس سيّداً، إنما امبراطور وأعدل الشيوخ" (١٠، ٧٢). لكن حكومة نيرفا المشيخية اصطدمت بريب الجيش العادية، واضطر إلى اختيار وتعيين وريثه، أحد أبرز قادة تلك الحقبة، سفير جرمانيا م.أوليبس تراجانس، الذي تفرد في أثناء قمع تمرد ستورننس. وبعد أربعة أشهر من موت نيرفا، صار تراجان امبراطوراً.

كان تراجان (٩٨-١١٧) ابن بيتيك، الإقليم الأسباني الأقرب إلى روما. وكان أول إمبراطور من نبل إقليمي فتح الفلافيون أمامه الباب واسعاً للوصول إلى السلطة أو، كما يقول ماركس "... أول غريب يعتلي عرش روما" بفضل بروز طاقاته القتالية والإدارية، مضافة إلى تصرفات بسيطة، مستقيمة ومحبوبة. كان تراجان آنذاك في الثانية والأربعين من عمره، اكتسب شعبية عريضة في أوساط الشعب والجيش ثم، سمي رسمياً "خير الأمراء". في عمله الحكومي، كان تراجان يحاول ترتيب ليبرالية نيرفا وتوفيقها مع استحقاقات السياسة الداخلية والخارجية لدوميتيان والفلافيين بعامة. وبرهن على تسامح واسع تجاه الأقالي، وبخاصة، المدن الإقليمية. في عهده رأينا الإقليميين يرفعون أمام مجلس الشيوخ أو المحاكم العادية دعاوى ضد حكامهم أو أتباعهم، يطالبونهم الحساب عن ابتزازاتهم والامتيازات التي خصوا أنفسهم بها، والقمع والسلب. وتطورت تطورا واسعا مؤسسة الوصاية، التي عرفت في أيام دوميتيان: لاتكون التسمية للمدن فقط بل للمنطقة بكاملها. وكان الإمبراطور المطلع على أدق التفاصيل الإدارية الإقليمية، يطلب تقارير معللة ويسجل هو نفسه التدابير الواجب اتخاذها. وماتزال محفوظة المراسلة بين تراجان وسفير بثينيا-

^١ - ك.ماركس، ملخصات تاريخية. أرشيف ك.ماركس وف.انجلز، مجلد ٥ ص ٦ (منشورات روسية).

بونت، بلين الشاب، حيث ناقشا، فيما بينهما، بعض القضايا المحلية، مثل بناء مسابح عامة في أمازيا، وخلق مؤسسة إطفائيين متطوعين في نكوميديا، والنفقات السنوية للبيزنطيين وإرسال رسائل تهنئة لإمبراطور ميزيا وحاكمها.

كانت إيطاليا التي يتفاقم قنوطها مع تناقص استثمار الأقاليم، تسبب، هي الأخرى، كثيرا من المتاعب للحكومة. وقبل غيرها من أجزاء الإمبراطورية الأخرى، راحت تتظاهر فيها علامات تفكك النهج الاقتصادي المبني على العبودية، كما تشهد رسالة بلين الشاب الذي أدان مبكرا جدا استغلال عمل الكادحين الأحرار. وترك التراجع المتزايد في الزراعة الإيطالية قلقا عميقا: ولعلاج هذا التدهور الزراعي، صدر قانون يفرض على الشيوخ توظيف جزء من ثروتهم في صناديق تعاونية، ورصدت الحكومة، لمساعدة صغار ومتوسطي المزارعين، مبالغ معتدلة ٥%، من أموال الخزينة.

اتخذت تدابير تهدف دوما عرقلة إفقار إيطاليا. وأحدثت صناديق التعليم اليتامي حتى السادسة عشرة واليتميات حتى الرابعة عشرة. وفي روما حيث بديء بتوزيع هذا النوع من الإعانات منذ بداية عهد نيرفا، كان المستفيدون بحدود خمسة آلاف. وفي عهد تراجان، شمل التعليم الابتدائي كل إيطاليا. وحسب الرقيم الذي وصلنا، من فاليا، ساعد من هذه البلدة الواقعة في شمال إيطاليا ٢٨٠ فتى. واقتفى الأغنياء خطوة الحكومة، وشيدوا الكثير من هذه المؤسسات المجانية في إيطاليا والأقاليم؛ بلين، مثلا، وهب خمسمائة ألف سستر، كونها، مسقط رأس، وأعطى كاليا ماكرينا لترسينا مليون سستر، وأهبا فوائد هذا لمبلغ لتربية ١٠٠ صبي.

تابع تراجان بنجاح واسع سياسة الفلاطين الخارجية الخلاقة، الدفاعية أساسا، لأنها كانت تهدف الدفاع عن الأقاليم المعرضة للغزو، لكنها في حال النجاح لا ترفض توسيع حدود الإمبراطورية. لقد دخل تراجان التاريخ كآخر منتصر روماني.

مهمتان كبيرتان عسكريتان فرضتا على حكومة تراجان؛ الدفاع عن حدود أسفل الدانوب ضد الداس *Dase*، الذين تنامي قوتهم أكثر فأكثر، والثانية التصدي للحملات الشرقية، على الفرات، حيث كانت إمبراطورية البارث لا تكف عن تشكيل خطر محقق. حقق أهم وأول هذه الأهداف بغزوين قاسيتين ضد الداس (١٠١-١٠٢ و ١٠٥-١٠٦). وبعد الإعداد الضخم، شق طريق حربي على طول الدانوب، بناء جسر حجري على

النهر بـ"أبواب حديدية"، حشد جيش جرار من ١٢ فيلقاً، بدأت القوات الومانية زحفها المحترس والتدريجي في قلب داسيا. وبعد الاستيلاء على عاصمتها سرمزجتوزا، حاول دسبال لفت انتباه الرومان إلى مجنبتهم، بغارة تدميرية لميزيا. لكن تراجان نفسه اتجه، بالقوات الرومانية المتحركة، لنجدة مواقع الدانوب الأسفل المحاصرة، ثم بدأ الهجوم على داسيا وأخضعها حتى سفوح جبال الكربات الجنوبية. فانتحر دسبال وقادة الداس الأخرون، وأباد الرومان جزءاً من هذه الأمة، ولجأ من فاته الموت إلى ما وراء الكربات. وعاد البلد المدمر إلى محمية رومانية، وبناء على دعوة الحكومة توافدت إليها جمهرة من إيطاليا الشمالية، من دلماسيا، وثراسيا ومن آسيا الصغرى، مساهمين بإكسائها باللباس الروماني سريعاً. لقد أغرت ثروات داسيا الباطنية، هذه الجيوب الذهبية الشهيرة، مارست جذباً فريداً، وفتح عدد كبير من مناجم الدولة أو الخاصة في هذه المحمية.

أتخمت ثروات داسيا الخزينة الرومانية وسمحت بتمويل برنامج الأعمال العامة المكلفة جداً الذي وضعه تراجان. دعم الحصن بثلاثة أسوار حجرية رفعها دومتيان في ميزيا السفلى. وبنى على ضفاف الدانوب الأسفل ميدانين جديدين لفيالقه التي تحرس نقاط العبور الخطرة. وعلى ضفة الدانوب اليسرى، في مولدافيا وبساربيا، أقام الرومان العديد من رؤوس الجسور المنيعة على طول بروث، دنستر وسرث التي سميت هي الأخرى باسم تراجان. ويثبت اسم هذا الامبراطور الذي يصادف في تقاليد السلاف القديمة اتصالاتهم الأولى مع الرومان في تلك الحقبة.

أعد تراجان بكثير من العناية الحرب ضد البارث الذين، في النزاعات الماضية، كبذوا الامبراطورية الرومانية خسائر كبيرة. فمفد العام ١٠٥ و١٠٦، احتل سفير سوريا كورنليس بالما بمبادرته شبه جزيرة سيناء ومساحات واسعة من الأرض بين فلسطين والصحراء العربية، التي شكلت الإقليم العربي الجديد مع مدينتي البتراء وبصرى. من هايتن المدينتين يعبر الطريق الكبير الذي يربط دمشق بالبحر الأحمر، وتحميه تحصينات "الحدود العربية". بدأت الحملة ضد البارث، التي كان باعثها كالعادة الخلافات بين الدولتين حول موضوع أرمينيا التي يرغب ملك البارث تسليم تاجها لابنه، بدأت في العام ١١٤. احتل تراجان، حليف ملكي القفقاس في كولشد وإيبيريا (جيورجيا)، كل أرمينيا وولج ما بين النهرين، وهو يعبر مجرى دجلة، استولى على عاصمتي البارث، سلوسيا وستسيفون ووصل إلى "محيط"

أي الخليج العربي. وأنفذ دخلت الإمبراطورية الرومانية بتماس مباشر مع حضارتي الشرق
الخالدين: قبيل هذا، كان الجنرال الكبير الصيني بان تشاو قد سحق فلول هونغ فو واحتل
تركستان، وخيمت طلائعه على الضفة الأخرى للخليج العربي. وأسست على أنقاض
الإمبراطورية البارث ثلاثة أقاليم رومانية هي: أرمينيا، ما بين النهرين، وآشوريا. وكثيرا ما
حلم تراجان باحتلال الهند.

لكن كما كان الأمر مع الإسكندر المقدوني، فالصعوبات التي تجعل الحملة شبه محالة،
لم تتخلف عن ذر قرنهما. كانت خطوط التموين والتواصل في ذلك الزمن بعيدة وكأداء.
والشعب إجمالا لا يمثل كتلة سلبية يمكن إخضاعها وتمزيقها بسهولة. وإن استقبل اليونان،
الكثير في المنطقة، تراجان بحماس، كما فعلوا مع الاسكندر، وأظهر الإيرانيون لا مبالاة بهم
بنظامهم الاستبدادي، فالعرب واليهود، المشتتون هنا وهناك بعد دمار فلسطين، خاضوا
بحزم الصراع ضد الغزاة الرومان. وفي إديس، سلوسيا ومدن أخرى مما بين النهرين،
شبث التمردات، التي قمعت بالحديد والنار، وأغرقت بالدماء. وعلى شواطئ البحر
المتوسط، في مصر، في بنغازي، في قبرص، نشبت انتفاضات أعنف وأشرس: حيث ذبح
الرومان واليونان بعشرات الألوف. واضطر تراجان نفسه أن يعترف أن انتصاراته في
الشرق كانت مكررة جدا، ترك مساعدوه يتمون عمله، وقرر الرجوع إلى روما ومات على
درب العودة، في آسيا الصغرى، في العام ١١٧.

أدريان وأنطونين الورع

أ.ب. إيلين أدريانس (١١٧-١٣٨) خلف تراجان. ومن أصل إسباني مثله، كان أدريان،
العسكري المحنك، رفيق تراجان ومساعدته في كل الحروب. وكان في الوقت ذاته رجلا
اتقن ثقافة عصره إتقاناً شاملاً. "كان أدريان رقيقاً على كل ما يشد الفضول" وذا معرفة
موسوعية، وشاعراً، وموسيقياراً ورساماً موهوباً، ونحاتاً معمارياً، رحالة لا يتعب، جوالاً
أبداً ليرى بعينه كل المناطق الشهيرة. طبيعة متبحرة إلى أبعد حد، يرغب فسي أن يكون
الأول في كل مجال ولا يسمح لأحد أن يتفوق عليه بشيء. في السياسة، كان أوتوقراطيّاً
حتى الصميم، يرغب في فعل كل شيء بذاته: "إرادة العاهل هي القانون الأعلى" (دجست،
١، ٤) - كان هذا هو مبدأه الأساسي طيلة فترة حكمه. في تطوافه الدائم في كل الأقاليم، من
بريطانيا حتى سوريا ومصر يشعر الآخرين برقابته وسهره الشخصي على الإدارة الإقليمية
وأحوال القيادات العسكرية.

أتقن هذا الإداري الصبور والمتسلط نهج الأرستقراطية الإمبراطورية الذي أرسى أسسه كلود ودوميتيان. جعل الخيالة شريحة من الموظفين الفعليين، منهم ينتقي أتباعه المتنفذين. لم يعد الإحصاء إلزاميا، ويسمى أدريان أيضا المهام المدخرة لصنف الفروسية، بعد عدة سنوات من الخدمة في الإدارة. ومجلس الإمبراطور، مؤلف من أشهر المشرعين، رئاسة المحافظ الإمبراطوري الذي كان في تلك الحقبة عادة، هو الآخر، فقيها كبيرا، يناقش ويعد تقارير لكل الشؤون الهامة، قبل أن تخضع لقرار الإمبراطور. وبأمر من أدريان، يجمع عضو من المجلس، سلفيوس جوليانس، في مؤلف واحد أوامر الحكام مرعية الإجراء، التي تشكل "الأمر الدائم". وبعد اطلاع الإمبراطور وموافقته، يصير هذا المؤلف شريعة الإمبراطورية الأساسية، التي يدخر الملوك احتكار إتمامها. وتقتضت صلاحية القضاة السالفين-أي الحكام وقيمي المدن، وشكلت محاكم جديدة مؤلفة من موظفي الحكومة، سموا "قضاة"، موضوعيين برقابة محافظ المدينة، الذي يسميه الإمبراطور. يتميز هؤلاء الموظفون حسب تصنيفهم بألقابهم ونعوتهم التشريفية: صاحب سمو، كلي السعادة، نبيل المولد وبفصيلة الهندام وتسريحة الشعر (زركشة الثوب، وعصبة الجبين، إلخ).

على منوال الفلافيين، رتب أدريان اقتصادا حازما بالأموال. ولهذه الغاية ألغى كليا النظام القديم لتلزييم جبرية الضرائب. ونظمت جباية المداخل الواسعة للإمبراطورية بعناية فردية جدا. ولإدارة هذه المجالات الزراعية الواسعة، ألقى أدريان نهجا خاصا يطور ويحدد التعليمات المعطاة في أيام الفلافيين بهذا الشأن. واستنادا إلى النصوص، كانت هذه الأملاك تؤجر لخمس سنين لمتعهدين كبار، وهم بدورهم يؤجرونها، أسهما صغيرة، لـ"مستوطنين" يؤدون ما عليهم نقدا أو عينا، ويعملون ستة أيام في العام بدون أجر (سخرة) على الأرض التي يخصصها المراقب لنفسه. ويحق للجميع إشغال أرض موات لكن بشروط. وتنظم نصوص مشابهة استثمار مناجم الدولة ومشروعاتها الأخرى. يفرض على الحكام ممارسة رقابة حازمة على العلاقة بين المتعهد أو المراقب وبين المستوطنين، وقد أوجدوا لدى الإدارة المركزية مهمة محامي الخزينة، الذي كان نوعا من الفقهاء، ملتزما الدفاع عن الخزينة الإمبراطورية أمام المحاكم. ويجب أن تتم المراقبة المالية في أجهزة ومؤسسات الحكومة كل ١٥ سنة.

إن سعة عمل أدريان الإداري، الهادف صهر الإمبراطورية الرومانية الشاسعة في كل

عضوي، أسفرت عن إرجاء المهام العسكرية. كانت حكومته تفضل العمل الدبلوماسي الماهر والمرن. هكذا، لإنهاء حرب الشرق، تخلى تراجان عن فتوحاته فيما بين النهرين وانسحب إلى تخوم الفرات القديم، الأمر الذي أغضب كثيراً بعض رفاقه في السلاح بل وأعدام العديد منهم. لكن وعيه للخطر المتفاقم في الخارج، جعله ينظم الجيش بشكل مثالي. خلق تجريدات خفيفة، مؤهلة للاستطلاع والمناوشات على الحدود. وجهز الجيش الروماني لأول مرة، على نمط السرمات والبارث، بألوية من الخيالة الثقيلة، مسلحة بالدروع. وأولي تحصين منطقة حدود الدانوب والرين عناية خاصة وضخمة. وفي بريطانيا، شيد من بحر إلى آخر "جدار أدريان" الجبار، والذي ما يزال قائماً في شمال انكلترا.

كانت القوات المسلحة ضرورية أيضاً لقمع الاضطرابات الداخلية والتمردات التي بدأت تأخذ طابعاً خطراً أكثر فأكثر. وقد قسى أدريان أكثر من تراجان على الشعب اليهودي المتمرد. وتضاف حتى منع إقامة محفل السبت، وأقام في مكان القدس المستوطنة الرومانية إيليا كبتولينا، ورفع معبداً لجوبيتر في نفس مكان معبد يهوه. أثار هذا العمل تمرداً جديداً أكثر عنفاً من سابقه، فقد تمرد سكان فلسطين اليهود، بقيادة زعماء كفاء - الكاهن العازر وسيمون المسمى باركوشبا "ابن النجم"، الذي يراه اليهود مسيحياً *Messie*، أرسله الله لإنقاذ الشعب المختار". وفي بداية الخمسينات من القرن العشرين، عثر في كهف مجاور للبحر الميت على رسالة موثوقة من ابن النجم إلى قائد قوة متمردة. استولت الجمهورية الناضبة على إيليا كبتولينا، وذبح المستوطنون الرومان عن آخرهم. وتوجب موور ثلاث سنوات (١٣٢-١٣٥) لقمع تمرد أهالي يهودا الثاني. وبنفس أساليب التقدم البطيء، كان الرومان يبيدون كل من وجدوه في دربهم، حتى أخضعوا هذا البلد البائس للسلطة. وعادت فلسطين صحراء. ومنع من بقي حياً من السكان اليهود زيارة القدس، سوى مرة واحدة في العام. واضطروا لوضع حامية من فيلين جاهزين لاستتباب "النظام" في هذه المدينة، الذي لم يضطرب بعدئذ.

لقد اعتبر عهد أنطونين (١٣٨-١٦١)، خليفة أدريان، لدى الطبقة السامية في مجتمع روما وكل حوض البحر المتوسط، حقبة الازدهار الأولى في الامبراطورية الرومانية، ولدى الامبراطور نفسه الملك المثالي. لهذا السبب بقيت صفة "الورع" مرتبطة تقليدياً باسمه. مثل تراجان، وأدريان، ممثلي الشريحة العليا من النبل الإقليمي، كان أنطونين أحد

أبناء أسرة أوليس نربون، الغنية والشهيرة، التي امتلكت أطيانا شاسعة في الغول وإيطاليا. كانت العلاقات طيبة ومستقرة بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ، المؤلف منذ الآن بمجملة من الأغنياء الإقليميين مثله. عادت إدارة إيطاليا إلى مجلس الشيوخ (في عهد أدريان، كان يحكمها قناصل يسميهم الأمير)، وكان هذا الأخير شريكا بإدارة الأقاليم والسلطة التشريعية؛ ولم يعدم أي عضو من مجلس الشيوخ طيلة عشرين عاما. وكان هم الإدارة الأساسي تسوية أمور المال وشؤون المحاكم. قال ماركس واصفا حكومة أنطونين: "في عهدهما ازدهرت المحميات، ووضع حكامها تحت مراقبة حازمة".¹

لكن الواقعة المتميزة في إنهاك روما المستمر، هي رفض الأمير بعناد أي غزو خارجي. "كان أنطونين يفضل حياة أي مواطن على أن يقتل ألف عدو"، كتب أحد كتّاب سيرته. وكان يسعى لترسيخ وضع روما بتسليم عروش الدول الحدودية لدمى وإمعات رومانية. وهكذا أعطى عرش البوسفور لرومتالسي، الذي يأتي إلى روما ملتصبا هذا الفضل. وتراجعت الحروب إلى عمليات حدود ضيقة في بريطانيا، حيث وسع الرومان أرضهم ١٠٠ كم نحو الشمال، وعلى الرين. وعلى ضفاف البحر الأسود الشمالية، وأجزاء من القوقاز الشمالي، القائمة في مدن البنت الأغريقية، وبخاصة، في أولبا؛ لكن قوات ميزيا الرومانية سارعت لموازة هذه المدينة الأخيرة وحالت دون نهبها.

وفي أمكنة كثيرة تمت أعمال تحصين دفاعية جبارة وبخاصة على الحدود، كـ"جدران أنطونين" (المصانة حتى الآن في بريطانيا). وقد سارع الإمبراطور الروماني، لدى إحساسه بنفاذ ديناميته الدفاعية، وأغلق أهم حدوده، في وجه العالم البربري الواسع المحيط به.

شارفت "حقبة السلام الروماني الطويلة" على الانتهاء؛ وأفل "العصر الذهبي" للإمبراطورية الرومانية في بداية النصف الثاني من القرن الثاني. وبعد موت أنطونين الوريث في العام ١٦١، وجدت روما نفسها في وقت واحد أمام إمبراطورين، مار أوريل ولوسيس فيرس. ابن الميت المختار. ولقد استبعد الانشقاق بين الحكام هذه المرة بفضل،

¹ - ك. ماركس: ملخصات تاريخية، أرشيف ماركس وأنجلز، المجلد الخامس، ص ٦ (منشورات روسية).

ولاشك، شخصية مارك أوريل الفذة، هذا "الفيلسوف الملك"، كما دعي في القديم، مؤلف كتاب بعنوان "لذاته"، أعظم أبدة من الفكر الرواقي القديم. ورغم عجز زميله التام، احتمل مارك هذه الثنائية بالسلطة طيلة ثماني سنوات، أي حتى موت لوسيس فيرس في العام ١٦٩. لكن هذا الاقتسام للخطر للسلطة بين إمبراطورين يحكمان معا كثر جدا.

لقد تلا "السلام الروماني" الطويل الذي ميز عهدي أدريان وأنطونين عهد جديد من الحروب، يوم وجدت روما نفسها من الآن في خط دفاعي. إذ كان يمارس ضغط عنيف في وقت واحد على القطاعين الأخطر للحدود الرومانية، الفرات والدانوب. وفي العام ١٦١، غزى ملك البارث فولجير اعتمادا على قلة خبرة خلفاء أنتونين وعلى البلبلة التي امل وجودها بينهم، غزا أرمينيا، وطرد من العرش صنيعة الرومان، سومموز، ووضع مرشحه مكانه. ودحرت قوات الحكام الرومان التي حاولت المقاومة في كبادوس وسوريا، وانتشر البارث كالشلال في سوريا. فاضطر حكومة مارك منذ أيامها الأولى تقريبا أن تحشد كل جهودها في تجهيز حملة إلى الشرق دامت أربعة أعوام بالتام (١٦١-١٦٥). وكانت بداية هذه الحرب سعيدة جدا لدى روما.

نظفوا سوريا وأرمينيا من البارث، وتغلغلوا بقيادة أفديس كاسيس، حتى اعماق مابين النهرين، ومرة ثانية في التاريخ، استولوا على عاصمتي البارث، سلوسي وستسفون (فسي هذه الأخيرة أحرقوا القصر الملكي). لكن مارك أوريل لم ينجح بتسوية قضية الشرق نهائيا: إذ لم تعد القوات الرومانية تكفي للنهوض بهذه المهمة. فضلا عن جائحة الطاعون التي أضعفتها وانتشرت في أصقاع الإمبراطورية. غطت القوات الجاهزة في الشرق حدود ميزيا، وتفاقم ضغط شعوب شرق الدانوب. لهذا السبب وقع الصلح مع البارث في العام ١٦٦. أخلى الرومان ما بين النهرين، وحافظوا على رأس جسر على ضفة الفرات اليسرى.

وفي العام ١٦٨، اجتازت الشعوب الجرمانية الدانوب: الماركومان، الكواد، والفاندال، التي انضمت إلى سارمات-إيازيج، متجهة إلى الإمبراطورية الرومانية التي أضنتها الحرب، والطاعون والجوع. وخرق سور الدفاع الروماني في الأقاليم الشمالية الأربعة: ريتيا، نوريك، بانونيا وداسيا. وفتحت عنوة معابر الألب الحصينة ودمرت كل ما وجدت في دربها، وانتشرت في فينيسيا وحاصرت أكيلي. وحشدوا بسرعة كل القوات الجاهزة،

وجندوا بعض المصارعين والعبيد، فاضطر الامبراطوران للتعرض شخصياً لهذا الخطر الداهم الآتي من المركومان. فأجبر مارك أوريل على قضاء ماتبقى من عهده على الحدود الشمالية، ساعياً إلى دحر المركومان، الكواد والإيازيج إلى وراء جبال بوهيميا والكاريبات ليحمي الامبراطورية من هذه الجهة بهذا الحصن الجبلي الجبار وسد طريق الغزاة. وهكذا استقرت القبائل البربرية، الراغبة في خدمة الرومان، على طول الحدود، الأمر الذي أدى إلى انتشار الروح البربرية في الجيش الروماني.

وفي هذه النقطة أيضاً، لم يستطع مارك أوريل إنجاز عمله. بدأ الدفاع الروماني ينذر بالخطر من كل الجهات. وصار الوضع قلقاً في بريطانيا وعلى الرين. وكانت إسبانيا معرضة لغزوات القرصان البربر من موريتانيا. ونشبت انتفاضات واضطرابات في الأقاليم الشرقية. وفي مصر، كان الرعاة المتمردون، الذين لجؤوا إلى الجزر المستنقعية والمنيع في الدلتا، قد دمروا جيشاً رومانياً ومشوا إلى الاسكندرية، بقيادة الكاهن إزودور. وفي سوريا، كان الحاكم الروماني، أفديس كاسيس، بطل الحرب ضد البارث، قد رفع راية التمرد وأعلن نفسه امبراطوراً. فاضطر مارك أوريل سحب قوات من الدانوب على عجل للتصدي لكاسيس. لكن هذا الأخير، تخلى عنه أنصاره، وقتله ضباطه. وازداد الوضع تعقيداً بموت مارك أوريل بالطاعون، في العام ١٨٠، في فيينا، أمتع نقاط الدانوب، حيث كان يعد حملة جديدة ضد الموكومان.

تفاقمت الأمور أكثر، طيلة ١٣ سنة وهي حكم كومود (١٨٠-١٩٢)، ابن مارك أوريل؛ وتبدى الانحطاط في بلاط السلطة المركزية. وكومود، الرجل الفظ، التركيبية الحية لأبيه، ماكان يرتاح إلا بين المصراعين تاركاً محظييه ومخطياته يحكمون مكانه. مع أن هؤلاء كانوا قد قتلوا عدداً كبيراً من رفاق سلاح أبيه ومزقوا إدارة الامبراطورية. أوقف كومود الحرب ضدالجرمان، بعيد مجيئه، لأنه كان راغباً عن التضحية بمسرات حياته في العاصمة لقاء أي أمر خطر. وفي ٣١ كانون أول ١٩٢، خنقه ندماءه في غرفة نومه.

هكذا انتهت أسرة الأنطونيين و"العصر الذهبي" للامبراطورية، كاشفاً عن إمارات الضعف السياسي لنذير شؤم. ولاحت في الجو بوادر أزمة أكثر خطراً في وضع الدولة الداخلي. كانت هي التي حددت، الانهيار، إجمالاً.

الفصل الثالث والستون

العلاقات الاجتماعية والاقتصادية

في القرن الثاني الميلادي

أعراض الأزمة

لقد نجم الضعف المتماذي في الإمبراطورية الرومانية في نهاية القرن الثاني، في شطره الأبرز، عن فقر إيطاليا، مركزها الدائم. لم يكن الاقتصاد الإيطالي متطوراً، لأنها اعتادت الحياة على ثمار نهب الأقاليم. ولم يتكون فيها، كما في اليونان والشرق. مراكز مهنية ضخمة. بل استمرت صناعة الخزف الفني القديم في أرينيوم، وحتى الأتروسك، مزدهرة لبعض الوقت، في القرن الأول، وكذلك غزل الصوف في مدن شمال إيطاليا وصناعة بعض المعادن، الأتية من اليونان (البرونز والحديد، والفخار والآجر في كامبانيا (في كيمس وبومبيه، مثلاً). لكن هذه الورشات الصغيرة كانت تخدم بخاصة الزبون المحلي، وماعدا صناعة الفخار في أرينيوم، استبعدت أيضاً في القرن الثاني أمام منتجات ورشات الغولوا، ولم تعد تلقى منافذ تصريف خارجية.

في القرن الثاني، انتقلت الزراعة الإيطالية من الازدهار إلى البوار: وكان الأباطرة قد تراجعوا ليكرهوا أعضاء مجلس الشيوخ على شراء الحقول واضطروا للنضال ضد محاولات تطوير المراعي على حساب الحبوب والأشجار المثمرة. كان بليين الشاب، معاصر تراجان، يشكو باستمرار في رسائله خراب المالكين الصغار والمزارعين، وينسبه لـ "سوء الزمن". ويرثي الانخفاض العام لقيمة الأرض: إن الحقل الكبير الذي كان سعره لا يقل عن ٥٠٠ ألف سسترن، هو الآن بأقل من ٣٠٠ ألف.

رغم صدور عدد من القوانين لدعم الأسر عديدة الأفراد، لم تكف نسبة المواليد عن الانحدار، واضطر كل أباطرة أسرة أنطونين إلى بسط أكثر فأكثر نهج "المؤسسة الغذائية". وفي المجتمع الرومانو-إيطالي، برزت اللامبالاة السياسية، والهرب من التزاماتها

الاجتماعية، وبخاصة، الخدمة العسكرية، وتقهر الحياة الخاصة، والكل يترافق بانحطاط أخلاقي عميق، وتسبب معنوي رهيب. وبالتالي، عزفت روما، يعني إيطاليا، عن تبوء مركز الصدارة، أمام أمصار الإمبراطورية الرومانية الشاسعة. ولم تعد سوى طفيلي أعرج، يقبع في أعلى مستويات الشراهة.

بالعكس، في الأقاليم، في أيام الأنطونين، أدركت الحياة الاقتصادية والثقافية أوجها. وكان الشرق قد أبل من أضرار سيللا، لوكيلس، بومبيه، قيصر، بروتس وكاسيس الرهيبة. وبعثت إلى الحياة مجددا المراكز الصناعية والاقتصادية في بيثينيا، بيرغام، سوريا ومصر، بمهنها الباذخة المتطورة-كالأنسجة والسجاد. أوراق البردي، والعطور والخزف الفني، وغيرها.

نمت بل ازدهرت صناعة الخمور في جزر بحر إيجه، والزيتون، والزراعة الصناعية، لكن الأقاليم الغربية بدأت تزاحم الشرق. ففي الغول وفي جرمانيا الغربية (على شواطئ الموزيل)، حدد اتساع استخدام اليد العاملة العبدية انطلاقة اقتصادية واسعة: تحول الكثير من الأرض إلى زراعة الكروم وعنباً أمر دومتيان بقلع نصف الأشجار لأن لاتزاحم مصانع النبيذ في غول وموزيل مثيلاتها في إيطاليا. وفي غول، بخاصة في الميدي، وضفاف الرين، ولدت أيضا مراكز ضخمة للصناعة الحرفية: تعدين، نسيج، خزف، زجاج، التي انتشرت منتوجاتها في كل أوروبا الوسطى، وبريطانيا وأسبانيا. وأضحت أقاليم الدانوب، وبخاصة، بانونيا وميزيا، أهراءات روما الجديدة، التي لا تقل وفرة عن سييليا. وخطى التعدين خطوات واسعة في إسبانيا، حيث استخرج بكميات كبيرة الذهب، الفضة، النحاس، الرصاص والقصدير. وكانت نوريك¹ شهيرة بحديدتها، وداسيا بذهبها. وأنشئ عدد كبير من المدن العظمى: لندن، نربون، ليون، تريف، فيينا وغيرها في أفريقيا. وارتفع عدد منها إلى مصاف المستعمرات الرومانية، وحصل سكانها على حق المواطنة، وصار غيرها بلديات، وثالثا كغالبية الحاضرات اليونانية، كانت تتمتع بالاستقلال وتعتبر "أحلفا" أو "أحرار".

وتكرس العديد من الأقاليم ومدنها العظمى للمبادلات الاقتصادية المتزايدة ازدهارا،

¹ - إقليم قديم في الامبراطورية الرومانية يقع بين الدانوب والألب الكرني-المترجم.

مستعبدة إيطاليا المفتقرة والمنحطة، لا بل عابرة إلى توسط المفاوضات، مع رجال الأعمال الرومان. وكانت التجارة الخارجية كلها بين يدي تجار إقليميين. وبدأ التجار اليونان والسوريون أسفار عمل طويلة إلى الهند وسيلان، بمساعدة الرياح الموسمية التي اكتشفها بحارتها؛ ووصل البعض إلى الصين. وأتوا بالتوابل، والحجارة الثمينة، والأنسجة الهندية والخزير الصيني. كان التجار الغولوا يهبطون إلى الرين والدانوب؛ وعبر نهر الفستول كانوا يصلون إلى البحر البلطقي واسكندنافيا. ولقد عثر على مخابئ نقد رومانية على المجري الأسفل لنهر دافينا الغربي، حوالي ريغا، في جزيرة غوتلاند.

بفضل ممارسة الاستقلال البلدي، المدعوم أكثر فأكثر، خيمت حياة سياسية متوثبة في مدن الإقليم، كما تشهد العديد من المخطوطات؛ تذكر هنا الحملات التي تسبق انتخاب قضاة المدن (قادة العشرة، قيمو المدن، أمناء بيت المال)، ونشاط مختلف التجمعات المهنية (الهيئات)، تواتر المؤتمرات لممثلي الأقاليم كلها، المدعوة للاجتماع بحجة إرسال إمارات الإخلاص للإمبراطور، ومناقشة المتطلبات المحلية وإطلاع السلطات على شكاويهم ورغباتهم. أشهرها التجمعات الإقليمية في لودنم (ليون)، حيث كان يلتزم نواب مختلف مناطق الغول، وتجمعات الوفود من خمس مدن (المدن اليونانية الخمس الواقعة على شواطئ البونت الشمالية) في تومس، التي تنظم الاحتفالات العامة، والألعاب، وسواها. إذ كانت المدن قد اعتادت أن تعيش حياة مستقلة، وقد ذرت قرنها هنا تيارات انفصالية قوية: وتوارى كل اهتمام بنشاط الحكومة المركزية.

إلى جانب رموز التفكك السياسي هذه، بدأنا نلاحظ بدءا من النصف الثاني للقرن الثاني إمارات بالغة الدلالة على كساد وانهيار الاقتصاد المبنى على اليد العاملة العبدية. "لقد أفل زامن العبودية السالفة... ولم يبق أي شارة تستدعي بقاءها.."، كما دل أنجلز.

في القرنين الأول والثاني، كان يمكن أن نلاحظ، بخاصة في الأقاليم، تطورا ملحوظا بوسائل الإنتاج. فقد ظهر في اليونان وشمال إيطاليا عربة ذات عجلات وسكة محراث عريضة، وفي الغول استخدمت الحاصدات، وانتشرت طواحين الماء، وفي الورشات بدأوا باستخدام الرافعات، الأجر المشوي بعناية وحتى الإسمنت أو الملاط. وعرفت أدوات المهن أيضا تحسينات هامة، كما تشهد التنقيبات الأثرية، وبخاصة، تنقيبات بومبيه. وبدأت اليد العاملة تشكل عقبة في وجه أي عقلنة للإنتاج، والحفاظ على استخدام الأداة الأكثر بدائية،

الأمر الذي كان يخلق حالة تنافى تقدم وسائل الإنتاج. ففي زمن أرسطو، حسب قوله هو، 'كان العبد أفضل شكل للتملك'، وفي القرنين الأول والثاني، صار امتلاك العبد أحد الأشكال الأخطر والأسرع زوالاً. ولقد شرعوا تمرداً متنامياً أبداً ضد سادتهم. في الأرجح تراجعتم التمردات عما كانت في القرنين الثاني والأول ق.م: فالإدارة الحازمة وأمن الامبراطورية اليقظ كانا يخنقان مواطن التمرد منذ أول شرارة. هكذا، في عهد تيبير، في العام ٢٤، بدأت ترتسم حركة عبيد في أبوليا، قادها حاكم في المعاش، ت. كورتييس. فأرسل على الفوج فوج ضارب من روما، بقيادة أحد محامي الشعب، "قبض واقتاد زعيم الحركة ومساعديه الكبار ليلقوا عقابهم" (تاسيت، الحوليات، ٤، ٢٧). لقد نشبت ولاشك انفجارات صغيرة أخرى من هذا النوع، لكن مراجعنا رأتها غير جديرة بالإشارة.

في عهد الامبراطورية، كان العبيد يعبرون عن حقدهم وكرهم لسادتهم بخاصة يقتل هؤلاء الأخيرين والوشايات المستمرة، الكاذب أكثرها، طبعاً، والتي تعرضهم إلى إرهاب الطغاة مثل نيرون، دوميتيان، كومود وتضعهم في أقسى حالات الإنذار الدائم. والمثل الروماني "كلما كثر العبيد كثر الأعداء" كان دائراً في هذه الفترة.

أخيراً "نوعية" العبيد ذاتها قد ساءت: هم الآن "برابرة" حقيقيون: جرمين، سرمان، داس، إلخ. لأن نهج استعباد الشعوب المتحضرة صار من مخلفات الماضي، كانت الأساليب قد صارت أعضاء بحقوق متساوية في المجتمع الروماني. وانقطعت سبل وفرة العبيد، أي العمال الموصوفين. فشرعوا يعتنون بهم ويحاولون استخدامهم بطريقة أكثر تعقلاً: ترك الكثير منهم حراً يعمل في الخارج لقاء أجر أو مرتب؛ وأعطوهم وقرأ، بشكل قطعة أرض، حانوت، ورشة، وأعتقوهم، مع إبقائهم في عهدة السيد، وأعفي هذا الأخير من رعايتهم أو الاحتفاظ بهم.

تبدلت بالتالي النظرة إلى العبيد وحتى طريقة معاملتهم. فمنذ أواسط القرن الأول الميلادي، أمر كولميل "الرأفة بالعبيد". ولم يعد السيد يأنف من الحديث معهم وحتى ممازحتهم. كان سنيك يؤكد أن العبودية غير طبيعية، معادية للطبيعة والحرية حقهم؛ "أنت والعبد من طبيعة واحدة"؛ "عبيد، هم هؤلاء! لا، إنهم ناس، رفاق حياتنا، أصدقائنا المتواضعون". رد أدريان وأنطونين قرارات تمنع السادة من قتل عبيدهم؛ وحرم أيضاً بيع الزوجين كل على حدة؛ وأعطى العبد حق الوصية، إلخ. لا باعث لهذه الإنسانية، طبعاً،

سوى الرغبة في الحصول على أكبر فائدة من العبيد بتحسين شروط حياتهم. في الريف بدأ الاستيطان يتسع جدا ويمهد للعبور إلى أشكال جديدة لاستغلال المنتجين المباشرين "كان المستوطنون طليعة أقدان القرن الوسيط"^١، كتب أنجلز، منطلقا من أن وسائل الإنتاج كانت بعهدة المنتجين أنفسهم. كان هؤلاء المستوطنون من أصول عديدة: عبيد مقيمون في الأرض، برابرة أتوا يعيشون على الأرض الرومانية، وبخاصة، جماهير من أحرار المدن، استأجروا أسهما ومزقا من أراضي الحقول الشاسعة. وقد قبل مالكو الأقطان الوفيرة نهج المزارعة الضيقة ولم يحرثوا سوى الجزء الأصغر من أراضيهم عن طريق العبيد. وفي القرن، كانت المزارعة بعامة تتم بأجر عيني (حوالي ٣/١ المحصول)، وكانت العادة تنتشر أكثر فأكثر في الأقاليم طلب عمال مرتبطين بأرض مزروعة بل أيضا مستوطنين أحرارا، سخرة لمصلحة المالك، الذي كان قد أجر جزءا كبيرا من الحقل وبالتالي يؤجر من الباطن إلى فلاحين صغار. هذه السخرة، الخفيفة في البداية (٦ أيام بالسنة) تقسو بالتدريج، جراء تحكم وتعسف كبار الملاك وأغنياء المزارعين المستأجرين؛ وتزداد أيضا الأتاوات والمداخل، بخرق العقود والنصوص الشرعية؛ وبحجة ديون متخلفة، كان المستوطنون في غالب الأحيان يمنعون من ترك سهمهم في نهاية الأجرة، ويقترب شرطهم أكثر فأكثر من العبيد الأقدان.

يمكن تصور هذه الحالة بوضوح، بفضل مخطوط أو رقيم مفصل كشف في الإقليم الأفريقي في العام ١٨٧٩، وهو عبارة عن عريضة مرفوعة إلى الإمبراطور كومود من مستوطني حقل سانتس برنتانس الإمبراطورية (الذي سمي الرقيم باسمه)، ليشكوا عسف وكيد المزارعين المستأجرين والموظفين الذين يحمونهم. "ارحمونا، يكتبون للأمير، ونفضلوا وأمروهم بأمركم السامي أن لا يطلبوا منا أكثر مما نص عليه القانون إدريان وأوامر ولا تكلم، أي بثلاث مرات وأن لا نقتلع نحن، فلاحكم، من أراضيكم، ونخضع لكيد مستأجري حقول الخزينة". وأجاب الإمبراطور على هذا الاسترحام: "... على المستأجرين أن لا يطلبوا منهم ظلما وعسفا، وأن لا يخرقوا الأصول الثابتة"، لكن هذا الأمر، الذي لم يكن أكثر من أمنية، معتدلة جدا، بقي بدون مفعول، طبعا، وتتابع استعباد المستوطنين بدون توان أو تهاون، بل بإيقاع متسارع أبدا.

^١ - ف. أنجلز. أصل الأسرة والملكية الفردية والدولة، ص ١٣٩.

وهكذا وعلى أبواب القرن الثاني الميلادي، قارب "العصر الذهبي" لإمبراطورية
الاستعباد بكل وضوح نهايته، واتضحت أكثر رموز الأزمة الاقتصادية والاجتماعية العميقة
التي ستسفر عن الانهيار التام للنهج الذي أسس على ظهر العبيد والعبودية.

الفصل الرابع والستون

الانحطاط الثقافي. ظهور المسيحية

الحضارة في القرن الثاني الميلادي

يسمى عهد أنطونين أحيانا "قرن النور". ليست هذه العبارة صحيحة إلا إذا نظرنا نظرة سطحية لتطور الحضارة الرومانية وانتشارها على بقعة واسعة جدا. صارت روما بالفعل في ذلك العصر المدينة الأعظم والأجمل من كل مدن حوض البحر المتوسط أو، كما كان يقال بحرارة أنثذ "في العالم" أهلة وراقية (كانت حضارتا الهند والصين غير معروفتين جيدا لدى اليونان والرومان). كان المظهر الخارجي لروما قد تغير كثيرا بعد حريق عامي ٦٤-٦٩. كان آل فلافيوس قد أنجزوا أعمال ترميم باهرة. وفي عهد آل أنطونين الأول، بني فورم نيرفا الرائع وفورم تراجان، المحاطان بأبهة مدهشة، ومنها مكتبة أولبيا المتميزة بديكورها الفريد. هنا كانت تنهض مسلة تراجان الجبارة، وقد علامها نصب ذهبي للإمبراطور بشكل الضريح قسما منه: داخل القاعدة حفظ رماده في مرمدة ذهبية، وكان جذع المسلة مزدانا بمنحوتة رائعة تمثل حملته ضد الداس. وكان أدريان قد أعاد بناء البانتيون ببذخ لا سابق له؛ وبنى، هو الآخر ضريحا ومد جسرا على التيبر لوصله بالمدينة. وليحتفي بذكرى انتصاراته على ماركومات والسرمان، كان مارك أوريل، مثل تراجان، نصب مسلة أخرى ارتفاعها ٣٠ م، (لكن نصب الامبراطور استبدل برسم لرسول). وكان الأعيان، اقتداء بالإمبراطور، قد بنوا مقامات في المدن رائعة ودارات في الريف. كانت شوارع روما مبلطة تحفها السواقي من الجانبين؛ والينابيع التي تزين الميادين تتضح الماء المجلوب من بعيد بالأقنية.

وكان ذوق اللياقة والرفاهية منتشرا بسعة في الأقاليم بواسطة الأعمدة، وأغنياء التجار، والموظفين والعسكريين الرومان. وكانت أقاليم الغرب والشمال الأكثر قبولا للرومنة: أسبانيا، غول الجنوبي، جرمانيا الرينانية، وأقاليم وسط وأسفل الدانوب. وفي

شوارع مدن الإقليم يدور العابرون تحت أروقة على النمط الروماني، وشيدت الكاتدرائيات والأقنية، والصهاريج، والأحواض والينابيع، والحمامات والمدرجات والسيركات. عشرات المدارس فتحت، تدرس اللغة والأدب اللاتينيين (هذه الحياة المدرسية مقدمة بشكل جي نشط على المنحوتات التي عثر عليها في تريف). كان أساتذة البلاغة يأتون ليعلموا فن البلاغة والفصاحة للشبيبة الإقليمية. وكانت الاجتماعات العامة، حيث تلقى الخطب وتقرأ أعمال الشعر والنثر، من بنات التطور؛ وكانت تؤجر أوسع الأبنية لهذه الغاية. وكانوا يرسلون الدعوات للعلماء ورابطاتهم. وكانت اللغة اللاتينية تسمع حيثما توجهت، وليس بدون أخطاء صرفية-نحوية.

لكن بدءا من منتصف القرن الأول الميلادي، تحقق في الأوساط العبودية للإمبراطورية الرومانية انحسار واضح جدا بالنوعية، في كل المجالات الثقافية. يعلل هذا قبل كل شيء بفعل استرخاء النهج الإمبراطوري الذي يقسم المجتمع إلى أغنياء، مالكي العبيد يسبحون برغد العيش، وإلى جانبهم شريحة لا تملك شيئا "ومحرومة من كل حقوق الدولة مع أنها حرة، كذلك العبيد لا يملكون أي حق أمام سادتهم"^١. إن الإمبراطورية تقمع كل تعبير عن الشؤون الاجتماعية، بخاصة إذا صدر عن الشعب. هذا هو سبب الاضطهاد الشرس الذي تعرض له فيدر *phedre*، كاتب الحكايات الأسطورية في حكم أسرة جوليو-كلوديين. (وصلنا منها ١٣٥، وفي حياته نشر خمسة كتب)، يترجم فيدر، المعتق المسكين، بشكل استعاري، احتجاج الطبقة السفلى، المقموعة في روما، وكرهها "للعتاة والمتجبرين" في نظام الأباطرة الدموي، وعسف محظييه المفضلين، وبخاصة سيجان *Sejan*. كانت حكايات فيدر واسعة الانتشار بين الناس المساكين، ونجد ذكرها لها في النقوش الأثرية لجدران بومبيه.

لقد أسفر نير الإمبراطور الثقيل عن نشر، حتى بين أوساط سادة هذا المجتمع العبودي، روح تبلد الذهن، إطفاء كل اهتمام بالشؤون العامة وتحريض بالعكس على شراهة المتع|الجسدية الأخس. كان في كل مجالات الفن، الشكلية، الذوق السطحي والأسلوب المصطنع، على حساب الأساسيات. هكذا كانت تراجيديات سنيك الغامضة والمهذبة،

^١ - ف. أنجلز. "برونو بوير والمسيحية البدائية". ك. ماركس وف. أنجلز، "في الدين" ص ١٩٦، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٦٠.

مربي نيرون-أوديب، أغامنون، ميدي، فيدر، إلخ... التقليد البلاغي للنماذج اليونانية الشهيرة؛ وبمقتضى التطير الذي كان يغمر كل المجتمع الروماني يومئذ، كان العنصر التراجيدي واضح جدا في هذه الأعمال المفعمة بالمجازات البغيضة والمشاعر المفرطة. ومثل آخر على التشدد المنتفخ نجده في "المديح الدعي" لتراجان، المليء بالمداومة الخسيسة، التي كتبها بلين *Pliny* الابن، الغني والموظف الكبير، صديق الأمير. فكان تملقه وإطراؤه، خلال القرون الثلاثة التالية، نموذج الكثير من المسرحيات الأخرى من هذا النوع، أي تقرّظ الأمير-الملك. ومجموعة رسائل الكاتب ذاته (١٠ كتب)، عمل من قيمة أدبية أخرى نهائيا، رغم أن أسلوبها ما يزال توفيقى ومصطنع، رغم أهميتها من حيث الأساس وتشكل سيماء وثائق تخولنا الحكم على الوقائع الاقتصادية، والطرق الإدارية، والثقافية في حياة وأخلاق المجتمع الروماني في بداية القرن الثاني. والكتاب العاشر، المتضمن مراسلة بين بلين وتراجان، يقدم أهمية فريدة.

وقد تحول فن السخرية والهزاء، وهو النوع المهيمن منذئذ في الأدب الروماني، تحولا ملحوظا. اضطر الساخرون إلى التخلي عن نقد السياسة الراهنة، كما فعل بجرأة لوسليس سابقا؛ وكذلك كاتول، في هجائياته، وهوراس أيضا في أول سخرياته، واكتفوا بنقد عيوب مختلف الأوساط الاجتماعية، وأحيانا لبعض الأفراد، وفضح بعض الوقائع الماجنة في الحياة الخاصة، وتمزيق الأخلاق العامة. بهذه الروح أتى فالريس مرتيالس (حوالي ٤٢-١٠٢)، من إسبانيا إلى روما حيث عاش في كنف وجوه القوم، وكتب في عهد دومتيان وتراجان هجائيات عديدة (١٢ كتابا)، فيها الكثير من السطحية، لكنها على ذلك قارصة: خلف السخرية، لم يهاجم بعمق لكنه يحسب أنه يصف بنوع من الحسد سلوك المتملقين الماجن، وبعمامة، حلقات من أعيان العالم الروماني؛ يأخذ غالبا هدفا لسخرياته معلميه السالفين الذين خالطهم وخالفهم. ويهزأ أيضا من المعتنقين المخبئين، من الأطباء الدجالين، من المحامين ذائعي الصيت، من الخمارين المحتالين، ومع ذلك كان مستعدا لأن يزحف أمام الأغنياء، ليظهرهم "معلمين طيبين"، كراما مع الفقراء المعدمين. وكان مارتيال ماهرا بوصف حياة هؤلاء البؤساء. وبعد ٢٠ سنة، خضع دسمس جونيوس جفناي (حوالي ٥٥-١٢٧) إلى نقد أقذع وأخشن، في الـ ١٦ أهجية، وزعزعة المجتمع الروماني. وجوفنال، المالك الريفي الصغير، الذي عاش لهذه الظروف في وضع أكثر استقلالية من مارتيال،

يفضح بلا تردد حياة الأغنياء والأعيان العابثة، والمنهل الجرمي لثرواتهم، وتملقهم ومداهناتهم الكبار بشكل مخجل، وقسوتهم مع ضعاف الناس وأخلاقهم الهابطة. وفي أهجيتة السادسة الشهيرة، يشخص جوفنال انحلال أخلاقية نساء عليّة المجتمع الروماني، فظاظتتهن غير الانسانية مع نساء عبيدهم، اللواتي يتحملن إزعاجاتهن وتطيرهن وبساقى العيوب. ويذكر جوفنال بأسى عميق الحياة المتضورة التي يعيشها فقراء روما، المتخمة بالذل والضعف. لكنه لا يدعوهم للاحتجاج بصورة نشطة بل يكتفي بنصحهم بمغادرة بأسرع وقت هذه الحياة المدمرة والبحث في القرية عن حياة أهدأ وأكرم.

فالحياة، الأخلاق، الأذواق الأدبية، مفهوم عالم الشرائع الوسطى والسفلى للمجتمع الروماني في القرن الثاني مكتوبة على الشكل الأروع في رواية خيالية رائعة بعنوان "التحولات" (أو الحمار الذهبي). كاتبها، أبولي (منتصف القرن الثاني - بداية القرن الثالث ميلادي) مواليد أفريقيا، فيلسوف من التيار الأسطوري وعالم البلاغة، دار كل العسلم ورأى كثيراً من الأشياء، يقص مغامرات الشاب لوسيس، المتحول حماراً بقوة السحر. هذا ما خول أبولي، ناقلاً بطله من سيد إلى آخر، أن يبسط أمامنا رواقاً من الرسوم واللوحات الشخصية تمثل الشرائع الاجتماعية الأكثر تبايناً، ويرصع قصته بكمية من الأحداث المتباينة والأنباء الأسطورية كقصة في الحب والروح *Amour et psyche* الشهيرة) وتبيل كل هذا بقصص من الأحداث الاعجازية، الافتتان، العبادات الأسطورية والتعزيم. على ذلك تنتهي الرواية بأعجوبة: يستعيد لوسيس الشكل الإنساني، برعي بعض فسلات الورد مسن تاج الكاهنة إيزيس الذي يمشي على رأس موكب على شرف الآلهة. وتتأوب عناصر الهزء أو السخرية، الخيالية والأسطورية كارتياً مع مشاهد غزلية لمعالجة واقعية تماماً ترصني أذواق الناس الأكثر تبايناً، الأمر الذي أسهم بشعبية واسعة لهذه الرواية في مجتمع يبحث عن إخلاء البشاعات الواقعية من العالم الخيالي والأحاسيس الحية.

لكن أبرز ما يميز هذا العصر المنحدر ثقافياً هو طرد من المسرح الأعمال الجادة، التراجيديات والكوميديات، الباحثة في الراهنية، وإحلال محلها هذه الهزليات الماجنة المسماة "إيمائيات"، أغلبها فاحشة محظورة تداولها، و"عالم الجان" الزاهي أو الفخم والفارشة من المعنى. وصار السيرك وسباق العربات يشغل الآن الموقع الأول، وكان المجتمع الروماني المتحمس لهذه المشاهد أو المسرحيات التي قسمت جمهور السيرك منذ عهد كالغولا إلى

مشارب، -"البيض"، "الحمز"، "الزرق"، و"الخضر"، حسب لون قبعات حوزيهم المفضلين؛ وهكذا كانت المبارزات ومعارك المصارعين في المدرجات. وانتشرت ألعاب المصارعة ليس فقط في الأقاليم الغربية المرومة، بل أيضا في الشرق، حيث كانت تسود الثقافة الهلينية التي كانت تجهل قبل الآن هذه التتويجات الدموية.

إنما في الشطر اليوناني من الامبراطورية الرومانية، كان هذا الانهيار الثقافي، رغم كل شيء أقل بشاعة. فهو مازال يجذب كتابا كبارا: بلوتارك (٤٥-١٢٥) تقريبا، هنا كتب "حيواته الموازية" و"أعماله الخلقية"؛ وعالم البلاغة الشهير ديون كرزستوم (نهاية القرن الأول - بداية القرن الثاني الميلادي، في ترحاله المستمر، اعطى دروسا في المدن اليونانية التي زارها؛ والرواقي إيكيت (حوالي ٥٠-١٢٥)، (عبد أعتقه عبد)، كان يدهش بعمق أبحاثه الأخلاقية وقوة إقناع حكمه وأقواله المأثورة. وكان التفوق الثقافي اليوناني ماثلا في عيون الصفة الرومانية، ومارك أوريل كتب "أفكار" باليونانية، متوجها إذن إلى اليونانيين قبل غيرهم. وديون كاسيس (حوالي ١٥٥-٢٣٥)، السيناتور الروماني والمعجب جدا بروما القديمة، كتب أيضا باليونانية أبدته "التاريخ الروماني" بـ ٨٠ كتابا.

لكننا في الوقت ذاته، نلاحظ في كل الإنتاج الثقافي يومئذ انحطاط الفكر العلمي؛ فقد اختفت الثقة في أن العقل البشري قمين بكشف الأسرار وقوانين الطبيعة، الأمر الذي نقرأه واضحا لدى ممثلي المادية اليونان، ديموقريط وأبيقور، وأرسطو الفيلسوف، في قصيدة "الطبيعة"، والمفكر الروماني لوكرس، معاصر شيشرون وقيصر. ونرى عودة للمعتقدات التي رمت منذ زمن والقوى الأسطورية التي لاتدرك. وفي نهاية الجمهورية، كان الأحبار الرومان الكبار، (مثل قيصر) يسخرون هم أنفسهم من هذه الآراء، التي لم تبق آنذ، بشكل خرافات فظة، إلا لدى الشرائع غير المستنيرة من عامة الناس. أما الآن، مع الانحطاط الثقافي، انبعثت مجددا، ووجدت تربة مهيأة وأنصارا متحمسين لها حتى في الأوساط المثقفة، إنما فقدت منذ الآن أي هدف قابل للحياة، والإيمان بها ذاتها والقوة الملازمة لها.

الاهتمام بالمعجز، بالغيبى، بأمور الآخرة، واضح لدى سويتنس ترانكللس (٧٥-١٦٠) في تابه 'حياة ١٢ قيصر' حيث تختلط وثائق حياة الأباطرة الأولين، بالتخمين، بالحدس وبالأعجوبي. توسديد وبوليب يعتبران هذه الأشياء "هزليات عابثة"، لكن الطلب كثير جدا على هذه الحماقات في المجتمع الروماني للقرن الثاني الميلادي، وكثير السحرة

المشعرون، المنجمون، وقدسوا بسرعة في روما حتى أن الحكومة الإمبراطورية اتخذت ضدهم عدة تدابير حازمة في عدة ظروف؛ أبعدتهم، قتلتهم، محاولة عبثًا وقف انتشار هذه الجائحة الأسطورية. لكن أكثر الأباطرة وعيا تركوا الداء يسري: كلود، مثلاً، دشّن رسمياً مدرسة إلهية، واهتم أدريان جداً بالتنجيم، بل وبالسحر والتعويذ.

بهذه الحالة الروحية والذهنية استقبل المجتمع الروماني بحماس إصلاح أوغست الديني ورغبته في بعث الإيمان الروماني السالف. لكن البديهي أنه، إذا أحيسى المجتمع بغبطة إصلاح الدين، معتبراً إياه الوسيلة الأنجح لكبح المواقف والأوضاع المحرّضة لدى الجماهير الشعبية، فقد ترك الشعب نفسه يفتتن ويضيع في أبحاث دينية، حيث كان يجد بديلاً لنشاطه السياسي السابق. فقد التحق ممثلو العائلات الكبيرة بتشوق إلى الأخويات الدينية التي أقامها أوغست: "الأخوة أرفال"، "اللوبيرك"، "التييتيان" وغيرهم، الذين أعلدوا التقديس للشعائر الأكثر بدائية: تلاوة بل وإنشاد الصلوات بلغة قديمة وكلية الغموض، رقصات وحشية، "النطاطون"، أي البعد عن الرصانة، بأذنان ذئاب معلقة بالخصر، إلخ. وعبادة الأباطرة عبادة "أوغست وروما"، "عبقريّة أوغست"، "إلهة أوغست"، لم تتجح أبداً. وبالـ"تأليه"؛ لترفع لهم المعابد في روما وبخاصة في الأقاليم، وفي كل مدينة من مدن الكهنة المختارين من بين الأسر الأكثر تميزاً وتخصص عبادتهم بمؤتمرات إقليمية لتوجه لهم الصلوات والأضاحي الرسمية. وبنيت الكليات الأوغستية على حساب المعتقدين الأغنياء، بخاصة. وفي المراقى تنصب أنصاب للأباطرة، وتحت الشواهد واصفة إياهم بـ"المحسنين والمنقذين".

على هذه التربة المعدة سلفاً انتشرت بسهولة الأساطير الشرقية التي تغلّغت من كل جنب في شرائح المجتمع الروماني. كان عندهم الكثير من المفاتن حتى أن رموزهم كانت تؤكد لروادها كشفها أسرار الكون وحياة ما بعد الموت، ومعنى الحياة وسبل تحقيق الغبطة الأبدية، الموعود بها من يرفع الصلوات والطقوس المنصوص عنها. ومنذ أن صارت مصر إقليماً رومانياً، انتشرت عبادة إيزيس، "سيدة الكون"، "ملكة السموات" الممثلة نعمة والمسارة للنجدة، انتشرت بسرعة في روما، وفي عهد كالغولا، وجدت حماية خاصة في القصر. وفي عهد كلود، نجحت نجاحاً هائلاً العبادة الأصلية لآسيا الصغرى، "أم الآلهة" سيبيل، ومساعدتها أتييس، الذي مزقته الوحوش ثم بعث ثانية ليفدي البشر، وفي عهد

الفلافيين، حمل جنود الجيش السوري المنتصر إلى روما والأقاليم العبادة الإيرانية لمثرا *Mithra* "قاهر الموت"؛ وظهرت محارب هذا الإله آنئذ في روما وبخاصة في حاميات الرين والدانوب (ميانس)، كرننثوم وغيرها من الميادين الرومانية الحصينة الهامة). والعبادة السورية "للشمس غير المرئية" حظيت أيضا برواد كثر. وأخيرا، بعد تشنيت اليهود، وبعد هدم القدس، عرفت وحدانية اليهود وطوائفها، انتشارا واسعا جدا.

في كتابه "مساهمة في تاريخ المسيحية البدائية"، حدد أنجلز بأسلوب أسر "الببلية الروحية" السائدة آنئذ في العالم القديم. فيشير إلى أن الناس في روما واليونان، بل في آسيا الوسطى، في سوريا ومصر، كانوا يقبلون بدون نقد خرافات مختلف الشعوب، مع مساهمة تامة بالاحتياال على التقوى والورع والسحر البحت؛ عصر سيادة صنع المعجزات، تمجيد الرؤى، الترهات، طفرة الروحانيات، التقديس، طرق صنع الذهب، القبلانية وكل أنواع السحر الأخرى. هذا هو الوضع الذي ولدت فيه المسيحية. ظهرت بين ظهراني شريحة من الناس تصغي، قبل كل شيء، بشراة إلى خيالاتها الما-ورائية أو الغيبية.

ظهور المسيحية وتاريخها في القرنين الأول والثاني

ولدت المسيحية وانتشرت بداية في الأوساط الاجتماعية السفلى والمستغلة، الشعب "المضطهد والمضطهد"، الناس الأحرار المدمرون وعلى أبواب فقدان حريتهم، صغار المهنيين، البروليتاريين والعبيد.

كانت الجماهير الشعبية العبدية، المضطهدة والمدمرة اقتصاديا والقباعة في بؤس الإمبراطورية الرومانية، قد بحثت في البدء، في القرنين الثاني والأول ق.م. عن مخرج في النضال المكشوف، وفي التمرد. لكن فشل كل الانتفاضات دل أن مقاومة السلطة الرومانية كانت دون جدوى. لذا ولد لدى الشرائح السفلى وانتشر بسرعة انتظار "المنقذ السماوي" من الآم وتعاسة الأرض.

كان هذا الأمل قد تبدى بقوة فريدة في يهودا بعد الآلام والمعاناة، فزعوا في القرن الأول إلى الخلاص الأعجوبي الذي يجب أن يأتي من "ملك اليهود"، المسيح *Messie*، المرسل من الله، وكذلك في آسيا الصغرى حيث تعيش عدة مستعمرات يهودية. وعلى ذلك،

^١ - تفسير اليهود للتوراة صوفيا ورمزيا حسب التقاليد كما كان يفعل الأقدمون.

أمن السكان الأصليون في هذه المنطقة بآلهتهم المنقذة أو العبادات واسعة الانتشار: يذكر، مثلا، إله هرمس ترسمجيسنت (ثلاثي العظمة)، إله التدجين والزراعة عند اليونان القدماء، المفروض أن يأتي لينقذ أتباعه. وكان ثمة عبادة أخرى لإله الفريجيين سابوزيس Sabozios، إله الزراعة القديم شبيه ديونيزيوس Dyonisos اليوناني، الذي كان يعتبر فاديل. وفي الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية، ظهر الكثير من الأنبياء المتعصبين الذين شددوا عددا كبيرا من الأنصار وأسسوا طوائفهم مدعين مجيء "المخلص". كانت إحدى هذه الطوائف اليهودية نواة المسيحية.

إن أقدم عمل نملكه من الأدب المسيحي هو "رؤيا يوحنا" (٦٨ أو ٦٩ م). كان كاتبها أحد المبشرين بمجيء المسيح (باليونانية: كرسستس)، اسمه جان Jean، من جزيرة باتمس. يتوجه إلى أعضاء الكنائس السبع (مشاعات) في آسيا الصغرى، الذين ينتظرون قدوم كرسست Christ، لكنه من اليهود فلم يصبر بعد مسيحيا.

في رؤيته، يقص يوحنا كيف كشف له أن "نهاية العالم" قريبة، وأن كريسست "حمل الله" سيدين العالم الخاطئ "في الدينونة الأخيرة". ستحل العقوبة قبل الكل على بابل، الـ"فاجرة الكبرى"، الجالسة على متن حيوان ذي سبعة رؤوس، والتي نشن حربا على "القديسين"، أي على المؤمنين؛ هذه الفاجرة هي روما، والسبعة الرؤوس هم الأباطرة. وكريسست على رأس جيش الأصحاء سيصرع الحيوان وكل رواده في نار جهنم، ثم يخلق سماء جديدة وأرضا جديدة وسيبني قدسا جديدة. آنئذ يبعث الأصحاء إلى حياة جديدة وسيفتح مملكة كريسست السعيدة، اللانهاية لها أو الأبدية. وفي رؤيا جان تتموج أيضا نبرة حريية، والحماس الشديد للصراع.

وانتشر الـ"خبر الطيب" بقرب مجيء المخلص بين منات المهاجرين، الحجاج والدعاة (الرسل) واستقل بغبطة بين كل "المضطهدين والحزانى"، عبيد وفقراء المدن، وبخاصة، النساء.

لم تتخلف الحركة اليهودية، البسيطة بداية، عن أخذ طابع شعبي عريض، أولا في الأقاليم الشرقية حيث تسود اللغة اليونانية (آسيا الصغرى، سوريا مصر، ثم في الأقاليم الغربية (أفريقيا الرومانية).

في بداية القرن الثاني ظهر أدب واسع شفوي ثم مكتوب: أقوال وأمثال سائرة.

رسائل، "رؤى أو تجليات" تتبادلها الكنائس فيما بينها-أعمال زاخرة بالحكايات الهزلية والخرافات المتنوعة. وفي الثلث الأول من القرن الثاني انتشرت بين المؤمنين بيسوع أسطورة تقول: إن يسوع "ملك السموات" كان قد أتى إلى الأرض، بشكل إنسان متواضع وباسم يسوع الناصري، قرية صغير في فلسطين، وعانى شخصيا أو بالجسد كل الآلام وكل أوصاب فقراء الناس. وفي هذا الموضوع كتبت أناجيل عديدة، صارت أربعة منها مقبولة فيما بعد والأكثر انتشارا -أنجيل مرقس، متى، لوقا، يوحنا.

تقول الأنجيل: إن يسوع ولد، في عهد اوغست، في أسرة نجار جليلي، يوسف النجار، من زوجة هذا النجار، "مريم العذراء" ومن "روح القدس". عاش مغمورا ثلاثين عاما، ثم شرع يتنبأ ويفعل الأعاجيب. كان يشفي بالكلمة، يقيم الموتى، يجتمع حوله فقراء الناس وأبسطهم يكرز بهم بالتواضع والمحبة، والتأمت حوله عصابة من التلاميذ. اعتبره كهنة القدس وممثلو السلطة الرومانية عاصيا، وأدانته المحكمة العليا بالموت على الصليب. صدق بلاطس البنطي، حاكم يهودا حكم المحكمة وصلب يسوع، لكنه قام في اليوم الثالث وكان، بالتالي، أول إنسان يقهر الموت. ثم صعد إلى السماء، بعد أن وعد بالنزول ثانية في الحال إلى الأرض ليدين الأحياء والأموات، وليقيم مملكته الأبدية. إن هذه الرواية الإنجيلية أسطورة، لأن العناصر الأسطورية واضحة فيها، أولا، وثانيا لأن المصادر التاريخية لذلك العصر، لا تحوي أي إشارة توحى بهذا.

كانت الكنائس الأولى منظمة على مبدأ المساعدة المتبادلة: يعيش أعضاؤها كما في معسكر في العراء، بانتظار "نهاية العالم" القريبة. على رأس هذه المخيمات يعيش الـ"شيوخ" (الكهنة)، يساعدون "الشمامسة الإنجيليين"، وأقفر الناس الأحرار، العبيد يمكن أن يصيروا كهنة. يتحدى المسيحيون الأغنياء ويقولون "أسهل على الجمل أن يدخل ثقب الإبرة من أن يدخل غني ملكوت السموات". ولم يكن مسموحا للأغنياء دخول الكنائس إلا إذا وزعوا أرزاقهم على الفقراء.

في بداية الدعوة، كان المسيحيون يجتمعون سرا في المقابر السردابية، المسماة ديماس)، في قبو الكنيسة يدفنون موتاهم، كما كانت تفعل النقابات المهنية وغيرها من (الشعب الصغير). وعلى قبورهم، كانوا ينحتون بالملقط أو المقص رموز آمالهم: النعجة، الراعي الطيب، الخمرة أو السمكة (باليونانية) ----- تشكل حروف هذه الكلمة اسما

متشابه الحروف تعني "يسوع المسيح، ابن الله، المخلص". كانت هذه اللقائات موقوفة على قراءة الـ"رسائل" والأنجيل، ثم يدخل أحد الحضور في غيبوبة (حلول روح القدس عليه) ويرسل بعض كلمات التقوى والنبوءات. كان الوثنيون يقبلون في الكنيسة بعد أن يغسل ماء "المعمودية" كل ذنوبهم السابقة، وينتهي الاجتماع بوليمة متواضعة من خبز وخمر تقام عند الفجر.

منذ البدء، كان الدين المسيحي الجديد، يركز بالخضوع والتسليم. وكان تأثيره شوماً منذ المرحلة الأولى لتطوره، لأنه حول الجماهير الشعبية عن النضال ضد المضطهدين، ليزجهم في حقل الأحلام.

قد أفضى الطابع السلبي للكنيسة منذئذ بالضرورة إلى زعزعة المسيحية وتفككها، متخلفة عن كونها دين الكادحين، المضطهدين، المعوزين والعبيد، لتكون ديناً كباقي الأديان في المجتمع الطبقي، أداة ضغط طبقي وسنداً للطبقات السائدة. وفي الوقت ذاته تبدلت التركيبة الاجتماعية للكنيسة. إلى جانب الفقراء دخلها الأغنياء، ودفعوهم إلى الصفوف الخلفية. أغرقوا الناس بهباتهم: صار بعض أعيان النبلاء سادة الكنائس المسيحية كلها (أسرة متالوس النبيلة، مثلاً، أو مارسيا، محظية الامبراطور كومود).

في أثناء القرن الثاني، تسارع هذا التطور وفي بداية القرن الثالث، تعرضت طبيعة الكنائس المسيحية إلى تحول جذري. كان بعضها قد صار مالك اطيان ضخمة، بيوت للإيجار، وميزانيات ومبالغ ضخمة من المال. وأن تكون كاهن كنيسة عمل مربح، حتى أن بعض المخاتلين والمغامرين ارتدوا هذا الثوب، مستغلين سذاجة البسطاء (اقرأ "موت برغرنس بقلم لوسيان دي ساموزات). في المواعظ، بدأت تسمع ملاحظة جديدة: قيل فيها إن العبيد يجب أن يخضعوا للسادة، لأن كل سلطة آتية من الله. وراح يظهر موظفون كبار الـ"أساقفة" الذين كانوا يسهرون على كنائس المحافظة كلها، مرتبطين بمركز المنطقة (متروبوليت)، التي أضحت مقام هذه السلطة الدينية السامية.

بدون أمر الأساقفة لا يستطيع الاكليروس المنتخب ممارسة مهمته، إدارة المعمودية ورئاسة الصلوات المشتركة. وبدأ أساقفة المدن الكبرى اسكندرون وأنطاكية، وأساقفة روما فيما بعد، يتمتعون بسلطة فريدة. إذ تضاعفت الطقوس، المقتبسة من الأديان الأخرى. وصار العماد والتناول "أسراراً لغزية"، تشبه الألغاز التي يمارسها متعبودو سيبيل أدونيس؛

ومن عبادة الإله مثرا أخذ أساس خرافة ولادة يسوع في مغارة. وتعميم النظريات الرواقية، وبخاصة، رواقية سينيك، التي سماها أنجلز "كفيلة المسيحية"، مكن من إقامة نهج أخلاق مسيحي يركز إلى مبادئ الضعة والصبر. ولقد حاول فيلون اليهودي، الكاتب الإسكندراني (بداية القرن الأول)، الذي رآه أنجلز "أب المسيحية"، التوفيق بين اليهودية والفلسفة اليونانية؛ وهو الذي أوحى بالنظرية المسيحية التي ظهرت في القرن الثاني، في "فعل". الملائكة، الوسيطة بين الله والناس، والـ"روح القدس"، إلخ.

في القرن الثالث بدأ الأساقفة يجتمعون بمجمعات كنسية، ليقرروا أي اقتراحات وأي نظريات يجب أن تكون مقبولة بشكل دائم وإلزامية وأي منها يجب إدانته ورفضه. وهكذا من الأدب المسيحي الغزير لم يعترفوا إلا بالأناجيل المذكورة أعلاه، و"أعمال الرسل"، ورسائلهم الواحد والعشرين ورؤيا يوحنا. واعتبرت الكتابات الأخرى أعمالا "مزورة" يجب تحريم استخدامها؛ وبشكل عام، كل خروج عن "النظريات الصحيحة" أعلن أخطاء مؤذية، ومنها ما اعتبر إجراميا يجب معاقبته: انتزاعه من مجمع المؤمنين، أو حتى تحريمه.

كانت نتيجة هذا النشاط الأسقي والمجامع الكنسية حشد التجمعات المسيحية المشتتة حتى أنشد في منظمة مثينة تضم كل الإمبراطورية الرومانية، لم تتخلف عن تشكيل قوة اجتماعية هامة. لكنها حوت في جنباتها تيارات متباينة متعادلة خاضت منذ إذ صراعا حادا وضاريا. لم يستطع الكثير من الناس، بخاصة الفقراء، الخضوع للنهج الجديد التساطي المفروض على المؤمنين ودافعوا عن حرية البحث والتقصي. فكانوا لهذا في المضطهدين وأعلنوا "ملحدين" وفصلوا من الكنيسة.

كانت البدعة التي لاقت نجاحا باهرا هي بدعة المونتانيست، أو تلامذة مونتانس، أحد المبشرين المتعصبين من فريجي، الذي كان عند مريديه "روح القدس المجسد" وسيط بين الله والبشر). وماكانوا يعترفون بأي ترايب إكليركي، بأي قانون إلزامي، بأي طقس وضعي. كانوا بحرية التبشير السالفة كرمى لمن يعتقد أن "روح القدس" زاره. انتشر مذهب مونتانس بخاصة في أفريقيا الرومانية، حيث وجد بين أنصاره واحدا من كبار كتاب نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث، ترتليان (ولد في قرطاجة وصار كاهنها). يدين له الانتشار الواسع للإيمان المتعصب: "أعتقد هذا لأن هذا محال، غير معقول". وفي مؤلفاته العديدة، أدان ترتليان العلم، الذي كما يرى جعلته الأناجيل بدون جدوى، ويؤكد أن عبادة الأوثان لا تقوم فقط بتمجيد صور الآلهة الوثنيين، بل تكمن في كل شكل فني يهدف لتمثيل

الأمر الأرضية. ولقد أمر بالصوم الدائم لأن آدم سقط في الخطيئة بسبب تفاحة. كانت الهرطقة، الأكثر انتشاراً بين المسيحيين المثقفين والمطلعين على الفلسفة الهلينية الغنوطوسية أي المعرفة. كان الغنوطوسيون يبحثون عن توفيق النظرية المسيحية مع "الحكمة الوثنية". ونجم من هذا خليط غريب من الفيثاغورسية. الأفلاطونية والعناصر الأخرى المتباينة. وقد حاول الغنوطوسيون إن يتصلوا بشكل مجدي مع "القوى الخبيثة، بواسطة عمليات سحر واستدعاء الأرواح. وكانوا بهذا الخصوص أسلاف "مستدعي الأرواح"، و"خيماوي" القرون الوسطى.

في القرنين الأول والثاني الميلاديين، أوجت المسيحية، بشكلها الأرثوذكسي أو تظاهراتها الهرطوقية، الارتباب والحذر للطبقات الوسطى في المدن، لكل الريف تقريباً وموظفي الامبراطورية ذبح المسيحيون أكثر من مرة، ونسبت إليهم كل الكوارث الطبيعية، -القحط، الطوفان، قلة المطر، وسواء. وفي كثير من الأعمال الأدبية المصانة حتى الآن (مثل، "الأقوال الصحيحة" لسلس و"موت برغرنس" دي لوسيان) حملة شعواء ضد المسيحية التي لفظت كما تُلَفَّظ أغلظ الخرافات أو المعتقدات الباطلة. يسخر سلس بخاصة من النظرية المسيحية في "نهاية العالم" والدينونة الأخيرة: "أليس عبثاً فكر هؤلاء الناس القائلين عندما يوقد الله النار، كالطباخ، ستشوى كل البشرية، أما هم وحدهم سيبقون، سليمين، وليس فقط الأحياء بل سيبعث من مات منذ زمن بعيد بلحمه وعظمه -إن هذا لتركة جيدة للشعر!" فالمسيحيون يرون حتى الفلاحين في مقدمة أعدائهم، ومن هنا أتت كلمة "وشي" لتشير إلى عدم الإخلاص بشكل عام^١. وكان العاهل وولاته يرون في المسيحيين عناصر سيئة، يرتابون بالاحتجاج والمساهمات، لم يساهموا بعبادة الإمبراطور. وتراجان، في رسالته إلى بلين، أمر بمعاقبة المسيحيين الذين رفضوا بوضوح التضحية عن روح الأباطرة، لا بل في عهد مارك أوريل، نزلت عقوبات قاسية بأشخاص متحمسين للدين الجديد. على ذلك، كان اضطهاد المسيحيين في القرن الثاني قصير المدة، وإجمالاً، كانت الحكومة الرومانية في "عصر التتوير" متسامحة دينياً. وسرعان ما نمت المسيحية ومنذ نهاية القرن الثاني، بدأت تمثل قوة اجتماعية جبارة ساهمت بدمار مفهوم العالم القديم.

^١ - فلاح = paysam، وشي = païen

الفصل الخامس والستون

أزمة القرن الثالث والإمبراطورية الرومانية بين عامي ٢٣٥-٢٧٦

استبدادية آل سيفير (١٩٣ - ٢٣٥ م). أزمة القرن الثالث

أسفر التفكك المتزايد لمجتمع العبودية عن فوضى تدريجية في الجهاز الحكومي للإمبراطورية الرومانية. وفي الوقت نفسه نما الوضع العسكري كما كان في أثناء الثلث الأخير من القرن الثاني (بخاصة حروب مارك أوريل ضد البارث والماركون)، ونمت بشكل استثنائي أهمية العناصر العسكرية، وأعطوا الدور القائد في الدولة الأمر الذي أثار سلسلة من الانقلابات العسكرية والحروب الأهلية.

إن هذا العهد من الانقلابات فتحته القوات الإمبراطورية المنحلّة والفاسقة. فبعد اغتيال كومود، أتى إلى الحكم إمبراطوران خلال ستة أشهر: ب. هلفيس برتكس وم. ديرييس جوليانس. كان الاثنان محاربين جيدين، إداريين محنكين لم يأتيا إلى الحكم إلا بشراء الحرس، وعد هلفيس برتكس بـ ٣٠٠٠ لير لكل منهم، وديرييس جوليانس ضاعف المبلغ، أي ٦٢٥٠ لير. "العاصمة والإمبراطورية الرومانية بيعت بالمزاد، كما في السوق أو في الحانوت"، كتب ديون كاسيس (التاريخ الروماني، ٧٣، ١١).

حسداً من نجاح رفاقهم في العاصمة والغنائم التي حصلوا عليها، شرعت القوات المحتشدة في الأقاليم، هي الأخرى. بتنصيب قادتهم أباطرة.

الجيش السوري أعلن س. بسينيس نيجر، والجيش في بريطانيا د. كلوريس البنس، وفيالق الدانوب والرين، سفير بانونيال. سبتميس سפרس. حرب قاسية (١٩٣ - ١٩٤) شبت كالحريق في أرجاء الإمبراطورية. في شرقها كما في غربها. لكن جيش الدانوب، بقيادة سبتيم سيفير، دحر خصومه، واستولى على روما وأسس بعد أن وصل إلى العرش، الأسرة التي حملت اسمه (١٩٣ - ٢٣٥).

كان سبتيم سيفير (١٩٣ - ٢١١) أول إمبراطور جندي. ابن مدينة قرطاجنة (المستعمرة الفينيقية ثم الرومانية في شمال إفريقيا) - من أعمال لبتس ماجنا *Leptus Magna* - ويتكلم اللاتينية بنبرة هلينية، متحمس لهانيبال مولع به، فكان إذن غريباً تماماً عن روما. ضرب بيد لا ترحم الارستقراطية الرومانية، التي وقفت إلى جانب خصومه: أيد عدد كبير من أسر الأعيان؛ ومكنته المصادرات الوحشية، كما في أيام منافي سيلا والثلاثية الثانية، من إشباع خالصاته. ضوعف راتبهم، وصار من حق الجندي البسيط أن يدخل صف الضباط. وسرح سبتيم سيفير الفصائل الإمبراطورية المشكلة في إيطاليا، وألف حرساً جديداً، اختاره من صفوة جيوش الأقاليم، بحيث صارت روما تغص، كما يشكو ديون كاسيس، بخليط من العسكر، بسيماء غابية تتكلم لغة البربر المتمردين بطريقة فظة (٧٢، ٢) وخول الجندي الزواج، وأذن للقوات المعسكرة على الحدود بامتلاك قطعة أرض، ليعيش كل مع أسرته وفي موطنه، ولا يأتي إلى الثكنة إلا من أجل التمارين القتالية. "أرض الجند، وتقدر أن تهمل من بقي"، هذا مع علمه لأولاده .

على ذلك، شرع سبتيم سيفير بوضع الجيش في خدمة سياسة خارجية حازمة. شن حملة موفقة على البارث (الذين احتل الرومان عاصمتهم سلوسيا وكلزفون؛ ثلاث مرات)، وسع كثيراً الممتلكات الرومانية خلف الفرات ومات في أثناء حملته على بريطانيا. لكن التمردات العسكرية التي توقفت مؤقتاً في عهد سبتيم سيفير، تجددت على أشدها في عهد خلفائه. كان ابنه ماركوس أورليس انتوننس، لقب كركلا (٢١٢ - ٢١٧)، حسب تعبير مومش، (صورة هزلية لأبيه): قزم حقيقي من حيث القامة، هزيل، فاسق وشرس. خاض كركلا مشروعاً خطراً في الشرق، بغية ضم ليس الهند فقط بل والصين وتجاوز أسكندر المقدوني. لكنه ما كاد يبدأ الحملة حتى قتله أحد ضباط حاشيته.

كانت الشؤون الداخلية توجّه بإشراف أم كركلا، المرأة الذكية، الإمبراطورة جوليا دومنا، يساعدها خبرة المشرعين من زمن (بابريان ، مثلاً). وهذا ما يعال شهرة مرسوم كركلا في عهد أسوأ الأباطرة، المرسوم ٢١٢ الذي أعطى حق المواطنة لسكان كل الأقاليم. نص المرسوم: (أمنح كل الناس غير - الرومانيين الساكنين على أرض الإمبراطورية. عدا البربر المقيمين كمستوطنين، حق المواطنة الروماني وكل الأشكال المستقرة من المؤسسات البلدية). كان هذا القرار تنويعاً لكل سياسة الإمبراطورية

الرومانية، الهادفة إعطاء حق المواطنة إلى أكبر عدد ممكن من الأقاليم. لكن كبح الجنود صار منذ الآن محالاً. فالجيش السوري نصب قاتل كركلا، ماكران (٢١٧ - ٢١٨) إمبراطوراً، لكن سرعان ما نجحت جوليا مازا، أخت جوليا دومنا، بشراء هذه الفصائل السورية ونصبت حفيدها، فاريس أفثس باسيانس، ابن الرابعة عشر ربيعاً، والذي اعتبر ابن كركلا الشرعي. كان هذا الفتى كبير كهنة الإله السوري الغبال *Gabale-AL* (*Baal*)، وفرض الكثير من الخرافات على جيش الشرق، فلقبه جنوده إغبال. وبعد صراع سري قصير المدة خان الجند ماكران وقتلوه، عاد إغبال بأبيه وعظمة إلى روما، برفقة الحجر الأسود "المقدس" إميز *Emese* وأشياء أخرى أسبوية مقدسة. لم يكن الكسول والماجن يسهتم إلا بالتضحية "للإله الأكبر، تاركاً تدبير كل الأمور لجذته جوليا مازا وأُمها جوليا سمياس، اللواتي أعطيتا ألقاب "أوغست"، "أمهات المعسكرات ومجلس الشيوخ" واللواتي حكمن بواسطة محظيه.

وفي العام ٢٢٢، قتلت الحاشية الإمبراطورية إغبال وأمه سامساس، ورموا جثتيهما في النهر. لكن جوليا مازا، المتأمرة، نجحت بجعلهم ينصبون حفيداً آخر لها هو ألكسيان، في الثانية عشر ربيعاً، واعتبر هو الآخر ابناً شرعياً لكركلا. بدأ الإمبراطور الجديد حكمه باسم م. أورليس سفروس ألكسندر أو، كما ينادى عادة، الكسندر سيفير (٢٢٢-٢٣٥).

سعى ألكسندر سيفير وأمه جوليا ماميا إلى التقرب من مجلس الشيوخ وأدخلوا إلى الحكومة خيرة المشرعين (أولبيان، مثلاً، الذي سمي محافظ مقر الحاكم). اهتم المشرعون بتحسين أعمال المحاكم، والإدارة، وشؤون المال. لكن جهودهم كانت تفنقر الحسم والفعالية. وكانت دساتر البلاط الدائمة تعرقل أو تعطل كفاح رجال الدولة، وكان الوضع العام مزعزجاً جداً. التمردات تنتشب في الأقاليم، المرابون يظهرون عند التخوم القتالية. وفي روما نفسها تمرد الحكام وقتلوا رئيسهم أولبيان.

أما السياسة الخارجية لن تكون في هذه الشروط إلا سيئة. وفي الشرق، انبثقت مملكة الفرس الجبارة على أنقاض إمبراطورية البارث، وهدفت إعادة عاهلية الاشمنيد القديمة بالتدريج، لداريس وخرخس. ولما استولى الفرس على ما بين النهرين الرومانية وكبادوسيا، صارت حملة الشرق بقيادة الكسندر سيفير ضرورية، لكنسها فشلت (٢٣١-٢٣٣). ولما وصل الإسكندر، الميل للسلم الكتي، إلى الرين، مدفوعاً من أمه حتماً، وبدأ

كقائد غير جدير حملة ضد الجرمان، قتلته الجنود العصاة وأمه جوليا ماميا، في خيمتهما، وأعطوا الإمارة إلى قائد المراهقين، مكسمين، ابن ثراسيا، الراعي السابق، ذي القدر العملاق والقوة الهرقلية، ضابط خارج من الصف والمحبوب جداً بينهم (٢٣٥).

انطلاقاً من هذه الحقبة فتحت في الإمبراطورية الرومانية أزمة سياسية حادة دامت أكثر من ثلاثين سنة (٢٣٥-٢٦٨). ومكسمين، الذي يسميه كاتب سيرته "أثينيون الثاني وسبارتاكوس الثاني"، الذي أباد منهجياً الأغنياء والوجهاء، لكي يوزع ثرواتهم على جنوده، لم يعد إلى روما، بل استمر يحوّص في الشمال صراعاً لارجاء له ضد الجرمان، والإيزيخ والداس. ومنذ ٢٨٣، كانت الأرستقراطية التي تكرهه، قد أثارت ضده في بحر عام واحد أربعة أباطرة اختارهم من مجلس الشيوخ، غورديان الأول والثاني في أفريقيا، بالبان وبوبيان في رومال ذاتها. لكن الأربعة ذبحهم الجند خلال أشهر، والولاة، الغلطيون من ماكسمين، اختاروا إمبراطوراً فتى ابن ١٣ عاماً، غورديان الثالث، حفيد غورديان الأول. دامت هذه الحقبة من الانقلابات العسكرية أكثر من ١٥ عاماً، تتالي خلالها على روما ١٠ أباطرة.

تسجل الـ ١٥ عاماً التالية ٢٥٣-٢٦٨، عهد تفكك تام للإمبراطورية الرومانية. إمبراطوران، على الأرجح، حكما اسماً في روما، اختارهما الجند هما: فالريان (حتى العام ٢٦٠ وابنه غاليان. وقد قدم كل إقليم إمبراطوره، لذا سمي مؤرخو العهود القديمة هذا العصر "عصر الثلاثين من الأسر المستبدة. وفي الغرب، تشكلت "إمبراطورية الغولوا"، كانت جزءاً منها جرمانيا، الغول، بريطانيا، واسبانيا. حكمها لعشر سنين قائد روماني اسمه بوستمس، بجيشه، وإدارته ونقده وتجاهل كلياً الحكومة الرومانية. وسوريا وآسيا الصغرى ومصر انفصلت أيضاً لتشكل مملكة جديدة، كان على رأسها حاكم تدمر، سبتيموس أودناس الذي سمي "الأثوقراطي" و"قائد الشرق". ولما مات في العام ٢٦٧، اختارت هذه المملكة الواسعة أرملة زنوبيا، في أقاليم الدانوب، أعلن بعض الطامعين أنفسهم أباطرة، وفي أثناء الصراع ضد أحدهم أريولوس، الذي سار إلى إيطاليا ووصل ميلانو، قتل غاليان بيد ضباطه (٢٦٨).

إن شلل السلطة المركزية والاقتطاعات المستمرة من قبل القوات المكلفة بحماية الحدود جعلت الوضع الخارجي للإمبراطورية الرومانية كارثياً. هوجمت تخومها في كل

مكان، وانقضت الشعوب البربرية، التي ماتزال تعيش مرحلة المشاعة البدائية، من كل صوب، كطوفان لا يقاوم، على العالم العبودي في حوض البحر الأبيض المتوسط. والفرانك المحاربون، مسلحين ببيلطاتهم الغربية، حطموا التحصينات الرومانية على المجرى الأسفل والأوسط لنهر الرين ودخلوا الغول الوسطى. والألمان، شعب جرمانى آخر، ما أن سادوا ريتيا ومضائق الألب، حتى انحدروا إلى إيطاليا وفي العام ٢٦١، وصلوا أبواب ميلانو. طردهم غاليان لبعض الوقت، لكنهم جددوا غزواتهم في العام ٢٧٠ ودخلوا هذه المرة إيطاليا الوسطى. وهددوا روما.

على الدانوب الأسفل، كان الوضع أخطر. إذ تشكل في هذه المنطقة تجمع واسع من الشعوب الجرمانية، السارمات، التراث ربما هم السلاف -الأولون. كان أكثرهم دينامية الغوت، المهاجرون من ضفاف البلطيق، هكذا سمي جميع أعضاء هذا النوع من التحالف. وانطلاقاً من ٢٣٠، بدأ الغوت يهبون ويدمرون مناهجياً كل ساحل البحر الأسود؛ استولوا على استريا وتيرا، خربوا أولبيا، غزوا بين الس ٢٥٠ و ٢٦٠ مملكة البوسفور والتوريد. على فليكاتهم المحفورة من جذوع الأشجار، وسفن أسرت في مدن البوسفور وأمكنة أخرى. ربحوا البحر، وثغوراً على الدنيير، والبوغ والدانوب، نهبوا حاضرات بتتبا وبفلغونيا الثرية وتغلغلوا في بحر إيجه عن طريق هلسبونت حتى المركز القديم للحضارة اليونانية، إفيز وأثينا. وقد أسهمت الثروات الطائلة التي كدسها قادتهم في أثناء هذه الحملات اللصوصية في ولادة أسلوب منتقى سمي "الغوتيك" الذي استخدموه في تزيين عدة خيولهم بالصفائح الذهبية لأهداف تخيلية، المرصعة بالأحمر الروماني، والتراكواز والطلاء عديد الألوان.

بدأ الفرس هجوماً غاضباً على الفرات. وفي العام ٢٦٠، أباد سابور، عاهل إمبراطورية فارس الجديدة (الذي جعل مجدداً بيرسبوليس عاصمة)، أباد جيش الإمبراطور فالريان. أسر هذا الأخير وأجبر أن يحني ظهره ليدوسه العاهل عند صعوده إلى الحصان؛ وأرسل ضباطه وجنوده ليحفروا قنوات على ضفاف دجلة. واحتل الفرس أنطاكية، العاصمة، أغنى مدن سوريا، ونهبوها.

وكما الحروب الأهلية المستمرة، قضت غزوات البرابرة المدمرة، والجوع والجائحات على شعب الإمبراطورية حتى نصبت قواته المقاتلة، شرعوا، للدفاع عن

حدودهم ضد البرابرة، يجندون برابرة آخرين، ملحقين بالجيش الروماني. وصار هذا السلوك، الذي بدأ مع مارك أوريل، نهجاً متبعاً، في الأعوام الرهيبة التي تلت موت الكسندر سيفير. كان هؤلاء "الخطفاء" يستلمون أراضٍ ليقيموا عليها، بشرط تألبية دعوة الخدمة الالزامية وإعداد أولادهم لها.

ثمة عينة أخرى من المستوطنين العسكر، مقيمون في منطقة الحدود، سموها "ليت *Letes*". وهكذا بدأ البرابرة برضى الحكومة الرومانية، التغلغل زرافات على أرض الإمبراطورية، حتى في المناطق الإيطالية أصلاً، مساهمين ببربتها في ظل علاقات اقتصادية على كل الإقليم. دمرت غزوات البربر والأعمال القتالية كل احتياطات المون، وصار محالاً القيام بالبذر والجني في الوقت المناسب. والمغتصبون، لدى احتلالهم منطقة ما، يمنعون على الفور أي تصدير، ليغذوا جيداً ويجهزوا جنودهم وقطعت القرصنة البحرية على يد "الغوٲ" وغزوات الفرس المتتالية كل طرق التجارة الكبرى بين المراكز الرئيسية الصناعية والتجارية في الشرق. وتحولت المدن الخاوية، بسبب هجرة السكان إلى الريف، إلى أمكنة لجوء وثكنات وأحيطت على عجل بالدفاعات. ولتقص الوسائل، استخدموا لرفع أنقاض الصروح العامة، حجارة القبور والآثار الأخرى ذات القيمة الفنية العظيمة أحياناً. ووهنت حياة البلديات التي كانت متألفة؛ وبسبب الفقر العام، انقطعت المساهمات التطوعية بنفقات النفع العام، ولم يكف وزر الضرائب عن قصم الظهور؛ وصارت وظائف قادة العشرة والسلطات البلدية باهظة الثقل بشكل استثنائي، مليئة بالارباك وشرع الكل يبحث عن التهرب من الأعباء العامة. ويرغم الزيادات المنفلتة بالضرائب، كانت خزينة الدولة خاوية أبداً. وكثيراً ما استحال على الناس دفع الضريبة. كانت الدولة تعيش أساساً من صك النقود غير المغطى فافتقدت المعادن الثمينة وكان لابد بالتالي من التزوير وتخفيض قيمة النقد أكثر فأكثر، أي ما يعرف اليوم بالتضخم النقدي. في عهد كركلا بدؤوا بصك قطعة ذهبية، أخف من القطعة السابقة بـ ١٧%. فاخضت على الفور القطع السليمة. فوضع في التداول نقد جديد، سمي "أنتونينانس"، واعتبر يساوي ٢٠/١ من (أورو *aureus*)، لكن قيمة الفضة فيه أقل بالفعل بـ ٥٠% مما يجب أن يكون.

تفاقت الأمور بعدئذ: صكت نقود فضية، كانت بالفعل نحاسية ٥٠%، ثم ٢% فقط من المعدن الثمين). فلم يعد الشعب يقبل النقد إلا بالوزن، مفضلاً على ذلك النقد النحاسي

الصغير، لأنه أقل تزويراً وينطلق من نهج المقايضة البدائي. وهوت المبادلات التجارية بالفضة إلى درك الكساد وحلت محلها المبادلات العينية.

بعثت شروط الحياة غير المقبولة حركات عاتية لدى الطبقات السفلى. وفي العام ٢٣٨، اندلعت في أفريقيا انتفاضة من العبيد والمستوطنين، مكنت كبار المالكين من النهوض ضد الإمبراطور-الجندي ماكسمين، الكريه، لصالح مرشحهم إلى العرش غورديان الأول. قمعت الانتفاضة بوحشية على يد الفيالق الأمنية لماكسمين، المعسكرة في إقليم نوميديا المجاور. وفي مصر أخذت حركة رعاة البقر مدى واسعاً. وانطلق المعوزون يبحثون عن ملجأ في انسحابات رعاة البقر المنيعه، مخبئين في أهوار القصب ومستنقعات النيل، حيث خرجت حظائرهم ضد المراكز الإدارية والحاميات الرومانية. وأثبتت الحكومة الإمبراطورية عجزها عن صد رعاة البقر طيلة القرن كله.

كانت مناطق الغول منذ نهاية القرن الثاني فريسة اضطرابات مستمرة سببها العبيد، المستوطنون، فقراء المدن، والجنود الفارون. كتب المؤرخ هورديان: "كان هؤلاء المجرمون يهاجمون كبريات المدن، يقتحمون السجون، يأخذون من الأغلال المعتقلين أيضاً كانت جريمتهم، يعدونهم بالطمأنينة والأمان والعودة إلى المجتمع" وكان كومود مضطراً أن يشن صراعاً صلباً ضد هؤلاء "المشردين"، كان على رأسهم لبعض الوقت جندي فار جسور ومنظم جيد اسمه مترنس. وفي أثناء فترة الفوضى السياسية فسي القرن الثالث، ازداد عدد هؤلاء "الفاسقين" و"قطاع الطرق" وفي حوالي العام ٢٧٠، شكل العصاة، الفلاحون، المستوطنون والعبيد الزراعيون تجمعات ضخمة. كانوا بقيادة محنكة، إيلان وأماندس، الذين أخذوا ألقاب الأباطرة، وصكا النقود، وغيرها. وسقطت بين أيديهم أوسع وأهم مجالات السلطة، اقتسما وأتباعهم الأرض، الأنعام والوسائل. وكانت غول الريف كلها بين يدي المتمردين. "تحول الحراث إلى جندي مشاة، والراعي إلى خيال"، هذا ما يشكو منه شاهد عيان. لم يبق خارج حصونهم سوى المدن الكبرى، مأوي الأغنياء. على ذلك، في العام ٢٧٠، تمكن الباغود من احتلال، بعد حصار دام ٧ أشهر، مدينة أوغستودنم (أوتون)، عاصمة الأديبين السالفة، بفضل رد شطر من جيش "الإمبراطور" الغولوا تيتركس، الذي انتقل إليهم. أما الأغنياء والنبلاء ذبحوا، اقتسمت أرزاقهم، وصارت المدينة رمادا.

في كل مكان كان العبيد ينتفضون وينضمون إلى أية حركة تمرد. ومنذ عهد سبتييم سيفير، كان يعمل في إيطاليا فصيل الصعلوك بوللا، المؤلف من ٦٠٠ رجل، كلهم تقريباً عبيد الإمبراطور. كان لهؤلاء الصعاليك أنصار في كل مكان. تصورهم الخرافات حماسة الشعب. وقدم العبيد جهداً كبيراً في تمرد مستوطني أفريقيا، وفي حركات رعاة البقر في مصر وإبلاغود في غول. وعلى أبواب العام ٢٦٠، حسب كاتب سيرة الإمبراطور جوليان، كان في سيسيليا "نوع من حرب العبيد". تكاثف العبيد مع المستوطنين والشرايح الأخرى المضطهدة من الشعب الروماني واستقبلوا بالأحضان الغزاة البرابرة، باعتبارهم محرريهم ومعتقيهم من نير الأغنياء الرهيب والموظفين الغيلان. قاد الجلبون الألمانس في شعاب الألب، تتبعهم جماهير العبيد عند انسحابهم من إيطاليا. ولما اجتاز الـ "غوت"، الذين يعدون ١٥ ألف مقاتل، بقيادة زعيمهم الفذ كنيفا، الدانوب وغزوا البلقان غزوة تدميرية، شكل الفلاحون والعبيد بشكل عفوي كواكب من الفرسان والمشاة، وانضموا إليه ففجحوا باحتلال واحدة من أبرز مدن مقدونيا، فيليبوبوليس. وعندما حاول الإمبراطور دسيس الانضمام إليهم وإعادة الغنائم لهم، قبل أن يعبروا الدانوب ثانية، هزم الـ "غوت" الجيش الروماني وأبادوه في دوبروشا. هلك دسيس أثناء القتال، مع ابنه البكر الذي ضمه إلى الإمبراطورية (حزيران ٢٥١).

لقد أسفرت أزمة القرن الثالث عن تجدد نشاط النضال الطبقي، لاسيما في الإمبراطورية الرومانية نفسها، المؤسسة على العبودية، التي وجدت نفسها في حالة من التفكك التام والعميق.

المحاولات الأخيرة لإصلاح إمبراطورية العبودية. ديوكنتيان وقسطنطين

كانت الأوساط المهيمنة الرومانية في وضع يمكنها من بذل جهد أخير لتأخير تفكك مدمر لاقتصاد العبودية وانهيار الإمبراطورية. ففي أثناء الأعوام العاصفة من القرن الثالث، كانت المدن تعاني من الأزمة الاقتصادية ومن غزوات النهب المتوالية. فاخترق الكثير من الاستثمارات الزراعية الصغيرة والمتوسطة. وبالعكس، ليس فقط عزبات الأسر الكبيرة نهضت بسرعة، بفضل غنى مالكيها، بل نمت أيضاً على حساب الملكيات الصغيرة. كما ازداد كثيراً عدد الاقطاعات الشاسعة. لأن عصبية من الضباط امتلكتها بالحيازة؛ فقد عرفوا كيف يستفيدون من الخصومات الداخلية بين الطامعين بالامبراطورية

والمغامرات العسكرية لجني الثروة وتعزيز شريحة مالكي الأرض الكبار. الأمر الذي يعزل رفع ملاكات قيادة الجيوش بخاصة قيادة الدانوب، في أثناء السنوات السبع عشرة التي تلت موت غاليان، لوائح بكبار القادة الأفذاذ، الذين توصلوا إلى إنقاذ الوضع ولو إلى حين.

كانوا كلهم تقريباً منحدرين من أبسط المستوطنين العسكر في إيليريا، ولذا سموا بعامّة الأباطرة الإيليريين. وكانوا كلهم قد وصلوا إلى أرفع درجات التراتب العسكري، وحازوا كلهم إقطاعات ضخمة وحكموا، بالتالي، بالتواصل المتين والتأييد الكامل مع كبار المالكين الطليان والإقليميين. ولمصلحة هذه الأوساط الاجتماعية انتزعوا من مرؤوسيهـم بدون رحمة كل ما يمكن أن يفضي، وبدون تردد، إلى إرسال فصائل كاملة من الجند لتنفيذ أعمالا عاجلة في إقطاعات كبار المالكين. لقاء هذا، جنى الأباطرة الإيليريين بعض الاستقرار العام، في المجالات الداخلية والخارجية. لكن عهدهم، عادة، لم يكن طويلاً: فكثيراً ما نبهوا بخنجر جنودهم وضباطهم.

كان أشهرهم أورليان (٢٧٠-٢٧٥)، الملقب "اليد الحديدية" لقوته الهرقلية وطاقته الاستثنائية وإرادته التي لا تقبل. أنقذ روما من غزو الألمانس، تحدى الـ"غوت" والفاندال وطرد إلى خلف الدانوب كل أعداء روما الخطيرين؛ واحتل هكذا غنائم لا تحصى وأخذ جمهرة من الأسرى، الذين حلوا محل النواقص من العبيد والمستوطنين على الحدود. وقمع أورليان بوحشية حركات العبيد والمستوطنين. وكرر هذا في الأقاليم، في مصر بخاصة، دمر تدمر (٢٧٢)، اقتاد إلى الأسر الملكة زنوبيا وابنها؛ وعادت الغول المنشقة إلى الحظيرة، بعد أن اعترفت إمبراطورها بتركس، أحد أحفاد بوستيمس الذي، خوفاً من تطور حركة الباغود، اعترفت طوعاً بسلطة أورليان، الذي، لهذا السبب، دعي "المصحح الموحد".

على هذا، كان الصلح والتوحيد مهمين جداً واستقبلا بحرارة. توجب مغادرة داسيا وإخلائها من المستوطنين الرومان على شاطئ الدانوب الأيمن، تأمين خدمة الإمبراطورية، وإحلال على الأرض الرومانية البحث فاندال، باستارن، شبه الوحوش، وبرابرة آخرين، وتوجب تحصين روما بحماس عاجل ورممت الاستحكامات والقلاع الضخمة وبروج أورليان. وكوسيلة تخلص من العقبات المالية، ضربت النقود المزورة

رفض الجمهور قبولها وتداولها، فشبت انتفاضة في روما، لهذا السبب، في العام ٢٧٣. أرثها عمال صك النقود، وسرعان ما دعمتهم كل شرائح السكان الفقيرة.

يشهد سقوط سبعة آلاف جندي من القامعين، عل جبروت ومدى هذه الحركة الشعبية، أو هذا الـ "عصيان النقدي"، كما يسمى عادة. تقلصت الإمبراطورية بشكل رهيب، وتضايقت، وهبط مستوى ثقافة سكانها، لكن تفككها التام والنهائي أرجئ إلى حين.

خمدت الأزمة السياسية، خلال العشرين عاماً من حكم ديوكلتيان (٢٨٤-٣٠٥). وإيلريان هو الآخر، الابن المعتقد، الذي مر بكل المراتب الحربية، عديم اللباقة والثقافة، رفعه إل العرش الضباط الأمراء في جيش الشرق بعد ذبح سلفه نومريان وقتل بيده منافسه أبيير. وسوى بجرأة قتالية، وعاجلة، القضايا الإدارية الراهنة والمعقدة، واضعاً في المقام الأول شؤون الدفاع وتنظيم المؤخرة.

لكنه لم يعد إلى رومان بل اختار مقراً له مدينة نكوميديا، على بحر مرمره، الملازم جداً للسهر على الدفاع عن الحدود الرومانية الأكثر تهديداً، الدانوب والفرات. ولحماية الغرب، اختار شريكاً، "أوغست" آخر، مكسميان، رجلاً من بلاده، ضابطاً فذاً ومحكماً. اتخذ مكسميان عاصمة له ميلانو التي تحمي معاير الألب من جهة جرمانيا والغول، مؤمناً هكذا الاتصال بخط الرين الدفاعي. كان "كل أوغست" يلحق به معاوناً يسمى قيصر؛ ديوكلتيان أخذ غالاريس (الذي أقام إدارته في سيرميم، على نهر الساف *Save*، أحد روافد الدانوب)، ومكسميان أقام إدارته في تريف *Treves*، على نهر موزيل). وزج كل أوغست ابنته من قيصره، مهيناً هكذا خلفاء له: وقرر قتالياً أن يتنازل "كل أوغست" بعد عشرين عاماً، لخليفته. وهكذا استقرت حكومة أربعة قادة عسكريين، كان بينهم وشيجة تفاهم واعتراف بديوكلتيان، الأعم والأقدم بالخدمة، واعتبرت السلطة عامل ترجيح في حال الشقاق.

لقد أعطت هذه القسمة للسلطة لبعض الوقت النتائج المرجوة، من وجهة نظر الشرائح العليا في المجتمع الروماني. توصل الإمبراطوران والقيصران في مدة قصيرة نسبياً إلى التغلب على عدد كبير من المعتصبيين الذين استمروا بالظهور وعلى التمردات الشعبية. وتحدى مكسميان الباغود ودمر مخيمهم الرئيس القائم على نهر المارن في بلد آل

باريزي (٢٨٦). وبالعبايات والإعدامات الجماعية، أعيد "السدهوء" إلى الغول. وجمد قسطنطين كلود محاولة قائد الأسطول الروماني في الشمال، كروزيس، الذي بغى أن يخلق امبراطورية في بريطانيا. وردت أيضاً هجمات الجرمان، الإيزيج، الكارب والفرس. ومكن الانتصار على الفرس من استعادة حامية أرمينيا وتنصيب فيها أحد أتباع روماء، تردات الثالث. ومن جديد أحكم إغلاق الحدود بنهج دفاعي منيع وأقوى من أي وقت مضى.

لكن لترسيخ هذه النجاحات العسكرية، توجب تحقيق تبدلات هامة جداً اجتماعياً واقتصادياً في كل شروط العيش والحياة الاجتماعية الماضية. ومن أجل تحقيق التحالف الجماعي بطريقة أو بأخرى والعمل الأكيد لمصلحة الحكومة المركزية مسن كل سكان الأقاليم الرومانية الذين لا يشكلون سوى كتل مجرد من أي تواصل، وجب السعي إلى نهج استبدادي، مجرب في الشرق منذ زمن. وقضي بدون وازع على كل ما تبقى من الحقوق المدنية، كالحرية الفردية أو الاستقلال البلدي. بدأ الأمر بسلسلة تدخلات عنيفة بسلطة الحكومة في الحياة الاقتصادية وتخفيض قيمة النقد المهلك للناس؛ بسبب افتقاد الذهب (كانت مناجم داسيا قد ضاعت)، تراجعت قيمة النقد الذهبي إلى الثلث. ودنسر الفضة، الذي تدنى بشكل رهيب في أثناء القرن الثالث، تحول رسيماً إلى شبه نقد نحاسي. فاخترقى الذهب على الفور، وطارت قيمته طيراناً مجنوناً أو لاتعرف له بلغة البشر تسمية؛ كما يصف القرار ٣٠١.

ولقد حرضت هذه الحالة حكومة ديوكلتيان على خوض صراع ميئوس منه ضد المضاربة، التي رأها سبب هذه الظواهرات الاقتصادية. يقول القرار ٣٠١، الذي تحدثنا عنه: يعرض نفسه لعقوبة الإعدام كل من احتكر، أو روج لرفع الأسعار، ويوصم بعار "الجريمة غير المحتشمة"، اللص الماهر الذي يضخم ثروته عشرة أضعاف مما يثير الحنق والغضب.

وبموجب القرار ٣٠١، ثبتت الأسعار لكل السلع الغذائية، والأنسجة، والجلود، والمعادن وعربات النقل، والتجهيزات ومواد أخرى، وكذلك الأجور لمختلف صنوف العمال من المياوم الزراعي حتى مهنيي كل المستويات. والموجهون، وحراس المواشي، وحملة الماء، ومنظفو المجاري لا يتقاضون أكثر من ٢٥ دنير نحاسي في اليوم، إن كانوا مطعمين. البناؤون، الحطابون، النجارون، الحدادون، الخبازون، الأكلون على مائدة

صاحب العمل يضاعف لهم الأجر، أي ٥٠ دينيراً؛ والفنان الدهان أو الرسام ١٥٠ دينيراً؛ المحامي، الذي ينظم دعوى ويوجهها إلى من يلزم ٢٥٠ دينيراً؛ معلم المدرسة الابتدائية ٧٥ دينيراً للتلميذ الواحد والشهر الواحد. استاذ اللاتينية، اليونانية والهندسة ٢٠ دينيراً؛ أستاذ الأدب (البلاغة والفصاحة) ٢٥٠ دينيراً، إلخ. "من يخالف هذا الأمر يعرض رأسه"، بهذا التهديد الصريح ينتهي التدخل المفصل لهذه الوثيقة التاريخية الهامة.

كما كان متوقعا منه، لم يأت القرار إلا بتأزيم الفوضى الاقتصادية، وسرعان ما أبطله قسطنطين، خليفة ديوكاتيان.

أمام فشل هذا التجديد المالي والاقتصادي، اضطرت الحكومة إلى اللجوء الصريح إلى نهج الإعانات العينية ونهج الأعمال الإلزامية. وصار المحصول السنوي المساهمة الرئيسية. وبوجب التحصيل، لجأوا كل خمس سنوات إلى إحصاء الناس العام، وكل رأس، حسب حالة أرزاقه، تفرض عليه رسوم لمختلف المساهمات العينية، التي تقرها الحكومة لخمس عشرة سنة. والمزارعون يدفعون من المحصول السنون حبوا، خمرا أو زيتا، أو لحما وسواه، والمالكون الكبار يجيبون، عن الإقطاعات التي يسكنها منتجون مباشرون بصفة مستوطنين، بالتخالص الشامل والمنتظم لهذه المساهمات. ولا يدفع ضريبة نقدية إلا التجار ومهنيو المدن، وكذلك العوام من كان في المدن، لكن هذه الضريبة لم تعد تلعب دورا هاما في ميزانية الدولة. وبالتالي، نفقات إعالة حاشية قصر مكسيان، المقيمة في ميلانو. وصار الإمبراطور الروماني أشبه بهذا الصدد بسلطين فارس السالفين أو دولة الفراعنة.

ولتأمين تغطية مساهمات كل سكان الإمبراطورية، ربطوا بمهنتهم وصناعاتهم: موظفو الدولة، التجار وحواليتهم، المهنيون بورشاتهم ونقاباتهم. الابن يتابع صنعة الأب. والحكام، والخوارة، كما يسمون اليوم، لا يستطيعون تغيير مهنتهم: كانوا ملتزمين بالسير على ما أداه الناس بانتظام عن كل المخصصات العينية وكانوا مسؤولين بكفالة صارمة، عن كل تأخير. والعمال الريفيون من كل العيانات، مزارعون أحرار، مستوطنون وحتى العبيد ثابتون على حصتهم من الأرض، كانوا أكثر ارتباطا بالفئانة. كانوا جميعا مسجلين على قوائم الإحصاء ومرتهنين لضريبة عينية على الرأس اسمها ضريبة الأعناق. وكان المستوطنون قد فقدوا حق مغادرة الأرض. والهاربون، أحرارا كانوا أم عبيدا، يلتقطون

ويعادون مكبلين بالحديد إلى أرضهم وسيدهم. وعلى كبار الملاكين، وبخاصة، على أولئك النبلاء المشيخيين، الملقبين بالـ"أنقياء"، تفرض الحكومة واجب الدفاع عن منطقتهم والسهر على سكانها. وكانوا مكلفين بتحسين بيوتهم، التي كانت تتحول إلى قصور منيعة فعلية، وصيانة قطعان ماشيتهم وتزويد الجيش بالمجندين، المأخوذين من أتباعهم. وكانوا مكلفين أيضاً بفتح أسواق في إقطاعاتهم، وتنظيم التجارة والسهر على تنفيذ لائحة الأسعار، وممارسة حتى وظائف العدالة والأمن، وسواها.

كان جهاز "بيزنطة الرومانية"، كما اتفق على تسميتها بدءاً من عهد ديوكليتيان يذكر بملوك الشرق المستبدين، الذين كانوا على ذلك نسخة مقصودة. كان العاهل يتصرف كإله نزل إلى الأرض. وينادى "المقدس"، والـ"سيد" ويخاطب بصفة الجمع للشخص الثاني *Vous*. يظهر بالطيلسان الشرقي، والرأس محاط بالغار الذهبي. يثبت على هذا التاج أشعة ذهبية منطلقة إلى كل الجهات، كما أشعة الشمس (أورليان هو الذي ابتكر هذا). منذ اعتلائه العرش، تطلبت المراسم السجود بين يديه على الركبتين، قرب قدميه ليقبلاً. كان مقامه مسمى "القصر المقدس"، ومجلسه الأعلى، المسمى آنئذ (اجتماع)، سمي منئذ (لقاء يبقى حضوره واقفين)، لأن أحداً لا يجزؤ على الجلوس بحضرة شخص الإمبراطور "المقدس". سلطته، النابعة من "السيادة" غير محدودة، ولذا سمي هذا الشكل من العاهلية أو الأصح الاستبدادية التي وصل إليها الإمبراطور "هيمنة".

كان المساعدون المباشرون للإمبراطورية محافظ الحاكمية (في عهد ديوكليتيان كانوا اثنين: واحد لكل أوغست وعدة حكام آخرين، على رأس الخدمات الإدارية المركزية، مع جهاز كبير من الموظفين والناسخين. ولتسهيل الإدارة، قسمت الإمبراطورية إلى ١٠٠ إقليم عوضاً عن ٤٧ بصورة تقلص الحافز الأرضي لحكامها من مختلف الصنوف: محافظون، مصححون ورؤساء الحامية، حسب سعة وأهمية الإقليم بسبب صعوبات النقل، ورداءة الطرق، وسوى ذلك. والأقاليم، الأقل مساحة، اجتمعت في ١٢ أسقفية، دوائر إدارية، أكثر اتساعاً. على رأس الأسقفيات وضع "ممثلو محافظ الحاكمية"، مرتبطون مباشرة بهذا الأخير. وكانت السلطة العسكرية، المستقلة أبداً عن السلطة المدنية، بين يدي قادة الفرق الإقليمية؛ كان قسم كبير من الجيش حاميات في الأقاليم، لصيانة واستقرار النظام والأمن، بينما لم يترك لمواكب الإمبراطورية سوى أفواج محترفة من "حرس-

الحدود". بسبب بعثرة هذه القوات، تقلص عناصر الفرقة إلى ١٠٠٠ رجل، وكبر عدد الفرق كثيرا: كان عندهم حتى ١٧٥ فرقة؛ في القرن الرابع. كانت هذه التدابير تهدف إلى تنظيم مراقبة متبادلة لمختلف السلطات الإقليمية وتجعل ظهور المعتصبين أكثر صعوبة. يخبر المكلفون أو الأتباع الخاصون الذين يجوسون الإمبراطورية كلها، بالتفصيل الحكومة المركزية عن الطوارئ والمفاجآت. كان هذا التكاثف في الوظائف يفرض حملا جديدا على الناس.

وكما الاستبداد الشرقي، فتشت العاهلية الرومانية عن سند إيدولوجي في الدين. كان أورليان قد حاول تجديد وبعث الدين الوثني القديم بدعاية نشطة لعبادة الشمس. ودعم ديوكليتيان ما استطاع، بهدف إلباس السلطة الإمبراطورية الدعامة الدينية، إحياء عبادة جوبيتر، الذي أعلن نفسه ابنا له. ولهذه الاعتبارات اضطره المسيحيين بوحشية في العام ٣٠٣، معتبرا إياهم مدنساة تعرقل قداسه وتهدم الأسس الإلهية لسلطته. طرد المسيحيون من الجيش، حرمت اجتماعاتهم، دمرت بيوت عبادتهم وأحرقت كتبهم. وأهلك العديد من كهنتهم وأساقفتهم، وفرض على مؤمنهم التضحية للألهة السابقة، تحت طائلة التعذيب. هذا ما دعي في تاريخ المسيحية، "الاضطهاد الأعظم"، واعتبر بعده كل العنف الذي تعرض له المسيحيون مرارا على يد أباطرة آخرين أمرا بسيطا.

كان متم عمل ديوكليتيان، لتحويل الإمبراطورية الرومانية إلى وضع استبدادي من النمط الشرقي، قسطنطين، الابن الطبيعي لقيصر قسطنطين كلور (هيلين، أم الإمبراطور الجديد كانت خادمة بسيطة في حانة للعسكر). كان يذكر أورليان بقوته البدنية الاستثنائية. وفي العام ٣٠٥، لما تخلى ديوكليتيان، المخلص للمبدأ الذي وضعه هو بالذات، حول مدة خدمة الأباطرة تخلى رسميا عن العرش وفرض على شريكه مكسميان أن يقتدي به، ولما كان القيصران على رأس عملهما، غالريس في الشرق وقسطنطين كلور في الغرب، دار صراع رهيب بين القيصرين الجديدين والأوغستين.

وهكذا فتح عهد آخر من الفوضى الدموية. في أثناءها تذابح الخصوم بوحشية، وهلكت النساء بهذه المناسبة والأولاد وأنصار المدحورين. أخيرا، بقي قسطنطين منتصرا على كل منافسيه، أو الذين أرسلهم إلى العالم الآخر، وصار في العام ٣٢٣ سيد الإمبراطورية الرومانية الوحيد، وبعد تجربة ١٨ عاما من الحروب الداخلية، تخلى عن

نهج الولاية الربعية الذي أقامه ديوكلتيان. وأخذ نظام العاهلية المطلقة بين يدي قسطنطين شكله الأتم والأنجز.

ولدعم وتوطيد نهائي لهذا النظام الاستبدادي، غادر قسطنطين روما إلى غير رجعة، وفي العام ٣٣٠، أعلن رسمياً بيزنطة، المدينة اليونانية القديمة عاصمة للإمبراطورية. وبعث فيها مجلس شيوخ في مقام الحكومة، لم يتخلف عن إحاطة نفسه بأروع الصروح الحكومية، والمعابد الأبدية، سمي أكثرها باسم قسطنطين: مدينة قسطنطين. قاطعاً الصلة بوضوح، بهذا التصرف وفي غيره، مع التقاليد القديمة، وأنجز قسطنطين بجرأة، جملة من القرارات والمراسيم، إذ فرض نظام الخدمة على كل الناس، ووضعه بتصريف الدولة. وبعد تأمين سلطتهم، عاد الحق عملياً إلى السادة في جلد العبيد حتى الموت، كتدبير "إرشادي". سمح للأبناء أن يبيعوا أبناءهم. وحرّم بحزم، ليس فقط المستوطنون المكبلون بالحديد (القانون ٣٣٢)، بل أيضاً الكهنة، المهنيون والتجار ممن تركوا أعمالهم ومكان إقامتهم الدائم. وكان عدد الموظفين يربو بدون توقف، ولم يعد الجهاز الإداري أكثر من أداة وحشية لاضطهاد لا يحتمل، ينيخ بغلظة على كاهل الجميع.

كان قسطنطين المتطير، قليل الثقافة يبحث متحمساً عن سند ودعم سلطته في الدين، متبعاً في هذا، وبكثير من الجرأة أيضاً، منحى أسلافه. ومهما قست حكومات ديوكليان وخليفته غالريس وأحد القياصرة الجدد، مكسميان دييا Daia، فقد بدا محالاً استئصال المسيحية. التي صارت قوة اجتماعية جبارة وجيدة التنظيم. كان فسي كل مدينة عدة تجمعات مسيحية، بأساقفتها، كهنتها، وشمامستها، وتمتلك مصادر غنية. في الإدارة، كما في الجيش، كان الكثير يدافع عن المسيحيين ويتبنى طروحاتهم: وفي قصر ديوكلتيان بالذات تعاطفتا معهم زوجته بيسكا وابنته فاليريا. وقبصر قسطنطين كان يحترمهم، ولا ينفذ قرارات ديوكلتيان ضدهم على أرض الغول وبريطانيا، الخاضعتين لسلطته. وأجبر الإمبراطور غالريس أيضاً في العام ٣١١ أن يضع نهاية "لاضطهادهم".

منذ مجيئه، انخرط قسطنطين في هذا الطريق ووجد دوماً سنداً قوياً حول الكهنوت المسيحي، في نضاله الطويل والعنيد ضد منافسيه. لذا، منذ العام ٣١٣، بعد انتصاره على مكسانس (ابن مكسمين)، الذي سيده على إيطاليا، أصدر بالاتفاق مع لوسينس، الذي كان أنفذ شريكه في التاج، قرار ميلانو الذي يعطي الحرية كاملة لجميع المتعبدین في كل

الأديان، بما فيها المسيحية. وقبلت التجمعات الدينية أن تساهم ببناء الصروح المدمرة، وإصلاح الأراضي والأطيان التي صودرت في أيام الاضطهاد الأكبر. وما صار قسطنطين عاهلاً مطلقاً، حتى شرع يعامل الكنيسة المسيحية على خير وجه، وأعفى وزرائها من التعويضات والسخرة. وقدم قصره لائتران هدية لأسقف روما. ومع أمه هيلين، اهتم ببناء معابد مسيحية في فلسطين، بيت لحم، غولغوتا والقدس. رغم أنه لم يهتد إلى المسيحية إلا على فراش الموت، وأنه حافظ حتى النهاية على لقبه كحبر أعظم وبنى أيضاً بحماس شديد معابد للآلهة السالفين في عاصمته، وأعطى الكنيسة المسيحية وضعاً متميزاً فعلاً. وكان هذا الوثني، اهتماماً منه بوحدة الكنيسة، يعطي توجيهات تخص مختلف قضايا الكهنوت، ولذا حضر مجمع نيقيا في العام ٣٢٥، الذي كان مسرح مناظرات لاهوتية حامية حول: هل الابن "يشارك الأب في الجوهر" أم "يشبه الأب"، وحيث أعد أعقد "رمز إيماني"، المعروف برمز نيقيا.

وهكذا تحولت الكنيسة المسيحية إلى وسيلة جديدة وقوية بيد السلطة الإمبراطورية. وانصب الاضطهاد منذ الآن على البدع والهرطقات الدينية كجرائم على أمن الدولة، توقع ضرراً بالأيديولوجيا الرسمية؛ وبعد مجمع نيقيا، أبعد قسطنطين وسجن كـ"متمرد" كاهن الإسكندرية أريس الذي، مع أنصاره الـ"أريين"، تجرؤوا أن يدعموا، في القضايا الدينية، وجهات نظر أخرى لما تبناه الإمبراطور وذاك المجمع المطيع الخاص له. لكن، وقد عدل الإمبراطور رأيه، استدعي أريس من المنفى، وأرسل مكانه خصمه الأسقف أثناس، زعيم غالبية "أباء" نيقيا. وأضيف إلى أشكال الاضطهاد الحكومية الممارسة، بالتالي، الاضطهاد الديني، وهكذا رأى الشعب انطفاء آخر أشعة الحرية.

احتضار وسقوط إمبراطورية العبودية الرومانية

كانت الـ ١٥٠ سنة الأخيرة من حياة الإمبراطورية الرومانية أعوام احتضار مؤلم. ففي كل أمصار العالم العبودي للبحر المتوسط الملتئم تحت هيمنتها، كان يتتابع، بعد موت قسطنطين (٣٣٧)، تفكك النهج الاقتصادي المبني على استغلال الكدح العبودي وخور طبقة مالكي العبيد، متزامناً مع تجدد مستمر لنشاط الحركة الثورية لدى الشرائح السفلى والغزوات البربرية؛ وكان يتشكل في الوقت ذاته، في الأقاليم الإمبراطورية، دول عديدة، تخضع لتجمعات مهيمنة أخرى ونظام آخر لم يعد عبودياً. كان هذا النظام الأخير، وهذا

صحيح، مستمر منذ سنين طويلة، لكنه عوضاً من أن يشكل أحد أسس التقدم الاجتماعي صار منذ زمن عقبتة الرئيسية؛ وإلى جانبه، كانت أشكال أخرى من العلاقات الاجتماعية تزداد أهمية.

قد اتسع وتسارع انهيار النظام العبودي في أثناء القرنين الرابع والخامس. ولقد حولت القرارات الحكومية التي تخص عادة هذا الإقليم أو ذاك، شيئاً فشيئاً، على كل أصقاع الإمبراطورية، المستوطنين إلى "عبيد الأرض" من الأب إلى الابن، وملكي الأرض إلى "سادت"هم و"حماتهم" الطبيعيين. وبديء باعتبار أرزاق المستوطنين الشخصية ملكاً لسيادة التراب، وحرّم الزواج بين المستوطنين ومن يعتبر حراً بالقانون. على ذلك. كان اهتمام الحكومة الرئيسي بحجم المساهمات الزراعية العينية، وبخاصة، ضريبة الأعناق، وأيضاً بمختلف أنواع السخرة المتوجبة للدولة، لشق الطرق وترميمها، والنقل والورشات العامة، وغيرها، الأمر الذي أدى ليس فقط إلى قمع هرب المستوطنين بل اشتداد القسوة عندما يطرد السادة المستوطنين من الأرض. كان هؤلاء الآخرون معتبرين دافعي خراج، "مرتبطين بالقنانة الزراعية"، كعبيد الأرض، لكن ليس لسيادتهم؛ بيعهم بدون الأرض، ولا يبيع الأرض بدونهم ولا انتزاعها منهم بأي شكل.

كانت الدولة تسعى إلى تحديد المداخل التي يدفعها المستوطنون إلى المالكين (ثلاث المحصول عادة)، لتتجنب عجز المستوطنين المرهقين عن دفع المساهمات المتوجبة للدولة التي تشكل طبعاً ثلثاً آخر من إيراداتها. وهكذا تساوى "عبيد الأرض" (قانون ٣٦٦)، مع المستوطنين. لم يتحسن وضعهم، وهذا صحيح. إلا قليلاً، استناداً إلى شهادة كاتب كنسي في بداية القرن الرابع، القديس يوحنا فم الذهب؛ يقول: "كانوا يعاملون المستوطنين كالبغال أو الحمير، بل الحجارة، ولا يسمح لهم بالتألم أو الشكوى". إجمالاً، كان وضع مستوطني القرنين الرابع والخامس أقرب إلى وضع العبيد منه إلى وضع ألقان عهد الإقطاع.

بنفس الطريقة كان المهنيون مرتبطين إلى ورشاتهم. كانوا جميعاً خاضعين للإحصاء وملتزمين أن يدفعوا للدولة مداخل عينية. وقد أجبروا على تشكيل روابط متحالفة بكفالة متضامنة. وكان لفروع الإنتاج الأهم للجيش، والقصر والإدارة بشكل عام (المناجم، السلاح، البناء، النسيج) مشاريع الدولة الضخمة حيث يعمل العبيد، المدينون، والعمال

الأحرار. وكان محرماً على هؤلاء وبحزم ترك مهمتهم؛ وكنا من يعمل بشؤون التسليح موشومين بالحديد المحمى. وكان أبناء الجند منذ السادسة عشرة من عمرهم يسجلون فسي قوائم الخدمة العسكرية، ويوضع وشم على ذراع هؤلاء المجندين. والمعدمون، واللصوص، وبشكل عام، الأحرار قانوناً، بدون مهنة محددة، كانوا يوضعون تحت وصاية أولئك الذي كانوا قد "ذكروا بظالتهم" أو أرسلوا إلى بيوت العمل، "لأن لا يبقوا عبداً على الأرض".

كان كل المالكين الصغار: العائشين في المدن ويملكون قطعة أرض من ٢٥ دونماً، مسجلين بين المشيخين؛ مشكلين الشريحة العليا من سكان الريف، يشغلون مناصب قضائية بلدية، ويكلفون بإعادة توزيع الضرائب والمخصصات المطلوبة من المدن. كان وضعهم قد انهار فراح كل منهم يهرب كما يستطيع من مهامه الشرعية: التحق أكثرهم بالجيش، تزوجوا من عبيد، ليسجلوا بين هؤلاء الآخرين، إلخ؛ لكن المعوزين والفارين هؤلاء كانوا يطاردون، ليعادوا بالقوة إلى شرطهم المسجل بالولادة أو بالثروة.

تبرز هذه اللوحة من الفقر والاستعباد، بتناقض واضح، الثروة والسلطة التي يجنيها بعض الأفراد من الشرائح العليا، وبخاصة، حاشية القصر، وندماء الأباطرة وملتقيهم، وقادة الجيش، وكبار المالكين العقاريين من نبلاء مجلس الشيوخ. والأرض، وقد صارت القيمة الكبرى، دفعت الأغنياء والقادرين المتنقلين إلى السعي بكل السبل لتوسيع أطيافهم، التي تنامت بنسب لا سابق لها. إن الدارات الحصينة الباذخ ذات القاعات البهية، المبلمطة بالخزف، المجهزة بالتدفئة المركزية، وحدائقها ذات الأشجار المقلمة بأشكال خيالية، وأحواض السمك والحقول على مد النظر، حيث تعمل "قطعان العبيد" وصفت بحماس بأقلام الشعراء، بخاصة أوزون (القرن الرابع)، في قصيدته موزيل *Moselle*، وسيدوان أبولينير (القرن الخامس) في كتابه "رسائل". إن هؤلاء الأشخاص "الشهيرين"، الذين أدركوا الحياة جيداً، كانوا يحولون مجالاتهم إلى أشكال الدول المستقلة، حيث يتهربون من تنفيذ القرارات الإمبراطورية؛ يسعون إلى إعفاء أنفسهم وضمهم من أداء الضرائب، آخذين لخدمتهم الشيوخ الهاربين ويشدون إلى أرضهم مستوطني الآخرين. يكرهون القصبات والقرى المحيطة على اللجوء إلى حمايتهم؛ وكان الناس الأحرار في التجمعات الريفية المجاورة والفلاحون الصغار مكرهين على التسليم بملكيتهم لهم

ولأرزاقهم، التي منحت لهم وقتياً، لتحمي من اغتصاب أتباعهم وكيد الجنود والموظفين الإمبراطوريين. لقد ناضل أباطرة القرنين الرابع والخامس ضد هذا الشكل من منح الأرض، وهدد بمصادرة أرزاق أولئك الذين يعطون حمايتهم كأولئك الذين يسعون إليها، لأن هذا النهج يضر بمدخيل الخزينة، ويرى السادة أنفسهم أقوى من الدولة المركزية ولا يبالون بتعليمات الحكومة. ولقد ساهمت الحماية كثيراً بتوسيع أرزاق الكنيسة لأن كبار الموظفين الإكليركيين، بفضل وضعهم الممتاز، شرعوا، هم أيضاً، بتقليد السادة الكبار من الوجهة الروحية. إذ تطوعوا لحماية كل "الضعفاء" وأراضيهم وأرزاقهم الأخرى، التي لا تترك لهم إلا كامتياز مجاني" بشرط تأدية مختلف الخدمات والمخصصات لصالح شفيعهم الروحي.

لقد وضع جشعهم للسيطرة ممثلي الشرائح العليا، وكبار مالكي الأرض، الوقتين والروحيتين، في مواجهة دائمة مع السلطة المركزية وأجهزتها المحلية، سادة ومشرفي الأقاليم، وكلاء الأسقفيات وأتباعهم الكثر. من هنا انبعث فيما بعد النظام الإقطاعي، مع التجزئة والتقسيم الذي يميزه. فكلما توطدت هذه القوى المبعدة عن المركز، ضعفت السلطة المركزية، وضاعت جهودها لحماية استمرارية ووحدة هذا المجتمع المتفكك المعارض لتوجهاتها التوحيدية.

فضلاً عن هذا، وبعد قسطنطين، نادراً ما وجدت السلطة المركزية، وضاعت بين يدي شخص واحد. فموت قسطنطين قسم الإمبراطورية، وكأنها ملكه الشخصي، على أولاده الثلاثة وحفيديه. كان بكر هؤلاء القياصرة، الأجلء، قسطنطين الثاني، في العشرين من عمره، والأصغر في الرابعة عشرة. فالصراع الدموي بين الأخوة، الذي كان المصلحة الطبيعية عن هذه الوصية، تأزم أكثر بظهور عدد من الطامعين والمغتصبين، دام ١٦ عاماً وانتهى في العام ٣٥٣ بظفر أصغر أبناء المتوفى، قسطنطين الثاني. وسرعان ما نهض ضده ابن عمه جوليان الذي نجح بتوطيد السلطة دون اقتسام خلال سنتين (٣٦١-٣٦٣). وضد تجبره وتحكم نبلاء الأرض الكبار، سعى جوليان إلى عون الشرائح الوسطى وفقراء المدن.

لكن الصراع الأشرس ضد الكهنوت الكنسي المغتني ومحاولته اليائسة، لبعث الوثنية اللاعبة، أفضت إلى فوضى أعمق من كل الاضطرابات التي حدثت في عهد كل الأسر

المستبدة. لقبت الكنيسة بـ"أبوستاتا" *Apostat* هذا المدافع الأخير عن الدين الوثني القديم والثقافة السابقة الدنيوية. فبعد موته (هلك في إحدى الحملات الفاشلة ضد الفرس)، تجزأت السلطة حوالي ٢٠ عاما، خلالها حمل التاج أحيانا فتيان بل أطفال، مثل غاليان (في الرابعة) وفالاتيان (في الثانية).

ولآخر مرة اجتمعت الإمبراطورية بين يدي تيودوسيوسن رجل الحرب (٣٧٩-٣٩٥). فقد قسى جدا ضد المعتصبيين وضد الاضرابات الشعبية. وفي تسالوميك، دفع الجنود إلى السيرك وقطعوا رأس سبعة آلاف مواطن، انتقاما لأحد قاداتهم، قتل في هذه المدينة. وكذلك، صارع بدون رحمة ضد مخلفات عبادة الأوثان؛ أمر بتحطيم المعابد المعجزة، مثل ساربيم في الاسكندرية وحظر تحت طائلة الموت الطقوس، والأضاحي والاحتفالات الوثنية. وبحث بحماس عن رعاية وعطف الأساقفة وشخصيات الكنيسة الأعيان، راغبا في أن يجد في تأثيرهم على الناس دعما للسلطة الإمبراطورية المزعزعة. وهكذا خضع بتذلل للإدانة القاسية التي أنزلها به مطران ميلانو، أمبرواز عقابا له على مذبح ميلانو، وتحمل بصبر عقوبة الحرمان المؤقت. لكن تيودوسيوس على فراش الموت، رأى جيدا، هو الآخر، أن يقسم الإمبراطورية الرومانية بين ولديه القاصرين: أركاديس إمبراطورا في الشرق وهونوريوس إمبراطورا في الغرب. وسمى بربريين وزيرين لرعاية الشابين: وضع الغولوا روفن إلى جانب أركاديس وفاندال سيتكون إلى جانب هونوريوس ومننذ صار شعار النسب الإمبراطوري تسر برأسين. وانطلاقا من هذه الحقبة (٣٩٥)، قسمت الإمبراطورية فعلا إلى شطرين شطر غربي وآخر شرقي، سمي فيما بعد الإمبراطورية البيزنطية.

في هذه الحالة من الانحطاط التام والانهيار الكامل الشامل، تلقت الإمبراطورية الرومانية طلقة الرحمة من القوى الثورية التي كانت تعمل ضدها بزخم ما يزال يتسع ويتسع. إن الحركات الشعبية في نهاية الإمبراطورية الرومانية لم تدرس جديا حتى الآن، لكن يمكن مع ذلك ملاحظة نمو هذه الحركات حيثما توجهنا.

ولقد كانت رهيبه بخاصة في الجزء الغربي من الإمبراطورية حيث كانت الملكية الزراعية مزدهرة بشكل فريد. وفي العامين ٣٦٨-٣٦٩، كانت بريطانيا مسرحا لاضرابات مدعومة من الجنود بسبب تأخر دفع رواتبهم، جعلت الاضطرابات العنيفة

الجزيرة كلها فريسة الجبليين السكوت والبيكت (الإكوسيين)، المستقلين عن روما. وبعد جهود مضنية استطاع "الكومت" (القائد الحربي) تيودسيوس، والد الإمبراطور أن يجمع الحركة الشعبية والتصدي لهجمات السكوت. وفي ذلك الوقت، شبت من جديد في منطقة الغول كلها انتفاضة الباغود، التي ظلت مهملة لبعض الزمن، ولم تجد من يذكرها، بعد الهزيمة التي ألحقها بها مكسميان شريك ديوكلتيان بالإمبراطورية.

في نهاية القرن الرابع، امتدت هذه الحركة إلى إسبانيا، وفي منتصف القرن الخامس، أخذت نسب الحرب الفلاحية الجبارة. وفي الوقت ذاته "امتشق السلاح كل العبيد تقريبا وانضموا إلى الباغود"، كما يفيد كاتب حوليات معاصر.

وفي الإقليم الإفريقي في نوميديا وموريتانيا بخاصة، انتشرت، في العام ٣٤٠ حركة طوراً يخفيها الرماد، ثم تشب مجداً، سميت حركة "المصارعين" (أبطل الله) أو "المشردون"، كما يسميهم أصحاب العقارات. وكان الريفيون، وقد عاشوا البؤس حتى الثمالة، يشكلون "تجمعات واسعة من الرجال والنساء الهائمين على وجوههم"، حسب تعبير أوغستان، أحد كتاب بداية القرن الخامس. وكان العبيد الفارون يلتحقون بهم أو كما يقول أوغستان ساخراً "يضعون أنفسهم تحت حمايتهم". وكان المصارعون يعتبرون المسيحيين "الحقيقيين"؛ وكانوا سيصفون بالخيانة والمكر أولئك الذين يظلون خاضعين للسلطات، ويسمون الأغنياء أبناء الشيطان. كانوا ينهبون الملكيات الكبيرة، يحرقون الدارات، ينهبون مالكيها، ولا يوفرّون أعضاء الإكليروس المغتربين ويدمرون الكنائس. ما كانوا يكتفوا بضربنا بالعصي والسيوف، يقول أوغستان بل يخربون لنا أبصارنا بالكلس والخل، بقسوة لا سابق لها، يسرقون بيوتنا، ويجيوشهم الجرامة يجوبون البلاد باذرين الدمار، النهب والحرائق". وتتضم هذه الشرائع المعدمة إلى قطعان البربر الراحلة أبداً ويخوضون مع القوات الحكومية معارك منتظمة حقيقية. وفي العام ٣٧٢، دمر شيخ البربر فيرمس، زعيم إحدى هذه الحركات، عدداً من المدن على ساحل موريتانيا، استولى على قيصرية وطلب من الإمبراطور أن يشركه بالسلطة. فأرسل إليه محمد فتن بريطانيا، تيودسيوس، المرفع إلى رتبة سيد الفروسية، وليس إلا بعد سنتين من القتال الضاري استطاع أن يعيد "الأمن" إلى أفريقيا، كما فعل في الجزيرة.

وانطلاقاً من العام ٣٧٥، يصير وضع الإمبراطورية الرومانية أكثر فأكثر مأساوية.

تيار جديد من البربر يتخطى الحدود، نتيجة ما عرف بهجرة الشعوب الكبرى. ومن حدود الصين الغربية تتوافد إلى السهوب الأوربية مجموعات القبائل من الهان (هيونغ-نو)، التي صارت سيدة الحوض الشمالي للبحر الأسود، من الدون حتى الكاربات. وخضعت لهم الشعوب التي سماها الكتاب "الغوت"، لكن مجموعة أخرى من الوزغوت أو الغوت الغربيين، طردوا من موطنهم القديم، اجتازوا الدانوب وأقاموا عند تخوم الإمبراطورية. وأكرهوا الحكومة الرومانية أن تخطى لهم ميزيا *Mesie* وشطرا من تراسيا وأن تقبلهم بصفة حلفاء. ولقد تمرد الحلفاء الجدد غير الراضين عن النظام الإمبراطوري وتكبد ومضايقات الموظفين: شبت انتفاضة جبارة، دعمها مستوطنو البلد، وعمال مناجم تراسيا والعيبد. أبادوا جيشا رومانيا قرب أندرنوبل، وهلك الإمبراطور فالانس في المعركة (٣٧٨).

تمكن الإمبراطور تيودوسيوس من تهدئتهم لبعض الوقت بإعطائهم أراض جديدة في تراسيا ومقدونيا، لكن بعد موته، عاد الوزغوت إلى القتال. وبقيادة ملكهم الأريك، نهبوا شبه جزيرة البلقان، ثم التفتوا نحو الغرب، مشوا إلى إيطاليا تغلغلوا في نفس الوقت، من جهة الشمال، في الفاندال والبرغوند، سالكين مضايق الألب. استطاعت قوات ستلكون، جنرال إمبراطورية الغرب هونوريس أن تحمي إيطاليا من غزوة البربر، بفضل العم الآتي من بريطانيا، الغول والرين. لكن ستلكون، ضحية المكائد النموذجية في القصر الروماني الممزق هلك على يد هونوريس وانصب على البلد طوفان حقيقي من البربر. توقف الوزغوت في إيطاليا، وفي العام ٤١٠، طوق الأريك روما. توافد العبيد إلى جيشه في كل إيطاليا، تمرد عبيد روما، فتحوا له الأبواب، وبالاتفاق مع الغوت، أخضعوا المدينة إلى نهب رهيب وأحرقوها. مع ذلك، أخلى الوزغوت إيطاليا، وفي طريقهم نحو الغرب، أقاموا في أكتانيا على ضفاف الغارون وشمال إسبانيا. وجنوب شبه الجزيرة احتله الفاندال، الذين عبروا من هنا إلى إفريقيا، التي راحت ضحية حرائق التمردات الشعبية، واحتلوا قرطاجة. في غضون ذلك، كان شمال الغول قد سقط في أيدي الفرائك، وكان شطرها الغربي قد احتله البورغوند.

وبدءا من العام ٤٥٠، صار وضع الإمبراطورية أكثر خطورة: تغلغل الهون، في عهد أتيل، الملقب "ذراع الله"، تغلغلوا حتى الغول، لكنهم ردوا على أعقابهم بقوة الفرائك

الجيدة التنظيم، والوزعوت والبورغوند، المقيمون في البلد، بقيادة الجنرال الروماني إتيوس (معركة حقول كتالونيك، على ضفاف المارن، ٤٥١)، انقضوا على شمال إيطاليا، ونهبوا حتى أتروريا ذاتها. وفي العام ٤٥٥، احتلت روما مرة ثانية ونهبت بدون رحمة بقيادة فاندال جنسريك الآتي من أفريقيا عن طريق البحر مع عصاباتة المقاتلة. بعد نهب روما هذا، لم يبق في المدينة سوى سبعة آلاف قاطن: كان آخر الأباطرة قد كفوا منذ زمن عن اعتبارها عاصمة واختاروا مقاما لهم رافين، المحمية ذات المستنقعات غير السالكة. وكانت إيطاليا كلها تخص بالبربر: كانت قواتهم المرتزقة هي قوة الأباطرة المقاتلة الوحيدة. وفي العام ٤٧٦، رأى قائد أحد هذه الجيوش البربرية، مصفي التركية، أو دواكر، أن الغرب لم يعد بحاجة لإمبراطور: فأرسل الشعارات الإمبراطورية إلى القسطنطينية، وأقصى الإمبراطور الصغير روملس أوغستول إلى إحدى دارات كامبانيا وأعلن نفسه ملك إيطاليا. لذا اعتبر العام ٤٧٦ عام سقوط إمبراطورية الرومان العبودية الغربية. وانتقلت السلطة كليا إلى زعماء من مختلف الأمم الجرمانية.

وقد وقعت أحداث مماثلة في النصف الشرقي من الإمبراطورية، حيث كان السلاف، مع العبيد والمستوطنين، هم الذين لعبوا في القرنين الرابع والخامس دور حافري قبر الإمبراطورية. كانوا معروفين لدى تاسيت باسم فينيد. وفيما بعد بدى بذكر أمة سلافية أخرى: الآنت. شكلوا جزءا من تحالفات الشعوب التي يسميها الباحثون اختصارا الغوت، ثم الهانس. وفي القرن الرابع ظهرت لأول مرة كلمة سلاف تحست سنن قلم المؤرخ الإغريقي بروكوب، في كتابه 'تاريخ حروب جوستينان'.

كتب بروكوب بالتفصيل غزوات السلاف المستمرة، الذين "يعيشون على مساحة كبيرة من ضفاف إستر (الدانوب)، في الجهة الأخرى من النهر". ورغم جهود الإمبراطور جوستينان (٥٢٧-٥٦٥) لإعادة بناء خط دفاعي للدانوب، ظل الدانوب أبدا ممرا للبربر، والأرض الرومانية كلها مفتوحة لغزواتهم (٣، ١٣). "في إيليريا وفي كل تراسيا، أي في اليونان كلها، من البحر الأيوني حتى ضاحية بيزنطة، منذ بدء عهد جوستينان في الإمبراطورية الرومانية، كان الهانس، السلاف، والآنت، في أثناء غزواتهم المستمرة، يكبدون سكان هذه المناطق ألما لا تطاق. أعتقد أن كلا من هذه الغزوات كلفت الرومان مائتي ألف قتيل وسجين، بحيث صارت البلاد أشبه بصحراء سيبيا *Scythie* (بروكوب، تاريخ سري، ٨، ٢٠).

بعيد هذا، في عهد خليفة جوستينيان، في نهاية القرن السادس، لم يعد السلاف يكتفون بهذه الغزوات الدورية، بل بدؤوا يتجولون جماهير في شبه جزيرة البلقان كلها. هذا ما يثبته في عمله "تاريخ الإكليروس" جان إيفيز، مؤرخ آخر من القرن السادس، مشكلاً صدقاً للضائقة التي سيطرت في الأوساط الحاكمة في الإمبراطورية: "بعد ثلاث سنوات من موت جوستان وبعد عهد تيبير (في العام ٥٨١)، غزت أمة السلاف اليونان الكبرى - هيلاد - كلها، وفسالونيك، وأقاليم تراسيا، واستولت على مدن عديدة وحصون حصينة، حارقين ناهبين ومسيطرين على كل البلد، حيث تقيم منتصرة، كما على أرضها بالذات... يدمرون، يحرقون، يسرقون البلد حتى جدران السور (من القسطنطينية)؛ واختطفوا قطعان الامبراطور وغيرها من الغنائم. وهكذا عندما وجدوا، واستقروا وسرقوا الأقاليم الرومانية، فاعتنوا، ادخروا الذهب والفضة، وقطعان الأحصنة وأكوام الأسلحة. وتعلموا بل أجادوا خوض الحرب خيراً من الرومان، الذين كانوا حتى أمس القريب فظين، وما كانوا يجرؤون على الخروج من غاباتهم وسهوبهم (٦، ٢٥) وصحيح أيضاً أن شطر الإمبراطورية الشرقي عرف، خيراً من الغرب، أن يتلائم مع الظروف الجديدة ويعيد تنظيم واستثمار اليد العاملة العبدية في الاقتصاد الإقطاعي: وهكذا عاشت بيزنطة القرن الوسيط قرابة ألف عام، حتى ١٤٥٣، عام احتلال الأتراك القسطنطينية.

هكذا تم، في منتصف الألف الثاني الميلادي، أقول النهج المؤسس على العبودية. وانطلاقاً من نهاية القرن الثاني، تباطأ بوضوح تطور التفكك الاجتماعي بسبب وجود دكتاتورية الشرائح العسكرية الاستعبادية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية. لكن هذه الإمبراطورية، بقمعها الحركات الثورية للعبيد، للمستوطنين، وفقراء المسد، والتضحية لصد غزوات "البربر" بكل أرزاق الطبقات الشعبية، وبكل الإنجازات الثقافية السالفة، لم تكن تفعل سوى تكتيل ضدها كل القوى الثورية وأعدائها الخارجيين، الذين صفوها نهائياً، وغيبوا نجمها، وكل النظام الاجتماعي الذي بنته.

فهرس الجزء الثاني

٣٣٥	الفصل الثاني والثلاثون: حرب البلوبونيز
٣٦٧	الفصل الثالث والثلاثون: الحصار اليونانية في القرنين الخامس و الرابع ق.م
٣٨١	الفصل الرابع والثلاثون: اليونان في النصف الأول من القرن الرابع ق.م
٣٨٩	الفصل الخامس والثلاثون: الطاقة المتنامية لمقدونيا. حملات الإسكندر الكبير
٣٩٩	الفصل السادس والثلاثون: الدول الهلينية
٤١٣	الفصل السابع والثلاثون: اليونان الهلينية
٤١٩	الفصل الثامن والثلاثون: الساحل الشمالي للبحر الأسود
٤٢٧	الفصل التاسع والثلاثون: الحضارة الهلينية
٤٣٣	تسلسل الأحداث تاريخياً
٤٥٣	الفصل الأربعون: مناهل وتدوين التاريخ اليوناني
٤٥٧	الفصل الواحد والأربعون: إيطاليا القديمة
٤٦٣	الفصل الثاني والأربعون: إيطاليا وروما في عصر العشرة (القرن العاشر-السابع ق.م)
٤٦٩	الفصل الثالث والأربعون: تفكك مجتمع العشرة في روما (القرن السابع-السادس ق.م)
	الفصل الرابع والأربعون: روما في وضع حرج في الخارج أول استقلالها
٤٧٧	(٥٠٠-٣٥٠) ق.م. عسكري المجتمع والأخلاق
	الفصل الخامس والأربعون: القضاء على مخلفات العشرة. نهاية النظام القبلي
٤٨٧	وتشكل المجتمع الطبقي والدولة في روما
٤٨٧	الفصل السادس والأربعون: فتح إيطاليا وتشكل الاتحاد الرومي- الإيطالي
	الفصل السابع والأربعون: الصراع بين روما وقرطاجة من أجل الهيمنة على
٤٩١	غرب البحر المتوسط

٥٠٥	الفصل الثامن والأربعون: بداية الهيمنة الرومانية على الشرق
	الفصل التاسع والأربعون: سحق حركات التحرر الوطني واستتباب الهيمنة
٥٠٩	الرومانية على المتوسط
٥١٥	الفصل الخمسون: انطلاق الامبراطورية العبودية الرومانية في القرنين ٣ و ٢ ق.م
٥٢١	الفصل الواحد والخمسون: ظهور المزارع الكبيرة وطرد طبقة الفلاحين من الأرض
	الفصل الثاني والخمسون: الثورة الثقافية في روما في نهاية القرن
٥٢٧	الثالث حتى بداية القرن الثاني
٥٣٣	الفصل الثالث والخمسون: بدء الحركة الثورية لدى العبيد
٥٤١	الفصل الرابع والخمسون: الحركة الديموقراطية في روما وإيطاليا (١٥٠-٩٠)
٥٥٧	الفصل الخامس والخمسون: بداية الدكتاتورية العسكرية العبودية. سيلا
٥٦٩	الفصل السادس والخمسون: أزمة النظام الجمهوري
٥٩١	الفصل السابع والخمسون: سقوط الجمهورية
٦٠٩	الفصل الثامن والخمسون: إمارة أغسطس
٦١٩	الفصل التاسع والخمسون: الحضارة الرومانية بنهاية الجمهورية وإمارة أغسطس
	الفصل الستون: توطيد النظام الملكي. أسرة جوليو-كلوديين. الخلفاء المباشرين
٦٢٩	لأوغست ونضالهم ضد المخالفات الجمهورية
	الفصل الواحد والستون: الحرب الأهلية ٦٨-٦٩ وتوسع القاعدة
٦٤٧	الاجتماعية للامبراطورية. حكم أسرة فلافيان
٦٥٥	الفصل الثاني والستون: الامبراطورية في عهد الأنطونيين
	الفصل الثالث والستون: العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في
٦٦٥	القرن الثاني بعد الميلاد
٦٧١	الفصل الرابع والستون: الانحطاط الثقافي. ظهور المسيحية
	الفصل الخامس والستون: أزمة القرن الثالث والامبراطورية الرومانية بين علمي
٦٨٣	٢٣٥-٤٧٦ م

من منشورات د. علاء الدين التامري

* مغامرة العقل الأولى	* لغز عشتار
* الحدث التوراتي	* دين الإنسان
* آرام دمشق وإسرائيل	* جلجامش
* الأسطورة والمعنى	* التاو
* بدايات الحضارة	* الرحمن والشیطان
* سويداء سورية	* من هم الموحدون الدروز
* أضواء على الثورة السورية الكبرى	* العادات والتقاليد في محافظة السويداء
* السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين	* سلسلة الأساطير السورية
* صرح ومهد الحضارة السورية	* كليبواترا وعصرها
* المصادر التاريخية في الأندلس	* الفكر الإغريقي
* أميرات سوريات حكمن روما	* تاريخ اليابان
* الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى	* الحضارة بين النعمة والنفقة
* بيو غرافيا حية لمشاهير الحكام في العالم	* التراث من منظور مختلف
* أهم الغزوات في صفحات الإسلام الخالدة	* الاقتباس والجنس في التوراة
	* خالص مسرور

* أساطير في أصل النار ت يوسف شلب الشام
 * هل هبط آدم في القفقاس محمد عمر بخداي
 * الحضارات القديمة ت نسيم ولكيم الجازجي
 * الجنس في العالم القديم ت فائق دحدوح
 * الديانة الزرادشتية نوري إسماعيل
 * شريعة حمورابي ت أسامة سرامس
 * طقوس الجنس المقدس ت نهاد خياطة
 * موسوعة تاريخ القفقاس والجركس محمد جمال صادق ابه زاو
 * معجم الأساطير ت حنا عبود
 * صراع بين الحرية والاستبداد فارس الحناوي
 * تجارة الأسلحة في الخليج العربي رحيم كاظم محمد الهاشمي
 * الإثنولوجيا محمد الخطيب
 * الطريق إلى القيادة وتنمية الشخصية ت سالم العيسى
 * دراسات في المكتبة العربية التراثية عادل فريجات
 * الخيول الأصيلة في الصحراء العربية أحمد غسان سبانو
 * المعراج والرمز الصوفي د. نذير العظمة

* الأسطورة في بلاد الرافدين عبد الحميد محمد
 * إله الشمس الحمصي ت إيرينا داوود
 * البلدان النامية-مشكلات العلاقات الاقتصادية ت د ماجد علاء الدين
 * تاريخ القانون في العراق عبد الحكيم الننون
 * الديانة الفرعونية ت نهاد خياطة
 * دراسات حول الأكراد ت عهدي حاجي
 * الشركس في فجر التاريخ برزج سمكوغ
 * حدث ذات مرة في سورية سمير عبده
 * المسيحيون السوريون خلال ألفي عام سمير عبده
 * السريانية العربية سمير عبده
 * الإيديولوجية اليهودية مفيد عرنوق
 * تيارات الفلسفة الشرقية محمد حسن
 * دراسات في الفلسفة الأوروبية سليمان حسن
 * التشريعات البابلية عبد الحكيم الننون
 * العولمة والتبادل الإعلامي د صابر فلحوط
 * من أنساب العرب العاربة صالح هواش المسلط

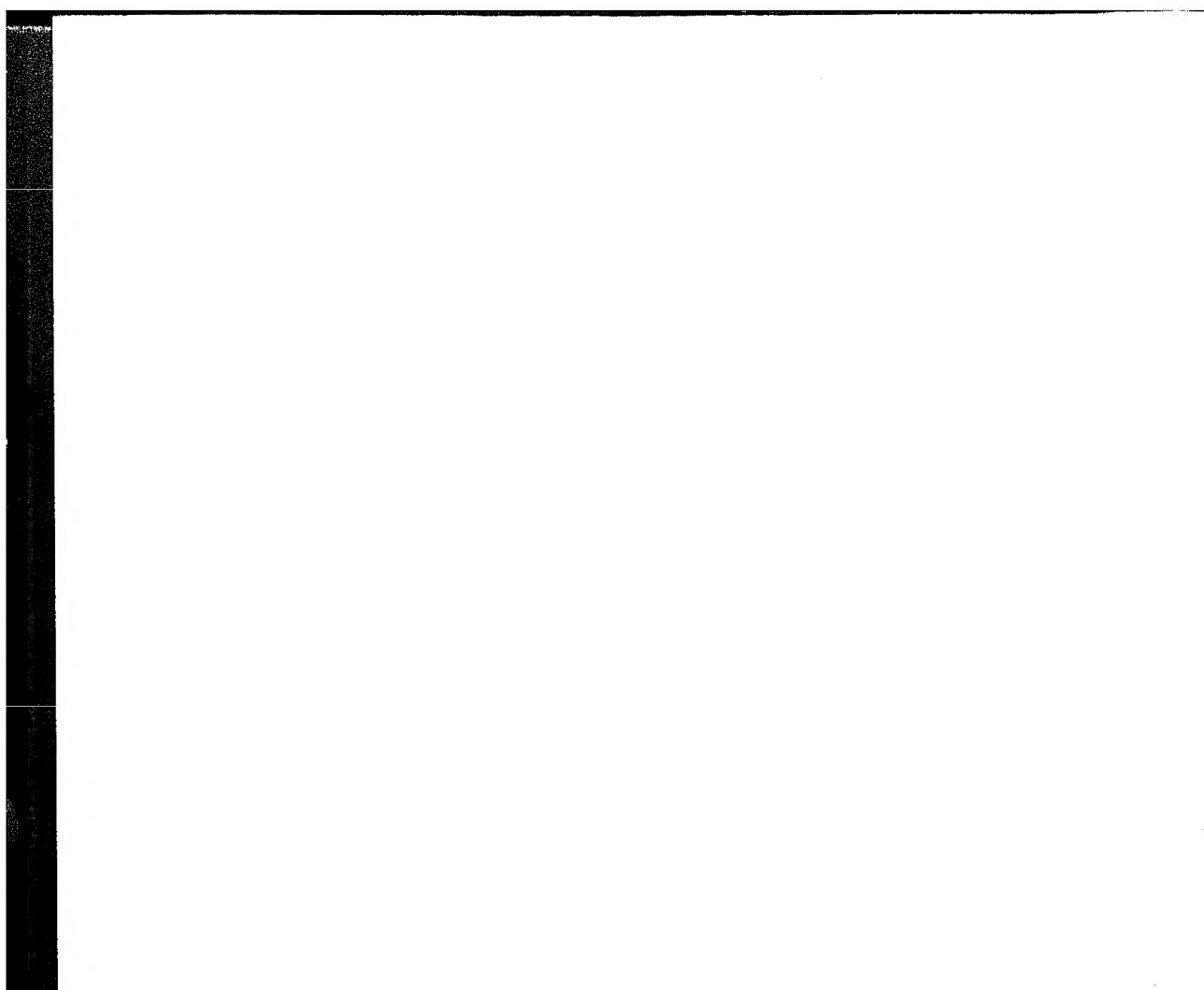


Figure 1. The effect of the concentration of the *Agrobacterium* suspension on the transformation efficiency of *Agrobacterium* strains. The concentration of the *Agrobacterium* suspension was 10⁶ cells/ml (A), 10⁷ cells/ml (B), 10⁸ cells/ml (C), and 10⁹ cells/ml (D). The concentration of the *Agrobacterium* suspension was 10⁶ cells/ml (A), 10⁷ cells/ml (B), 10⁸ cells/ml (C), and 10⁹ cells/ml (D). The concentration of the *Agrobacterium* suspension was 10⁶ cells/ml (A), 10⁷ cells/ml (B), 10⁸ cells/ml (C), and 10⁹ cells/ml (D).

هذا الكتاب

في الجزء الثاني من هذا الكتاب يزيدنا المؤلف غزارة علمية، وغنى معرفي إذ يلقي الضوء على الجانب الحضاري والصراع بين الطبقات المستغلة والمضطهدة بكونه العامل الأساس للتطور، ويتابع المؤلف خيط هذا الصراع صعوداً وهبوطاً عبر تلك الحضارات، ويرصد الثورات والتمردات ضد الظلم والاستبداد.

يبدأ هذا الصراع من حرب البلوبونيز حتى أزمة القرن الثالث والإمبراطورية الرومانية بين عامي ٢٣٥-٤٧٦ وما بينها من صعود حضارات وهبوط أخرى.

الكتاب ذو قيمة تاريخية واجتماعية وثقافية عليا لكل دارسي التاريخ والعلوم الإنسانية، ولكافة القراء

الناشر

Bibliotheca Alexandrina



0409471

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علماء الدين للنشر والتوزيع والترجمة

دمشق ص.ب ٣٠٥٩٨

هاتف : ٥٦١٧٠٧١

فاكس : ٥٦١٣٢٤١